نحو منهج إسلامي

دكتور حسن الشرقاوي
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

مطابع السفير بالاسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني

الإسكندرية

نحو منهج إسلامي

دكتور حسن الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الزاريات : ٥٦)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » (المائـــدة : ٤٤)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون » (المائـــدة : ٤٧)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون » (المائـــدة : ٤٥)

« لكـــل جعلنـــا منكـــم شرعـــة ومنهاجـــا » (المائـــدة : ٤٨)

مقدمـــــة :

أن القضية الكبرى التى نتعرض لها اليوم هى قضية المنهج الواجب الاتباع سواء كان فى مصر بخاصة والعالم الاسلامى بعامة فلقد أنبهر كثير من المتعلمين بالتقدم التكنولوجى فى العالم الغربى وارادوا أن يواكبوا هذا التقدم عن طريق المحاكاة والتقليد لما يقوم به الغربيون من استكشافات وانجازات علمية وطبيعية ، وزعم بعضهم أنه لابد من أن تأخذ لكل حسن تصل الى مرتبتهم فى التقدم التكنولوجى والعمرانى وغيره •

لقد نسى هؤلاء أن الغربيين أنما تقدموا فى مجالات العلوم المسخرة للانسان ، وذلك عن طريق الخطأ والصواب فخرجوا فى معاملهم ومصانعهم ومؤسساتهم وسعوا لحل المشكلات التى تقابلهم عن طريق الاختبـــارات والتجارب ويسرت لهم حكوماتهم اجراء تجاربهم وأغدقت على العاملين فى هذه المجالات المال والتقدير فنجحوا فى استنباط كثير من المستكشفات وأضافوا الى العلوم المسخرة أنواعا من المستحدثات التى جهلها الانسان من قبل •

ونحن لا نتشكك أن ذلك نوع من الجهاد والاجتهاد مطالب به الانسان فى سعيه فى الحياة الدنيا لكن العلوم المسخرة للانسان كالطبيعة والكمياء والطب والهندسة والصيدلة والعمران هى علوم يستطيع الانسان أن يسعى فى مناكبها ، ويتحصن على ما آراد الوصول اليه بعمله وعلمه لان الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه :

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض »

(لقمان : ٢٠)

فالعلوم المسخرة للانسان يمكن أن يسعى الانسان فيها ويحل ما يعترضه من اشكالات بفكرة الذاتي وعمله اليدوى ليستكشف ما أستغلق عليه ، ويتعرف على ما جهله وهذا يعد من قبيل علم السنن الكونية التى تحتاج الى البت والدراسة والتجربة لاستكشاف مجاهلها والتعرف على حقائقها •

لكن الانسان الغربى انبهر بمستكشفاته وأغتر بما حصله من العلوم المسخرة فاراد بمنهجه الذاتى وفكره العقلى أن يطبق المنهج العلمى على العلوم الحياتية مثل الاخلاق والتربية وعلم النفس والاقتصاد •

وتابعه فى ذلك كثير من المستغربين من الدول النامية بهدف التقدم فى مجالات العلوم المختلفة ، ونشأت لذلك نظريات تجريبية وضعية وحسية ووجودية وعلمانية وعقلية تستهدف تطبيق المنهج العلمى فى العلوم الحياتية والسلوكية والانسانية ، فنشأت نظريات فلسفية وتقانيين قانونية وأحكام تربوية ومبادىء أخلاقية تتعارض مع حكم الله ومع الفطرة السليمة والعقل الرشيد والنفس المستقيمة ولو كان الانسان يستطيع بعقله أن يصل الى قواعد وغايات وأصول العلوم الحياتية ما كان هناك داع الى أن يتنزل الله علينا بالانبياء والمرسلين وبكتبه السماوية التى تهدى الانسان الى المنهج والشرعة التى يجب أن يسير عليها الانسان فى حياته الحاضرة والمستقبلية •

« ولكل أمة منه جعلنا شرعة ومنهاجا »

فالله سبحانه وتعالى أرسل الينا الانبياء مبشرين ومنزرين ليعــرفوا الانسان ما هو الحق وما هو الباطل وما هو طريق الاستقامة والعدل ، وما هو طريق الانحراف والباطل فاذا أنتهج الانسان المنهج الذى رسمه الله للانسان فى القرآن الكريم لابتعد عن الاسراف والتقتير والافراط والتفريط سواء فيما يتعلق بالماديات أو الروحانيات ـــ وأعتدل أمره وسار فى الوسط العدل الذى يصلح للانسان فكرا أو سلوكا وتطبيقا •

أما اذا ابتعد الانسان عن منهج الله ورحمته فانه يقع فى الشطط وينزلق بعقله فى التناقضات المتشابهات ، والتأويل والتبرير والوسوسة والرياء واليأس ، ويصل الى الباب المسدود فلا يعرف فى آخر الامر أى الطريق الواجب الاتباع ، ولقد توصل كثير من المثقفين الغربيين الى هذه الحقيقة وعلموا أن الانسان بدون المعامل الايمانى لا يستطيع أن يتعــرف على حقائق الاشياء وأنه لكى يصل الانسان الى حقائق الامور لابد أن ينتهج النهج الالهى الرحمانى الربانى الذى يعرف الانسان بالسلوكيات الواجبة الاتباع فى الدنيا وفى الاخرة ، فالمنهج الغربى أنما يقسم بين الفلسفــة والدين وبين العلم والايمان ولم يستطيع أن يحل وحده مشاكل الانسان المعاصره ، وبذلك ازدادت هذه المشاكل بصورة رهيبة وتراكمت الامراض النفسية والبيولوجية تراكما خطيرا فى هذا العصر نتيجة لمحاولة تطبيق المنهج الخاص بالمسخرات على الانسان فضل سواء السبيل •

ان الاسلام هو صورة النهاية الخاتمة للرسالات السماوية وهو نور

وهداية وشفاء للقلوب الظامئة الى معرفة الله وهو العلاج الوحية لكل المشاكل والقضايا التى يعانى منها الانسان المعاصر .

ذلك فاننا نعرض للمنهج الاسلامى الخاص بالعلوم الحياتية عسى أن يكون شفيعا لنا يوم القيامة .

« والله ولى التوفيق »

منهـــج الاســـــلام :

يستمد المنهج الاسلامى [١] أصوله من الشريعة الالهية التى ترسم للانسان الطريق الواجب الاتباع فى الدنيا والاخرة •

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (المائدة : ٤٨)

لقد بعث تعالى لكل أمة من الامم التى نزل فيها أنبياؤه • شريعـــة ومنهاجا واضحا مستقيما • بمثابة السراج المنير والدليل الصادق حتى يمكنهم أن يهتدوا الى الحق ويسلموا من الضلالة •

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

(الاسراء : ١٥)

« ولقد بعثنا فى كـــل أمـــة رســـولا »

ولو شاء الله تعالى لجعل الناس أمة واحدة ذات مشارب واحدة • • وأفكار متوحدة وأخلاق متوافقة لا تختلف عليها مللهم ونحلهم ولا يتفرق خلقه تعالى شيعا وأحزابا [٢] ، ولكن الله لحكمته البالغة فى تنظيم هذا الكون ، وعلمه الواسع بخلقه ولعدله فى ملكه ودفعه الناس بعضهم ببعض لكيلا تفسد الارض أرسل للناس أنبيائه بالشرائــــع مبشرين ومنذرين ليختبرهم أيهم أحسن عملا وليبين المطيع منهم والعاصى والمخلص منهم والمرائى والصادق والكاذب فيجازى بالحق كل منهم بحسب عمله دون ظلـــــم •

« وما ربك بظلام للعبيد » (فصلت : ٤٦)

---

(١) نحـــو منهج علمى اسلامى •
(٢) محمد المبارك : ذاتية الاسلام •

ولقد ختم تعالى هذه الشرائع وتلك المناهج بالرسالة المحمدية وأبلغ رسوله محمد ﷺ ، بما يهم الناس معرفته عن رسله السابقين ، وما أختلف الناس فيه وما حرفوه من تلكم الشرائع وما تفرقوا اليه من فرق وأحزاب ونعرات وعصبيات وما أدعوه على الله من الكذب وما ألصقوه برسله من مفتريات ومزاعم وأكاذيب وأوضح تعالى للرسول الكريم محمد ﷺ ما أوكله بتبليغه وما نهاه عن أتباعه •

« ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » • (الجاثية : ١٨)

وقد بين تعالى لرسوله الكريم المنهج القويم والشريعة المثلى المبينة والدلائل الثابتة والحجج الدامغة ليبصر الناس بها ويرشدهم الى الهدى والدين الحق النهائى •

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »
(الصف : ٩)

لقد أوحى تعالى الى النبى الامى ان يبلغ منهاجه الى الناس كافة بلا تخصيص لطائفة دون أخرى أو أمة دون أمة ولا أن يميز فى دعوته بين عربى وأعجمى ولا أبيض وأسود ليعرف الناس كل الناس من أن شريعة الله الخاتمة للشرائع قد أوحى بها وأنه لا عذر لهم بعد اليوم فى التبشير والانذار •

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ : ٢٨)

وهذا المنهاج الاسلامى لم يغفل شيئا يهم الناس معرفته ، ولم تهمل آياته أن تزكى أيمان المؤمن وتثبت قلبه وتوقظ المشرك من غفلته وتدعوه

الى التوجيه ونبذ الغواية والضلال ولم يترك القرآن الكريم حجة على الله اذا أحصى كل شيء فى أمام مبين •

« لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (النساء : ١٦٥)

« وكل شيء أحصيناه فى أمـــام مبين » (يســن : ١٢)

لقد أوضح تعالى منهجه للناس غير محتاج الى عناء تفكير أو كثرة تأمل وتأميل اذ كل شيء خلقه بقدر فهذا الكون العريض الفسيح يسير بنظام فريد وأن الانسان يستطيع بما ركب فيه من مدركات حسية كالسمع والبصر والافئدة أن يدرك ما حوله من كائنات وأن يستشعر الدفء والجمال بمـا تؤديه لانعام له من منافع ، وما تشبع لحومها فيه من جوع وما تيسر له الفاكهة من شراب مختلف الالوان والطعم ، وما يأكله من البحار من أسماك فكل شيء فى هذا الكون له وظيفة محددة ورسالة معينة ولقد أوصى الله الانسان بعد أن أعطاه القدرة على الاختيار والتفضيل أن يعمل على أنتهاج الصراط المستقيم ولا ينحرف عن الفطرة السليمة كما أوصاه تعالى أن يؤدى حقه وأن يؤدى ما فرضه تعالى عليه من فرائض وتكاليف وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا وهذا مطالب عدل ورحمة وأحسان •

الباب الأول

المنهـــج الاســـلامى

الفصل الأول

بين لا اله ٠ ٠ ولا له الا الله

الاسلام أسلام الوجه لله والاسترسال معه تعالى ، وظاهرة السلام وباطنه الاستسلام لله ٠ ٠ والمسلم المؤمن حياته التوحيد ، والتوحيد رؤيا بصرية وقلبية ، وبالنفس والعقل والروح جميعا ٠

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »
(آل عمران : ١٨)

وشهود أن لا اله الا الله قمة التوحيد ، وثماره ، وباليقين فى الله تزداد فى قلب المؤمن السكينة ، وتثمره ذوى الخير ، وترعرع فى نفسه معانى الطاعة ، ويشرق صدره بنور الاخلاص ٠ ٠ فيحصد عمله فضلا وعلما ٠

ان لا اله الا الله هى الدرة الفريدة ، والجوهرة الوحيدة ، والمفتاح الذهبى لدخول المؤمن الى النعيم ، والتمتع بالامن والسلام ، والاقامة فى دار السكينة والخلد ٠

« هو الذى أنزل السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا أيمانا مع أيمانهم » (الفتح : ٤)

ان الايمان بأنه لا اله الا الله ، فتح للابواب المستغلقة ، وحل لكل المشاكل الحياتية المعقدة ، وفض لكل العوائق والسدود المحصنة ، فباسمه تعالى يعرف الانسان نفسه ، ويذكره بهديه الى حقيقته ، وبدعائه يستجيب الى رجائه ٠ ٠

فكيف يزعم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أن بعض الاشقياء من المشركين والضالين يصدقون فى القول ، ويتفانون فى العمل ، ويأتون أفعالا

---

(١) د٠ حسن الشرقاوى ، نحو الثقافة الاسلامية ٠

للخير ويساعدون المحتاج والفقير ، ويصلون الرحم ، ولا يضرون أحدا من الخلق • • ورغم ذلك والمسلمين يحكمون عليهم مسبقا بدخول النار • • ويصورنهم للناس على أنهم وحوش ضارية ، ونفوس أمارة ، وقلوب قاسية ويسلبونهم كل معنى جميل •

وهؤلاء المنافقون يواصلون هجومهم على الدين القيم والشريعـــة الغراء • ويدعمون هجومهم بحال المسلمين السيء • فى هذا العصر الخرب من تناحرهم وتصارعهم وتبطلهم وينتهون آخر الامر الى تساؤل خبيث :

هل يمكن أن يقال الان ان المسلمين سيدخلون الجنة ، وأن الكفار سيدخلون النار ؟

أننا اذا قسنا الامور بمقايسنا المادية وقيمنا الواقع بمدركاته الحسية ، وحكمنا على الاحداث بفكرنا المقلانى ، لوقعنا فى الريبة والشك والقنوط واليأس •

أما اذا أطعنا الله ورسوله وعملنا بما علمنا ، وصدقنا وأخلصنا بأن قضية الخلق انما تتعدد فى الكفر والايمان ، فى لا اله وفى « لا اله الا الله» ويدور حول هذه القضية كل شيء ، وبها يتقرر مصير كل أنسان على هذه الارض سواء جنة النعيم أو الى العذاب المقيم • •

ولا يهمه تعالى مفهومنا المادى عن التحضر ولا يحكم تعالى علـــى صلاحنا بتفوقنا التكنولوجى أو العسكرى ، ولا يميز فئة دون أخـــرى لمجرد احترامنا القانون الوضعى الظاهرى ، والنظام الاجتماعى الذى شرعه البشر من دون الله •

أن قضية أدعاء الربوبية والغرور والعجب بالنفس قضية قديمة وحديثة

فى آن واحد • فلقد تطاول فرعون على الله ، وادعى الالوهية ، وظن أنه مخلدا فى الارض ، وقال لقومه : أنا ربكم الاعلى •• كما ورد فى القصص القرآنى فى قول عز من قائل :

« وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب • أسباب
(غافر : ٣٦ ، ٣٧)

لقد أراد فرعون أن يستظهر قوته وأن يؤكد على جبروته وسطوته وقد جمع الله له — لحكمة — كل أسباب السلطة فى عصره ، وفتنه بالعدة والادوات التى يصنع منها ما يريد • • وأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا يتعالى فى السماء لكن هذا البناء لم يكن لعبادة الله ولم يكن ذلك التعمير من أجل لا اله الا الله وأنما كان تحديا للربوبية — وتعديا على خالقه وموجوده

تحدى الكافر واعتراضه على الله ، مشكلة أنسانية تظهر فى كل وقت وحين امهال الله للكافرين ، وتمكينهم فى الارض ، واظهارهم بمظهر القوة والحكم ليس • • لا فتنة لهم •

لقد هدم صرح فرعون بأمر الهى ، وأزيلت من الوجــود أمم ذات حضارات عظيمة وها هى الحضارة الغربية الحديثة ترفع شعار التحدى وتعترض على كلمة الله وتظن كما ظنت الامم الغابرة أنها مخلدة فى الارض وكأن قصة الجنة تتكرر فى العصر الحديث :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ، ما أظن أن تبيد هذه أبدا »
(الكهف : ٣٥)

ثم يقول له صاحبه المؤمن وهو يعظه :

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله »

(الكهف : ٣٩)

لكنه لم يفعل لغروره بالدنيا وطول أمله فيها وتحديه لله فكان انتقامه تعالى شديدا :

ان لا اله الا الله غاية كل شىء وهى هدف الحياة فى كل شىء ، وبدونها يفسد كل شىء • • أنها كلمة التوحيد التى من أجلها خلق كل شىء •

يختلف الناس فى تفهم « لا اله الا الله » فمنهم من يرددها بطريق المحاكاة والتقليد ، مقتديا بوالديه أو بمعلميه دون أن يتعمق معناها ويتعرف على مغزاها ويسلك فى اتباعها طريقه تعالى ، وانما يدفعه لقولها حسن الظن بمعلميه وما أكتسبه من العادات التى نشأ عليها وتربى فى ظلها

أما اذا تأمل معنى « لا اله الا الله » وعلم أنه لا خالق سواه ، فقد تقدم خطوة فى طريق الله — سبحانه وتعالى — وأقتنع قولا وفعلا أن لا اله الا الله ، وارتفع درجات فى باب المعرفة عن طريق التأمل وطول النظر •

ثم أنه اذا قال « لا اله الا الله » وأقنع بأن لا اله الا الله ، وصدق فى قوله وقناعته بأن لا اله الا الله توصل منه الى الله وفضلا الى الايمان وهنا يحظى المؤمن بالسكينة •

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » •

وفى هذا المقام ينعم عليه بالمبشرات وهى رؤى يراها المؤمن فتتحقق له ويفيض الله عليه بالنعم والمنن والعطايا والهبات — ويقترب ويؤمن ويشهد أن لا اله الا الله •

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

وفى الشهود وهو قمة التوحيد ، وذروة الاصطفاء ، يلهم ببعض المعارف الرحمانية وينال المنازل الرفيعة ويرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •

فاذا أنتقل نزل فى جنة النعيم ، ليلقى ربه راضيا مرضيا ، وقد أعد له فى مقام صدق ما أعد للمقربين ، كما وعد رب العالمين :

« على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما » • (الواقعة : ١٥ — ٢٦)

٢ ـ الربوبيــة والعبــودية

ـ شهود أن لا اله الا الله قمة التوحيد ، وثماره اليقين وباليقين فى الله تزداد فى قلب المؤمن السكينة وتعمره قوى الخير ، وترعرع فى نفسه معانى الطاعة ويشرق صدره بنور الاخلاص فيحض عمله فضلا وعلما .

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

(آل عمران : ١٨)

والاسلام هو أسلام الوجه لله والاسترسال معه تعالى ، وظاهـرة السلام وباطنه الاستسلام لله . . والمسلم المؤمن حياته التوحيد والتوحيد رؤيا بصرية وقلبية وبالنفس والروح جميعا [١] .

ان الايمان بأن لا اله الا الله فتح للابواب المستغلقة ، وحــل لكل المشاكل الحياتية المعقدة ، فبأسمه تعالى يعرف الانسان نفسه ويذكره ويهديه الى حقيقته وبدعائه يستجيب الى رجائه .

ونجد أن قضية ادعاء الربوبية والغرور والعجب بالنفس قضية قديمة وحديثة فى آن واحد . . فلقد تطاول فرعون على الله وادعى الالوهية ، وظن أنه مخلد فى الارض ، وقال لقومه أنا ربكم الاعلى .

« وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب . . اسباب السموات » (غافر : ٣٦ ـ ٣٧)

لقد آراد فرعون أن يستظهر قوته ، وان يؤكد على جبروته وسطوته . وقد جمع الله له ـ لحكمة ـ كل أسباب السلطة فى عصره ، وفتنه بالعدة

---

(١) د. حسن الشرقاوى ، نحو تربية اسلامية .

والادوات التى يصنع منها ما يريد .. وأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا يتعالى فى السماء ، لكن هذا البناء لم يكن لعبادة الله ، ولم يكن ذلك التعمير من أجل لا اله الا الله . . وانما كان تحديا للربوبية ، وتعديا على خالقه وموجوده .

لقد هدم صرح فرعون بأمر الهى ، وأزيلت من الوجـــود أمم ذات حضارات عظيمة ، ومحيت مدن يحكى لنا التاريخ روعة عمارتها وتقـدم حضارتها وتفوقها على غيرها فى الفنون والصناعات والعلوم ، ولقد أمر الله تعالى بازالتها من الوجود .

ويفيض القصص القرآنى بذكر هذه الامم ، وما أنتهت اليه من نهايات شقية وتعيسة كقوم نوح ولوط وعاد ، فقد مكنها الله فى الارض لكنها عصت أمر ربها ، وكفرت بأنبيائه ورسله . . وزعمت كذبا وظلما بأن لا الله ، الا ما كان يعبدونه من دون الله . . فحقت عليهم كلمة العـذاب فى الدنيا وفى الاخرة .

وها هى الحضارة الغربية الحديثة ترفع شعار التحدى . . وتعترض على كلمة الله ، وتسخر من أيمان المؤمن ، وتخلن كما ظنت الامم الغابرة أنها مخلدة فى الارض ، وأن ما أسطنعوه من اسباب التقدم العمرانى والتفوق التكنولوجى لن يبيد أبدا .

ان الاوروبى الملحد يعلن فى تبجح .

« لا اله والكون مادة » ، « ان الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ولا أثر للخالق » .

وهذا هو قول الغابرين فى الامم السابقة والتى دمرها الله تعالى تدميرا

فاذا أمهلهم تعالى لحين ، فلن يمهلهم فى كل حين ، واذا أعطاهم الدنيا فلا نصيب لهم فى الاخرة :

« ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الاخرة من نصيب »

(الشورى : ٢٠)

الموضوع هنا ليس موضوع حضارة مادية تقاس بالمظاهر وليس الرقى رقيا فى الملبس والمسكن والمأكل ، وأنما الرقى فى النفس المتطهرة ، الرقى يحسب بحسابات القربى من الله ، والخوف من وعيده والرجاء فى وعده ونصرة كلمة التوحيد . . ، والحضارة حضارة القلب السليم ، وثقافة العقل الرشيد ، وتقدم الانسان المؤمن فى معرفة الله والعمل بما يأمر والنهى عما حرم [١] .

لقد أغترت ملكة سبأ بملكها ، وأفتتنت بحضارة أمتها فنسيت أمر ربها ، وعبدت هى وشعبها الشمس ، كما ورد عن الهدهد فى قول عز من قائل :

« انى وجدت أمرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » .

(النمل : ٢٣ ، ٢٤)

ويبين الله تعالى لقوم سبأ أن كثرة المال والعدة والعتاد لا أهمية لها ، وأنه يبين ذلك كله فى لمح البصر ، وأظهر تعالى على يد نبيه سليمان عليه

---

(١) د . حسن الشرقاوى : نحو تربية اسلامية .

السلام بعضا من علمه ، فطلب سليمان عرشها ، فأتى به مؤمن قبل أن يتحرك جفن عينيه •

ان المسألة ليست فى نجاح أمة نجاحا دنيويا ، بقدر ما هى مسألة نجاح فى تجاوز ظلمة الجهل الى نور العلم وتفوق النفس على الشرك بالايمان وتقدم الانسان فى طريق لا اله الا الله •

ويختلف الناس فى تفهم « لا اله الا الله » فمنهم من يرددها بطريق المحاكاة والتقليد ، ولكن اذا تأمل معنى « لا اله الا الله » وعلم أنه لا خالق سواه ، فقد تقدم خطوة فى طريق الله — سبحانه وتعالى — واقتنع قولا وفعلا أن لا اله الا الله وارتفع درجات فى باب المعرفة عن طريق التأمل وطول النظر فاذا هداه الله الى ذلك توصل بمنه ومن الله وفضل الى الايمان بأن لا اله الا الله وهنا يحظى المؤمن بالسكينة •

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع أيمانهم » • (الفتح : ٤)

وفى هذا المقام ينعم عليه بالمبشرات وهى رؤى يراها المؤمن فقد حقق له ويفيض الله عليه بالنعم والمنن والعطايا والهبات حتى يصل الى ذروة الايمان • •

وفى الشهود وهو قمة التوحيـــد ، وذروة الاصطفاء تسرى فى قلبه وجسمه ونفسه جميعا أنوار الربوبية ويلهم ببعض المعارف الرحمانية وينال المنازل الرفيعة ويرى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر •

فاذا نزل فى جنة النعيم ليلقى ربه راضيا مرضيا •

قصــور العقــل الانســانى

والعقل الانسانى عاجز فى البداية والنهاية عن التعرف على حكم الله البالغة وحججه الدامغة ، ومهما عمل الانسان عقله لادراك كنه الاشياء ، ومعرفة ماهية الافعال وأسباب الابتلاءات والمحن والشدائد التى يمر بها كثير من الخلق فانه فى كلا الاحوال يفشل فشل ذريعا ويسقط احيانا فى اليأس والقنوط .

أما المفكرون والفلاسفة الذين أنتبهوا الى عجــز عقولهم عن تفهم الحقائق الكبرى ركبهم الشطط ، ووافقوا أهواء النفس وغواية الشيطان ، وزعموا ظلما وجهلا أن عقولهم هى أمامهم ، وان منطقهم العقلانى هو المعبر عن كل حقيقة ، وأنه هو الهادى الى سواء السبيل ، ولقد قادتهم عقولهم الجانحة وقلوبهم المظلمة ونفوسهم الظالمة الى التحــدى للقدرة الالهية والاعتراض على الحكمة الربانية والى بث الشرك والارتباك فى قلوب الخلق والعباد .

والتاريخ الانسانى يسطر لنا تلكم المواقف ، ويظهر لنا بوضوح عجز العقل الانسانى عن تفهم الحقائق الكونية المجردة وقصوره عن ادراك العلل والاسباب للافعال والاعمال .

ولقد نسى الضالون والمظللون ان العقل الانسانى موهبة أودعها الله فى الانسان لا ليتجبر بها أو ليغتر بقدراتها ، وأنما أودع الله فى الانسان موهبة العقل وهى جوهرة فريدة ودرة ثمينة ليحسن استعمالها فيتأمل بالعقل بديع خلق الله ويحكم به على فاسد الامور من صالحها بأمر الله ، ويتبع به

طريق الهداية ويتجنب به طريق الضلالة والغواية فيثبت على الحق قولا وفعلا وسلوكا ٠

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة »٠

(ابراهيم : ٢٧)

أما اذا استعمل العقل فى غير ما يسره الله له ، واعترض على المشيئة الالهية وطفق يرفع سيف التحدى والعصيان ، فان ذلك معناه أن هذا العقل يحمل فوق أم رأسه ما لا طاقة له به ، وكأنه ينطح برأسه حائطا صلدا صلبا، فيسقط حينذاك مغرقا فى دمائه صريعا فاقد الوعى ٠ ٠ قد خلع زينة الله التى زينه بها ٠

هكذا الامر بالنسبة للعقل الجانح ، فلقد تعدى حدوده وجـــاوز صلاحياته ونسى أمر الله وغفل وتغافل عن حكمته تعالى فاستحق الانتكاس والنكوص ، وانتهى به الامر الى الحسرة والضلال المبين ٠

المؤمن اذن يعرف حدوده فلا يتعداها ، يعرف أنه عبد وان الله تعالى هو الرب يعرف أنه عاجز فى البداية والنهاية عن ادراك الاسباب لانه تعالى خالقها وفاطرها وموجدها ، يعرف أنه ضعيف وان الله هو القوى على الحقيقة يعرف أنه محتاج وان الله تعالى الغنى عن العالمين ٠

على العقل الانسانى أن أراد النجاة أن يفوض أمره لله فيما يتجاوز حدوده وقدراته والا انزلق وسقط فى بئر سحيق وبعدها لا تقوم له قائمة أبـــــدا ٠

فرض العين وفرض الكفاية

روى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ وآله وسلم أنه قال « طلب العلم فريضة على كل مسلم »   (رواه أحمد فى العلل)

وهذا العلم هو علم معاملة العبد لربه ، والمعاملة التى كلفها سبحانه وتعالى على ثلاث أقسام • • أعتقاد ، وفعل وترك •

فاذا بلغ الصبى ،فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناها ، لان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اكتفى من اجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم الدليل فذلك فرض الوقت ثم يجب عليه النظر والاستدلال •

فاذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة ، فاذا عاش الى رمضان وجب عليه تعلم الصوم ، فان كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة وان جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسـك •

وأما النسوك بحسب ما يتجدد من الاحوال ، اذ لا يجب على الاعمى تعلم ما يحرم النظر اليه ، ولا على الابكم تعلم ما يحرم من الكلام فان كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير وجب عليه أن يعرف تحريم ذلـك •

وأما عن الاعتقادات : فيجب علمها بحسب الخواطر فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة وجب عليه تعلم ما يصل به الى ازالة الشك وان كان فى بلد قد كثرت فيه البدع ، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه

---

(١) المقدسى : مختصر منهاج القاصدين .

وذلك هو المراد بطلب العلم الذى هو فرض عين وما يتعين وجوبه على
وينبغى أن يتعلم الايمان بالبعث والجنة والنار .
الشخص .

أما فرض الكفاية : فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، كالطب اذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الابدان على الصحة . والحساب فانه ضرورى فى قسمة المواريث والوصايا وغيرها فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد واذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض على الباقين . فالطب والحساب من فروض الكفاية وأيضا أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة .

وقد يكون بعض العلوم مباحا ، كالعلم بالاشعار التى لا سخف فيها وتواريخ الاخبار وقد يكون بعضها مذموما . . كعلم السحر والطلمسات والتلبيسات ، فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة وتنقسم الى أصول وفروع ومقدمات ومتممات .

فالاصول كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجماع الامة وآثار الصحابة ، والفروع ما فهم من هذه الاصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره كما فهم من قوله : لا يقضى القاضى وهو غضبان « أنه لا يقضى جائعا » .

والمقدمات : هى التى تجرى مجرى الآلات ، كعلم النحو واللغة ، فانهما آله لعلم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

والمتممات : كعلم القراءات ومخارج الحروف وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم ، فهذه العلوم الشرعية وكلها محمودة .

المشيئـــة الالهية

يبدو لغير المؤمن بالله تعالى [1] أن امور هذا الكون يمكن أن تسير وفق هواه ــ ما دام حاصلا على العلل والمعلولات ويعلن بعض الملحدين أنهــم يستطيعون علميا وعمليا احداث ظاهرة معينة كان يقال عنها فيما مضى أنهامن بديع خلق الله ، ويؤكدون هؤلاء المنحرفون على قدرة الله أن بأمكانهم الوصول الى نتائج محددة ، وان فشلوا يزعمون أن هناك خطأ فى النظرية •

لقد غلا هؤلاء فى ظنونهم وجنحوا عن الحق بطيش عقولهم ، لقد صادف هؤلاء بعض النجاحات فيما يتعلق بالمادة ومستحدثاتها ، اذ أن المادة من المسخرات للانسان وقد تساوى المؤمن بالكافر فى الوصول الى نتائج محددة عند البحث فيها •

يقول عز وجل :

« الم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض »

(لقمان : ٢٠)

الا أن هؤلاء لم يقتصروا على هداية الله لهم المسخرات بل طمعوا فيما هو من أختصاص الخالق تعالى وحده فذهبــوا يطبقون مناهجهم المادية وتطبيقاتهم العملية فى مجالات العلوم التجريبية يطبقونها فى مجالات العلوم الحياتية كالاخلاق وعلم النفس والتربية ويشرعون من عند أنفسهم قوانين ونظما وقواعد ليست من الحق فى شىء •

أن هناك عللا بعيدة لا يمكنهم رؤيتها بعين واحدة ، وهى العين المادية

---

(١) د. حسن الشرقاوى : نحو تربية اسلامية .

العـــوراء ، وان أسبابا خفيـــة على عقولهم القاصرة لا يتحصلون عليها الا بالايمان بالله تعالى [٢] وأنهم مهما فعلوا واعملوا فكرهم • واجهدوا نفسهم ، واستعانوا بالاجهزة المستحدثة فانهم مع ذلك لن يصلوا الى تلك الاسباب البعيدة ، ولن يجدوا لما يحدث أمام أعينهم من احداث غير متوقعة تبريرا أو تفسيرا أو تأويلا •

أن هؤلاء الماديين يستبعدون فى ابحاثهم ودراستهم وتجاربهم مشيئة الله ، وينسبون كل نجاح الى أنفسهم ، ويعللون كل فشل بعلل واهية يخترعونها من عند أنفسهم ، وذلك لتبرير فشلهم ولتكبرهم وتجبرهم فى الارض ويغفلون ويتغافلون عن وجود خالق مدبر لهذا الكون ، بيده مفاتيح الغيب وبأمره تعالى يتحقق النجاح والفشل جميعا •

ان المشيئة الالهية هى التى تدبر شئون الكون على الحقيقة وتدبر نظامه وأنسجامه على أكمل وجه وأقوم حال ، وما الانسان الا مخلوق ضعيف لا يقدر على شىء الا اذا أراد تعالى •

« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا •• الا ان شاء الله »

(الكهف : ٢٣)

ولو ترك الله تعالى هذا الكون بلا سنن ، لظن بالله الظنون وما عبده من أحد ونزع الناس الى الفساد والافساد ، ولصدق الناس أصحـــاب الدعاوى الفاسدة والمذاهب الضالة ، الذين يزعمون أن الانسان مسلوب الارادة ، وأن السعى فى الدنيا خطيئة ، وان الدنيا سراب يحسبه الظمأن مـــاء لذلك يدعوا اصحاب تلك الفرق الضالة الناس الى الترهبن وحياة

---

(٢) للمزيد راجع « الحكومة الباطنية » د. حسن الشرقاوى .

التأمل ، ومحاولة التخلص من الكثافة الجسمية حتى تخلص لهم الروح ، وتنطلق من سجنها البدنى وتعيش حياة السعادة الحقة .

وهؤلاء أيضا قد خرجوا عن أمر الله وحاولوا أن يضعوا للانسان تشريعا جديدا ، فغرقوا فى لجى من الخيالات والاوهام ، وعاشوا حياة التبطل والسلبية والاستكانة ، ونسى هؤلاء ان الله تعالى خلق الجسم ليؤدى وظيفة كما خلق الروح لتؤدى وظيفة ، وما النفس الانسانية الا جماع الروح والجسم ولا تصلح بدونهما ولا يستقيم حالها الا بهما (١) .

ومن ناحية أخرى يغلو أصحاب المادية فى ماديتهم ويجعلون الجسم هو كل شىء ويذكرون الروح ويعتبرونها كالنغم الذى تؤديه الالة الموسيقية ، ويقصدون بها الجسم ، وبذلك يسلمون قيادهم للاهواء الشخصية ، والمنافع الذاتية ، وينسون ويتناسون خالقهم وخاطرهم وموحدهم تعالى ويتحررون من كل قيد وينسلخون من كل شريعة سماوية ، ويهدمون كل فكر أيمانى ويتركون لعقولهم الفارغة التحكم فى أمر الانسان واغترار بقدرتهم فى حل طلاسم الوجود والادعاء بالباطل أنهم بسبيل الوصول الى الحقائق النهائية فى تفسير سر الوجود ، دون حاجة الى خالق أو مدبر لهذا الكون ، ثم يعلنون فى تبجح أنهم قد توصلوا الى حقائق نهائية ونتائج يقينية ..

أن العلم الحديث لم يستطع أن يكتشف فى الحقيقة ، من السنن الكونية

---

(١) الروح لابن القيم .

الا نسبة ضئيلة جدا لا تتعدى ٣ ٪ — فكيف يزعم هؤلاء أنه بمقدورهم أن يتعرفوا على الحقائق ويجزموا بمقدرتهم على كشف حقائق الوثائق وينتهى هؤلاء الى الاغترارا والتطاول على الله تعالى فيدعون أنه « لا اله والكون مــــادة » •

واذا كانت حكم الله ومشيئته أن تكون الارض مكانا صالحا لســكن الانسان وأقامته لذلك سن بعدله سننا ونواميس ونظاما كونيا يتوافق مــع طبيعة ذلك المخلوق الذى استخلفه فى الارض ، الا أن هذا النظام وتلك السنن خاضعة لامره تعالى مرتبطة بمشيئته مسبحة له على الدوام مطيعة له على الاستمرار •

فالمشيئة الالهية مهيمنة على تلك الســنن التى يسعى الانســان لاستكشافها واذا ما توصل الانسان الى التعرف على بعض حججه البالغة ، وسننه المعجزة فانه لم يتم ذلك الا بالمشيئة الالهية •

ان المشيئة الالهية هى النافذة فى الاولى والآخرة ولو علم الانسان ذلك وطبقه على نفسه وعلى غيره لاراح واستراح •

والمشيئة الالهية مناصرة للعمل الصالح مقرونة بالخير موافقة للصلاح والاصلاح فتقديم المشيئة هى النعمة بعينها التى أنعم الله بها على الناس •

الفصل الثانى

١ ـ المنهج الرأسى والافقى

ان ربط الاخلاق بالمعاملات وربط المعاملات بالاحكام هو هدف التربية الاســـــلامية [1] .

فالمعاملات ان لم تقم بطريقة شرعية فهى محرمة ومستكرهة فالاساس فى التشريع الاسلامى التركيز على الاخـــلاق ، ومن الاخـــلاق تنبعث كل المعاملات فاذا لم يقتدى الانسان بشريعة الله وسنة رسوله فلا يعول على علمه أو ماله ونجاحه فى الحياة الدنيا .

لذلك فان منهج التربية القرآنية يركز على الاهتمام بالايثار ، والاخوة والمساواة ، دون النظر الى المراكز الاجتماعية أو الثراء المالى أو السلطان .

فالقياس بين منهج التربية الاسلامية ومناهج التربية الغربية جد مختلف ذلك لان تلكم المناهج تفصل بين روح الانسان وبدنه ، وبين دنياه وآخرته فتركز على النجاحات المؤقتة فى الحياة الدنيا دون الاهتمام بربط ذلك النجاح بالاخلاق ، ولكن الاسلام يركز على الانسان كروح ومادة .

ولذلك نجد الحضارة الغربية متقدمة تماما فى النواحى المادية بعامة والتكنولوجية بخاصة الا انها من ناحية متأخرة تماما فيما يتعلق بتربية النفس والاخلاق .

وذلك لان مناهج التربية الغربية قد وضعت عن طريق العقل وحده والعقل قاصر وعاجز عن تشريع القوانين والمناهج التى تختص بالعلوم الحياتية ، فيقع فى الخلط والالتباس ، وان كان العقل يستطيع أن يشرع

---

(١) د. حسن الشرقاوى : نحو تربية اسلامية .

نظريات حياتية تقود الانسان الى الطريق الصحيح لما أنزل الله سبحانه الاشياء والكتب المقدسة لتهدى البشرية الى الطريق الحق والحقيقة ٠

ونحن لم نجد الى الآن نظرية وضعية للعلوم الحياتية صحيحة من الفلاسفة والمفكرين والعلمانيين ، ذلك لان العقل الانسانى عاجز فى البداية والنهاية عن أدراك كنه الاشياء ، فما بال النظريات الحياتية التى تختص بالمعاملات والاحكام والاخلاق والتشريعات ٠

وهذه النظريات الوضعية هى نظريات ذاتية نابعة من التفكير الذاتى الجزئى الظنى الخاضع للخطأ والصواب والتغيير ٠

فلا بد أذن أن نستمد النظريات الحياتية والاخلاقية والتشريعات من النبع الذى لا ينضب والذى لا يقبل الخطأ والتغيير ، ويتصف باليقين وهو الفكر الرأسى وهو « لا اله الا الله » وهو فكر كلى فنستمد منه كل ما نحتاجه فى حياتنا ونطبقه فى كل مكان وزمان بفكر أفقى ٠

انه بدون « لا اله الا الله » يفسد كل شىء مهما ظهرت لنا صور من الصلاح الظاهرى ، وبدون لا اله الا الله لفسد كل شىء مهما تمتعنا متاعا زائلا ، اذ لا طعم ولا معنى وبدون « لا اله الا الله » نعيش حياة الخوف والفزع والرعب واليأس والقنوط مهما ظهر للعيان من تفوق حضارى ، وتقدم تكنولوجى ونجاح مادى ٠

الوسط العدل

ان الاساس الذى تستهدفه أحكام الشريعة السلامية ، فى تطبيقاتها على جميع الانشطة الانسانية ، العلمية والعملية الادبية والفنية ٠٠ هو تحقيق الوسط العدل ٠٠

والوسط العدل ليس وسطا حسابيا أو معياريا أو تقريريا •• وأنما هو أعتدال وقسط لاقامة الحق والصدق •

وبهذا المعنى وردت الايات القرآنية الكريمة ، لتحث الانسان على اتباع الصراط المستقيم — الذى هو الخير الفاضل ••

فالوسط العدل طريق عدل ضد الانحراف •• والسلبية والظلم •• والسفه •• وهو مفتاح الصحة النفسية الا أنه تقويم •• واصلاح واقامة ضد السقوط ليكون الشيء معتدلا وقائما ومقسوطا لما استهدف الدين •• بل متضمنا الامن والصحة والسمة •• كما ورد فى قوله تعالى :

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا •• ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »
(الفرقان : ٦٧)

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الاسراء : ٢٩)

« وأن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » (المائدة : ٤٢)

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الاعراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » (القلم : ٢٨)

فالوسط العدل اذن ••• صالح للتطبيق فى الزمان والمكان ••• لانه شريعة الله للناس ••• وليس مذهبا اجتهاديا ••• أو فكرا عقلانيا ••• أو نظرية مثالية ••• أنما هو خير فاضل ، يفصل بين طريق الحق والضلالة ••

---

(١) راجع : نحو ثقافة اسلامية .

ويبين الحلال والحرام ويحض على الامر بالمعروف ••• والنهى عن المنكر ، ظاهرا وباطنا ••• قلبا وقالبا شكلا وموضوعا •

وشخصية الحكيم •• هى شخصية مستقيمة ومتوازنة تخالف دوافع النفس الغريزية ، وتتحكم فى القوى الغضبية والشهونية عن طريق محاكاة القوى الربانية ، فنرى أن الشجاعة ليست فى غلبة الخصوم ، وانما الشجاعة فى كظم الغيظ مع القدرة على الاعتداء •

وليس هذا الوسط الذى يطبقه الحكيم وسطا حسابيا أو ماديا •• أنما هو عدل مأخوذ عن العدل الالهى ، ومعرفة مستقاة من العلم الربانى •

والصوفية لا يفلح زهد العبد فى رأيهم وهو لا يصبر ولا يشكر •

والزهد كما يراه الامام الغزالى ، هو كمال الابرار لانه كراهية الدنيا وشغل عنها بالآخرة فهو نقض فى الدنيا وغنى فى الآخرة •

أما الجنيد فانه يرى أن الزهد خلو الايدى من الاملاك والقلوب من التتبع ويقصد الجنيد بالسخاء والجود وبذل الانسان ما يملكه أى ما يمتلك الانسان من أموال وأملاك كما أنه يقصد به عدم النظر بالقلب الى أملاك الناس وأشيائهم • فهو يعنى عدم المبالاة بالدنيا أو عدم الاهتمام بمن ملك فيها سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن •

٤ — التسلسل فى الفاعلين

تخطر لكثير من الناس فى باطنهم خواطر نفسية تأتى فى شكل تساؤلات ! ! يتساءلون فيها مع أنفسهم دون أن يفصحوا لاحد عنها ، الامر الذى ربما يشغلهم ويصيبهم بالهم والغم والكرب الشديد ، فيساءلون فى

باطنهم مثلا : هذا هو الله قد خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ وربما لا يفصح من يزاحم عقله هذا التساؤل عن حقيقة ما يهجم على قلبه أو يخاف أن يحكيه لاحد خوفا من أتهامه بالفكر أو الزندقة ، لكنه اذا تقاعس عند فع هذا الخطر عن نفسه فربمايلازمه هذا الخطر ملازمة الظل حتى يقع آخر الامر صريع المرض ويصاب بالعطب والتلف •

لذلك يفضل أن يقاوم الانسان هذا الخطر الشيطانى متى وجد الى ذلك سبيلا ، وعليه أن يستعين بالله من تصديقا لقول عز من قائل :

« واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله أنه سميع عليم »

ان ما يحدث للانســان من تساؤلات من هذا النــوع هى وساوس لا يستطيع منها فكاكا ، أو هروبا كما لا يستطيع الاجابة عليها لانها من وسوسة الشيطان الذى يدخل بها على قلب الانسان محاولا أن يفسد أيمانه ونفسه وعقله جميعا ولربما يكون هذا الشيطان من الانس وهو يرى عيانا ويظهر فى صورة صديق سوء أو رفيق طريق ، أو زميل عمل ، ثم هناك نوع آخر من شياطين الجن لا يرى •

أما بالنسبة لشيطان الانس فانه يكتفى بالاعراض عنه ودفعه عن نفسه بالتى هى أحسن والعفو عما صدر منه من بلبلة للقلوب وترك أمره لله •

وأماشيطان الجن فيتوجب على الانسان أن يستعذ بالله منه حتى ينتصر على غوايته ويدفعه بعيدا عنه خاسئا محصورا •

ولقد جمع الله تعالى بين النوعين أن شياطين الانس والجن ، وذلك فى كتابه العزيز فى سورة الاعراف وسورة فصلت وسورة المؤمنين •

لقد تقابل الصاحبى الجليل أبن عباس رضى اللهعنه مع ابى زميل (١) فشكى له وجود بعض الخواطر التى تحاصره والتى لا يجد لها جوابا :

فقال له أبو زميل : شيء أجده فى صدرى •

ابن عباس : ما هو ؟

أبو زيمـــل : والله لا أتكلم به

أبن عباس : أشيء من شك

أبو زيمـــل : بلــــى

ابن عباس : ما نجا من ذلك أحد ثم أستطرد قائلا

« اذا وجدت فى نفسك شيئا من ذلك ، فقل هو الاول والاخر ، والظاهر والباطل وهو بكل شيء عليم » •

ولا شك أن ذلك الخاطر نوعا من الوسوسة التى هدفها بذر الشك فى قلب العبد من جهة الله ، لذلك فان ما أوصى به ابن عباس هو العلاج الناجح للوسوسة ، ذلك بارشاد الموسوس بهذه الاية الكريمة الى بطلان التسلسل الباطنى ، اى الذى يتسلسل مع الانسان من أن الله خلق الخلق فمن خلق الله وهذا الحل يعتمد على أستخدام ملكة العقل ومعرفة أن سلسلة المخلوقات انما فى ابتداء أمرهما تنتهى الى أول ليس قبله شيء • كما تنتهى فى آخرها الى آخر ليس بعده شيء ، كما أن ظهوره تعالى هو العلو الذى ليس فوقه شيء ، ولو كان قبله شيء لكان مؤثر فيه ، وما كان هو الرب الخلاق ، فلابد أذن أن ينتهى الامر الى خالق غير مخلوق غنى عن غيره وغيره فقير اليه فهو الاول

الذى قبل كل شيء والاخر الذى ليس بعـده أى شيء والظاهر الذى ليس دونه شيء والباطن الذى ليس دونه شيء .

وسبب ورود تلك الوساوس على النفس أن الانسان من ذرية آدم عليه السلام وخليفته فى الارض ، ولقد أغوى الشيطان آدم من قبل كما تاب آدم بعد ما غوى لكن الشيطان ما يزال يغوى الانسان ، ففى الانسان اذن كما يروى عبد الله بن مسعود ملك موكل بقلبه ، وهذا الملك به لمسة أى مس كما أن للشيطان لمسة أيضا فلمسة الملك وعد الانسان بالخير والنعيم والتصديق بالحق ، ورجاء فى وعد الله له بالجنة ، وأما لمسـة الشيطـان (أو مس الشيطان) فانه تكذيب بالحق وقنوط من الخير ، وايعاذ بالشر ، فاذا وجد الانسان على قلبه لمسة الملك حمد الله على ذلك وسأله من فضله ، فأما اذا وجد لمسة الشيطان (أو مس الشيطان) فعليه ان يستعيذ بالله منه ويستغفر الله ، وهناك شيطان يقال له (خترب) يحول بين المرء وصلاته وقراءته للقرآن فاذا شعر به الانسان واصل بنفوذه الى قلبه فعليه أن يتعوذ بالله منه وأن يتفل عن يساره ثلاثا حتى يرجع عنه الشيطان خاسئا محصورا .

ويروى عن بعض الصحابة أن أحدهم وجد فى نفسه ممـا أن أخفاه أحب اليه من أن يتكلم به أى كتمانه أفضل من التصريح به أو الجهر بمـا يحس به والتى يوسوس بها الشيطان فى صدر الانسان متسللا اليه فى زمه الغفلة أو النسيان أو البعد عن الله بعدم الذكر له تعالى ، وهنا يتسلسل فى غوايته مسلما أن الله خالق الخلق فمن خلق الله ؟ وعندما يوسوس الشيطان الى الانسان بهذا المعنى ويتوقف الانسان عن متابعته وموافقته ذلك بعدم

الجهر بما يوسوس اليه به وما يتسلل به الى قلبه ، فهذا معناه أن الشيطان لم ينجح فى غوايته ، وأنه قد اقتصر كيده على الوسوسة ، فاذا استعاذ الانسان بالله منه ، كان ذلك أبلغ شيء فى دفع أمر ابليس اللعين عن قلب الانسان ، فقد تخلى تماما عما يشغله بغير الله ، وتحلى كلية بما يقربه من الله وذلك بالذكر الدائم والاستعاذة به من الشيطان الرجيم ، وكأن الانسان قد أدرك من هذا التسلسل الذى أراد به عدوه ابليس اللعين أو يوقعه فى شراك الاعتراض والشرك أدرك أولا انه عدوه مصدقا لقوله عز من قائل :

« انا لشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » (فاطر : ٦)

ثم أدرك ثانيا أن الشيطان يهدف بما يبث به فى صدره من أفكار تسلطية أن يجبره على سلوك معين يتنافى مع العقل الرشيد والفطرة السليمة وهو يدفع اليه بتسلسل غير معقول فى مسألة الخلق فيقذف بهذا التساؤل الذى يمكن تصويره على الوجه التالى :

« لو سلمنا جدلا بأن الله هو الذى خلق الخلق فمن هو اذن ذلك الخالق الذى خلق الله ؟ فاذا لم يدرك الانسان هذا التسلسل الخبيث فانه يقع فى التخبط والتخبيط ويسقط فى براثن الضلال بعد أن ينهكه اليأس والقنوط وهذا هو هدف ابليس اللعين ، أن يضله باستخدام منطق الجدل اللفظى العقيم فيصده عن ذكر الله ويشككه فيما حوله حيث لا يستطيع أن يجيب عما أوغر صدره به من وساوس •

وهناك من أصحاب النظر والمتفلسفين الذين يهتمون بالجدل والمناظرة من يقعون فى هذا الخلط وهو ما يسمى بتلبيس ابليس فيتسلسلون من فعل الى فعل ومن معنى الى معنى حتى تتشتت عقولهم وتتفرق بهم السبل

فيضلون فى آخر الامر ويتملكهم اليأس والقنوط فينكرون حقيقة الدين ، ويصدون عن ذكر الله ، ويصبحون أنصار وأولياء لعدو الله والناس •

ثم أنهم يفتنون الناس ويدعونهم الى الاباحة والفسق والفجـور ، ويأمرون بالفساد فيحرمون الحلال ويبيحون الحرام ويجعلون من الخير شر ومن الشر خيرا •• وينتهى بهم الامر الى الظلم الشديد ويفتقدون رحمة الله فيعيشون حياة الغم والكرب الشديد ويقذفون الى المصحات العقليـة طلبا للعلاج •• أو يلقون بأنفسهم الى التهلكة طلبا للمـوت حتى يموتون كفارا كما عاشوا كفارا •• وهذا هو هدف ابليس من بنى آدم •

« قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين » (ص : ٨٢)

ان صاحب الفطرة السليمة يكتشف الغواية ويفطن الى تسلل الشيطان الى قلبه بخواطر ووساوس فى صورة تساؤلات وهو يكتشفها عندما يمتحنها على ميزان الشريعة فيجدها فكرا شاذا وظنـونا خبيثة تستهـدف الاثم والفسوق والعصيان فيقتلع جذورها من نفسه فلا تستطيع أن تسلل اليـه ولا تجرؤ أن تعشش داخله لتجعل حياته هما وغما •• وبذلك يتوقف ذلك التسلل الشيطانى ما دام فى قلبه لا اله الا الله الاول والاخـر والظاهـر والباطن •

٥ ــ الطب الوقائى والطب العلاجى

ان الله خلق الاضداد لحكمة ، وجعل الدفع للناس بعضهم ببعض لكى تعمر الارض ، وتنصلح النفس والبدن جميعا ، فالاضداد تظهر حكمة الله البالغة وحججه الدامغة ، واتقانه لصنعته وتفـرده بالوحدانية والقهـر والربوبية •

فاذا كان الله صمدا أحدا لا يتغير ، فان المخلوقات أبدا متغيرة لها ما يمانعها ويضادها ، فهى تحتاج دوما الى عونه تعالى فهو الغنى بذاته وكل ما سواه محتاج اليه .. لذا أوصى الله تعالى عباده بطاعته والعمل بأوامره وأقتضت مشيئته أن يكون هناك المرض والصحة ، الداء والدواء ، حتى يكون الانسان دائما فى طلب عون الله ورحمته يقول الرسول ﷺ .

« تداووا . فان الله عز وجل لم يضع داء ، الا ووضع له شفاء ... غير داء واحد قالوا ما هو ؟ قال : الهـــرم »

(رواه أبو داود وابن ماجة وغيرهم)

القاعدة الاسلامية اذن فى العلاج النفسى والبـــدنى ، ان الله تعالى ما أنزل من داء الا وله شفاء ، لكن ربما يعلمه البعض ، ويجهله البعض أو يعلم فى وقت ولا يعلم فى وقت . يكتشف فى زمن ولا يكتشف فى آخر وذلك من حكمة الله ...

ولو كان كل داء معروف أعراضه وأوصافه وعلاجه ، ما كان هناك من حاجة الى الاطباء ، اذ تنمحى الامراض المستعصية على العلاج ، ويتوقف البحث والدرس ، ولا يسعى العلماء الى الكشف وأستجـــلاء الحقائق ويتقاعس الناس عن مواصلة التحليل العلمى واجراء التجارب .. اذ ليس هناك من داع لذلك ... وسيكون من نتيجة ذلك الفســاد والافســاد فى الارض .

ولا يقتصر الطب الاسلامى بشقيه النفسى والبدنى على الناحية العلاجية

---

(١) للمزيد : الطب النبوى . ص ٧٤ تحقيق د. عبــد المعطى قلعجى — دار الـــتراث .

واستكشاف الدواء الملائم لكل مرض من الامراض ، بل يتعــدى ذلك الى الطب الوقائى الذى يمنع حدوث المرض ، ويقف حائلا دون وصول المرض الى النفس أو الجسم •

فالطب الوقائى يتعلق بالنفس كما يتعلق بالبدن ، فاذا قال تعالى :

« ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر »

(البقرة : ١٨٤)

فقد أباح الله الفطر للمسافر كما أباحه للمريض وذلك وقاية لنفسه وبدنه فى آن واحد •••

فمن جهة الوقاية النفسية فان فى السفر اجهاد وتعب اذ هو قطعة من العذاب ، فاذا كان المسافر صائما فان ذلك يزيد من تعبه وارهاقه الامر الذى يشعره بأن الصوم قد فرض لتعذيبه واشقائه وارهاقه ••• لذلك فان الله يسر للانسان الافطار فى حالة السفر وقاية لنفسه وبدنه جميعا •• من الاعتراض والتحدى أو اللوم لله من ناحية ، والالم والتعب والوجع البدنى من ناحية أخــرى •

وأما فى حالة المرض ، فان المريض اذ يعانى من الالام والاوجاع التى تفقده لذة الصوم الذى هو نوع من العبادة ، ويصبح الصوم ألما ووجعا فوق وجعه وهذا لم يستهدفه تعالى من حقيقة الدين • لذلك يسر للمريض الافطار حتى يهم بمعالجة نفسه بالاغذية والعقاقير ليشفى من مرضه فاذا كتب له الشفاء فعليه أن يعوض من أيام مرضه ، فيصومها ، وهذا مقتضى الحكمة وتيسير من الله على عبــاده ووقاية من الزمت والعنت والحصر النفسى •

والطب النفسى الوقائى يتناول نواحى الحياة المختلفة ، فلا يترك تعالى وقاية للنفس أو البدن الا وأشار اليها ، وأوصى عباده بها ، مثل البعد عن المحرمات والشهوات ، والتقاء الربا والزنا وذلك بالتقوى والورع •

وفى زكاة النفس بالمال ، وقاية لها من الحرص والشر ،والاغترار والطمع والبخل والتغيير ورجوع بها الى الاعتدال والتوسط والتوازن •

وحماية النفس من الوصول الى العدوان وذلك باستخدام وسائل متعددة ككظم الغيظ والعفو والاحسان وبذلك يصبح الصبر بالمعنى الاسلامى طبا وقائيا كما هو أيضا طبا علاجيا •

فاذا أمر الرسول ﷺ المسلم أن يعتدل المسلم فى أمر غذائه فلا يسرف فى الطعام والشراب ، فانه ﷺ قصد بذلك ، أن يدفع عن المسلم الامراض النفسية والبدنية :

« ما ملأ ادمى وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبة ، فان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لسرابه ، وثلث لنفسه »

(أخرجه أحمد وابن ماجه)

ان هذ االحديث الطبى النفسى البدنى ، يبين الطريق الذى يقى به الانسان نفسه من الوصول الى الامراض ، انه وقاية للجسم والنفس من دخول الاعراض المرضية اليهما •

فالزيادة فى القدر الذى يحتاج اليه الجسم من الطعام ، وتناول الاغذية العديمة النفع والبطيئة الهضم كلحم الخنزير وملأ الانسان بطنه منها واعتاد

---

(١) راجع الطب النبوى ، ص ٨٢ .

على ذلك أورثته أمراضا متنوعة منها بطيء الزوال ومنها سريع الزوال (٢) .

وأما اذا كان الانسان معتدلا فى غذائه ، ونتاول على قدر حاجته وابتعد عن الاطعمة والمشروبات الخبيثة وغير النافعة وبطيئة الهضم ، كان أنتفاع جسمه بها أكثر وصحته أفضل .

وتأثير الاكثار من الطعام على النفس أدهى وأمر ، فان كثرته تولد فى النفس الكرب والتعب وضيق النفس ويصبح هذا البطن يمشى محملا فحمل ثقيل ، وهذا بدوره يفسد على قلبه النقاء والصفاء ، بالاضافة الى التكاسل والغفلة وتأدية الطاعات وتحريك جوارحه نحو الشهوادت التى تلزم عن الشـــــبع .

وأن فى أقامة الصلاة وصوم رمضان وايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والحج الى بيت الله ، وقاية الانسانية من الوقـــوع فى الامراض المتنوعة والتى منها ما هو البطيء الزوال والتى منها ما هو سريع الزوال .

وهذه الامراض اذا هاجمت جسم الانسان الذى يقصر فى الفوائض والتكاليف الشرعية ــ هذه الامراض تتطلب علاجا ضروريا ويتم بالاضداد ، فاذا قصر فى صلاته أو صيامه أو زكاته عليه أن يعالج نفسه باستيفاء حقوق الله قبله من صلاة أو صوم أو زكاة أو حج ... فاذا تمادى فى غيه وأصر على هجره لحقوق الله ، وفضل التمرغ فى أوحال الشهوات وطلب موافقة

---

(٢) نفس المرجـــع الســـابق .

الاهواء ، واستمرأ تعدى ما أمره الله به وأسرف فى أمره ، تراكمت عليه الامراض وحيل بينه وبين الصحة النفسية والبدنية جميعا •

ان الهدى النبوى بشقيه الوقائى والعلاجى يتعين أن يكون الانموذج الذى يقتدى به للصحة النفسية والبدنية •

الباب الثانى

العلــــوم فى القـــرآن

الفصل الأول

١ ـ العلوم الحياتية والعلوم المسخرة

يظن الكثير من العلمانيين أمكان أخضاع العلوم الحياتية الى المنهج العلمى الحديث فيتعاملون مع علوم الاخلاق والتربية والنفس والتشريع مثلما يتعاملون مع الكمياء والفزياء والميكانيكا ، ويظنون أنهم يستطيعون تشريع القوانين والعلوم الحياتية ، ولكن ذلك عمل خطأ ، فالعقل الانسانى قاصر فى البداية والنهاية على أدراك الحقائق وكنه الاشياء فكيف يستطيع أن يشرع نظريات فى العلوم الحياتية •

ولكن الله سبحانه وتعالى وضع لنا منهج تخضع له العلوم الحياتية بحيث تثرى معارفنا وتزداد يقينا ، وهذا هو المنهج الواجب الاتباع •

أما العلوم الاخرى فلقد جعلها الله مسخرة لنا فنبحث ونكتشف ونركب ونحلل ونضع المناهج للبحث عن هذه العلوم المسخرة المادية التى نحسها ونلمسها ، أما العلوم الحياتية فلقد أنعم الله سبحانه وتعالى علينا بالمنهج الاسلامى الذى نسير عليه فترقى نفوسنا ونسلم من الوقوع فى الانحراف والضلال ونسلم فى الدنيا والاخرة •

والعلوم الحياتية تخضع لمصدرين أساسين :

المصدر الرأسى •• وفيه تستقر هذه العلوم مسلماتها ومبادئهـــا الاساسية من التشريع الالهى وهو لا ينطق عن الهوى ، فمن أصدق من الله حديثا وهو عبارة عن استمداد من كلمات الله البينات وحكمته البالغة وحججه الدامغة فى الكون والحياة والانسان •

المصدر الأفقى •• ويمكن أن يقال عنه أنه علمى وتجريبى وتطبيقى

بمعنى أننا عندما نجرب فى أنفسنا ومع الاخرين أوامر الله وحكمه فى الفكر والسلوك والتطبيق فهو عبارة عن أمتحان صادق بما لا يدع مجالا للشك بأن ما تلقيناه كفكر رأسى هو حقيقة لامراء فيها وأنه كلما تمسك الانسان بمكارم الاخلاق التى يدعو اليها فى كتابه العزيز فانها تحقق للانسان تقدما ونجاحا فى دنياه فضلا عن آخرته .

فتطبيقات التشريع الاسلامى على الانسان والمجتمع تظهر دوما أن المنهج الربانى أفضل المناهج على الحقيقة وانه باعتباره عمليا يتفوق على جميع المناهج البشرية والنظم الانسانية الاخلاقية والتربوية .

ومن ثم فهو منهج من الطراز الاول يشهد الواقع على صدقه الدائم وينعت أصحابه بالصادقين والحكماء الراسخين فى العلم ويكفى ان الله سبحانه وتعالى يؤيد هذا المنهج وبين أن أصحابه أفضل العلماء وعندما يقرر فى كتابه العزيز .

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

وعلى ذلك فان العلمانيين الذين يحاولون تشريع مناهج للعلوم الحياتية أنما يقعون فى الخلط والالتباس والظن ، وذلك لان الانسان غير قادر على تشريع منهج للعلوم الحياتية ولكنه قادر على تشريع المناهج على العلوم المسخرة فيصيب ويخطىء ويبحث ويجتهد فيقول تعالى « وامشوا فى مناكبها » .

فيجب الا نخلط بين العلوم المسخرة والعلوم الحياتية ،والا نتطاول على تشريعات الله سبحانه وان نعرف قدر العبد على أنه فقير الى الله محتاج اليه وان يعرف الصلة بين الربوبية والعبودية .

ويقول عز من قائل :

« الم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض »

(لقمان : ٢٠)

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه »

(الجاثية : ١٣)

واضح من الايات الكريمة أن التسخير للسموات والارض وليس للانسان كما يزعم الماديون والعلميون ، وفى تصورنا أن عدم [1] نجاح المنهج الحديث الوصول الى نتائج نفس السلوك الانسانى راجع الى أنه يحاول أن يسخر الانسان بما يطبقه من مناهج غايتها التنبؤ والتحكم فى الانسان ، حتى ولو أدى ذلك الى نتائج غيبية صادرة عن مقدمات مفترضة كل ذلك من أجل ربط حياة الانسان الاخلاقية والسلوكية بشكل أو بآخر بقانون حتمى مثله فى ذلك مثل المواد والاشياء المسخرة للانسان •

ان اهداف المنهج الاسلامى ليس التنبؤ والتحكم فى السلوك الانسانى أو بمعنى آخر ليس تسخير الانسان كما يستهدف المنهج العلمى الحديث أذ أنه قد تركه تعالى لاختياره بعد أن بين له الطريق الحق الواجب الاتباع ، أما فيما يتعلق بالكون فقد سخر تعالى للانسان السموات والارض كموضوع للاستقراء والتجربة والتحليل والمقارنة •

ولقد وهب الله تعالى للانسان قدرات وملكات لاستخدامها فى التعرف على الاشياء الخفية وحدد له مجال البحث والدراسة تحديدا دقيقا وبين له أنها السموات والارض وما بينهما ولم يطلب اليه ان يضع من عنده قوانين

---

(١) د. حسن الشرقاوى ، نحو منهج علمى اسلامى .

يفسر بها الاسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، ولم يأمره أن يشرع قواعد للسلوك الانسانى ، يتحكم بها فى الانسان ويعامله معاملة المواد .

لقد خص الله تعالى نفسه بتشريع القوانين الاخلاقية والسلوكية للعلوم الحياتية الواجبة الاتباع وتكفل تعالى بصياغة بنودها وتشريع قواعدها ووضع نظمها وتقنيين معاملاتها وهذا هو الفرق الواضح بين المنهج الاسلامى والمنهج الحديث .

ولابد من نظرة الانسان الرأسية الى خالقه وفاطره حيث يتصل بالله فى شكل أتباع لاوامره والنهى عما نهى عنه ، والتفويض فيه والتسليم والاسترسال معه تعالى .

وهذه العلاقة الرأسية هى عملية امداد من الله الى العبد واستمداد العبد من الله ، فاذا أكد العبد على هذه العلاقة فى نفسه وقلبه وعقله جميعا واصبحت هى مصدر تصرفاته وسلوكه وعلاقاته بغيره من الناس واذا أصبح طبعه الاسترشاد بكلام الله والعمل بما أمر والطاعة له تعالى فى السراء والضراء ، اذا وفق العبد حقا فى التأكيد على هذه الحقيقة قلبا وقالبا نفسا وروحا واحساسا وعقلا ، فانه بذلك يكون قد تجاوز البيئة الافقية فلا يتأثر تماما بضغوطهاولا يثقلها بتحقيق متطلباته واشباع رغباته .

ذلك فانه مادام طائعا لله مخلصا له تعالى فانه يسترشد حقيقته بكلام الله ويعمل بما أمر تعالى فلا يريد لنفسه الا ما أراده الله ولا يبتغى الا فاء الله به عليه من فضل كان نعمة شكر الله عليها وان كان ابتلاء صبر عليه .

٢ — علـوم الانسان فى القرآن

ما يعجب له أن العلماء الغربيين المحدثين لم ينتبهوا بعد الى أن القرآن الكريم يحمل بين ثناياه منهجا متكاملا فى التربية والاخلاق وعلم النفس والتشريع والحكم والاجتماع ويبرز جميع النظم والنظريات والقواعد التى تتعلق بعلوم الانسان •

والاعجب من ذلك أن كثير من علمائنا المسلمين لم ينهضوا بعد الى بلورة هذا المنهج الاسلامى فى علوم الانسان فى شكل نظريات وقواعـد ومناهج دراسية تسمح لطالب العلم والدارس أن يعقد المقارنات بينها وبين ما يدرسه فى المدرسة والمعهد والجامعة من علوم الانسان من وجهة النظر الغربية •

ويزعم المستغربون أن علوم الانسان واحـدة ، فلا يقال علم تربية اسلامى وعلوم تربية غير أسلامى ، كما لا يقال علم نفس غربى وعلم نفس أسلامى •• أو أخلاق أسلامية وغير اسلامية ••• الخ •

وتكمن خطورة هذا الرأى فى فصله التعسفى بين العلم والدين ، الامر الذى يحمل الدارس وطالب العلم أن ينحو علوم الانسان فى القرآن جانبا ، ويقبل على فلسفات التربية والاخلاق والاجتماع والنفس باعتبارها وحدها العلوم الجديرة بالتحصيل والدراسة •

ولا شك أن السبب الرئيسى فى عدم تقويم الانسان فى القرآن كمناهج دراسية ونظريات أسلامية يرجع الى ضرورة التعرف على أصول الشريعة قبل الخوض فيها ، وهذا الامر يحتاج من الباحث الى سنوات طويلة قبل أن يصل الى حاجته •

وأما البحث فى العلوم الانسانية من وجهة النظر الغربية فلا يحتاج الى عناء ، اذ تنقل هذه الدراسات والنظريات كمقررات دراسية دون أدنى أضافات وربما تلقن بلغتها الاصلية أو تترجم الى اللغة العربية .

ولعلوم الانسان فى المناهج الغربية مصطلحات معينة ، وتعريفات محددة تختلف فى مضامينها عن الالفاظ والمعانى والمصطلحات القرآنية .. وهذا بدوره يجعل هناك بونا شاسعا بين النظريات الغربية والنظرية الاسلامية فى علوم الانسان ولنضرب لذلك مثلا لنبين أختلاف المفاهيم الاساسية بين المنهجين الغربى والاسلامى :

لقد حدد الله تعالى واضحا مفهوم العلم وبين لنا من هم العلماء على الحقيقة فى قوله تعالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٤٨)

فالعلم ضد الجهل وهو النسبة الصحيحة للحكم على الاشياء أو الامور بالاثبات أو النفى وأحكام العالم مجزوم بها ومؤكدة وواقعة ، أما الجاهل فنسبته الى الامور خاطئة وأحكامه فاسدة الا أنه مع ذلك يصر عليها ويجزم بها رغم أنها غير مؤكدة وغير واقعة .

ويفرق الله بين العلماء والجاهلين ، فيرى أن العالم هو البصير ليس بحسه فحسب أنما بقلبه أيضا ، أما الجاهل فقد عميت بصيرته وأن لم يعمى أبصاره .

« هل يستوى الاعمى والبصير »

(الانعام : ٥٠)

« فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(الحج : ٤٦)

لقد ربط الله تعالى بين العلم وبين منهجه تعالى ، فبين ان العالم الحق هو المتبع منهجه العامل به ، واما الجاهلون فهم :

« صم بكم عمى » (البقرة : ١٧١)

فالعبرة فى المنهج الاسلامى — أرتباط العلم بمنهج الله وهذا هو العمل الصالح .

« والعمل الصالح يرفعه » (فاطر : ١٠)

اذ الاساس الذى يعول عليه فى الفكر والسلوك والاخلاق الاسلامية هو تقوى الله أولا والعمل بما أمر به ثانيا :

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار » (التوبة : ١٠٩)

ان أرتباط العلوم الانسانية بمنهج الله وشرعته يجعل تلكم العلوم مستقلة تماما فى أسسها ومفاهيمها وقيمها وسماتها الاساسية عن المناهج الوضعية والنظريات البشرية ومن ثم تختلف فى نتائجهـا ورسائلهـا وما تستهدف من غايات .

ومن يخرج عن المنهج الاسلامى ويزعم أنه يستطيع بهدى عقله وحده أن يؤسس نظما ونظريات ومناهج وقواعد صالحة للتطبيق فى التربيـة والاخلاق والنفس والاجتماع والاقتصاد والتشريع ... من يزعم أنه يستطيع ذلك فهو واهم قد أضله عقله ضلالا بعيدا ، اذ يظن أن الله تعالى قد خلق الناس عبثا ، فيتطاول على الله ويبنى قصورا على رمال متحركة :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون » (الشعراء : ١٢٨)

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون »

(المؤمنون : ١١٥)

ويبين لنا تعالى أن من لايتبع منهجه مغرور بنفسه ، ويعاتبه تعالى على نشوزه وانحرافه ويذكره بخلقه له وفضله عليه ٠

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ٠٠ فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار : ٦ ، ٨)

ويلاحظ أن القرآن الكريم يجعل اللفظ الواحد أحيانا يؤدى الى معنيين بحسب ما أقترن به من غاية ، فاذا قصد به الدنيا كان مذموما اما اذا قصد به الاخرة كان محمودا ٠

« بل تؤثرون الحياة الدنيا » (الاعلى : ١٦)

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الحشر : ٩)

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها »

ومنهج العلوم الانسانية مرتبط بالفضائل ومكارم الاخلاق وهى بدورها مرتبطة بالحق والحق فى المنهج الاسلامى مؤسس على الايمان بالله ٠٠ وبرسوله ﷺ :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الاحزاب : ٢١)

مجمل القول أن علوم الانسان كالتربية والاخلاق والاقتصاد والاجتماع والتشريع والنفس لها منهج واضح فى القرآن الكريم ، وأن الباحث المتأمل يمكنه أن يستخلص نظريات متكاملة لها رسائلها وغاياتها دون

الاعتماد على مناهج الغربيين أو الشرقيين ••• بل يمكن أن تنفرد هذه العلوم بمصطلحاتها والفاظها عن مصطلحات العلوم الحديثة التى لها أهداف محددة وغايات جد مختلفة عن غايات المنهج الاسلامى •

ان على الباحثين المسلمين أمانة يتوجب عليهم فى الاونة الحاضرة حملها ••• وهى نفض الغبار عن تراثهم التليد ••• والسعى بجد نحو ابراز علوم الانسان فى القرآن ••• وليس هناك أعظم من ذلك عمل لعالم مسلم تصديقا لحديث رسول الله ﷺ :

« من عمل بما علم أورثه الله علم ما لا يعلم » « متواتر »

٣ — الجدل بين الفلسفة والقرآن

تصور أفلاطون متأثرا باستاذه سقراط أن الجدل هو المنهج الصحيح الذى به يرتفع العقل فى المحسوس الى المعقول ومن الجزئى الى الكلى ، ومن المتناهى الى اللامتناهى • دون أن يستخدم فى ذلك أى مدركات حسية ، أنما هو طريق للانتقال من معانى الى معانى وذلك بواسطة معانى •

لقد ظن أفلاطون أن الحوار هو أعظم طريق للبحث عن الحقيقة ، ولم يكن الحوار عند أفلاطون عبثا أو أرضاء لشهوة شخصية أو لرغبة ذاتية ، أو نزوعا الى القصص التمثيلى ، انما كان نوعا من الجدل يتحدى به خصومه من السوفسطائيين ويستخدمه فى المناقشة الايجابية المخلصة بغرض أن يتولد عن طريقه العلم توليدا •

لذلك أبتعد عن سفسطة السوفسطائيين التى لا هدف ولا غاية سوى ابراز فن الخطابة أو البيان دون أن تستهدف طلب الحقيقة •

لقد أعتبر أفلاطون الجدل أفضل الوسائل فى طلب المعرفة ، ولذلك

فالجدل عنده له مفهوم عال حتى أنه أطلق عليه العلم الاعلى الذى ليس بعده علم •

ومن ناحية أخرى اسماه العلم الكلى بالمبادىء الاولى والامور الدائمة ، والعقل البشرى أنما يصل الى ذلك العلم بعد استثارة للعلم الجزئى •• كما أنه عن طريق الجدل أيضا يهبط العقل من العلم الكلى الى العلوم الجزئية وكأن هناك جدل صاعد وجدل هابط يربط المبادىء بالامور الجزئية ويفسر المحسوسات بمقارنتها بعالم المثال •

فالجدل منهج وعلم يتجاوز به مراتب الوجود من أسفل الى أعلى ومن أعلى الى أسفل ••• فهو نظرية معرفية بالمعنى الواسع •• ولقد توسع أفلاطون فى دراسة نظرية المعرفة على أساس جدلى يبدأ بالمحسوس وينتهى بالعقول •

أقســام نظريــة المعرفــة الافلاطونيــة :

قسم أفلاطون نظرية المعرفة الى أربعة أقسام هى :

١ ـ الاحساس : وهو ادراك لعوارض الاجساد أو الاشباح فى اليقظة وصورها فى حال النوم •

٢ ـ الظــن : وهو الحكم على المحسوسات •

٣ ـ الاستــدلال : وهو علم بالماهيات الرياضيــة التى تتحقق المحسوسات •

٤ ـ التعقل : وهو ادراك للماهيات المجردة من كل مادة •

هذه الاقسام الاربعة التى حددها أفلاطون كمضامين لنظرية المعر مرتبة بعضها فوق بعض، حتى أنها تؤدى احداها الى الاخرى •

فالاحساس أول مراحل المعرفة وليس كما يزعم هيروقليطس وأصحابه أن المعرفة مقصورة عليه ، وانه الظاهرة الوحيدة القائمة بذاتها متغيرة أبدا •

الاحساس عند أفلاطون اذن ليس كل المعرفة اذ أنه لو أقتصرت المعرفة على الاحساس فكأنها قد اقتصرت على الظواهر المتغيرة ••• وبذلك نتوقف عند حدود الاحساس ولا ندرك ماهية الاشياء ولا نتعرف على الأمور الكلية •

ولو صح ما زعمه بروتاغوراس من أن الانســـان مقياس الاشياء لاصبحت كل الاراء المتناقضة صادقة وأمتنع القول بأن شيئا ما هو كذا اذ يمكن القول بأنه كذا أو كذا وبذلك تبطل المعرفة •• سواء فى مجال الاخلاق أو التربية أو السياسة أو الحرف والصناعات •• وينتهى الامر الى أن يستحيل العلم والتعقل •• لشىء ما •

يرفض أفلاطون أذن ان تكون المعرفة مقتصرة على الاحساس ، الا أنه لا ينكر المعرفة الحسية اذ أنها تقوم بدور هام فى تنبيه قوى النفس ولولاه مـــا كان الفهم ولا العلم •• ويضرب لذلك مثلا فيقول ان العالم والجاهل يشتركان فى الاحساس الا ان العالم يتوقع أشياء أو أفعالا ويؤيد العلم توقعاته ، أما الجاهل فان توقعاته خاطئة وغير مؤكدة أو مؤيدة •

ويتدرج أفلاطون من المعرفة الحسية الى المعرفة العقلية مارا بالمعرفة الظنية والاستدلالية •• فيقول أن فى النفس قوة فوق الحس تعلم قوانين ثابتة للاشياء وهذه القوة تصدر أحكاما مغايرة للحس تماما •

وهذه القوة المتباينة للحس ، تستطيع أن تدرك أن الاثنين أكثر من الواحد ، أنهما أثنان ومتباينان ، فالعلم بالشىء ليس بالاحساس أنما هو

حكم النفس على الاحساس وبذلك يتمايز الانسان عن الحيوان ·· رغم أشتراكهما فى الاحساس ·

وليس العلم فى نظرة أفلاطون هو الظن ، اذ المعرفة الظنية نتيجة لحكم ظن غير مرتبط بالعلة أو الماهية ، وعلى ذلك فان العلم الصحيح لابد أن يرتبط بالماهية والعلة الثابتة ،أما حكم الظن فهو غير ثابت على الاطلاق ، بل يتغير بتغيير موضوعه ومن ثم فلا يعول عليه ، ويضرب مثلا ذلك بالعلوم الطبيعية والهندسية والطبية فيقول أنها علوم متغيرة ونسبية حيث أنها متعلقة بالمادة ولا يمكن أن تكون موضوعا للمعرفة بالذات ·

والظن تخمين وموضوعه الوجود المتغير ، اذن فالظن ليس العلم الذى تتوق اليه النفوس ، كما أن العلم الظنى قد يكون كاذبا أو صادقا ، وليس مثل العلم القائم على البرهان الذى موضوعه العلة أو الماهية الدائمة وهو العلم الحق ·

ويتدرج أفلاطون من المعرفة الحسية الى المعرفة الظنية عن طريق هذا النوع من الجدل ليتوصل الى المعرفة الاستدلالية التى يفرق بينها وبين التجربة ، فهى فوق الحس ، اذ هى ليست جمع الاعداد ، أو مسح الارض ، أو رصد الافلاك ، انما الاستدلال النظر الى العلوم بصرف النظر عن الجزئيات ·· فبالاستدلال يمكن فحص الاعداد لذاتها ، وفى الهندسة النظر الى الاشكال فى ذاتها وفى الفلك تفسير الظواهر السماوية بحركات دائرية وفى الموسيقى ليس ضبط الايقاعات عن طريق الممارسة والتجربة أنما كشف النسب العددية المقومة للالحان ·

والفيلسوف أقدر من غيره فى المعرفة الاستدلالية حيث يستغنى عن كل الصور الجزئية ويتأمل المعانى الكلية الخالصة .. كما يستغنى عـن التجربة ليصل الى الماهيات والعلل .

التعقل وهو أعلى المراتب المعرفية يتعقل الانسان شيئا بأن يراه جميلا أو خيرا أو عادلا الى غير ذلك من الصفات المقارنة للاشياء ، وذلك بدون معاونة للحواس فيتساءل الانسان عن الحق والعدالة والجمال وما الى ذلك ، وهى أشياء ليست محسوسة لكنها ضرورية لترتيب الاحكام على المحسوسات

ولقد جعل افلاطون الماهيات والكليات موجودة أصلا فى العقل قبل الادراك الحسى ، وفى تصورنا أن هذا هو الخطأ الوحيد الذى وقع فيه أفلاطون ، ذلك لانه توصل فى جدله الى أن العقل يستطيع وحده بطريق الجدل أن يصل الى كنه الاشياء وحقائق الوقائع .

ولو كان ذلك ممكنا لاستطاع أفلاطون أن يصل بعقله الي حقيقـة الالوهية ، لكنه وضع فى قمة هذا الوجود الله أو كما يسميه الخير بالذات ، أو مثال المثل ثم جعله جاهلا لايقدر على شىء كالنقطة المجردة التى لا صفة لهـــا .

لقد وصل افلاطون بذاته الى وضع الاله الذى تصوره بعقله كأنه لايدرى عن الكون شيئا .

ولقد سبق أفلاطون فى محاولته ابراهيم عليه السلام اذ أراد أن يتعرف على حقيقة الالوهية عن طريق الحس فلم يهده الحس الى معرفة الكون ثم عن طريق المعرفة العقلية فلم تهده أيضا ، ثم أنتهى الى التسليم بعجـزه وبضعفه وقلة حيلته ، وأن عقله عاجز فى البداية والنهاية عن معرفة حقيقة

الله حق معرفته ، لذلك طلب من الله تعالى ف توسل أن يهديه الى معرفته •

وبيين لنا القرآن الكريم هذا التدرج فى الجدل المعرفى الى أن يهدى ابراهيم عليه السلام الى حقيقة الالوهية ويجتبيه الله ويصطفيه ويجعله نبيا من لدنه تعالى ليدعو الى كلمة التوحيد •

والغريب أن كثيرا من العلماء والمفكرين يذكرون وجود فكر عقلى فى آيات الله البينات ويعتبرون القرآن الكريم كالتوراة والانجيل كتاب دين يخاطب الوجدان ولا يخاطب العقل •

٤ — المعرفة فى النظرة الاسلامية

١ — بين العقل والقلب :

يرى الغزالى ان القلب هو مرآة مستعدة لان يتجلى فيها حقيقة الحق بالامور كلها ولا يحصل القلب على هذه الحقائق لاسباب [١] •• وهى •

(أ) اما النقصان فى القلب فى ذاته ، كقلب الطفل ، اذ لا تتجلى له العلوم لضعفه ونقصه •

(ب) أو نتيجة لارتكاب الاثام وفعل المعاصى والخبث ، فيتراكم ذلك كله على وجه القلب ، فيمنع صفاؤه وجلاءوه ويمتنع بذلك ظهور الحق فيه لظلمته وظلامه •

(ج) ولا تزول عن القلب هذه الظلمة الا اذا اتبع الانسان عمله بحسنة يمحو بها السيئة سقطت الحسنة ، فالاقبال على الطاعات والاعراض عن الشهوات هو الذى يجعل القلب صافيا مستعدا لان يتقبل الحقائق •

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين جـ٨ ، ص ١٢٤٢ — ١٣٦٠

(د) أن يكون محققا للغايات الروحية ، أى لا يكون منصرفا الى التأمل فى الحضرة الوجودية أو فى الحقائق الالهية ، فلا ينكشف له شىء من هذه الحقائق — وذلك نتيجة لافات فى عمله وعيوب فى نفسه أو مصلحة أو منفعة دنيوية يفكر فيها وينصرف ذهنه اليها ، ولو كانت ليست من المحرمات أو من قاذورات الشهوات الا أنها مع ذلك تمنع الكشف الحقيقى •

(هـ) اذا كان الانسان مقلدا أو محاكيا غيره نتيجة للتربية والاعتقاد ومن هنا تكون هذه الاعتقادات التقليدية والاراء المتوارثة ، قد جمدت فى نفوس أصحابهـا ورسخت فى قلوبهم فتصير حجابا بينهم وبين ادراك الحقائق ويسمى ذلك بالحجب وهـذا أما نجده عند كثير من المتعلمـين وأصحاب التعصب للمذهب أو كذلك أكثر علماء الكلام •

(و) وهو الجهل بالمطلوب ، فلا يمكن لطالب المعرفة أن يحصـل على المعرفة الا بالاعتماد على معارف أخرى ، فكل علم مراد لا يحصل الا من علمين سابقين أو يحصل من أزدواجهما علم ثالث ، فالجهل بالاصول هو المانع من العلم فالانسان اذا لم يضع المرآة فى موضعها فلا يرى وجهه ولا يظهر فيها صورته من خلف حتى يمكن أن تنطبع الصورة فيدركها بالعين فكذلك نقائض العلوم ، فاذا أنتفت هذه النقائض فى قلب العبد كان مستعدا للتجلى ، بما حبب اليه من الطاعات وأعمال الخير والبر ، وسائل الاعمال وجميعها تصفى القلب وتزكيه وتسمو به وفى ذلك قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها » أى زكى أصول أنوار الايمـان فى قلبه أى أشرق قلبه بنور المعرفـــة •

وهذا الايمان له مراتب ثلاثة (١) :

المرتبة الاولى : ايمان العوام ، وهو قائم على التقليد والمحاكاة •

المرتبة الثانية : ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع من الاستدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام •

المرتبة الثالثة : ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين وهو أعلى وأسمى •

ويمكننا أن نمثل بالانواع الثلاثة من الايمان الاتى :

اذا جاء زيد من الناس الى منزلك ، وأخبرك بأن صديقا لك بالباب ينتظرك ف انك تصدقه لانك تعرف عنه الصدق ، وهذا هو الايمان بمجرد التقليد والمحاكاة ، وهو أيمان العوام ولكن ليس فيه كشف أو بصيرة ولا نور اليقين •

أما المرتبة الثانية : وهى ايمان المتكلمين وهو ايمان بدليل مثلما تسمع صوت صديقك من داخل المنزل ولكن لا تراه فهنا يكون الايمان أقوى بالسماع ولكن قد يحدث خطأ نتيجة لتشابه الاصوات أو يمكن التسكلف بطريق المحاكاة •

ثم هناك المرتبة الثالثة للايمان ، وهى ايمان العارفين وهو بمثابة دخولك المنزل ورؤية الصديق فهذه هى المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية فهى درجة أعلى من درجات ايمان العوام وايمان المتكلمين لانهم يمتازون بدرجة لا يمكن معها الخطأ ، وان تفاوتوا فى درجات الكشف والعلوم الوهبية وهذه المعرفة هى معرفة قلبية يحظى بها أصحاب المقامات العليا من

---

(١) الامام ابى حامد الغزالى — احياء علوم الدين — ج ٨ .

الصديقين المقربين الذين يشاهدون الله تعالى يقظة ونوما والفـــرق بين القلب والعقل كالفرق بين البصر والظاهر والبصيرة الباطنة فبالبصر يرى الانسان الاشياء وبالبصيرة يدرك الانسان الحقائق فلا يمكن أن يتساوى البصر بالبصيرة أو العقل بالقلب ، ويقول عز من قائل : « ما كذب الفـــؤاد ما رأى » .

فالعلوم العقلية اذن غير كافية لسلامة القلب وان كان الانسان محتاجا اليها حريصا على معرفتها اذ أن العقل ولو أنه هام جـــدا لمعرفة العـــلوم بالسماع والابصار وغير ذلك ، الا أنه لا يمكن الاكتفاء به لمعرفة الحقائق وأنوار الدين فلا يمكن الاستغناء عن العقل بالقلب كما أنه لا يمكن الاستغناء عن القلب بالعقل لان العلوم العقلية كغذاء كما أن العلوم الشرعية كالادوية فمن أستعان بالعلوم العقلية دون الشرعية فقد عمى عن بصيرته ومن يظن أن العلوم العقلية مختلفة عن العلوم الشرعية واهم .

والعلوم العقلية تنقسم الى علوم دنيوية ، وعلوم أخروية .

الدنيوية منها كعلم الطب والحســاب والهندسة وســائر الحـــرف والصناعات .

أما العلوم العقلية الاخروية فعلوم أحوال القلب وآفات الاعمـــال والعلم باللهتعالى وبصفاته وأفعاله فمن تعلم منها علما قصر فى العلم الاخر .

والعلم نوعان : علوم كسبية تحصل بطريق الاستدلال والتعلم وعلوم الهامية تحصل لا بطريق الاكتساب ولكن بالالهام فهى تقع فى القلب بغير تعلم واجتهاد من العقل .

الاول : مالا يعرف سببه ويسمى الهاما ويختص به الاولياء .

والثانى : ما يعرف سببه ويسمى وحيا ويختص به الانبياء وحدهم .

ولقد مال الصوفية الى العلوم الالهامية بدلا من العلوم العقلية وقدموا العمل على النظر وذلك لتحلية نفوسهم عن طريق المشاهدة بالصفات المحمودة وتخلية نفوسهم من الصفات المذمومة والاقبال بهمتهم على الله تعالى حتى يتولاهم الله فاذا تولاهم فاضت الرحمة وأشرقت قلوبهم بنور الله وانشرحت صدورهم وانكشف لهم سر الملكوت وتلألأت فى قلوبهم حقائق الامور الالهية .

وليس التصوف هو البعد عن الاهل والمال والوطن والعلم والجاه والولاية بل ان الصوفى يأخذ بكل ذلك جميعا ، ويقوم به على الوجه الاكمل وانما تكون هذه الامور فى حالة يستوى فى قلبه وجودها ، وعدم وجودها فهو علاوة على قيامه بالفرائض والتكاليف الشرعية يستحضر فى قلبه الله سبحانه وتعالى فلا يشعر فى خلوته الا بالله مواظبا على الذكر دافعا عنه وسوسة الشيطان .

أما أصحاب العقل والنظر فانهم لم يذكروا هذا الطريق ولكنهم استصعبوه واستوحشوه ووجدوا أن ثماره بعيدة واستكثروا استجماع شروطه .

النظر والذوق :

هناك فرق بين العلم والعقلى والمعرفة[1] ، هذا الفرق انما هو فرق بين الظاهر والباطن أو بين البصر والبصيرة — لان الانسان انما يبصر الاشياء ويحكم عليها بالحواس والعقل وأما البصيرة فانه يدرك الحقائق .

---

(١) الامام ابو حامد الغزالى — كتاب العلم جـ١ ص ١٩١ .

فوسيلة المعرفة فى القلب وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « ما كذب الفؤاد ما رأى » (النجم : ١١)

وهذا تصديق لا ينافى هذا التصديق عن طريق البصر • • وانما بالرؤيا ولا تتم هذه الرؤيا بالعين الظاهرة ، وانما عن طريق ما يلقى فى الفؤاد — أى بالبصيرة النافذة التى لا تتم عن طريق المدركات الحسية ولكن مجالها ومدار عملها هو القلب •

ويمكن القول انه كما لا يستطاع الاستغناء عن القلب بالعقل وكذلك لا يمكن الاستغناء عن العقل بالقلب ، لان العلوم العقلية ، انما هى غذاء الانسان ليتعرف بها على الاشياء الظاهرة والموضوعات المتميزة والمشاكل المختلفة فيحكم على صحتها وذلك بالتجربة والوصف والملاحظة ويعقد لها البراهين والاستدلالات التى يستنبط منها مسلمات وأوليات ضرورية ، ولا يمكن أن يسمى عالما أو عاقلا الا اذا كان حاصلا على هذه العلوم رغم وجود اختلاف بين العلماء •

وان كانت العلوم العقلية هى غذاء للانسان ، فانها اذا صدقت أصدق صاحبها فى الظاهر والباطن واذا كانت مؤسسة على الاخلاص والنية الحسنة فانها تكون وسيلة طيبة الى العلوم الالهامية ، فلا يمكن أن يكون عالما على الحقيقة دون أن يسير فى طريق الحق وطريق الحق انما هو صدق العقل والقلب والابصار والبصيرة •

فالعلم العقلى يؤيد بالمعرفة القلبية وبمعنى آخر العلوم نوعان علوم كسبية تتحصل عليه بطريق الاستدلال والتعلم ، وعلوم الهامية لا تتحصل عليه بطريق الاكتساب •

والكسبية تسمى استبصارا أما الالهامية فهى تقع فى القلب بغير تعلم واجتهاد من العقل ، وانما يتم استلهاما بعد أن تكون النفس الانسانيــة قد سارت عن طريق الحق وتخلصت من شوائب الرياء ، فألهم بهذه المعارف الهـــاما .

فالمعرفة[١] اذن يصل اليها الانسان اذا حصل العلوم العقلية وتقدم فيها بالصدق والاخلاص والطاعة لله فيلهم بالعـــلوم الالهاميـــة واذا كانت العلوم العقلية هى نظر وبحث وتحصيل فى مختلـــف العـــلوم التجـــريبية والنظرية فان العلوم الالهامية انما هى ثمرة الرياضات المجاهدة والسلوك السوى والعمل الصالح فبالنظر والعمل يتقدم الانسان فى طريق المعرفة ، وبالشريعة والحقيقة يتخلى الانسان عن الصفات المذمومة ويتحلى بالصفات المحمودة حتى يتولاه الله فاذا تولاه فاضت عليه الرحمة واشرق قلبه بنور اليقين وأنشرح صدره وتلالأت فيه حقائق الأنوار فطريق العلم الحـــق استعداد وتصفية واستحضار للهمم مع الارادة الصادقة والتعطش التام ، فيفتح الله على من ســـار فيه من العلم والمعرفـــة فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فالمعرفة بهذا المعنى لا تعتمد على الحس والعقل فحسب لان حاكم الحس لا يخطىء[٢] فنجد فى بعض الاحيان طعم العســـل مرا وليس هو بمر . ان الذائق يصاب أحيانـــا بمـــرض الصفراء والدليل على ذلك أن غيره يذوق العسل فيراه حلو المذاق ، وهـــذا دليل على أن الحاكم بطريق الحس يخطىء ويصيب ، وهذا الحكم هو حكم عقلى ليس كافيا لمعـــرفة الاســـباب المـــولودة للاعمـــال ويرى الامام

---

(١) د. حسن الشرقاوى — من حكماء الامة ص ١٧٦ .

(٢) الامام الشعرانى — الكبريت الاحمر ص ٣ .

الشعرانى[1] ، ان جملة العلوم ثلاثة ــ علم العقل وعلم الاحوال وعــلم الاسرار) وهذا هو الانتقال الطبيعى من الشريعة الى الحقيقة فلا شريعة بلا حقيقة ولا حقيقة بلا شريعة .

عــــلم العقــل :

وهو كل علم ضرورى بديهى ، وهو نتاج النظر ويشترط فى هذا العلم وجود الدليل وعلامته البساطة .

علم الاحــــوال :

وهذا العلم لا يعرف بالنظر ولا سبيل اليه الا ذوقا ولا يتمكن صاحب العقل من الاحاطة به والتعرف عليه بفهمه وفكره ، لانه يحتاج الى تجربة لا يعانيها الا صاحب احوال ولا يتذوقها الا مريد صادق وعلم الاحوال يتوسط علم العقل وعلم الاسرار ولو أنه يميل الى علم الاسرار اكثر من ميله الى علم العقل .

علم الاسرار :

وهو علم فوق طور العقل ولذلك يذكره اصحاب العقل لان مصدره الهامى ومنبعه نفث روحانى ويختص بهذا العلم الانبياء والاولياء ولا يصلح لهذا النعلم العبارة فيقول أحد الصوفية فى ذلك ، ما كتب صحيح الى صحيح ولا أفترقا على الحقيقة .

---

(١) الامام الشعرانى ــ اليواقيت والجواهر جا ص ٢١ .

ويقصد بالصحيح العارف بالله صاحب علم الاسرار فانه لا يحتاج للعبارة عن الكتابة الى أخيه العارف ومع ذلك فان الاتصال بينهما غير منقطع فهناك طريق غير الطريق الحسـى للاتصـال وهو طريق الرؤيا والالهام والامداد والاستمرار .

الفصل الثاني

١ ــ التفلسف والحكمـــة

اذا اراد الفيلسوف أن يتفلسف بعقله وحده محاولا ان يتعرف على أصل الوجود فانه يقع فى التدليس وينزلق فى المتناقضات ويسقط سريعا فى بحر الظلمات وذلك لان العقل الانسانى عاجز فى البداية والنهاية عن الوصول الى كنه الاشياء وحقائق الوقائع •

والدين بعامة والتوحيد بخاصة يعين العقل البشرى على الوصول الى الحقيقة اذ الدين هاد للعقل وليس العقل هاديا للدين بالضرورة •

والفكر عن طريق العقل وحده معناه الارتباط بالنفس وحدها وتركيز الذهن على ما يريد صاحبه أن يتقوله بعيدا عما رسمه الله له وهداه رسوله وبذلك يخرج هذا المفكر عن التصديق ويطعن بالباطل ليدحض الحق فيستحق من الله بذلك الفكر الذاتى ــ العقاب •

لذلك جاءت الايات البينات كلها تدعو الى التفكر وهو تأمل عقلى فيما يبينه الله من حجج دامغة وادلة صادقة كقوله تعالى فى المقارنة بين المبصر والكفيف :

« هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون »   (الانعام : ٥٠)

فالتفكير تأمل عقلى لكنه مرتبط بالايمان بالله فاطر السموات والارض وهو غير الفكر الذاتى أو التفكير العقلى المحض الذى يفصل بين العبودية والربوبية بدون علم ولا هدى يقول عز من قائل :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »

(الحج : ٨)

فالفكر الذاتى يحمل فى طياته جدلا يبتعد فيه عن التفكير فى آيات الله البينات وبذلك يجنح الى الباطل ليدحض الحق ليظفر بتبرير ادعائه •

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » (الكهف : ٥٦)

فاصحاب الفكر الذاتى والتفلسف أنما يتبعون أهواءهم ويتغافلون عن ربهم ويضعون حججا ظنية ، وأدلة تخمينية ودعاوى متوهمة يناطحون بها الحق والحقيقة ، أما الذين يتفكرون فى خلق الله ، وقد رسخت اقدامهم فى حظيرة الايمان يجادلون بالتى هى أحسن وهم يرتبطون دوما بخالقهم •

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض » • (آل عمران : ١١٩)

لذلك فان الجدل العقلى الذى يأمر به الله لابد أن يرتبط بالحقائق ولا يمكن أن يحظى بها الفكر الذاتى والتفلسف بدون الاستعانة بالهدى الالهى والا وقع فى المتشابهات وانزلق بعقله الى هوة الضلالات ، لذلك يأمرنا الله تعالى بعدم المجادلة عن الخونة ولا ندافع عنهم ، اذ هم خانوا أنفسهم باتباع غواية الشيطان وموافقة هوى نفوسهم •

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » (النساء : ١٠٧)

يتبين من ذلك أن الجدل القرآنى يعتمد على التأمل العقلى لكنه مرتبط بالايمان بالله وبآياته البينات فاذا خرج المتأمل عن الرابطة بين العبودية والربوبية فقد أغلق باب المنة الالهية ، وابتعد عن الحق الى اتباع الهوى فيصبح جداله من أجل تحقيق منافع شخصية ومصالح ذاتية •

لذلك فان الجدال الفلسفى الذى عماده التفكير الذهنى فحسب ، مثل الجدل الخطابى (السوفسطائى) ، لا يتصل الى حقائق لانه لا يستخدم

التوجيهة الالهى فى اثبات قضاياه — ومن ثم يقع فى المتناقضات ويسقط فى براثن الضلال ٠

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد »
(الحج : ٣)

أن معظم الفلاسفة يعتمدون على الفكر الذاتى والتأمل العقلى المرتبط بامكانياتهم الذهنية ، الامر الذى يوقعهم فى المتناقضات عند بحثهم فى العلل البعيدة ، أو أصول الاشياء أو حقائق الوقائع فيقعون فى متاهات لا حدود لها ولا قيود ٠

لذلك فان الحكماء المسلمين قد تفهموا حدودهم العقلية واعتمدوا على فاطرهم فى التفكر العقلى والتأمل الذهنى وقادهم التوجيهة الالهى الى بر الامان عندما بحثوا فى أصول الاشياء وحقائق الوقائع ٠

٢ — الفكر والتفكـــر

الانسان المؤمن يتفكر فى خلق الله مطيعا لقوله « تفكروا » والتفكر هو أن يتأمل الانسان وينظر الى خلق الله سبحانه ، وذلك لمعرفة قدرة الله سبحانه ومدى ابداع خلقه ، ويرى أئمة الصوفية ان التدبير انما يكون لذلك متفكرا فى خلق ا لله مسقطا التدبير مع الله ، وذلك مناقضا للفكر فالفكر أنما هو ذاتى يخطىء فيه الانسان ويصيب ويرى أئمة الصوفية أن التدبير انما يكون فى اسقاط التدبير وبذلك بتوكل المؤمن على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبة فالله سبحانه وتعالى هو المتولى لتدبير ملكه وخلقه جميعا وكلمـــا

---

(١) الامام الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ٠

سلمت له مخلوقاته كان ظنك دليل العلم والمعرفة بالله وقدر الله وحق الله وأن العبد اذا عرف ربه » لاستمر أن يدبر معه أمرا .

ان الاساس اللازم للعبد الصالح الذى يريد أن يبنى ولا يهدم وأن يصلح ولا ينسيه هواء يترك التدبير مع الله وأن يتفكر فى خلق الله ولا ينازعه فى ملكه وعليه أن يقر بانه الخالق العالم الحكيم الرحيم ، الذى يمهـــل ولا يهمل وعليه أيضـــا أن يسقط الاختيار اذ أن ما لله لا ينبغى أن يكـــون للانسان فمهما تقدم الانسان من الناحية المادية فانه لن يتقدم الا بمشيئة الله ومهما وصل الى مخترعات ومكتشفات فانما يخضع لتدبير الله وحكمة الله فهو الذى يسيره وهو الذى يحركه ويقوده رضى بذلك أم أبى ، أسقط التدبير مع الله أو طغى وتكبر ذلك هو حكم الله فى الارض .

الزهـــد والتزهـــد

الزاهد فى الشىء المعرض عنه أو الغير راغب فيه ، والزهد غنى عن الناس واقبال على الله ، ولذلك يرتبط الزهد بالفقر ، فالفقير الزاهد .. الفاقد لمـــا يحتاج اليه جمهرة الناس ، أما اذا فقد الانســـان ما لا يحتاج اليه فلا يسمى فقيرا أو زاهدا ، وبذلك يكون الزهد هو القدرة أو الاستطاعة لتملك الشىء الا ان الزاهد مع ذلك يهجر هذا الشىء ، ابتغاء وجه الله ، وتزكية نفسه بصالح الاعمال .

أما الذى لا يملك فلا يعد فى نظر الائمة زاهدا ، اذ كيف يزهد فيما لا يملك وفيما لا يستطيع تملكه [1] ... الزهد بالمعنى الاسلامى اذن ليس ادعاء طلب الفقر ، والرغبة فى الكفاف من العيش ، كما أنه ليس التظاهر بعدم الحاجة الى المال والاملاك وما يتبع ذلك من تبطل وسلبية وانعزال .

الزهد سعى من أجل الرزق الحلال وجهاد واجتهاد للحصول على المال الذى يكفل الحياة المستقرة بالطريق الشرعى السليم ، ثم الانفاق من هذا المال ورعا وتقوى ، وسخاء وجودا واحسانا .. لله .. باعتبار أن الله هو الغنى على الحقيقة وان مال الانسان ليس ماله الا مجازا اذ أنه مال الله على الحقيقة مستخلف فى ادارته فصاحب المال ليس الا مفرضا من قبل الله فى انفاقه فى وجوه الخير بحسب ما أمر به تعالى :

« والله الغنى وأنتم الفقراء » (محمد : ٣٨)

---

(١) معجم الفاظ القرآن ج١ (الزهد) .

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد »

(فاطر : ١٥)

الزاهد الحق أذن يشعر صادقا أن المال الذى رزق به مال الله •• فهو ليس ماله على الحقيقة ، فلا يمسك يده فى شح أو بخل أو تقتير عن الانفاق فى الزكاة والصدقات وأعمال البر والخير •• ولا يسرف فى تبذير وأفراط مصداقا لقوله تعالى :

« وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » الرعد : ٢٢)

«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل»

(البقرة : ٢٦١)

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (الاسراء : ٢٩)

« يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون »

(السجدة : ١٦)

ويفسر بعض الائمة الزهد أنه خلو الايدى من المال (١) والاملاك ، وخلو القلوب من التتبع أو عدم المبالاة بما عند الاخرين ، وما قد أتاهم من نعم وأموال وأملاك وخلو الايدى معناها هنا كثرة الانفاق على المحتاجين والمعوزين والمساكين •• وفى ذلك يقول على بن أبى طالب كرم الله وجه عن الزهد :

« هو أن لا تبالى من أكل الدنيا •• من مؤمن أو كافر »

فالاهتمام بما عند الاخرين ، والنظر اليهم بعين الحسد أو طلب زوال

---

(١) راجع للمزيد : كتاب الشريعة والحقيقة للمؤلف .

النعم عنهم ليس من الزهد سواء كان أصحابه من المؤمنين أو الكافرين ، اذ الزاهد حقا هو الذى يترك الشىء الذى من قسمته ، ولا نصيب له فيه ، وأن يعرض عما فى أيدى الاخرين من أموال وأملاك (٢) . وهذه نظرية عميقة لا تجد لها مثيلا فى أى الشرائع والقوانين القديم منها والحديث ، ذلك أن الزهد فى الاسلام يقوم على أسس أخلاقية تطهر النفس من الحسد والحقد والغرور والعجب فلا يعترض الزاهد المسلم على حكم الله وقضاء الله اذا أعطى غيره ومنع منه ، ولا يشارك الله فى ملكه عندما تضيق عليه الدنيا وينعم غيره فى النعم .

ويتبين للمتأمل أن الزهد فى الاسلام ليس أنعزالا وسلبية وتواكلا وتبطلا وتعطلا عن الجهاد أو الاجتهاد ، كما يؤوله بعض المستشرقين والمستغربين .. وأنما على العكس من ذلك تماما فان الزهد نظرة صادقة للدنيا فى حجمها الحقيقى باعتبارها دار فناء ودار غرور ، والمال فيها فتنة لصاحبه ربما يؤدى به الى الهلاك عندما يجعله غاية فى حد ذاته ، وهو فى حقيقة أمره وسيلة فحسب لتحقيق غاية ألا وهى عبادة الله فى الارض .

أن كثيرا من الاغنياء ينسون لانشغالهم بالمال ومحاولة جمعه ، حقوق الله عليهم ، ويظنون ضعفا وتكالبا عليه ، أنهم أصحابه الحقيقيون ، وأنه أعطى لهم لذكائهم أو لمهارتهم ، لرضا الله عنهم ، ويغترون بأنفسهم فيتوهمون أنهم يعاملون معاملة خاصة من قبل الله ، وأن لهم مقامات عالية غير الفقراء والمساكين الذين يكدحون ليلا ونهارا دون أن يحصلوا الا على النذر القليل من المال والذى لا يكفى لتحقيق متطلباتهم الضرورية ، ولا يكفى

---

(٢) الامام الغزالى : احياء علوم الدين ج١٣ — ص ١٣٩١ وما بعدها .

احتياجاتهم المعيشية وهذا ظن فاسد •• ووهم كاذب •

أن كثرة المال كثيرا ما تؤدى بالجاهل الى الغرور والاغترار ، ويزعم أنه بماله هذا سيحقق له سعادته الابدية ، وأنه به فى غنى كل شىء •• اذ بجمعه يصل الى الامن ، ويعظم أمله فى الدنيا ، وبذلك ينسى الغنى الجاهل حقوق الله، ويهمل فى تأدية التكاليف والواجبات الشرعية ، متوهما أنه ليس فى حاجة الى الله فهو الغنى المتميز عن الفقراء •• ويقع فى المخالفات ويقترف الاثام ، ويستغل الناس لزيادته أضعافا مضاعفة ، ويفسد فى الارض لعله يحقق غايته ، فيسقط فى النقائض والافات ، ويقترف الرذائل ، فيقبل على العمليات الربوية والاحتكار والاستغلال والظلم •

فالزاهد الحقيقى ليس الفقير الى المال ، ولكنه الغنى الشاكر •• الذى ينظر للدنيا بعين الزوال ، لتصغر عنده ، فيعرض عن زينتها وفتنتها ويخاف الوقوع فى حبائلها ، ويخشى الأغترار والامتلاك فيها ، ويجد الحقيقة فى عزوفه عنها بلا تعمد أو تكلف أو تظاهر •

التزهد أذن أفتقار الى الله ، لا أفتقار الى المال ، وبذلك يكون أرتباطا قلبيا صادقا بالحاجة الدائمة الى الله تعالى ، والاسترسال معه فى كل أمر من الامور ، والتوسل اليه بالانفاق والعطاء والايثار والاحسان والتصديق فى سلبية •

أما اذا شغل الانسان بغيره من الناس وأمل فيه واحتاج اليه وطلبه دون الله فلايعد زاهدا ، لان المخلوق مهما كان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فكيف يملك لغيره ، فالله وحده هو الغنى المغنى وهو غنى عن عباده ، وعباده فى حاجة اليه على الدوام والاستمرار ، ومن شهد أفتقاره الى الله تعالى

ورجع اليه ، أغناه من حيث لم يحتسب وأعطاه من حيث لا يدرى •

مفهوم الزهد اذن ليس معناه أن يعدم الانسان المال أو يرفضه رفضا تاما وانما الزهد أ ن يكون المال فى اليد وليس فى القلب • أن يكون وسيلة لتحقيق غاية هى عبادة الله فى الارض فاذا تكبر أو تجبر الانسان فلا يعد زاهدا واذا استغل أو أحتكر أو ظلم فلا يعد زاهدا •

والتزهد وسط عدل لانه يحقق الخير للنفس وللناس فى الحياة الدنيا وفى الآخرة جميعا فمعنى التزهد سعى وجهاد واجتهاد فى الرزق وهذا السعى ليس من أجل الشره والاشراف والحرص أو لتلبية الشهوات الزائلة وانما لتحقيق رسالة الانسان فى الارض وتنفيذ أوامر الله فى الزكاة والانفاق والتصديق والاحسان كما أنه ليس تبطلا وسلبية •

التزهد الاسلامى اذن وسط عدل بل تحقق النفس أمنها وهو سكينة فى القلب وطمأنينة مع الله وهو وسيلة لعلاج أنحرافات النفس سواء كان ذلك الانحراف افراطا أم تقتيرا •

والزهد يرتبط بالتوكل على الله أرتباطا وثيقا ، فالتاجر المتوكل يعمل ويسعى وهو واثق فى الله تعالى فما يرزق به من مال يحمد الله عليه وما هو غير مقسوم له لايعترض عليه فهو راض بحكمه وقضائه •

ولا تنصرف نظرية التزهد الاسلامى الى معنى التواكل وانما على المرء أن يسعى ويجتهد للحصول على رزقه ورزق أولاده وطلب المال بطريق الحلال •

أن نظرية التزهد الاسلامية نظرية متكاملة تربط بين السلوك الاخلاقى والاقتصادى برباط محكم فليس الزهد الا طاعة الله وسعيا وجهادا واجتهادا حسب منهج الله وشريعته وذلك لتحقيق كلمة الله فى الارض •

الشريعـــة والحقيقـــة :

أن الشريعة الاسلامية (١) • بجوانبها المختلفة وابعادها المتكاملة هى بمثابة الرسم النهائى الواضح لكل فروع التشريع من فقه واحكام ومعاملات وعلى المسلم أن يحقق ما جاءت به الشريعة ويطبقه دون زيادة أو نقصان فالشريعة بهذا المعنى هى الخريطة والدليل وعندما يبدأ المسلم الكشف عن الكنز الخفى فى الدين الكريم ، واذا نجح فى هذا الدليل الوافى فانه لا شك سيصل الى بر الامان ويبتعد عن كيد الشيطان وغواية النفس بل يبتعد عن الرسوم والاشكال الى الاهتمام بالسلوك والاقبال على الاعمال وبذا تصفوا النية ويحلو القلب وتركض الروح فى آفاق الشفافية والصفاء •

استنســاخ أعمال فنيــة :

ان المجاهدة قبل كل شىء علم بالشريعة والمجاهد فى الله يحمل دليلا يقوده فى صحراء الحياة لا يفارقه برشده ويوجهه ويبين له الطريق عندمـــا يضل أو يقف عنده متأملا ليكشف عما غمض عليه أن يرجع اليه فى كل مسألة ويستحضره فى كل عائق وعسرة حتى يسلم من الغواية ويستضاء دائما بنور الحق والصدق •

والشريعة بلا حقيقة باطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة فاذا كان التطبيق واعيا وصادقا أكتمل أيمان المسلم وكلما ازداد وعيا وصدقا ازداد أيمانا حتى

---

(١) د. حسن الشرقاوى — من حكماء الامة .

يصل الى درجة يكون فيها السلوك والعلم عمل واحد ، وتكون شريعتـــه حقيقية ويكون ظاهرة باطنة ويكون قلبه وعقله شيء واحد .

وهنا يصل العالم السالك الى درجة الحكمة العليا كما يقول الترمذى أو العرفانية كما يرى ذلك الشيخ الاكبر ابن عربى أو الصديقين كما هى عند حجة الاسلام الغزالى أو القطبانية كما هى عند الائمة من الصوفية .

اذن فالشريعة والحقيقة ليس بينهما أنفصال ، وانما تماميتها الاتصال والتكامل ، هما شكل ومضمون ، ظاهر وباطن ، رسم وتنفيذ أرض وبناء ، أسلام واستسلام ، اناء وماء ، جسم وروح ، فاذا ما وصل المسلم بمجاهداته الى الله أصبح مؤمنا باذن الله فالايمان يسبقه أسلام والاسلام بالسلوك الاخلاقى يتبعه ايمان فاذا تحقق ذلك قيل أن هذا المسلم من الواصلين أو المؤمنين أو الصالحين .

والرابطة لالتحام الشريعة بالحقيقة هى النية وهى العزم على الفعل أو هى معرفة وتحديد العمل المراد القيام به ، فالنية اذن تصوير الاعمال وتوجيهها الى معرفة الله عز وجل .

والشريعة تتفق بذلك مع الحقيقة وتؤكدها الا ان هناك أختلافا ظاهرا بين صاحب الشريعة وصاحب الحقيقة وهذا يتضح أكثر ما يتضح فى مسألة السر .

فالشريعة معلومة للمسلم فى مظهرها الخارجى بمعنى أن العقائــد والتكاليف والفرائض الشرعية كالصلاة والصوم والزكاة والحج والتوحيد

---

(١) د. حسن الشرقاوى — من حكماء الامة .

هى معالم الدين الاسلامى فاذا تركها المسلم بدون سبب قوى يمنعه من تأديتها دل ذلك على أنه لا يسير فى طريق الدين اذ ان أغفاله هذه الفرائض بمثابة الحكم عليه بالخروج عن الدين خاصة اذا شاب ذلك عدم الاعتقاد فى ذات الله الواحد القهار •

الشريعة اذن واجبة على المسلم معرفتها اجمالا وهى بسيطـة فى مظهرها لا تحتاج الى كثير من التعليم والتلقين ، ولكن يختلف المسلم فى درجة فهمه لها وعلمه بها فهى كالبحر لا يمكن تحديد أعماقه ولا معرفـة أغواره • فاذا ما تدرب وتفهم ، كشف وعاين وشاهد وراقب الله وليس ملكا للخالق فلا الاهواء تتجاذبه ولا الامواج تتقاذفه ولا يشعر براحة الا مع الله وهنا يكمن السر الذى يرتفع به السالك عن هواجس النفس لان الحق تعالى غيبة عن الدنيا وما فيها •

فالشريعة ليست رسوما ولا زخارف ولا اشكال وانما أيمان واخلاص وصدق وطاعة لله وخوف من وعيد الله ورجاء فى وعد الله •• الشريعة نية خالصة لله واسترسال مع الله فى كل أمر وفعل فلا يأمن والعبد ينظر الى حظوظ نفسه ويوافق أهواءه ويشـارك الله فى ملكوته فلا يميز بين مقامـه كعبد وبين مقام الله كرب •

فالشريعة الاسلامية اذن ظاهر وباطن والاعمال الظاهرة فى عمـل الجوارح كالعبادات مثل الطهارة والصلاة وأما الاحكام فمثل الحدود من طلاق وعتاق وبيع واليقين والصدق والاخلاص والطاعة والمعرفة •

والاسلام ظاهرة باطن فلا غنى عن الظاهر بالباطن كما أنه لا غنى عن الباطن بالظاهر •

اذن ينبغى أن تطابق الشريعة الحقيقة حتى يكون الانسان صادقا •

بين الظاهـــر والباطـــن :

يصف ابن خلدون [1] المقابلة بين علمى الفقه والتصوف قائلا وصار علم الشريعة صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفقه وهو الاحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم ويقصد بالصوفية) فى القيام بالمجاهدة (يشير الى مجاهدة النفس) ومحاسبة النفس عليهـــا ، والكلام فى الارواق والمـــواجـــد العـــاضة طـــــريقها ، وقد أطلق على الصوفية منذ هذا العصر وما بعده تسميات خاصة فى علمهم فعرف بعلم الباطن وبعلم الحقيقة وبعلم الوراثة وبعلم الدراية ، فى مقابل علم الظاهر وعلم الشريعة وعلم الدراسة وعلم الرواية وقد وضح الطوسى فى (اللمع) [2] • الفرق بين علم الباطن وعلم الظاهر ؟ أو علم الدراية وعلم الرواية قائلا •

« ان علم الشريعة علم واحد وهو أسم واحـــد يجمع معنين الرواية والدراية فاذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية الى الاعمال الظاهرة والباطنة والاعمال الظاهـــرة كأعمال الجوارح الظاهـــرة وهى العبادات والاحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه العبادات » •

وأما الاعمال الباطنة كأعمال القلوب وهى المقامات والاحـــوال مثل التصديق والايمان واليقين والصدق والاخلاص والمعرفة والمحبة والرضـــا والذكر والشكر •

---

(١) د• ابو الوفا الغنيمى التفتازانى ــ محاضرات فى التصوف الاسلامى ص ٦١ •

(٢) المرجـــع الســـابق

فاذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى على الجارة الباطنة وهى القلب كما أنه اذا قلنا علم الظاهر أشرنا الى علم الاعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة ويهتم الصوفية بالظاهر والباطن جميعا وهم يختلفون عن أهل الحديث الذين يهتمون بفرع واحد من الدين وهو الناحية الظاهرية دون التغلغل الى الباطن •

ويقول أبو اسحــق عن رواة الاحاديث (١) : ان العلم ليس بكثــرة الرواية أنما العلم من أتبع العلم واستعمله وأقتضى بالسنة وأن كان قليل من العلم ولذلك أن العلم الحق هو الا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت

والاساس الحق فى فهم الدين الاسلامى وادراك تعاليمه ، أنما هو الطريق الذى ينتهجه أهل الحق الصوفية العارفون بالله • والغاية المنشودة لهم هو الربط بين الظاهر والباطن حتى لا يكون الدين جســدا يفتقد الى الروح فالظاهر أنما هو تلك العلوم الجزئية المتباعدة ، أما الباطن فهو ذلك الاصل الذى يسعى اليه الانسان من وحدة فى الروح والموضوع •

الظاهر اذن ينقصه الوحدة لان الظاهــر عبارة عن رسوم وحــدود ونصوص لا تؤلف بينهما غاية وهذا ما أهتم به أهل الفقه •

وفى قصة سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ شاهد على ذلك ، اذ أنه كان مأمورا من قبل الله سبحانه وتعالى أن يتبع الاسباب الظاهرة لأن النظر من ورائها من خفايا أقتضت المشيئة الالهية ان لا يعلمها ، فلما سار مع الخضر ـــ عليه السلام ـــ وكان صاحب علم لدنى وهى خاص لم يطق معه صبرا ،

(٣) د• حسن الشرقاوى ـــ من حكماء الامة ص ١٦٦

(١) أبو عبد الرحمن السلمى ـــ طبقات الصوفية ص : ٦٧ •

فالقتل وخرم السفينة وبناء الجدار لم يكن ذلك كله لاسباب ظاهرة وانما كان لاسباب خفية لم يحط موسى — عليه السلام — بها علما لذلك أنكرها وهنا قال له الخضر عليه السلام ، هذا فراق بينى وبينك أى فراق بين علم الانسان وعلم الله (٢) •

ويقول الغزالى (٣) ليس للشرع ظاهر وباطن وسرد علنى بل الظاهر والباطن واسرد العلنى واحد فيه •

وقال سهل التسترى : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لاهل الظاهر وعلم باطن لا يسعه أظهاره الا لاهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لاحد •

ويقول الامام الغزالى : الباطن أن كان مناقضا للظاهر ففيه أبطال للشرع وهو قول من قال ان الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لان الشريعة عبارة عن الظاهر فهو الى الكفر أقرب منه الى الايمان •

---

(٢) الامام ابو طالب المكى — قوت القلوب ج١ ص ٢٨٤ •

(٣) الامام الغزالى — احياء علوم الدين ج١ ص ١٧١ ، ١٨٠ •

البابُ الثالث

خصائص وغايات المنهــج الاســلامى

الفصل الأول

خصـــائص المنهـــج الاســـلامى

للمنهج الاسلامى خصائص ينفرد بها دون غيره من المناهج التجريبية والموضوعية ، وطريقه الى العلم طريق واضح لا لبس فيه ولا أختـــلاط ولا تناقض أو غموض ، واذا أراد الانسان أن يتفهم هذا المنهج ، فعليه أولا أن يتخلص مما حصله من مناهج متداولة تجريبية كانت أو حسية أو عقلية أو روحية أو مثالية (١) •

ذلك لان المنهج الاسلامى يستقى أصوله من شريعـــة الله ، التى لا تبديل فيها ولا تناقض أو اختلاف ، ولا تحتاج الى عناء تفلسف وكثرة جدل ولجاج من أجل الايمان بهاوالموافقة عليها ، وتفهم معانيها وألفاظها ، كما هو مشاهد فى المناهج العلمية الموضوعيـــة والمذاهب الفكرية ، والنظريات الفلسفيـــة الذاتية •

واذا استكبر الانسان وأغتر بعقله ، وظلم نفسه ، وغرته الامانى ، وظن أنه قادر أن يطبق غير ما أمر الله به ، وأنه بمستطيع أن يناطح حكم الله بما يزعم أنه حاصل عليه من علوم ظنية ، وأفكار وهمية ، ونسب عقلية خاطئة ، فانه واقع مما لا شك فيه فى الضلال والجهالة : لتوقفه عن السعى فى ادراك حقائق الامور وتردية فى هوة الشك ، وعجزه عن الوصول الى شط الامان •

أن أنسان العصر اذ ركب الان شطط عقله ، تتقاذفة أمواج هـــادرة لا يقدر على مواجهتها ، كما تستغلق عليه أسرار هذا الكون والحكمة منه ،

---

(١) راجع : العلم والايمان فى الاسلام ـــ منشورات مجلة الحياة الثقافيـــة ص ٨٣ ـــ ١٠٠ •

فهو بذلك يغرق فى بحر لجى من الوساوس والهواجس ، ويتردد فى غفلة من الريبة والضياع والضلال •

أن الذى يريد أن يقيم منهج الله أو يصدر أحكاما عليه من خلال تجاربه أو تجارب الاخرين أو من خلال مواقف عقلية أو حسية أو روحية •• يناطح السماء ، أو مثله كمن يضرب برأسه فى حائط الوهم والخيال دون أن يشعر انه يهشم رأسه ، ويضيع عمره فى الحسرة والنـــدم •

والذى يتجبر ويتكبر على آيات الله البينات ويظن زورا وبهتانا أنه يستطيع أن يهدي بعقله وحده الى الحق ، انما يبتعد كل البعد عن التصور الذهني الرشيد لـ حكمة الله البالغة فى الكون والحياة •

لابد أذن من أن يمسح الانسان عن نفسه ما تعطبت عليه من مرذول العادات ، وأن يتخلص من الظنون والاوهام ، وأن يتقرب الى الله ، وذلك باطاعة أوامره بقلب مخلص سليم ، ونفس صادقة سائرة فى طريقه تعالى نحو الاستقامة ، وتصبو الى العدل ، وتسعى الى البر ، مسلمة وجهها لله غارقة تماما عن الاستظهار والعلو فى الارض ، زاهدة فى المكاسب الزائلة ، والمغانم الوقتية ، والمنافع الذاتية ، والمصالـــح الانانيـــة ، ان أعظم غاية للنفس السامية الى الله ، بلوغ مراتب الحكمة التى تحقق لها الخير فى الدنيا والاخرة •

واذا أستقامت النفس ، ولم يجنح العقل عن الرشد ، ومسح عن القلب الرياء والحقد والشك والريبة ، فان هذا الانسان يستطيع أن يحظى ببعض علم الله ، ويتفهم ما تيسر له من خصائص منهجه تعالي ، المشيد على

---

(١) مبادئ اساسية لفهم القرآن ص ٥٦ـــ٦٦ •

دائم متينة من الدين القيم،فيتعرف حقا على شرعة الكمال والثبات والصدق التي لا مثيل لها ولا نظير :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »

(آل عمران : ٧)

ويمكن تبيان بعض خصائص هذا المنهج على قدر ما تيسر لنا تفهمه من كلمات الله التامات ، واستيعابنا من فضل سنة نبيه الامين محمد ﷺ وهذه الخصائص هى :

١ ــ فطرى ..   ٢ ــ كامل ..   ٣ ــ ثابت ..

٤ ــ صادق ..   ٥ ــ شامل ..

الفطـــــرية

من خصائص المنهج العلمى الاسلامى أنه يخاطب الانسان بلغة يفهمها دون عناء ، وذوق خاص يلهم به بلا تكلف ، وفكر يتأمـله دون غمـوض ، وحقائق ينشرح بها الصدر دون تعقيد ، ومعان تقذف الى فؤاده فلا يكذبها .

وقد يتساءل البعض اذا كان الامر على هذا النحو من اليقين ، فلماذا يكذب كثير من الناس هذه الايات البينات ، ويتغضون عنها ، رغم أنها الحق المبين ثم أنهم يعبدون ما نهى الله عنه ، ويمضون فى اللجاج والحجاج بين مرتاب ومتشكك ومنكر .. ألا يدل ذلك على أن هناك فجـوة سحيقة بين الاقرار بالحق واتباعه أو بين العلم والعمل ، أو بين الفكر النظرى والسلوك العملى ، أو بين الشريعة والحقيقة ..

ان هذا التساؤل يحمل بين طياته تساؤلا آخرا حول طبيعة الفطـرة الانسانية ، لمـاذا يخالف الانسان قانون الفطرة ما دام هو الحق الواجب الاتباع ؟ .. ولمـاذا ينازع القانون الالهى برغـم أنه يواكب الطبيعـة الانسانية ، ويحقق الخير الفاضل ؟ ويمكن طرح هـذا التساؤل بطـريقة أكثر وضـوحا ..

اذا كان الدين القيم فطرة فى الناس جميعا ، فلماذا ينحرف الانسان عنه ويظلم نفسه ؟ .. لمـاذا لا يتبع :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها » (الروم : ٣٠

يجد المتأمل فى آيات الله البينات الاجابة واضحة وصريحة على هـذا التساؤل عندما يتحدث تعالى بلسان المؤمن :

« الا الذى فطرنى فانه سيهدين » (الزخرف : ٢٧)

لا خلاف اذن فى وجود الفطرة الانسانية ، ولكن الخلاف هنا فى هداية الانسان وضلاله ، فى تقواه وفجــوره ، فى اخلاصــه وشركه ، فى ايمــانه وكفره ، فى طاعته وعصيانه ، فان فى جبلات النفس قوى شيطانية منها حب المدح والثناء والضعف والبخل ، وطلب الشهوة ، كما أن فى الانســان قوى ربانية تلهمه بالحق والعدل والخير ، والنفس تلهم بالفجور كما تلهم بالتقوى ، تصديقا لقــوله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها » (الشمس : ٧)

« ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء » (النحل : ٩٣)

اذن هناك فطرة سليمة فى الانسان ، الا أنه اذا استكان لجبلات النفس طغى عليه الضعف البشرى ، وملكته الشهوة ، ونسى وغفل أمر الله ، وأطاع غرور عقله وتبع غواية الشيطان ، أما اذا جاهد النفس والشيطان ، استقام فى طريق الحق ورحمة الله وهداه الى فطرته السليمة .

واذا تأملنا غاية الله من الخلق كما ورد عنه تعالى ... نجد أن حكمته البالغة تقتضى أن يسعى الانسان لمعرفة ربه ، وأن يعمل لمرضاته ، ويجتهد فى عبادته وأن يعلم أنه مفتقر اليه على الدوام ، مضــطر الى عــونه على الاستمرار :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦)

فاقامة الوجه للدين هى فطرة سليمة فى الانسان اذ هى استرسال مع

الله واسقاط للتدبير معه تعالى ، وتوكل دائم عليه فى كل أمر وفعل ، وعدم الاعتراض بالكلية على مشيئته وقضائه •••

ولقد حث تعالى الانسان على الاجتهـاد والجهـاد فى طـريقه به ، وليعمل على معرفته وتوحيده ، ولا يجد الانسان الصادق عنتا ولا تكلفـا ولا حرجا ولا رهقا ، ما دام لا يوافق نفســه الامارة التى لا تصــدق فى وعودها ، وشيطانه الفاجر الذى يحسن له قبيح عمله ، فيجعله حسنا ، ثم يتركه بعد فى ضلال مبين ، لذلك فانه يقتضى على السلم أن يتمسك بميثاق الله حتى لا يجرفه التيار الشيطانى ، فتحقق عليه اللعنة وسوء العاقبة :

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » (المائدة : ٧)

« وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » (الاحزاب : ٧)

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »

(الرعد : ٢٥)

أخذ الله على الناس اذن ميثاقا غليظا ، وأرسل اليهم الانبياء مبشرين ومنذرين أن لا يعبدوا الا الله فاطرهم وفاطر السموات والارض ، ثم تركهم لاختيارهم بلا اجبـار :

« لا اكـراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦)

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس : ٩٩)

فاذا أغلق الانسان قلبه ، وأصم سمعه ، وأعمى بصره أسلم نفسه ، وأما اذا سار فى طلب الحق ، وأعتدل أمره ، وزاده الله علما •

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات »
(فاطــر : ٣٢

فالانسان يحتاج دوما الى المجاهدة[١] فى العــلم والعمل الصالــح والتأمل فى نفسه وفى الحق والكون جميعا ليوافق فطــرته ، وليهــدى الى الاستقامة والعدل ، وأما المتبطل والمغرور والمتكبر والموسوس فانهم جميعا يسرفون أو يبخلون فتحجب عنهم الحقائق ، وتغلق أمام عيــونهم أنوار الايمان ، فيتخبطون فى الشك والريبة والجهل ويقعون فريسة الامــراض النفسية والعصبية كالقنوط واليأس والغضب والحقد والحسد،فلا يتعرفون على الغاية من خلقهم ولا على رسالتهم فى الارض ، ومن هنا •• يسعــون فى الارض فسادا وافسادا ، ويعيشون بكل شىء ويجعلون حياتهم لعبــا ولهوا وفوضى ويحسبون بجهلهم أنهم يحسنون صنعا :

« أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »
(المــائدة : ٥٠)

والرجوع الى الفطرة السليمة رجوع للحق[١] ،وهو الاصل ، وهو من فضل الله ورحمته وهديه فيسعى الانسان الى مخالفة الاهواء والظنــون الفاسدة ، فيتعرف على نفسه ، ومن عرف نفسه عرف ربه ••

أما اذا جهل الانسان حقيقة خلقه ومركزه فى هذا الكون ، فان هذا الجهل يقوده لا محالة الى التهلكة والضلال والفوضى والفساد فى البدن والنفس و العقل والقلب ، وفى العلم والعمل جميعا ••

الكمـــال

أن المنهج الاسلامى الذى يستلهم أصوله من القرآن الكريم ، والسنة المحمدية الشريفة ، وهو أفضـــل منهج يمكن أن يختاره الانســـان فى هذه الدنيا [١] ، ذلك أنه يمتاز بالكمال فى كل شىء ، فلا يجد المتأمل تناقضا فيه ولا نقصا ولاعوجا ، كما نجد فى المناهج البشرية :

« أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »

(الحج : ٧٣)

وكل من يجد فى طلب منهج الله يجده فى صحف مطهـــرة ، بعيدة عن التشويه والغموض قمينة أن تغذيه بالمعانى الصادقة ، كما أنها تقذف الى قلبه الحقائق قذفا كأنها أنوار تضىء باطنه ، وجواهر فريدة تهدى طريقه ، وأقمار منيرة تبين له الرشد فى الليل البهيم والحلكة الدامسة :

« أنما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما »

(طه : ٩٨)

لا يمضى الانسان بمنهج الله وحيدا وجلا ، يخشى العثرات ، حائرا فى صحراء لا زرع فيها ولاماء ، ولا يسير بهذا المنهج يائسا تكتنفه الظنون قانطا تعتريه الهواجس والوساوس والخطوب ، فيتخيل صورا وأشباحا ليس لها من وجود أنما المؤمن بهذا المنهج يتخذ الاله الواحد الصمد أمله وغايته ، ويشعر شعورا مؤكدا أنه تعالى بجانبه يعاونه ويساعده ويشد من أزره ، ويثبت قلبه ، وأنه أقرب اليه من حبل الوريد ، وأنه لن يتركه وحيدا بلا رحمة

---

(١) راجع الشيخ محمد الطاهر عاشور — أصـــول النظام الاجتماعى فى الاسلام — نشر تونس ص ٤١ .

ضالا بلاهدى ضعيفا بلامعين فاذا أخطأ أرشده ، واذا تعثر أخذ بيده ، واذا نسى ذكره ، واذا غفل أيقظه ، واذا خاف ثبت قلبه بالقول الثابت ، واذا استوحش طمأنه واذا عجز ألهمه :

« قال لا تخافا أنى معكما أسمع وأرى » (طه : ٤٦)

والمؤمن يعرف تمام المعرفة أن منهجه الحق الواجب الاتباع ، وأن غيره من المناهج خطأ مبين ، وأن ظهر بعضها للعيان فى صور الرحمة ، الا أن باطنها العذاب المقيم •

أن أى منهج يضعه الانسان من عنده مهما وعد أصحابه بادعاءات كاذبة ، وشعارات باهتة ، ومزاعم باطلة ، ومن أن يستهدف تحقيق السعادة لطالبيه ؛ ما يلبث أن يكشف عند التجربة فساد دعاويه •

وها هى الانسانية ما تزال تغير كل وقت وعصر جلودها ، وتبدل مع كل صيحة جديدة مناهجها ، وتستقدم نظما جديدا تطرد بها نظمها القديمة ، وتستنبط آراء ومذاهب مستحدثة تهدم بها ما كانت تتبعه من قبل من مذاهب وآراء ، ثم يظهر لها بالتجربة ، ويثبت لها الواقع المشاهد عقم مزاعمها وفساد معتقداتها ويكتشف للناس المرة بعد المرة أنها لم تحقق ما وعدت به الناس من الامن والسلام ، بل على العكس ، تركتهم نهبا للشك والزمت والضياع •••

كم جربت الانسانية من مناهج ومذاهب وآراء •• وما يزال الجاهلون بغرورهم وعادهم يحاولون اجترار النظريات القديمة التى ثبت بالامس فشلها ، ويضعونها فى أساليب جديدة ، وصياغات مستحدثة ليضالوا بها

الناس ، ويخدعونهم ، ويصورون لهم أن ما أكتشفوه من الجديد والمستحدث من تلكم النظم هو جنة الله فى الارض (1) .

ثم يتضح عند التطبيق أن ما زعمته هذه المذاهب ، وهم واهم ، اذ أنها تحمل شعارات زائفة لا تعبر عن الحقيقة الخالصة ، ولا تحقق للانسان الاطمئنان والسكينة والامن المنشود .

أن الكمال الذى يحققه الايمان بمنهج الله لا يحققه أى من هذه المناهج مهما صورت للناس على أنها تستهدف العدل والحق ، ذلك أن أكثر ما فى تلك المناهج التى يشرعها البشر يتنافى مع الحقائق الالهية ، اذ لا تتبع حكمة الله البالغة ، ودينه القيم ، وآياته التامات الكاملة :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »

(البقرة : ١٠٦)

ان الكمال فى التشريع الالهى يحمل للانسان معنى العزة ، اذا أتبع طريق الاستقامة والاعتدال والقسط والقصيد والحق ، وهذا الكمال يتوخى الوسط العدل الذى لا تبذير فيه ولا تقتير ، ولا أسراف ولا تفريط ، انما هو الخير الفاضل الذى يعبر عن الخير والحقيقة فى كل شيء :

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »

(الاسراء : ١١٠)

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمشى فى الارض مرحا »

(لقمان : ١٨)

---

(1) الشيخ الاوزاعى المودودى — نظرية الاسلام السياسية ، دار الفكر ص ١٩—٢٣ .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »

(الاسراء : ٢٩)

فالكمال هنا فى اتباع النفس للوسط العدل الذى هو الصراط المستقيم ، فكما أن الكون كله يتبع هذا الوسط ، كذلك فان الامة الاسلامية أمة وسطا ، وهذا الوسط معناه الحكمة التى هى الخير الكثير :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة : ١٤٣)

لذلك فان منهج الله وشريعته أكمل رسالة وأتمها وأقوم دينا ، وأرضى عقيدة وحكما :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة : ٣)

الثبـــــات

أن جميع المناهج الوضعية والقوانين البشرية يعوزها الثبات ، سواء كانت هذه المذاهب عقلانية أو روحية أو تجريبية ، فما يلبث أن تظهر بين الحين والحين نظريات جديدة تدحض حججها ، وتبين ضـآلة صدقها ، ويعرض بعض العلماء وجهات نظر جديدة تهدم المناهج القديمـة وتلغى قواعدها وقوانينها ونظرياتها (١) .

ويحتار الانسان أمام هذا الخضم العجيب من المعانى المتناقضـة والافكار المختلفة ، وتسد أمامه السبل ، فلا يعرف الى أى من هذه المذاهب

---

(١) راجع : د. عبد المجيد متولى — الغزو الفكرى الالحادى .

عليه أن ينتسب ، وأى منها الصادق ، وأى منها الباطل ... حتى ينتهى فى آخر الامر بعد البحث والتدقيق الى موقف الرفض لها ، فيتشكك فيها ، وربما يهوى على أم رأسه فيكفر بكل شىء ، ويقع فى الضياع فيجرفه تيار الالحاد الى الضلال المبين .

واذا كان الباحث قد هداه الله الى تأمل منهج الله ، وحظى بنعمة الايمان به وجعل أمامه وقدوته الرسول — ﷺ — نجا لنفسه وثبت قلبه على الحق الحق وأمن من شر الانحراف عن الصراط المستقيم :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى » (الرعد : ١٨)

اذا تيقن الانسان بفطرته السليمة أن طريق الله هو الحق ، فانه يربط الله على قلبه ، ويثبت قدمه ، فلا يشك فى أمر الله ، ولا يتردد فى طريقه ، اذ تفتح أمامه السبل ، كما وعد الله :

« يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

(محمد : ٧)

فالذى يتمسك بالمنهج الاسلامى يرشد الى العلم الصحيح ، ويثبت بالقول الثابت ، ويمده الله بالامن الداخلى ، وبالالهام الملائكى ، فلا يفقد أبدا طريق السلامة والامن :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة »

(ابراهيم : ٢٧)

ويحظى فيه المؤمن بدرجات تزداد يوما بعد يوم من العلم والمعرفة واليقين ، فلا يخذله أو يتركه تعالى ، ما دام سائرا فى طريق التوحيد والايمان :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات »

(المجادلة : ١١)

وهذه هى سنة الله للناس وحتى اذا تبدل الناس جميعا وتحولوا ، فان سنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير ، اذ هى ثابتة أبدا .

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

(فاطر : ٤٣)

« سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا »

(الاسراء : ٧٧)

منهج الله ثابت فى الزمان والمكان ، والله لا يستحى أن يقول الحق :

« وأتيناك بالحق ، وأنا لصادقون » (الحجر : ٦٤)

ويمكن أن يدعى بعض الحاقدين أنه برغم أن هناك أمة للاسلام تسير على هذا المنهج وتؤمن به ، فان أصحابها يحيون حياة المذلة والضعف والوهن فى وقتنا هذا ، ويستهدف هؤلاء من ذلك الادعاء بجمود الشريعة وعدم أنسحابها على انسان القرن العشرين .

لقد نسى هؤلاء أن منهج الله الثابت شىء ، والمتمسحون به كذبا وبهتانا ونفاقا شىء آخر ، والله تعالى لا يثبت الا الذين آمنوا ، أما الذين يستظهرون الايمان ويخفون بالنفاق والرياء شركهم وبعدهم عن الاستقامة والحق ، فان الله تعالى لا ينصرهم ولا ينناصرهم ولا يساعدهم ولا يثبتهم فى الارض :

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الانفال : ٥٣)

فالمنهج الاسلامى ثابت الى الابد ، كما أن المؤمنين يرونه ثابتا أبدا ، أما أصحـاب الضـلالات من الملحـدين والظالمين والكافـرين والمنافقين والفاسقين فانهم :

« صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (البقرة : ١٨)

وليس كما هى فى الواقع : ثم يرجعون بعد ذلك حقائق مرئية ، ويقيمون عليها الاحكام والتعميمات والقوانين الكلية ، ويدعون آخر الامر أن مناهجهم تخضع للموضوعات العلمية والامانة الشخصية ، وهم أبعد ما يكونون عنها

وأحيانا يتغافل هؤلاء العلماء عن حقيقة هامة وهى أن

كثيرا ما تضلل وتكون نتائجها علنية ووهمية ، اذ أن الوصـول الى الحقائق أنما يتطلب صدقا وروعا وتقوى وأيمانا وتوحيدا :

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »

(يونس : ٣٦)

وعن المعلوم أن الباحث فى النفس الانسانية يمكن أن يصدر أحكاما مخالفة للحق متبعة للهوى والضلال ، اذ أن معالجة هذه الموضوعـات غير المادية لا يمكن أن تخضع للتجارب المعملية والمناهج الموضوعية ، فضلا عن قصور تلك المناهج عن التوصل الى حقيقة واحدة من حقائق الوجود .

لذلك يهتم المنهج الاسلامى بالصدق باعتباره الطريق الموصل الـى العلم والمعرفة ويلقب الرسول ـ ﷺ ـ العالم بهذا المنهج بالصادق :

« وسارعوا فى طلب العلم ، فالحديث من صادق خير من الدنيا وما عليها من ذهب وفضة »

(رواه الرافعى)

ويختلف معنى الصدق فى المنهج الاسلامى عنه فى المناهج الحديثة التى تستهدف — كما سبق الاشارة — الموضوعية دون الاعتداء بصدق الذات العارفة ، اذ تهتم فى المقام الاول بصدق المقدمات وصدق النتائج فحسب •

والصدق الذى استهدفه هذه المناهج ليس صدقا عاما ، أنما هو نسبى، يخدم بعض الاغراض المستهدف أختبارها وأمتحانها ، فهو صدق متواضع يراد منه فقط الوصول الى اثبات صحة الفروض لظاهرة أو عدة ظواهـر معينة ، واجراء التجارب عليها ، وذلك فى ظروف موضوعية مقننة •

ومن الملاحظ أن هذا الصدق الذى تنشده هذه المناهج بتغير الظروف والامكنة ، ويكتشف الباحث أن ما أثبت صدقه بالامس ظهر كذبا اليوم •

وهذا المنهج اذا كان صالحا فى سبر غور الطبيعة المادية ، وما يكتنفها من غموض عن طريق أجراء التجارب واستخدام الاقيسة والاستدلالات ، وغير ذلك من الادوات التى تعين على الكشف والبحث والدراسة ، الا ان هذا المنهج لا يمكن أن يكون صالحا فى تطبيقاته على الانسان ، فالانسان ليس تلك المادة الجامدة الصماء التى يصلح معها هذا النوع من البحث ، اذ الانسان حس وعقل وقلب وروح •• ومن ثم فاذا أريد لهذا المنهج أن يفرض على الناس فرضا ، فلن يتوصل الى شىء ، اذ أنه لا يشتم منه رائحة الصدق والحق من قريب أو بعيـــد •

أما المنهج الاسلامى ، فانه يستقى أصوله من الشريعة الغراء ، ومن الله العالم على الحقيقة ، لذلك فان صدقه كامل فى كل شىء :

« ومن أصدق من الله حديثا »　　　　(النساء : ٨٧)

ومن الصــدق الصدق والصــادق ، والصدق صفة ملازمة للعالــم الاسلامى فى نفسه أو فيما يتدارسه أو يعلمه أو يجربه فى نفسه أو فى الكون والطبيعة .

الصـــدق

زعم فرويد [١] أنه أخترع نظرية تحول دون ادراك الاشياء ادراكا ذاتيا ، وأنها تمنع من أنقياد التفكير الى مجرد أشباع الدوافع الشخصية اذ تستهدف فى المقام الاول التفكير الموضوعى الذى أساسه التزام العالم منهجيا بالامانة الى أقصى حد ممكن ، وحتى اذا كانت النتائج مخالفة لوجهة نظر العالم ، فانه مع ذلك يبين هذه النتائج بنفس الدقة والوضـــوح والاستعداد الذى يبين به النتائج المؤيدة لوجهة نظره .

ولقد ملأ فرويد الدنيا ضجيجا ، وروج لنظريته التى أدعى فيها أنه أكتشف فى الانسان قانون الحتمية النفسية ، وزعم أن الحتمية هى التى تصبغ تصرفات الانسان وسلوكه بطابع معين ، وأن هناك غرائز حيوانيـة تحركه ، ودوافع لا شعورية هى التى تعمل على تكوين شخصيته ، وأن فى باطن الانسان قانونا تحكمه شريعة الغاب [٢] .

ولقد فرض فرويد نظريته هذه على العالم فترة من الزمن باعتبارها الحق الذى لا مراء فيه ، وأنهاتصدق مع التجربة الموضوعية .

والحقيقة التى لا زيف فيها أن كثيرا من العلمـاء ومنهم فرويد —

---

(١) راجع نحو علم نفس اسلامى — للمؤلف ، الدار القـومية للطباعـة والنشر .

(٢) المرجـع السـابق .

أصحاب نظرة ذاتية وتعسفية ظالمة ، اذ يدركون الاشياء — كما يريدونها أن تكون ،

« أن لهم قدم صدق عند ربهم » (يونس : ٢)

ويبين لنا الرسول — ﷺ — فوائد الصدق ، وخساسة الكذب فيقول :

« يظل الرجل يصدق ويصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ويظل الرجل يكذب ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا »

ويعد الصادق عند الله تعالى مؤمنا وصابرا وصالحا فيقول عز من قائل :

« والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون »

(الزمر : ٣٣)

ويرى الامام الترمذى أن الصدق يتعلق بناحيتين [١] :

١ — ناحية عقلية •••

٢ — ناحية أخلاقية •••

فالصدق من الناحية العقلية يعنى العدل ، والعدل أساس المعرفة ، وأما الصدق المتعلق بالناحية الاخلاقية ، فانه يعنى الحق والحقيقة ، وبذلك يكون الصدق صورة متكاملة للعالم من الناحية العقلية والسلوكية ، أو من حيث العلم والعمل ، أو من حيث الذات والموضوع •

فالصدق صورة متطورة للمعرفة تبدأ من الحق وتنتهى اليه ، وللصدق مقومات ثلاث :

---

(١) د• عبد المحسن الحسينى — المعرفة عند الحكيم الترمذى ص ٢٧٣ وما بعدها ، دار الكتاب العربى •

١ ــ المثــل العليا •••

٢ ــ علم الاسرار •••

٣ ــ البصــــيرة •••

أولا : المثل العليا :

يختلف كل أنسان عن الاخر فى ميوله واستعداداته وقدراته ، وبالتالى حظه فى المثل العليا ، وأكثر الناس صدقا أكثرهم تأملا فى هذه المثل •••

والمتأمل يعاون الانسان على التعرف على الفضائل ، والتخلق بمكارم الاخلاق وقمة هذه الاخلاق التخلق بأخلاق الله تعالى : والاقتداء بأسماء الله الحسنى كالرحمة والبر والعدل والصدق والعطف والحكمة والاحسان والعلم •• وغير ذلك من الاسماء التى اذا جعلها الانسان قدوة له فانها تعده للحياة المطمئنة ، وتزوده بالحق الاجتماعى الفاضل ، وكلما رسخت هذه المثل فى نفسه كلما زادت حكمته وفضله ومروءته •

ثانيــا : علم الاسرار :

والمقوم الثانى من مقومات الصدق هو علم الله أو علم الاسرار الذى تنطوى تحته حكمة الله البالغة ، وهى أصل من أصول الصدق الالهى ••••

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا »   (الانعام : ١١٥)

« قل صــــدق الله »   (آل عمران : ٩٥)

والصدق هنا ينصب على علم الاسرار الذى هو علم الله وبالغيب ، وهما أصل اليقين والايمان الذى يربط بين الحياة الاعتقاديــة والسلــوك الاخلاقى للانسان ، بحيث لا يتشكك الانسان فى صدق طريق الله ، أنه مؤمن به •

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك »

(آل عمران : ١٩١)

ثالثا : البصيرة :

وهى العنصر الثالث من مقومات الصدق والبصيرة تعتمد أعتمادا تاما على العنصرين السابقين وهما المثل العليا وعلم الاسرار ، أى تعتمد على أخلاق الفرد ، وعمق تأمله فى حقائق الكون من ناحية وفى الايمان واليقين بعلم الله والمغيبات ، فينتج عنهما علم الفراسة •••

والمتفرس يتمثل الصورتين الاخلاقية والاجتماعية من منطلق على قدر بصيرته ، فيتشكك المعانى الغامضة التى تدق على غيره من أصحاب الحس والعقل •

والبصيرة بهذا المعنى ملكة يحظى بها العارف ، أساسها الصدق ، فيدرك الموضوعات الخارجية ادراكا حقيقيا ، وبهذا المعنى يكون البصيرة كالصدق ، الا أنها تختلف عن الصدق فى الدرجة والقوة ، كما أنها تختلف من أنسان الى أنسان آخر بحسب صدقه ، اذ أنها ليست عامة ، أنما هى ملكة ذاتية يختص بها أهل الصدق أصحاب البصائر •

الشمـــــول

يمتاز المنهج الاسلامى بشمول قواعده وانســحابها على كل شىء فى هذا الكون ، وهذه احدى خصائصه الفريدة ، فلا يدرس الباحث موضوعا واحدا بعينه ، محدد الاجزاء ، له مقدمات مفترضة يصل منها الى نتائج ،

كما تفعل المناهج الوضعية ، دون أن تربط هـذا الموضـوع ربطا محـكما بالناموس الكونى والقانون الالهـى •

وليس المنهج الاسلامى تبويبا متعسـفا لموضـوعاته ، ولا تقسيما متعمدا لمباحثه ، انما تجـد الايات البينات هى الموضـوع الرئيسى الذى يستخلص منها قوام مادته وحكمته وحججه وأصوله •

ومنهج القرآن الكريم يربط التعاليم الخلقية بالنظام الكونى ، فيدعو الى الاستقامة واتباع الخير فى الوقت الذى تشير فيه الايات القرآنية الى بديع خلق السموات والارض وما سخر للانسان من أنهار وبحار ودواب وجبال وشمس وقمر وسحب يربط ذلك بالنصيحة والعبرة ، كما نجد آيات التخويف للكافرين ، والتأنيب للغافلين ، تتبعها آيات التبشير للصـادقين والتثبيت للمخلصين ، مع تقرير الثواب والعقاب لكل فريق •••

القرآن الكريم اذن يعالج أكثر من موضـوع فى آن واحـد دون أن تختلط المعانى وتتفرق السبل ، انما يتم الترابط بين الموضوعات فى ابداع محكم ، وأسلوب معجز فى اطار شمولى عام :

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (فصلت : ٣)

فالقرآن لا يدرس التاريـخ كما يدرسـه المؤرخـون ، ولا يدرس الطبيعة ، كما درسها الطبيعيون ، ولا يعقد الالفاظ بحيث تحمـل أكثر من معنى ، كما يفعل بعض العلماء والادباء ، لتأييد وجهة نظرهم فيما يقتنعون به من نظريات ومذاهب وآراء ، وتناقض المعانى بعضها مع بعض كما يظهر فى الدراسات النظرية والتجريبية ، ولا يحلل الاحداث ويفصلها عن حقائقها كما يفعل المؤرخون عندما يجعلون واقعة معينة سببا لثـورة من الثورات

أوبداية لنظام من النظم الاجتماعية ، أنما القصص القرآنى يراد منه التأمل والتعقل والاستنارة بما فعل ويفعل السابقون واللاحقون فى كل زمان ومكان .

القرآن الكريم هداية ورحمة لذلك فهو يقصد أن يعتبر السامع بما يسمع والقارىء بما يقرأ حتى يجعل آيات الله القدوة الرشيدة فى سلوكه ، والسراج المنير الذى يبين له الطريق الواجب الاتباع ، بما يلقيه اليه من الموعظة الحسنة ، ويشرح صدره بالحكمة البالغة .

القرآن لا يستخدم أسلوب علماء التاريخ عندما يعرض للقصص القرآنى ، أو يستخدم ألفاظ الفلاسفة أو مصطلحات العلماء الطبيعيون عندما يتعرض لموضوعات الكون والطبيعة ، اذ القرآن يخاطب الناس جميعا مع أختلاف مستوياتهم وأحوالهم فى وقت واحد ، لذلك يمتاز بالشمولية والعمومية والموضوع لانه خطاب موجه للناس جميعا وليس لاصحاب تخصص معين أو مشرب محدد .

ولكن المتخصصين مع ذلك يستفيدون كل فى دائرة اختصاصه من آيات الكون والقصص القرآنى ، والمعارف المبسوطة فى القرآن ، ويستفيد الطالب والعامى من الناس .

أن ما يستهدفه تعالى من الدين معرفة الله ، وهى توحيد ، والتوحيد يحتاج الى العلم ، كما يحتاج العلم الى الصدق واليقين ومن هنا يهتم المنهج الاسلامى بمخاطبة الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، أبيضهم وأسودهم ، مخلصهم ومنافقهم ، تائبهم وظالمهم ، عالمهم وجاهلهم .

وخطاب الله للناس معجز فى أسلوبه وبلاغته ومعانيه ، حتى أنه يشعر القارىء أو السامع أنه موجه اليه وحده ، رغم اختلاف الناس فى الثقافة والتقاليد والطبائع ، والمؤمن يشعر حقا أن آياته البينات أنما تواكب دقائق حياته اليومية وواقعه الحى ، وكأنها البلسم الشافى لجميع أسقامه ، والطبيب الذى يحل له مشاكله ، فحجج الله الدامغة تساعد الانسان على الصبر فى الفاجعات ، والرحمة مع الضعفاء والاحسان الى الفقراء ، والعمل والجهاد فى سبيل الله ، فيمتلأ قلبه سكينة وأملا (١) .

« قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (فصلت : ٤٤)

والشمول فى المنهج الاسلامى ، آية من آيات الله البينات ، تتحدى من يجاهر بغير علم ولا هدى ويناطح حكمة الله البالغة ، اذا أنها واضحة تماما تشهد بالصدق .

« وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » (الطلاق : ١٢)

ادراكه للحقائق ، وفهمه للامور ، وقدرته على الاستيعاب ، فكل ميسر لما خلق له :

« لا أكراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦)

لا يفرض الله جلت قدرته علمه على الناس فرضا ، وانما يدعو الناس الى توحيده ، بالحكمة والموعظة الحسنة مبينا لهم ما أودع فيهم من سمع وبصر وأفئدة يمكن أن تتفقه وتعقل ، وتشعر :

« قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة »
(الملك : ٢٣)

---

(١) راجع الشريعة والحقيقة للمؤلف ص ١٩٣ — ٢٥٩ .

ويتدرج سبحانه مع عباده شيئا فشيئا ليتعقلوا ما أدركوه بالحس ، وليتأملوا فيما أبصروه بالعين ، وينظروا الى ما تذوقوه بالفم ، ويفقهوا ما سمعوه بالاذان فيخاطب عقولهم فى الناس كمواهب منحها القدرة على أن تفرق بين الصدق والكذب ، والحق والباطل ، كما منحها القدرة على الاستدلال والاستنباط وقياس الامور بمقياس عـدل لا عـوج فيه ولا أضطراب ..

« والنجوم مسخرات بأمره أن فى ذلك لايات لقوم يعقلون »

(النحل : ١٢)

« ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » (العنكبوت : ٣٥)

ثم يتدرج تعالى فى تعليم عباده وأرشادهم شيئا فشيئا ، فينقلهم من استخدام الحس وحده .. الى الاستدلال بالعقل ، فيربط تعالى ما هو ملموس لهم بما هو خفى عليهم ، حتى يتمكنوا من قياس ما هو غائب على ما هو مشاهد فى الخلق والكون .

العموميـــــة

يختلف الناس على استعداداتهم لتقبل الحقائق ، وتتباين قدراتهم فى الفهم ، وتتلون خبراتهم حسب ظروفهـم وبيئاتهـم وزمانهـم ومكانهم وحضارتهم ، وتتغير أفكارهم واتجاهاتهم بحسب علومهم ومعارفهم .

والحق تعالى خالق النفس البشرية ، عالم بجبلاتها [1] ، خبير بمـا الناس علما شاملا وكاملا ، حتى يمكن أن يمتد الى أمتهم وعالمهم ، أبيضهم

---

(١) راجع الشريعة والحقيقة للمؤلف .

فطرت عليه من عجز ونقص وضعف ، لذلك فانه تعالى يوجه خطابه الى وأسودهم ،عربيهم وعجميهم ، صغيرهم وكبيرهم ، فيتدرج فى منهج تربية الناس حتى يبلغوا الحق ، آخـذا بأيديهم بالعطف والشفقـة فيتولاهم بالرحمة والفضل ، ويرشدهم الى الطريق الموصل الى الحق والعدل والحكمة فيضرب الله تعالى لهم الامثال عن الاولين للابانة والتوضيح ، ويبين لهم بكلمات معجزة نشأة الخلق ، ويوضح لهم فى ا لجمال مبدع بعض حقائق الكون ، ويشهدهم على واسع علمه ، أظهارا لحكمته البالغة ، ويأمرهم بما يجب عليهم أتباعه ، وما يتوجب عليهم هـ جره ، وأسباب هذا الامر وذلك النهى ليتعرفوا على عدله بفطرتهم التى فطرهم عليها ، وبعقولهم التى هى مواهب اختصهم بها من دون المخلوقات .

ويخاطب الله تعالى الناس ، كل الناس ، بآياته المعجزات ، كافرهم ومؤمنهم حتى يتحقق ما أستهدفه تعالى من الدين ، وليتقبل كل أنسان هذا الخطاب بحب ، وبحثهم على استخدام العقل والقلب لترسـخ معارفهم ، وأن عدم أستخدام مواهبهم التى أودعها فيهم دلالة على الجهل :

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير »

(الملك : ١٠)

« صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (البقرة : ١٧١)

واذا ما وعى الانسان وعقل ما هداه الله اليه بفطرته السليمة ، سار فى طريق الحكمة ، وشرح قلبه الى نور الايمان .. وثبته تعالى بالقول الثابت :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة »

(ابراهيم : ٢٧)

وبين تعالى أن الذين يسبحون ويعرفون فضله ، ويذكرونه ذكرا كثيرا ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، هم العلماء :

« وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون »

(العنكبوت : ٤٣)

وهؤلاء العلماء يتطلعون الى الحقيقة المجردة ، ويبتغون الوصول الى أنوار اليقين ، ليتحرروا من رق الشهوات ، وظلم النفس ، وليحققوا لانفسهم السكينة والطمأنينة والحرية :

« فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم »

(الفتح : ١٨)

ومن حكمة الله البالغة أن يكون خطابه للامى غير خطابه للجاهل ، كما أنه غير خطابه للعالم ، فما يصلح لنفر من الناس شفاء وعلاجا ، ربما يصلح لآخرين زيادة فى العلم ، كما أنه يصلح لنفر ثالث توجيها وأرشادا ، فكل خطاب من الله يصلح لكل مقام وكل أناس يفهمون من كلامه تعالى حسب درجاتهم وكل كلام يصدر عن الله تعالى فيه حكمة بالغة للناس جميعا دون أسراف أو اقلال ، أنما بلاغه فى القول والمعنى ، تستهدف غاية حكيمة ، قصدا عدلا صالح فى كل زمان ومكان .

والآيات القرآنية شاهدة على ذلك ، فالله تعالى يبين للناس علاقة هذا الكون الفسيح بخلق الانسان فيوضح لهم ما سخره لهم من هذا الكون ، ليعيشوا وينتفعوا به ويتزينوا به ، وما ييسره تعالى لهم من بلاد وأمصار ، وما يزين به الارض من جمال وما يتنعم به الانسان من الشراب والثمرات ،

وما ينبت لهم من الزرع والاشجار والاغنان يرشدهم تعالى اليه ، والناس جميعا يمكن أن تستشعر ذلك وتحسه نفوسهم ، دون عناء ، وتتذوقه دون مشقة ، واذا صدق الانسان آمن أن كل شيء راجع الى الخالق الذى خلق كل شيء فأبدعه (١) .

والعامى من الناس يستطيع أن يبصر جمال خلق الله وما زين به السماء من مصابيح ، وما أنبت به الارض بعد موتها ، فينتقل فى نعيم الله ، وفضل الله وعطايا الله ، فيؤمن بفطرته السليمة أن لا خالق الا الله .

والعالم ينظر الى خلق السموات والارض ، ينظر الى هذا الكون الفسيح العريض ، ويتفكر آيات الله البينات ، وقد سخر له الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، ويدعوه تعالى الى تأمل كل ذلك ، وتفهم قدرة الله ، وعلم الله ، وحكمة الله ، فاذا عقله ، كان عالما حقا ، فقد قاده عقله الراجح وفكره السديد الى بديع خلقه تعالى .

واذا انتقلنا بعد أن تدرجنا من الحس الى العقل ، ومن الشرود الى التأمل ، نجد الله تعالى يخاطب الراسخون فى العلم الذين جمعوا بين الادراكات الحسية والتأمل العقلى ، فيخاطبهم تعالى بلغة ذوقية تناسب علومهم ، تواكب فهمهم ، وتؤكد معارفهم ، وترسخ يقينهم ، فيقول لهم تعالى:

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (فصلت : ٥٣)

وكل هذا التدرج أنما يستهدف غاية واحدة ، وهو تكامل الايمان ، وما شرف الوسيلة الا بشرف الغاية .

فالله تعالى يخاطب كل أنسان بالطريقة التى تصلح له دون اسراف أو تقتير ، ودون مبالغة أو أقلال ، حتى لا يظلم أحدا ، فهو العدل على الدوام ، الحكيم على الاستمرار .

والمنهج الاسلامى بهذه الصورة الواضحة منهج متكامل ، لا يركز على ناحية واحدة فى الطبيعة أو الكون ، أو على فكرة محددة ، أو صياغة معينة ، أو تشريع يقصد به الوصول الى مصالح مؤقتة — كما تفعل القوانين الوضعية والتشريعات البشرية — أنما سبحانه وتعالى يشرع للانسان فى كل مكان وزمان للصلاح والاصلاح .

وهذا التكامل فى المنهج لا نجده فى أى من الشرائع والانظمة والقوانين سواء الحديث منها أو القديم .

الفصل الثاني

غايات المنهــج الاســلامى

١ ــ عــدم الشرك :

أن النفس الانسانية تحتاج الى التذكرة المستديمة والوعظ الصادق الامين حتى لا يعتريها الصدأ ، ولتأمن من رياح الشرك العابثة ، وتبتعد عن الامواج العاتية حيث شط الامن والامان .

أن التمسك بلا اله الا الله .. تقوية للعزائم وشحذ للهمم وقيادة الى طريق الهداية ، وباسمه تعالى تصبح النفس مطمئنة فى طريقها ، مجاهدة فى سعيها ، صادقة فى وعدها أمينة فى أخلاقها ، وبذكره تعالى تطهر السبل من العوائق ، وتصفو النفس من الهواجس . وتبتعد عن الوساوس وهذه النفس رحيمة على المؤمنين شديدة البأس على المشركين ، يقول لقمان كما ورد عن عز من قائل :

« يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »

(لقمان : ١٣)

وهكذا ينشأ الابناء أقوياء مع الله ، شرفاء مع الحق ، لا تغرهم زينات الدنيا ، ولا تبهرهم حضارتها المادية .

فما أعظم الفرق بين منهج الاسلام التربوى وبين المناهج البشرية فى السياسات الحياتية ، فالاسلام يتفوق على تلكم المناهج بمفاتيح ذهبية لايغشاها الصدأ تفتح بها أبواب النفس دون عنت أو أكراه أو تزييف فتشرق بالنور بعد الظلمة وبالعلم بعد الجهل وبالامن من بعد الخوف وبالامل بعد اليأس والقنوط (١) .

---

(١) الاستاذ محمد قطب ــ منهج الفن الاسلامى ص ١٥٠ ــ ٢٢٩ .

وأساس هذا التفوق يقوم على الوسط العدل وليس هذا الوسط وسطا حسابيا أو تقريريا أو تجريبيا ، وأنما هو وسـط ربانى لا يعتمد على أرهاصات فكرية ولا تخيلات بشرية ولا ظنون حسية أو حدسية أو عقلية ، أنه ذلك الوسط الذى يهديه الله تعالى الى عباده فهو صراط مستقيم وهو الاستقامة والقوامـة والقسط والاقتصـاد ، أنه ذلـك الينبـوع الـذى لا ينضب من العدل الالهى فتسكن به القلـوب وتهنأ النفوس وتنشرح الصدور وتخرج ثمرات يانعة من المعارف والحكمة .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

(البقرة : ٢٩)

فالمسلم المؤمن يستضىء بنور القرآن العظيم ، ويسلك سلوك الرسول الكريم وبذلك يحظى ببعض معالم الشخصية المحمدية التى استن بسنتها وتطبع بها فكرا وعملا .

والاسلام يربى الانسان على أخلاص العبودية لله وحده ، فلا يخاف الا الله ولا يرجو أو يتوسل غيره من الانس والجن ، ومن هنا كان المسلم المؤمن له شخصية قوية من نعومة أظافـره .

مر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) على صبية يلعبون وكان بينهم زيدا فقال له الفاروق عمر : لم لم تهرب ؟ فقال زيدا : لم يكن الطريق ضيقا لا وسع لك ولم أكن أخافك لاهرب منك .

من أين جاءت هذه الفطنة وتلك الكياسة فى السلوك والجرأة فى الحق لطفل لم يشب بعد عن الطوق .. أن رد ذلك الطفل أنما هو ثمرة يانعة

---

(١) د. حسن الشرقاوى : نحو تربية اسلامية .

لسياسة المنهج الاسلامى والتربية الاسلامية التى لا تعرف الخنوع والاذلال ولا الخوف والفزع •

ويبدأ المنهج الاسلامى من نزع الشرك الظاهر والخفى من النفـــوس فتتخلى بذلك من الظلم والرياء والفسق والعصيان ، ثم تستعد النفس بعد سلب كل شرك عن النفس بملىء جرة القلب بدين التوحيد الخالص والتوحيد سلب وايجاب ، سلب كل ما عدا الله وايجاب للالوهية المنزهة عن كل شرك وتظهر هذه القمة التوحيدية فى لا اله الا الله •

لا اله الا الله هى معلم الصبى والفتى والشيخ الكبير فينشأ الفتى المسلم على عادات طيبة وأخلاقيات مثالية ثابتة ، ومفاهيم وقيم صالحة لكل زمان ومكان •

٢ ــ أقامــة الصــلاة :

ان القرآن الكريم يؤكد على تأدية الصلاة والمحافظة عليها وعــدم التكاسل فى تأديتها ويتوعد الله المقصرين عنها وذلك آيات عديدة منها قوله تعالى :

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (النســاء : ١٠٣)

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة » (ابراهيم : ٣١)

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت : ٤٥)

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » (المعــارج : ٣٤)

« فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » (الماعون : ٥)

فالصلاة تريح النفس من مغالبة الشهوات وتطهر الانسان وتنزل الى القلب الامن والسكينة ، وتعاون على الاستقامة ، فهى تعطى للانسان الامل

فى الحياة الدنيا والآخرة بما وعد الله به المؤمنين من الفلاح والصلاح •

فالانسان الذى يحافظ على صلاته ، انما يحافظ على نفسه ضد الفحشاء والمنكر والبغى ، ويربيها فى طريق الاستقامة والحق ويبعدها عن الريب والشك والغفلة ، ويزكيها بالخير ويجنبها الشر ، وبذلك ينصلح أمره فى الدنيا والآخرة •

٣ — الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ان المعروف قولا وفعلا هو الطريق الحق لتربية النفس ، والقرآن الكريم يحض الناس على المؤاخاه والمساواة والمحبة والتسامح والصفح الجميل فيقول عز من قائل :

« وقولوا للناس حسنا » (البقرة : ٨٣)

« ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين » (البقرة : ١٩٠)

فالمعروف هو الوسيلة المثلى للتعامل بين الناس ، لانه يعطى الثمار الطيبة للتآخى والتعارف والتعاون بين أفراد الاسرة والمجتمع والامم •

فاذا ذهب المعروف بينهم ، ذهبت معه القيم والاخلاق والفضائل جميعا •

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »

(البقــرة : ٢٦٣)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »

(آل عمران : ١١٠)

فالمنهج الاسلامى مواكب لطبيعة الانسان •• لان سبحانه وتعالى واضع أصله وبنوده وكله قائم على المعروف والنهى عن المنكر ويقول عز من قائــــل :

« الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (التوبة : ١١٢)

« وعاشروهن بالمعروف » (النساء : ١٩)

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »

(البقرة : ٢٢٣)

ومن فضائل التشريع الاسلامى أنه يصلح فى التطبيق فى كل زمان ومكان [1] . فقواعده مرنة بحيث أنها تستطيع ان تشمل كل شىء فى هذه الدنيا فى مشرقها ومغربها وأن الاحكام الالهية ثابتة وصالحة فى السلوك العملى دون أن يمسها أى تغير أو تبديل مهما طال الزمن وهذا بخلاف التشريعات الوضعية والقوانين البشرية التى تتغير بتغير المجتمعات والبيئات ، ذلك لان الانسان عاجز أن يضع تشريعات يمكن أن يقتدى بها البشر والعباد .

فلا يمكن أن يتراجع أصحاب الشهوات والاهواء ، الا اذا رجعوا الى فاطرهم وموجودهم الذى شرع لهم من الدين ما هو خير لهم فى الدنيا وفى الاخرة وحدد لهم أفعال الخير وأعمال البر والامر بالمعروف وشرع لهم القوانين والتشريعات التى تكفل لهم الامن والسكينة فى الدنيا وفى الآخرة .

كما أنه تعالى بصرهم بما يضرهم ولا ينفعهم ، وهو اتيان المنكر وفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبين تعالى ان الكافرين والجاحدين الذين ابتعدوا عن طريق الله وأشركوا لا يمكن أن يتعرفوا على طريق المعروف ، أو يسلكوا طريق الحلال وذلك فى قوله عز وجل :

« تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر » (الحج : ٧٢)

ان فى المنهج الاسلامى من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الكثير لان يجعل الانسان متوازنا مستقيما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر •

الثقـــة بالله

يبتلى المؤمن أحيانا ويكون امتحانه بشتى أنواع العسر والشـــدة ونقص المال والصحة ، والمؤمن فى هذه التجربة لا تنقص همته ولا يتقلص عزمه بل على العكس تزيده المحـــن أيمانا ، ويمضى فى هذه التجربة ثابت الجأش راضى النفس مرتاح الضمير موقنا أن الله تعالى بجانبه وانه عندما ابتلاه تلطف به ، وان ما يحدث له الآن هو أيسر ما يمكن أن يحدث وانه لو اختار غير ذلك لكان قانطا من رحمة الله يئوسا من عطفه ويقول عز وجل :

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » (البقرة : ٢١٦)

وحياة المؤمن غير حياة غير المؤمن ، ادلها لذاتها وحلاوتها سواء كان ذلك عند الكرب الشديد ، أو النعم اللطيفة ، فهو يتقلب بين خوف ورجاء بين توكل وعمل ، بين الرضا ومحاسبة النفس •

أن ثقة أعز من بالله عظيمة ، واخلاصه تامه وعلمه مقرون بالعمـــل لا يعرف قلبه الا الطمأنينة ولا يستشعر الا الامن والسكينة تصديقا لقولـــه تعالـــــى :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا أيمانا »

(الفتح : ٤)

وأن بين المؤمن وبين الله ، وعروة وثقى لا حد لها وحب لا نهايـــة له ورضا لا رضا بعده ٠

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١١٩)

ان الثقة فى الله تجعل من المحال ممكنا ومن الصعب سهلا ٠ ومن العوائق طريقا للسعى والخير والجهاد فى سبيل الله ٠

ان الثقة بالله تسير جنبا الى جنب مع الصبر ، فالواثقون بالله صابرون دائما فاذا نفذ صبرهم ضعفت ثقتهم وبالتالى ضعف أيمانهم ٠

والواثقون بالله لا يخافون شيئا ولا يخشون شيئا ، فهم أبدا مع الله يجاهدون فى سبيله ويخوضون أبدا عن رأية لا اله الا الله وبذلك يكونون هم الفئة الناجية من النار ٠

٢ — الصبر :

الصبر هو نتاج العلم والمعرفة وهو غاية من غايات أهل الحق والصدق اذ أنه شجرة من أشجار الله ، كما أنه لا يتم الا بمال قائم أى بفضل من أغصان الله وكذلك فان الصبر لا يتم الا بعمل ثمرة من ثمار الله [١] ٠ فالصبر أذن نتاج المعرفة والمال والعمل [٢] ، تصديقا لقوله تعالى :

« سلام عليكم بما صبرتم » (الرعـد : ٢٤)

« فصبر جميـــــل » (يوسف : ١٨)

---

(١) احياء علوم الدين — جـ ١٢ ٠

(٢) د ٠ حسن الشرقاوى — الفاظ الصوفية ومعانيها ٠

وتتركز فى الصبر الأداب الرفيعة والاخلاق القويمة والصبر صفة من صفات الانسان المؤمن ، فان الصابر يصبر عند الابتلاء ويشكر على حال النعمـــة .

والتربية الاسلامية تأمر بالصبر لانه من فضائل العقل . والصبر هو عدم الإعتراض على ضياع ما يتلذذ منه الانسان وما يحبه ويشتهيه ، كما أنه صبر على ما يعانية الانسان من الإلم ، وتحمل للمحن والفاجعات .

« ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

(النحل : ١٢٦)

والصبر غير كبت الدوافع والرغبات ، فالصابر آمن لانه ليس خائفا على ضياع شهوة أو فقد لذة وانما هو يغفل الصبر وهو واع لما يفعل ، عارف بثمرات صبره :

« انا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب »

(ص : ٤٤)

اذا تعود الانسان على الصبر ، فانه يتقوى بتقوى الله ومن لله ولله فهو موقف علم فالجاهل لا يتحمل شيئا أنما يختار الاسهل ويهرب الى الراحة والخمول ، وهو أمتحان فيه ينجح الانسان أو يفشل ..

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين »

(محمد : ٣١)

التواضـــع :

يبين الله سبحانـــه وتعالى فى كتابه العزيز أنه يبغض المتجبـــرين والمتكبرين والتواضع هو التذلل لله تعالى ، فيجد العبد العظمة والجبروت

للحق تعالى ويقول صاحب قوت القلوب [١] • ومن الخير فضل العبادة التواضع ، والتواضع يظهر بمعان خمس : القول والفعل الذى والاثاث ••

ويروى عن الرسول ﷺ قوله ة

« اذا رأيتم المتواضعين فتوضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، لان فى ذلك أصغار ومذلة لهم ، ولكم بذلك صدقة » [٢] •

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أتاه ضيف ذات ليلة وكان المصباح ينطفىء فقال الضيف يا أمير المؤمنين أقوم فأصلحه • قال عمر ليس من مرودة الضيف أن يستعمل ضيفه • قال الضيف : أدعوا الغلام • قال عمر : « لا أنه نائم » وقام عمر فملأ المصباح • فقال الضيف قمت بنفسك يا أمير المؤمنين • فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر وخير الناس عند الله من كان متواضعا » [٣] •

والتواضع سمة من سمات الانبياء والاولياء ، وهم القدوة والتى يجب أن نقتدى بها فى العملية التربوية لدى الصبى والشاب والكهل جميعا •

الاعتـــدال :

الاعتدال هو الاستقامة للحق ولا يمكن أن يتم العـدل فى النفـس الا بالاعتدال وهو تربية سليمة للاخلاق ، فالاعتدال موازنة وقسط وقصد وقوامه واقامة للعدل[١] •

وفيما يتعلق بالعدل مع الناس يقول عز من قائل :

---

(١) الشيخ ابو طالب المكى ـــ قوت القلوب جـ٢ •
(٢) د • حسن الشرقاوى ـــ الفاظ الصوفية ومعانيها •
(٣) الامام السمرقندى ـــ تنبيه الغافلين •
(١) د • حسن الشرقاوى ـــ نحو تربية اسلامية •

« واذا قلتم فأعدلوا ، ولو كان ذا قربى » (الانعام : ١٥٢)

أما فيما يتعلق بالاعتدال فى المأكل والمشرب والنفقة يقول الله تعالى :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »

(الفرقان : ٦٧)

وأما ما يتعلق بالعدل على النفس :

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين »

(المائدة : ٤٢)

والوسط الاسلامى هو التوازن فى الفكر والسلوك والتطبيق ، يقول عز وجل :

« قال أوسطهم » (القلم : ٢٨)

وأوسطهم هو أفضلهم رأيا وأكملهم عقلا ، وأتمهم حكمة ، فاذا سلك الانسان مسلكا وسطا ، لا مغالاة فيه ولا تقصير فان ذلك يعنى أنه اعتدل أمره وقصد الطريق المستقيم ولم يترك الاسلام شيئا بين التوازن والاعتدال فى الجسم والنفس والعلاقة بين الناس بعضهم وبعض الا وطرقه .

الايثـــار :

الايثار سخاء وكرم فى النفس التقية الورعة التقية ، وهو ضد الانانية والبخل والشح والتقتير ، وهو من أجمل الفضائل البشرية فيقول عز وجل :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفســه فأولئك هم المفلحون » (الحشر : ٩)

ان الايثار طبع المؤمن وأخلاقه ، فهو يؤثر غيره على نفســه ولو كان محتاجا الى ما يقدمه الى أخيه من بذل وعطاء ، فالاخوة الاسلامية جعلت

نفسه مطيعة لله ، مخلصة له تعالى ، متجهة دوما الى خدمة الاخوان ، ومساعدة العوز والفقير وزيارة المريض ومعاونة الضعيف وتحمل الشدائد، ومناصرة المظلوم والمسكين .

والايثار تزكية للنفس وتصدق للخير والنفس اذا تركت لاهوائها بخلت وشحت وقترت بل وطالبت المزيد من المال واللذات .

والايثار ليس تطبيعا أو تكلفا ، وانما طبعا راسخا وخلقا ملازما للمسلم المؤمن وبه يتميز عن غيره من أصحاب العقائد المنحرفة والمذاهب الضالة الخارجة عن الاسلام .

ان الايثار بالمفهوم الاسلامى هو الطريق الوحيد الموصول للسعادة فى الدنيا والاخرة .

الاحسان :

الاحسان سلوك انسانى عظيم يتأكد به الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاحسان ايثار وهو ثمرة طيبة للنفس النقية المخلصة فى العمل والعبادة والاحسان ايثار وتضحية ، عطاء وبذل للغير عن طواعية ورضا لان المحسن لا يطالب بثواب يستحقه فى الدنيا ، وانما يتركه اختيارا لله تعالى الذى عنده الجزاء الاوفى على احسانه وفى هذا يقول تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (النحل : ٩٠)

ومفهوم الاحسان فى الشريعة الاسلامية أن لا يعطى الانسان وهو كاره أو مجبر ، ولا هو متعجب أو راضى عن نفسه لان ذلك احسان ظاهرى اذن فهو تظاهر بالاحسان أما استعراضا ، أو استعلاء على الاخريين وهذا

بطبيعة الحال يناقض معنى الاحسان ، لان الاحسان نوع من عبادة المؤمن لله •

فبالاحسان يشعر المؤمن شعورا ملازما ، ان الذى يعطى هو الله تعالى وحده ، وأن المـال والصحة والجاه وكل ما فى الدنيا انما هـو منه واليـه فلا يحس المؤمن فى الاحسان بذاته الا كوسيلة اختارها الله تعالى لفعـل الخير وعمل المعـروف •

والاحسان بهذا المعنى امداد واستمداد من الله الى عبده وليس وقفا من العبد على غيره لان فى الموقف اعتراض ومشاركة للربوبية ، وهو نوع من الشرك الخفى ، فالله تعالى هو مصدر الخير والمحبة وأى احسان يخلاف ذلك يخل بمعنى الاحسان على الاطلاق •

وتدل الايات الكريمة على معنى الاحسان فيقول الله عز وجل :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (الانعام : ١٦٠)

« وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » (البقرة : ١٩٥)

« وبالوالدين احسـانا » (البقرة : ٨٣)

« والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (آل عمران : ١٣٤)

والاخلاص احسان ، فالمخلص يعمل تقربا الى الله ولا يستهدف منفعة ذاتية والاحسان يعبر عن معنى الاخلاص [١] ، وهو العلامة المميزة لصدق العبد مع ربه ورجوعه الى شريعة وحقيقة ، اذ الشريعة ان تعبده والحقيقة أن تشهده •

والمعرفة احسان ، فهى توحيد الله ومعرفة مقامه تعالى وهو الغنى على الحقيقة ، المحسن على الدوام ، فبالمعرفة يميز العبد مقامه كعبد ومقام الله كـرب •

ويقرن الاحسان بالمعرفة والعلم ، فعندما يحسن الانســان يحظى بمعارف لم تكن عنده وبعلوم تقترب الى قلبه فيغدو عارفا بثوابه واحسانه فيشعر بحلاوة ومعرفته منه من الله وفضلا مصداقا لقوله تعالــى :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن : ٦٠)

الوفـــاء :

الوفاء يجعل الخوف رجاء واليأس أملا والسخرية غيطة وسرورا فهو الدواء الشافى والعلاج الحاسم لظنون الشرك والريبة •

فبالوفاء تعلم النفوس الحائرة معنى الايثار ، وبه تلهج القلــوب المتعطشة الى حمة الله بالشكر والحمد والامتنان ، كما تقوى على مواجهــة المصائب والابتلاءات •

والوفاء أيثار النفس الخالصة منشوائب الهوى ويقظة القلب التقى من موافقة الشر وتجنب لمهاوى الانانية ولقد بلغ ابراهيم عليه السلام الغاية العظمى للوفاء لله فأقدم على ذبح ابنه واحب الناس اليه عندما علم يقينا أن ذلك مطلبه تعالى ، فأمتحن بهذا الابتلاء الذى يعجز عن تحمله أصــحاب العزائم والصالحون الا قليل •

« وابراهيم الذى وفى » (النجم : ٣٧)

والانسان الصادق اذا وضع نفسه فى تجربة ابراهيم عليه السلام لخر راكعا لله خاشعا له تعالى ، الا يمتحنه بهذا الابتلاء العصيب وذلك الاختبار الرهيب ، فمهما كان أخلاصه فانه مع ذلك ضعيف ومهما كان أيمانه فهو أنسان يئوس قنوط •

الوفاء اذن أخلاق الحنيفية السمحاء والشريعة المحمدية الغراء اذ

يرتبط بها أرتباطا وثيقا ، فهو منحة ربانية للمخلصين ورحمة الهية للمحسنين واذا كان الوفاء مما يحض عليه المؤمنين فأنه يعد قاعدة أساسية للقواعد الاخلاقية فى السلوك والمنهج الاسلامى •

ان خلق الوفاء هى التى يتميز بها المسلم عن غيره ويتفوق بها المنهج الاسلامى فى السلوك العلمى على جميع النظم والعقائد والتشريعات البشرية والانسانية •

فأى منهج أو نظام أو قانون بشرى يستطيــع أن يغرس فى نفوس مواطنيه معنى الوفاء تلك الفضيلة الكبرى وذلك الخلق الرفيع مثل ما غرس ويغرس وسيغرس الاسلام فى قلوب أبنائه معنى الوفــاء •

الزهــد والتذهــد :

زهد فى الشىء وعن الشىء يزهد زهدا وزهاده بمعنى أعرض عنه ، أو غير راغب فيه فهو زاهد وهم زاهدون [١] •

ويستخدم الصوفية لفظ الزهد بمعنى الغنى عن الناس والاقبال على الله ولذلك يرتبط الزهد عندهم بالفقر [٢] ، فالفقر هو ما يحتاج اليه الانسان أما فقد ما لا يحتاج اليه الانسان فلا يسمى عنده فقرا [٣] •

لذلك فمفهوم الفقر ينطبق على جميع الخلق لانهم جميعا مفتقرين اليه ومحتاجين الى كماله وجلاله فكل ما سوى الله سبحانه وتعالى فقير لانه ناقص يحتاج الى الكامل ، بل يحتاج الى دوام وجود ودوام وجودة ممــا يستفيده من فضل الله تعالى وكرمه وجوده •

---

(١) معجم الفاظ القرمن الكريم ج ١ •
(٢) احياء علوم الدين ج ١٣ •
(٣) د• حسن الشرقاوى ـ الفاظ الصوفية ومعانيها •

ان الاحساس بالغربة فى الدنيا يجب أن يسود كل حياتنا وبذلك نتخلص من فتنتها وشهواتها ومائدتها التى لا تشبع أحـــدا •

وللغريب أوصاف وخصائص ومواصفات فهو يتخلق بخلق الانبياء ويتسلح بزهد الاتقياء ويتقوى على الدنيا بالافعال الصالحة وأعمال البر النافعـــــة •

وستخدم أئمة الصوفية الزهد بمعنين زهد ظاهر جلى وزهد باطـــن خفى (٤) ويرون أن الظاهر من الزهد هو ترك الحلال من المأكولات والاموال أما الزهد الباطن الخفى ، فهو الزهد فى الرياسة وفى حب الظهـــور وكذلك فان عدم التدبير وعدم المنازعة مع الله هى من أسس الزهد الباطنى عند الصوفية •

فالزهد الحقيقى ليس الفقير الى المال ولكنه الغنى الشاكر — الذى ينظر للدنيا بعين الزوال لتصغر عنده ، فيعرض عن زينتها وفتنتها ويخاف دون الله فلا يعد زاهدا ، لان المخلوق مهما كان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا أما اذا شغل الانسان بغيره من الناس وأمل فيه وأحتاج اليه وطلبه سبيله •

والتزهد اذن افتقار الى الله •• لا افتقار الى المال «وبذلك يكون ارتباط الامور والتوسل اليه بالانفاق والعطار والايثار والاحسان والتصديق فى القلب صادقا بالحاجة الدائمة الى الله تعالى والاسترسال معه فى كل أمر من عزوفه عنها بلا تعمد أو تكلف أو تظاهر •

---

(٤) د• حسن الشرقاوى — الشريعة والحقيقة .

الوقوع فى حبائلها ، ويخشى الاغترار والاملاك فيها ويجد الحقيقة فى ذلك فكيف يملك لغيره ، فالله وحده هو الغنى المغنى وهو غنى عن عباده وعباده فى حاجة اليه على الدوام والاستمرار ، ومن شهد أفتقاره الى الله أغناه من فى حاجة اليه على الدوام والاستمرار ، ومن شهد أفتقاره الى الله تعالى ورجع اليه أغناه من حيث لم يحتسب وأعطاه من حيث لا يدرى •

مفهوم الزهد اذن ليس معناه أن يعدم الانسان المال أو يرفضه رفضا تاما ، وانما الزهد أن يكون المال فى اليد وليس فى القلب ، ان يكون وسيلة لتحقيق غاية هى عبادة الله فى الارض ، فاذا تكبر أو تجبر الانسان فلا يعد زاهدا واذا أستغل أو أحتكر أو ظلم فلا يعد زاهدا •

والتزهد وسط عدل لانه يحقق الخير للنفس وللناس فى الحياة الدنيا وفى الاخرة جميعا ففى التزهد سعى وجهاد فى الرزق وهذا السعى ليس من أجل الشره والاسراف والحرص أو لتلبية الشهوات الزائلة أو لتحقيق اللذات وانما من أجل تحقيق رسالة الانسان فى الارض وتنفيذ أوامر الله فى الزكاة والانفاق والتصديق والاحسان كما أنه ليس تبطلا وسلبية وانعزالا ، واعتمادا على الاخرين بدعوى التنسك والترهبن وانتظار للخير بلا سعى أو تعمير فى الارض واجهاد من أجل الرزق •

ان نظرية التزهد الاسلامية متكاملة تربط بين السلوك الاخلاقى والاقتصادى برباط محكم ، فليس الزهد الا طاعة الله وسعيا وجهادا واجتهادا حسب منهج الله وشريعته وذلك لتحقيق كلمة الله فى الارض •

القنـــوت :

ما أعظم ذلك الفرق بين القانت والقانط ، بين الطائع لله وبين يائس من رحمة الله ، بين الصادق مع الله والكافر بنعمته ، بين الصابر لله وفى سبيل الله ، والمعترض على حكمته والمتحدى لبلائه وابتلائه •

فالقانت موحد بالله صادق مع الله لا يطلب من حوائج الدنيا الا ما قد قسمه الله له ، والقانت طائع لله والطاعة دليل العالم بالله والعمـل للـه والاخلاص له تعالى • والقنوت منتهى الطاعة (١) •

ولو أطاع الانسان ربه ما انحرف وما عصى ولا وقف بباب الخلق يلح فى الطلب والرجاء مهانا ذليلا ، لو أطاع الانسان لوجـد أنه تعالى وحده المجيب لطلبه ورجائه على الحقيقة المعين على الدوام •• المنعم عليه علـى الاستمرار •

أما القنوط هو انقطاع الامل فى الخير واليأس منه ، واليأس أعلـى درجات القنوط واليأس صفة ملازمة للمشرك والكافر لانه يظن أن الدنيا يجب أن تسير وفق هواه وتمضى الامور بحسب ما يرغب •

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » (الحجر : ٥٦)

والقانت يحيا فى أمن نفسى ويعمر قلبه الامن والطمأنينة والسكينة فلا يشكو وانما يحافظ على حقوق الله ولا يترك فرضا من فروضه ولا يهمـل تكليفا من التكاليف الشرعية •

أما القانط من رحمة الله ، فهو عدو لنفسه وربه جميعا فقد فى قلبه الرحمة بقدر رحمة الله •

---

(٤) د. حسن الشرقاوى ـــ الشريعة والحقيقة .

اللهم اجعلنا من القانتين حتى نعبدك حق عبادتك .

الطاعـــة :

لو طبق الانسان طاعة خادمه له ، اطاع ربه مثل ما يطيعه خادمه لكان ذلك فضلا وخيرا .

لكن الانسان كثيرا ما يقف على أبواب الخلق مهانا ومع ذلك لا يرجع لخالقه لانه مشغول بغيره وهو تبصر ما وجد من يستحق الطاعة غير الله عز وجل .

كما تميل النفس أيضا الى المعصية والتى نجدها فى الفاجر والكافر والعاصى ، على هذا النحو أفعال واضحة جلية يحكم بها صاحبها بالخروج عن آداب الدين ويتهم بالتقصير فى السنن الواجبة والآداب ويقتضى منه اذا خرج عن الشريعة الاسلامية وذلك باقامة الحد عليه .

أما الطاعة لله ، فالحكم على صاحبها جد عسير لان هذه الطاعة باطنـــة خفية اذ يظن بعض الناس ان الطاعة لله هى ورع ظاهر وخشـــوع وتقوى ظاهرة فيتقربون الى الله بالصوم والصلاة والتزهد فى الحياة الدنيا ، ولكنهم فى الحقيقة يخضعون فى قلوبهم المريضة نفوسا أمارة وقلوبا جاحدة وظالمة وحقدا وحسدا ، واعتراض على خلق الله وميلا الى العدوان .

والطاعة مسابقة بين العباد (١) فى الظاهر والباطن فكما أن بين الناس أختلافا واضحا فى الطاعات الظاهرة ، فان بينهم أيضا أختلافا واضحا فى الطاعة الباطنة فاذا طلب الانسان أعلى الدرجـــات فعليه أن يجتهـــد حتى

---

(١) د. حسن الشرقاوى ، الفاظ الصوفية ومعانيها .

لا يسبقه أحد بطاعة الله وقد أمر الله تعالى بالمنافسة والمسابقة فى الطاعات اذ قـــال تعالـــى :

« سابقوا الى مغفـــرة مـــن ربكـــم »

(الحديد : ٢١)

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

(الحديد : ٢١)

فالطاعة عند أهل الحقيقة منافسة شريفة صادقة للتقرب الى الله الى أن يصل العبد الى الثبات فى المرتبة والطاعة من عدم الغفلة عن ذكر الله وهى من نفس الوقت عدم المخالفة والاعتراض ، فهى أيجابية وسلبية فى آن واحد بمعنى وجوب طاعة الله وسلب الاعتراض من النفس على أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم •

الفصل الأول

فطـرة التربيـة الاسـلامية

لم ينزل دين من الاديان ، ولم تنص شريعة من الشرائع على أنها دين الفطرة الا دين الاسلام وشريعته •

ومن الحق القول أن الاديان السماوية كلها ، مع أختلاف أزمانها وتعدد أنبياءها ورسلها ودعت الى الاسلام وتوحيد الله وعبادته ، والايمان بأنه الخالق على الحقيقية المعبود على الدوام المستغن عن الكل والكل مفتقـر اليه [1] •

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها »

(الروم : ٣٠)

فالفطرة هى الاصل الجامع ـ وذروة التشريع الشامل ومقتضى العمل الصالح والاساسى الذى يرجع اليه فى المسائل كلها والمعنى الذى يوزن به صلاح الامور من فسادها وبالفطرة نتفهم مناص الدين ، وما اليه من حكمة الله البالغة ، وبالفطرة أيضا يهدى الناس الى استنباط الاحكام ، ومعرفة القوانين الكلية التى تستخرج منها المسائل الجزئية ، والتفريعات التـى تندرج تحت الموضوعات العامة •

« الا الذى فطرنى فانه سيهدينى »

(الزخرف : ٢٧)

الفطرة السليمة مال وفعل وعمل للنفوس المسترشدة بالحق لا تقبـل الفساد فى الارض وتؤمن بالوسط العدل ، فلا تغفوا أى نفس مـن ابتذال

---

(١) د• حسن الشرقاوى ـ نحو تربية اسلامية ص ٥٧ •

واسراف فتظن لمرضها وحبها للتجبر والسيطرة والانانية أن المنفعة الذاتية غاية وان تحقيق اللذة فى السعادة المنشودة ، ولا تقتر فى بخل أو شح فتوهم أن المذلة والجبن والسلبية هى الطريق الموصلة للامن من الخوف كما قال الكافرون .

« فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون »

(المائدة : ٢٤)

والدين فطرة فى الانسان والفطرة موافقة العقل للشرع والدين هاد للعقل من الجنوح والجمود والتهور والجبن والسلبية فى الاخـلاق والعلم والسلوك والفطرة لا يختص بها نفر من الناس [١] . أو شعب دون آخر ، أو زمان أو حضارة دون حضارة ، انما الفطرة التى قرن بها الدين الاسلامى مشتركة بين البشر جميعا ، مفطور عليها الناس ، فقيرهم وغنيهم مسلمهم وكافرهم عربيهم وعجميهم أسودهم وأبيضهم .

« فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »

(الروم : ٣٠)

واذا لم يكن هناك بين الخلق جميعا شيئا مشتركا مفطورين عليه فلن تجمعهم أخلاق ، ولن يصلح معهم عقيدة ، ولن يقنعهم مذهب أو رأى ، ولن يفيد معهم وعظ أو أرشاد ، ولن يتفقوا على أمر يجعلهم متوحدين فكريا ، ولن ترضى نفوسهم بقانون أو تشريع ، فالانسان اذا لم يوجه الى ما فطر عليه ، فانه ينزع الى لذته ، ويتغافل ويظلم ويتعدى حق الله

---

(١) الشيخ محمد الطاهر عاشور — أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام .

لقد خلق الله تعالى الناس شعوبا وقبائل متباينة العادات ومختلفة الطبائع متعددة التقاليد ، متفرقة الاخلاق ، الا أنه جعل فيهم فى الوقت نفسه ، فطرة جامعة هى التى تعين العاقل على أتباع ما استهدف الله من الدين فالفطرة حقيقة بديهية للمتأمل واضحة كل الوضوح لصاحب القلب السليم والنفس المستقيمة .

أن أهم ما يظفر به المتأمل فى التشريع الاسلامى أنه يستهدف الاصلاح والصلاح ، وان غايته التيسير والرحمة والهدى ، وليس التعقيد والغموض والظلم حتى ينصلح البناء النفسى والاجتماعى ، وحتى لا تنتشر الفوضى بين الناس ، كيلا تفسد الارض .

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

(النحل ١٢٥)

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

(البقرة : ٢٦٩)

ونظرة الاسلام للعلم على أنه مواكب للفطرة ، تعد نظرة أكثر شمولية واعمق وجودا وأرشد فى تباين السلوك الواجب الاتباع من كثير من النظم والشرائع المستحدثة اذ الفطرة أصل جامع ، وأساس متين يصلح للباحث عن النظام الاجتماعى الاسلامى عدة وعتادا ، للتزويد بالحقائق الكونيـــة والاسرار العلميـــة .

وبالنسبة لاقامة الحدود الشرعية فأمر الله نافذ على الســارق وذلك باقامة حد قطع اليد عليه ، وهذا مقتضى الفطرة السليمة ، أما اذا تغيــرت ظروف المجتمع ، وتعذر أعطاء الحقوق لمستحقيها ، وتجمدت القواعد الشرعية

فلم تمتد الى الاغنياء لتأخذ منهم حق الفقراء ، وأفلس بيت المال ، فلم يعد قادرا على الوفاء بالتزامه قبل المحتاجين والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فانه لا يمكن أن يقام الحد على سارق بقطع يده مدام لم يعرف له المجتمع حقه الشرعى ، ولم يعط ما أمر الله به أن يعطى له ليتسنى له أن يحيا حياة كريمة ويجب أن يرجع القاضى الى ان السارق ما أقترن هذا الجرم الا لوجود قصور من قبل الجماعة فى تطبيق شريعة الله لتشمل الناس جميعا •

وفى هذه الحالة لا يقع الجرم على السارق الذى له عذره فيما أرتكب من جرم بقدر ما يقع على الجماعة الاسلامية ، فاذا عوقب فان ذلك يتنافى مع الدين الخالص والفطرة السليمة والعقل الراجح السديد •

١ ـ التربية بين مناهج الله والمناهج الوضعية :

تؤسس نظريات التربية فى المجتمعات الحديثة والمعاصرة ، من أنظمة وضعية أو مذاهب فلسفية أو تجارب أكلينكية أو تطبيقات عملية ، تعقد المؤتمرات وتعرض الابحاث والدراسات والقواعد التى تحدد النظم التربوية الناجحة والتى تكفل فى تصورهم أيجاد المجتمع الافضل أو الاصلح والذى يمكن أن يخدم أغراض الدول ويعمل على أنمائها ولا تستهدف هذه السياسات تكوين الانسان الصالح من قريب أو بعيد •

فالمواطن الصالح فى فلسفة التربية البرجماسية هو الشخص الناجح الظافر بكل شيء ولذلك فاننا نجد المرأة الامريكية تربى أبنها على حب الغلبة اذ عليه أن يسعى جاهدا ان يصرع غيره ، ويتفوق عليه فى كل فعل وأمر وهذا

الصراع الانانى يفسد علاقات الاخوة والمحبة ويميت فى النفس الايثار والتضحية فتضيع فى فلكه القيم الكبرى مكارم الاخلاق كالاحسان والعدل والمساواة والاخاء •

وتقييم الانسان فى هذا النوع من التربية يتم على أساس التفوق المادى دون الاهتمام بأى معايير أخرى ، فالغنى فى تصورهم هو الطيب الحسن والفقير هى السيىء البائس ، وبذلك تكون الاحكام جد بعيدة عن الحق والصواب ، اذ ربما يكون الثانى الفقير أفضل من الناحية الاخلاقية والسلوكية من ذلك الغنى الذى ربما جمع ماله بطرق غير مشروعة ، ويحيا فى رعب دائم خوفا على ماله وبالرغم من ذلك كله ينظر اليه على أنه فى سعادة وخير دائم •

لقد تأثرت التربية فى البلدان الاوربية بالحضارة المادية وجعلت المادة والنجاح المادى هو الاساس الذى يستهدفه الانسان فى حياته لذلك نجد التكالب على جمع المال والمنافسات غير المشروعة واستثمار الاموال بطريقة ربوية هو هدف الاقتصاد الليبرالى فى الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى برغم الاختلاف بين المعسكرين فى النظرية الاقتصادية •

ان تعاسة الانسان وشقائه انما يكمن فى أن يكون عبدا للهوى من ناحية وللمادة من ناحية أخرى فالمال فى النظرة الاسلامية هو وسيلة وليس غاية ومتى أصبح الانسان عبدا للمال وأصبح المال غاية له فى حد ذاته أنقلبت المعايير والمفاهيم فى عقله ونفسه وقلبه جميعا ونسى الانسان روحه وقيمه ودينه وطفق يسعى وراء سراب لا يمسك به ويرفض أن يتركه •

أن ربط الاخلاق بالمعاملات وربط المعاملات بالاحكام هو هدف التربية

الإسلامية فالمعاملات ان لم تقم بطريقة شرعية فهى محرمـــة ومستكرهـــة فالاساس فى التشريع الاسلامى التركيز على الاخلاق ، ومن الاخلاق تنبعث كل المعاملات ، فاذا لم يقتدى الانسان بشريعة الله وسنة رسوله فلا يعول على كلامه أو ماله ، ونجاحه فى الحياة الدنيا .

ان العبرة بأن يكون الانسان تقيا ورعا ، وليس العبرة بأن يكسب خصمه أو يتفوق على غيره فى أى مجال من مجالات الحيـــاة .

فالنجاح والفشـــــل انما هو بأذن الله وبمشيئتـــه تعالى وليس بعلم الانسان أو بماله أو نفوذه ، واذا اراد الله بالانسان خيرا بارك له فى رزقـــه الحلال .

لذلك فان منهج التربية القرآنية يركز على الاهتمام بالايثار والاخوة والمساواة دون النظر الى المراكز الاجتماعية أو الثراء المالى أو السلطان .

فكم من رجل غنى مبغوض من الله والناس ، لشرهه وفرحه واستغلاله للناس والعباد ، كم من فقير من المال غنى بعفة نفسه وايمانه العميق بالله ، فالقياس بين منهج التربية الاسلامية ومناهج التربية الغربية من مختلف ذلك لان تلكم المناهج تفصل بين روح الانسان وبينه وبين دنياه وآخرته فتركز على النجاحات المؤقتة فى الحياة الدنيا دون الاهتمـــام بربط ذلك النجـــاح بالاخـــلاق .

ولذلك نجد الحضارة الغربية متقدمة تماما فى النواحى المادية بعامة والتكنولوجية بخاصة الا أنها من ناحية أخرى متأخرة تماما فيما يتعلق بتربية النفس والاخلاق .

لذلك أنه يتوجب على المسلمين فى هذا العصر ان يتمسكوا بأخلاقياتهم

ودينهم وان يرفضوا محاكاة الغرب وتقليده فى الدعـــاوى الكاذبة والمزاعم المستكرهة •

على المسلمين أن يرجعوا الى الكتاب الكريم والسنة المحمدية ليتزودوا بها فى رحلة الحياة ، حتى يأمنوا موافقة الاهواء وغواية الشيطان •

الاسس النفســية لتربيــة النشــىء

١ ــ معرفة الحــلال والحـــرام :

يقف المسلم فى هذا العصر حائرا بين الاخذ بالمستحدثات أم أعتبارها حراما ، فمنهم من يعتبر العروض المسرحية بدعة وضلالة ومن المحرمات • طريقه ويرشده الى ما ينفعه فى دنياه وآخرته • أننا نحتاج الى تطويــر المسجد ليقبل عليه العباد وطلبة العلم فلا يغلق ابوابه بعد الصلاة • كما أننا نريد أن تكون وسائل الاعلام وسائل لتربية ومعرفة الحلال والحرام وتثبيت أيمان المؤمن •• فعلينا أن يكون لنا منهجنا التربوى والذى هو كلام الله وسنة رسوله •

الحــــلال والحـــرام :

أن الاسلام دين الفطرة واليسر والرحمة لا طقوس معقدة تبتعد عن مواكبة العقل الرشيد فهو يواكب الفطرة السليمة والحلال بين والحرام بين وكلاهما ظاهر للنفس المستقيمة اذ هو يتوافق مع العدل النفسى •

العدل مقصد الرجل المستقيم المقتصد فى الامور وهو الذى يتجنب الافراط والتفريط فالحلال هو القسط والقسط هو الحق لانه ضد عدم قيام الشيء فى موضعه فالحلال يقصد به العدل وهو الوسط والوسط هو الاختيار

الامثل فالحلال ضد الحرام وان الحلال معناه الاعتدال والاستقامة والدين أستقامة للنفس وللاشياء فى مواضعها وبذلك يتحقق للنفس أمنها واستقامتها وهو يستهدف مصلحتها •

أما الحرام فهو ظلم وجور وانحراف ضد طبيعة الاشياء وهو نقص فى الشىء •

وكما يمكن تطبيق فكرة الحلال والحرام على النفس باعتبارها الوسط العدل بين الافراط والتفريط فانه يمكن أن يطبق فى مجال السياسة والمجتمع وعلى ذلك فالعدل يحتاج الى مرونة فى تطبيق قواعده •

والحلال والحرام هما قاعدتين أساسيتين لحماية الفـــرد والمجتمع وحقوق الله والانسان فهو يفرق بين العمل المحرم والعمل المباح لتحقيق فكرة العدل درجة درجة فى الطريق الى العدل الكلى والنهائى • فالعـــدل لا يخضع لمصطلحات اذ أنه جارحه لكل نفس وهو لا يتغير ولا ينسخ ومثال ذلك العدل المطلق الفطرى وهذا العدل المطلق انما هو العدل الالهى ، وأن الانسان عندما يصبو بفطرته السليمة فهو يحاكى فيه عدل الله الا أن الانسان لا يمكن أن يصل الى عدل الله لانه عـــدل مستقل عن كـــل شىء عن النفس والتقاليد أنه عدل يرقى فوق معنـــى العقـــل •

فاستهـــداف الانسان للعدل يجعله مستقيما متوازنا لا يميل وبذلك يظفر الانسان بالنجاح •

٢ ــ الايمـــان بالغيب :

الوجودى كانسان غير ملتزم بشىء على الاطلاق مادام قد تمرد على الفضائل ومكارم الاخلاق فأصبح منه عبثا وفكره لعبا ولهوا •• ففى الاسلام

يقتضى بالفنان اذ يرتبط فى سره وعلانيته بأمر الله ومعنى ذلك أن الايمان هو منهج الفنان أو الاديب أو المفكر المسلم •• فمصطلح الايمان لا الالتزام هو المصطلح الصالح الواجب التطبيق فى حقول المعرفة • اذ هو منحة ربانية وهبة الهية للعبد السائر فى طريقه تعالى •

٣ ـ جهـاد النفس :

اذ تركت النفس دون تربية تميل الى الراحة لذلك كان طبع الجاهل النسيان لاوامر الله • اذ يرى الجاهل الغافل فى الشر خير والعكس ،

لذا يحتاج الانسان الى جهاد طويل مع نفسه حتى يستقيم حالهـا وتسلم قيادها الىأوامر الله ••• أن مجاهدة النفس عملية شاقة الا أنها الامانة التى حملها الانسان من دون المخلوقات ، اذ المجاهدة تصبح طبقا ملازما له ويرى فيها لذات عظيمة •

والمجاهدة لها ثمرات رائعة ، هى التى تجعل المؤمن يطمئن الى طريقه مهما لاقى من صعاب وقوى النفس هى :

قوة العلم (العلم الالهى) ، قوة العدل (العقل) ، قوة الغضب قـوة الشهـــوة •

والصالح يهيمن بقوة العلم على القوى الاخرى فى النفس •• وتكون العلم عنده قوية ، أما الجاهل تضعف عنده قوة العلم وتسيره قوة الغضب والغافل تسيره القوة الشهوانية ، فاذا أبرزت قوة الشهوة الى فعل غير مشروع سلطت قوة العدل الغضب على الشهوة والعكس •

١ ـ النفس بين الهوى والاستقامة :

الخصمان المتنازعان داخل النفس هما الهوى والاستقامة ، والهوى يستخدم الغش واذا غش أشاع داخل النفس جوا من الارهاب حرب بين الهوى الذى يستعين بالرجيم ابليس وبين الاستقامة التى يلهمها ربها الحق المبين ، واذا أنتصرت الاستقامة سكنت النفس وأطمأنت لكن الهوى لايعترف بالهزيمة ، فاذا ما وجد الوقت اغار على الاستقامة والاستقامة تحمل فى مضمينها الحكمة والعدل والتوازن والاعتدال .

٢ ـ الريـــاء :

أده من أدوات الهوى ويتقنع به الهوى عند الحاجة ويقصد بأستعمال الرياء الغش والخداع ، فالرياء هو الشرك الخفى يقول ﷺ « أن أدنى الرياء شرك » .

اذ المرائين أصحاب الشرك الاصغر لانهم تركوا المعاصى الظاهرة ، مع ذلك فان قلوبهم لم تنمحى عنها الصفات المزمومة ومثلهم فى ذلك كمثل الذى أصيب بالجرب ، فارياء فسق وهو ثمرة فجة لاستحـــواز الشيطان على النفس .

٣ ـ الغضب :

والغضب قوة من القوى التى أودعها الله فى الانسان لكن هذه القوة اذا لم ترتبط بالعدل وتسلك طريق الاستقامة استحوز عليها الشيطان وكان نتاجها الحقد والحسد .

ومحل قوة الغضب فى الانسان القلب ، والانتقام هو غاية هذه القوة وشهواتها وفيه لذاتها ولا تسكن الا به ، لكن الانسان المؤمن يستطيع أن

يسكن هذه القوة عندما يغضب وذلك بكظم الغيظ ، لذلك فان جهاد النفس ضد الغضب يتطلب قوة نفسية عظيمة .

٤ ــ الطريق الى الاستقامة :

ان جهاد النفس أعسر عليها من جهاد العدل لذلك يلقبه الرسول ﷺ بالجهاد الاكبر ويلقب حرب الاعداء بالجهاد الاصغر .

خير وسيلة لجهاد النفس تتركز على التربية والتربية تحتاج الى قدوة والقدوة هى الرسول وسنته ، وحتى لا تمل النفس من الجهاد الاكبر علينا أن نبدأ فى معالجة أعوجاجنا بالايسر ثم بالاشق وهذا هو منهج التربيـــة الاقوم .

فلا بد من أسلوب نبدأ به بعيدا عن المجاملة والزيف والرياء الى تأمل صادق لحقيقة الدين لنستخلص الحقائق .... واذ معرفة الاسباب التى تؤدى الى الرياء بمثابة نصف العلاج ثم التمثل بالقدوة الحسنة ، وبذلك ينتصر الانسان على عدوه الذى بداخله ويتمتع بالحرية الحقـــة التى هى العبودية لله .. ولا بد من أغلاق الابواب التى يمكن ان يدخل منها العدو الرجيم فهو لا يستطيع أن يغوى العبد الصالح أنما يغرى العبد الجاهل .

وســـائل التربيـــة الاســـلامية

يعتبر العلم أهم خاصية يمتاز بها الانسان المسلم المؤمن ، ذلك لان نقيض العلم هو الجهل ، والجهل هو عدو الاسلام الاول ، وعدو نفســه والناس ، وأفضل العلم ما أقترن بالعمل وأفضل العلم ما أقترن بالاخلاص .

فالتربية الاسلامية تقوم على العلم ، وهو ليس العلم المادى فحسب بــل

الروحى أيضا ، فلا تتحكم المادية فتصير أفراطا ولا تتحكم الروحية فتصبح تفريطا وشحا .

١ — التربيــة بالقــدوة :

وهى فى اختيار الشخصية المتكاملة التى يمكن أن يتخذها الطفــل أو الشاب قدوة له فتصير الانموذج المثالى للشخصية التى يود أن يتشبه بها فى عمله وسلوكه واخلاقه .. ولا شك أن أعظم شخصية على الاطلاق شخصية الرسول ﷺ . فالاقتداء به هو الطريق الموصل الى التربية السليمة ليعرف بسهولة ما يجب فعله وما يجب تجنبه ، اذدهر المجتمع الاسلامى عن طريق الاقتداء بشخصية الرسول ﷺ ... ولا شك أن القدوة تؤثر فى المقتدى وتبدأ بالوالدين فالطفل يثق بهما ثقة عمياء ولا بد أن يكونا فى لين مع جزم ثم يأتى دور المدرس أمام تلاميذه فتقلد مناهج الغرب الحياتية قول مرفوض ، واهمية القدوة أنما فى اختيار الانموذج المثالى لها ثم المحاكاة والتقليد .

٢ — المحاكــاة :

يتحصل الانسان على مادته العلمية نتيجة للتكرار والتكلف والعادة والتعلم الشرطى ، وبدونها لا يحيط الانسان بشىء علما ... والطفل الصغير أنما يحاكى أبويه ويراهم قدوة له فى سلوكه ويثق فى أعمالهم وأفعالهم ، وأول ما يتعلمه الطفل عندما يشب عن الطوق هو القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ ، فالتكلف فى الاعمال أم تقيد عليه النفس وضيق فى أول الامر الى أن تتعدد عليه .

٣ ـ التكلــف :

بالنسبة للكتابة كذلك بالنسبة للعلم ، فاذا أراد الانسان أن يكون عالما فى شىء فعليه أن يمارس اعمال العلماء وتديد أقوالهم ويصير ذلك فى قلبه طبعا فيسمى عالما مع وجود الفطرة السليمة ، وكذلك الامر بالنسبة لاكتساب مكارم الاخلاق ، فاذا أردنا أكتساب صفات السخاء أو التواضع فلا بد من الممارسة والتقليد والمحاكاة لاصحاب الكمالات الاخلاقية حتى يصير طبعا فى نفسه ولا علاج للانسان من أمراضه الا بهذا الطريق وبتلك المجاهدة فلن يكتسب صفة طيبة يعمل يوم واحد ، وكذلك الامر بالنسبة لمحاسبة النفس وتربيتها للتخلص من الافات والمعاصى أما الذى يستهين بصغائر المعاصى فانها تتراكم عليه فيصعب عليه المجاهدة ولا يستطيع منها الخلاص .

٤ ـ الطبــع والتطبــــع :

تهتم التربية الاسلامية بعملية التطبع ، فهى الطريق الذى بواسطته يتعلم فرد ما تقاليد وعادات ومفاهيم المجتمع ، حتى يستطيع التكيف معها والتعامل مع أفرادها وبعملية التطبع يوجه الطفل ويؤدب ويتخــذ نهجا لحياته .

(أ) الغزالى :

اذ الصبر أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفسه فان عود الخير وعمله نشأ عليه والعكس ... وعملية التذيع الاجتماعى للطفل لا تحتاج كثرة العتاب فى كل حين فلا يوبخه الا قليل .

(ب) أهمية المعلم فى التطبيع :

١ — استخدام الشفقة •

٢ — أن ينصحهم فى كل مناسبة •

٣ — أن يزجر سىء الاخلاق •

٤ — أن يخاطب التلاميذ على قدر عقولهم •

٥ — أن يراعى الفروق الفردية والصحية •

٦ — أن يؤد علمه بعمله •

٣ — ابن سينا •• أن الانسان يختلف عن الحيوان • فالتطبيع الاجتماعى ضرورة يحتمها حفظ النوع الانسانى •

٥ — التعليم الشرطى :

نظرية التعلم الشرطى عند الامام الغزالى :

ان الاحكام التى تطلق على الاشياء • ليست الا من الامور الاضافية على الذات ومن ثم لا يمكن أن تسمى الا أحكاما اعتبارية غير ثابتة •

أن اقتران أمر من الامور لشىء من الاشياء تدفع من يشاهد هذا الامر الى الاعتقاد أو الحكم بأن هذا الاقتران ضرورى ، أما الاقتران الاخر الهام بالخاص فهو ملزم وليس ضروريا مثل البركشة ، مثل نفور الانسان من الثعبان وهذا ما يسمى بالاستجابة الغير اشتراطية ، أما الفرق بينهما أن الثانية هى استجابة وهمية لعدم وجود المشير الاصلى (الثعبان) وهى وهم افتراضى •

والخلاصة •• ان عملية الاشتراط هى اقتران بين الاستجابة والمشير وهذه الاستجابة ليست فطرية وانما هى مكتسبة متعلمة عن طرق الاقتران

الشرطى ، وهى تستخدم الان بنجاح كبير عن طريق تقديم الهدايا للاطفال المتفوقين كحوافز ايجابية •

١ — الترغيب والترهيب :

الترهيب يجب أن يتبع فى علاج السلوك المنحرف ، اذ يفرض على النفس التى تميل الى الراحة والخمول الالزام بأن تقوم بواجباتها ، ومن طبع النفس النسيان والغفلة ، لذلك فان الترهيب يصبح نوعا من التذكير •• والترغيب يكمل الترهيب حتى تتوازن النفس والترغيب معناه الامل فى وعد الله •

٢ — التخلى والتحلى :

يقصد بالتحلى أن تتحلى النفس بالاوصاف المحمودة كبديل للاوصاف المذمومة التى اعتادت عليها •• والتخلى هو أن يتخلى الانسان عن تلكم العادات السيئة التى كانت سببا فى انحرافه عن الطريق المستقيم ، والتخلى عن الذميم والتخلى بالمعصية معناه أنه سلوك طريق الحق والعزف عن الاهـــواء •

تقديم التخلى عن التحلى •• يرى بعض الائمة المسلمين ، انه يجدر بالمربى أن يهتم بالتخلى قبل التحلى والتخلى هو نوع من العلاج بالاضداد مثل الطالب المتكبر والمذهو بنفسه أو الذى يأكل كثيرا أو المحب للمرأة ، ولابد للوفاء بالعـزم •

٣ ـ الوعـظ والموعظـة :

فمع وجود القدوة الصالحة فهى لا تكفى لخلق الشخصية السوية اذ لم يكن بجانبها الموعظة فالطفل السىء لا بد له من العقوبة ، كما لابد من وعظ الطفل سواء عن طريق البيت أو المدرسة بصفة مستمرة حتى لا يغفل ولا ينسى ، فالتكرار هام جدا فى عملية التربية •• والنفس على استعداد تام للتأثر بمـا يلقى اليها من كلمات فالانسان الكبير مثل الصغير فى حاجة دائما الى الموعظة الحسنة ـ مثال لقمان ـ واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: « يا بنـى لا تشرك بالله ان الشرك لظلـم عظيم » فالقـرآن الكريم ملىء بالمواعظ والتوجيهات •

٤ ـ التوجيـه والارشـاد :

ان العملية التربوية تحتاج الى توجيه وارشاد والذى يقوم بهـذه العملية التربوية لابد أن يكون قدوة صالحة يتمثل به الطالب ويثمر عن طريق الاقتداء به ، والتوجيه والارشاد يحتاج الى معرفة تامـة بما يلقنـه على الطالب مثل المبادىء والقيم ••

● العبـادة :

أمر الله سبحانه وتعالى الناس بعبادته حتى تقوم السـاعة ، وذلك لمغالبة الهوى والشيطان • ومخالفة لاهواء النفس •• والنفس الانسانيـة تأبى حسب تركيبها ونزوعها الى الاهواء لذلك كانت العبادة عملا لصالحها • والعبادة شريعة الله وهى تحتاج الى المعاناة والمكابدة ظاهرا وباطنا حتى سـاعة الانسـان •

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » •

وهذا التحديد الالهى لرسالة الانسان فى هذه الدنيا ، وعلى المربى أن يوضح ذلك ، لماذا خلق الانسان ؟ ما هو المنهج الحياتى ؟ ما هو الثواب والعقاب ، فالعبادة بهذا المعنى هى عمل لله وهى علم وعمل •

● **الادب :**

يتميز المسلم بالادب ، والادب هنا ليس الادب الظاهرى ، وانما نابع من القلب ، وهو ثمرة للتواضع لله سبحانه وتعالى وهو القلب ، فالادب دليل على صحة القلب وبعده عن الانانية وطلب الشهوات ولابد للمربى الارشاد الى الادب ••• فالادب ارادة للصبر ورضا عند البلاء لذلك يرتبط الادب بالصدق •

وهناك طريقة يتعرف بها المربى على حقيقة طالبه وهى الامتحان ، وعلى المربى تقوية قلب طالبه ، وسوء الادب فى تطاول الطالب على أستاذه •

٥ — التمثيل بالقصص القرآنى :

فى القصص تشويق للنفس فتقمص النفس بعض الشخصيات الموجودة بالقصة وتتوق بها وهذا ما يسمى بالمشاركة الوجدانية مثل الافلام والمسارح ••

فالقصص تؤثر فى النفس تأثيرا كبيرا فان الله سبحانه وتعالى العالم بحقيقة النفس الانسانية يستخدم القصص القرآنى كوسيلة للعملية

التربوية ، لانه تعالى يعلم الميل الفطرى الى القصة فى الخلق البشرى •

فنجد القرآن الكريم يستخدم القصة التاريخية ليعرض لنا نبذة عن حياة الامم الصالحة والمنحرفة وبعض الشخصيات التى تمثل القـــدوة الصالحة ليختار الانسان الطريق الواجب الاتباع من خلال سماعه أو قراءته للقصة القرآنية ونرى فى القصص القرآنية مدى العقوبة وللمكذبين والنصر للمؤمنين •

الفصل الثاني

المشكلة الاخلاقية والفكر الانســانى

المشكلة الاخلاقية فى ضمير الناس من قديم الزمان ، وارتبطت بالفكر الانسانى ، ويتساءل الانسان ، لمــاذا وجد فى هذا العالم ؟ وما هى الغاية من حياته ؟ وما هو الطريق الموصل الى السعادة الحقة ؟ وما هو الخير وما هو الشر ؟ الى غير ذلك من المشاكل الاخلاقية المختلفة ، ولقد حاول المفكرون القدامى والمحدثون الاجابة على هذه التساؤلات ، فمنهم من وقف مدافعا عن اللذات ومنكرا للالام ومنهم من اتبع الفطرة السليمة وطريق العــدل والهدى والحق ومنهم من اتبع غرور العقل ومنهم من انتصف من نفســه ومنهم من ظلمها •

السوفسطائى والوجودى :

ان كل انسان يرغب فى اللذة ويستمتع بها ، ويكره الالم والخير لذة والشر ألم ، وكل ما يراه الانسان خيرا فهو خير ، وما يعتبره شرا فهو شر والقوى يحصل على أكبر لذة والضعيف هو العاجز عن تحقيق لذاته •

ســـــقراط :

يرفض ذلك بقوة ويقول أن الفضيلة هى ثمرة العلم ، ان الانســـان لا يقدم على الشر باختياره ، ان الفضيلة الاولى للانسان هى القناعة ••

ولا شك أن المشكلة الاخلاقية ترتبط بموضوع الدين حيث الاديان تأمر الانسان بانتهاج السلوك السليم واتباع الخير ورفض الشر •

مشكلة الخير والشر :

لا ريب أن الخير غاية الانسان والشر عدوا له الا أنه لم يستطع أن يفرق بين ما هو خير وما هو شر •• ومن هنا اختلفت المعايير والاحكام الخلقية ، فهل الارادة الانسانية كافية لجعل الانسان أخلاقيا ؟ وأى نوع من الاخلاق تقود الانسان الى السعادة الحقة ؟ هل أخلاق الحرية والدين والعقل ؟

ان من رحمة الله على الانسان أن جعله مفطورا بالانتماء ومحبا للالفة والارتباط راغبا فى القدوة الحسنة ، لذلك أرسل الله الرسل والانبياء لهدايته فيتعرف على طريق الحق فيسلكه ويبعد عن طريق الشر فيتجنبه ، حقا أن كثير من الناس يتخبطون على مسرح الحياة ولا يعرفون للحق سبيلا ولا للخير طريقا ولا للعقل وزنا ولا للفضائل قيمة •

فالسوفسطائين زعموا عدم وجود حدود فاصلة بين الخير والشر فأنكروا القيم السامية والمبادىء العليا وما يراه خيرا فهو خير والعكس •

سقراط آمن بمبادىء الاخلاق التى تتمثل فى الخير بالذات وأقام حدودا للخير وحدودا للشر •

ونيتشه أنشأ فلسفه تعرف بفلسفة القوة •

أما كانط يرى أن الحق حق والخير خير ، ويقول لو كانت الحياة الانسانية ومجدها رهن بأن يقتل طفل واحد فى مهده لكان فى سبيل ذلك جريمة كبرى •

مشـــكلة الانانيـــة :

مشكلة الخير والشر نابعة من الانانيـــة ، والانانيـــة مـــوقف ازاء الموضوعات الخارجية ، فان كل ما يرتبط بارضاء ميول أو ما يسمى « الميول الأنانية » يحقق الى حد ما للفرد الاحتفاظ بحياته وعمله ، فاذا اعـــترض الميول الانانيـــة عارض ينشـــأ عن ذلك عالم مـــن الصراعات والـــنزعات الشخصية ، ولو ترك الانسان لهذه الصراعات دون تربية لاتخذ الانسان من الانانية شعارا ومسلكا وغاية •

وفى الاخلاق الاسلامية تعبيرا يسمى بالمشاركة الوجدانية أو الايثار وهو فى مقابل الميول الانانية ، ومن لهم الايثار يتألمون لآلام الناس ويسرون لسرورهم ولتقديم المعونة فكما توجد فى الانسان ميول أنانية يوجد فيـــه مشاركة وجدانية وايثار وتضحية •

مشكلة الضمير وارادة الخيرة :

الضمير :

فالانسان عندما تنضج تجاربه يحكم على الامور ويشرع بتطبيـــق ما هو واجب ويتجنب المحظور والممنوع ، فان أدى الانسان عمله باخلاص مراعيا وحى ضميره فانه يشعر بلذة وسعادة وما يسمى بالرضى الاخلاقى وعلى العكس • ومن هنا تنشأ منبع جديد للذة والالم عند الفرد وهو رضا الضمير ، وتأنيب الضمير • وما هو واجب اتباعه ، وحى الانانية أم الايثار أم الضمير •

وما هى الارادة الخيرة ، كانط انها القوة المنفذة لمـا يوحى به الضمير، اذا كانت خيرة أعرضت عن الشهوات والعكس •

أندريه كارسون •• لكى تكون ارادة الفرد خيرة عليه أمران :

١ — أن يتحقق قبل الشروع فى العمل من الواجبـات التى عليـه أن يؤديها لكى يكون سلوكه على أحسن ما يكون •

٢ — أن ينفذ باخلاص تام ما بدا له أنه الافضل ما دام قد كون رأيا صادقا فيما ينوى فعله أو عمله ولكن هل معنى ذلك أنه قام بعمل أخلاقى ؟

رسـو •• ان وحى الضمير يمكن الوثوق فيه وأن الانسـان يملك بصيرة فطرية تعرفه طريق الخير والشر ، ولكن لو كان الامر على هذا النحو ما كانت هناك مشكلة أخلاقية وما كان هناك سوفسطائين •

اذن لا يمكن حل المشكلة الاخلاقية عن طريق وحى الضمير وحـده فالرأسمالى يدافع عن الميراث ليس أقل ضميرا من الشيوعى الذى يهاجمه•

نظـرة الاسلام للمشكلة الاخلاقية :

ليست ارادة الانسان وعقله وضميره كافين للوصول الى الخير والحق والفضيلة ومكارم الاخـلاق •

لذلك اقتضت المشيئة نزول الاديان السماوية ، وهى المرشد الحقيقى المكمل الصادق لعجز الانسان وفشله فى تفهم الحقائق والمعين له على تحرى الصدق والحق والفضيلة وهى المنهج الحقيقى الذى يقود الانسان الى النور والصراط المستقيم اذا بهدى الله يستنير وبعلمه تعالى يسير وبحكمته يعمل فيحى حياة الامن والسكينة ويبدل الله خوفه طمأنينة واستقرار •

هل توصل العقل الى الطريق الى مكارم الاخلاق ؟ هل استطاع انسان القرن ٢٠ أن يتقدم خطوة فى حل مشكلاته الاخلاقية كما تقدم فى مجـال المـادة ومستحدثاتها ؟

رغم تقدمه فى المجال العلمى قد أخفق اخفاقا شديدا فيما يتعلق بالتقدم الاخلاقى ففى نيويورك تنهك فيها الاعراض علنا ولابد أن يعرفوا شيئا واحدا هو أن الانسان شىء والمـادة الجامدة شىء آخر ، فاذا كانت المـادة تخضع للمقاييس فان النفس الانسانية لا يمكن أن تخضـع بأى صورة لهذه المقاييس والمناهج الجامدة ولذلك اذا حاول أن يطبقها كما هـو حادث أخفقت تجاربه وفشلت مناهجه •

لمـاذا لا نرجع فى حياتنا الاخلاقية الى الشريعـة السمحاء والدين القيم ، ففى منهج الله غايتنا وقرآنه ما يطمئن القلوب ويهدى الى الرشد ويقوى المؤمنين •

ان الاسلام يحل مشاكلنا الاخلاقيـة والاقتصـادية والاجتماعيـة والنفسية • « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكـم نعمتـى ورضيـت لكم الاسـلام دينـــا » •

السلوك الاخلاقى فى العقائد الدينية

١ — القيديـة :

ترجع عقيدة القيدا الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومعنى القيدا هى العلم بطريق الدين فهى المنبع لجميع المعارف من دين وأخلاق وعلم •

وتمثل الآلهة فى عقيدة القيدا الشر والخير جميعا وعدد الالهة يزيد

على الثلاثين ويزعمون أن لهم رئيسا أعلى فمن الالهة آله الانعاش والاضاءة والوحش ومنها ما هو غير مجسد كالريح •

فكرةو الخلق والاندماج أو الاتصال اللاهوت بالناسوت أو التجارب ،

فكرةو الخلق والاندماج أو الاتصال اللاهوت بالناسوت أو التجارب ، فهذه العقيدة لم تنشأ من عدم وأنما تنشأت عن اله وهذا الاله قطع قطع بطريقة أو بأخرى تقرر عقيدة القيد أن هناك أندماج بين الخلق والخالق ، فقد أنشأت هذا الخالق فاستثار الالهة الذين قطعوه أربا فانتشر جسده فى الكون ، فنشأت الارض والسماء والقمر من نفس الاله المتمزق والشمس فى عينيه والريح فى سرته والارض فى قدميه وتشتاق هذه الاعضـاء الى التجارب لتحقيق الوحدة من جديد •

فكرة السلوك الاخلاقى :

أنبعث السلوك الاخلاقى فى هذه العقيدة من هـدف تحقيق تأديـة الطقوس والشعائر لاعادة التجازب بدلا من التنافر والفرد الذى يؤدى الشعائر والطقوس فانه يبلغ درجة الكمال فى معرفة الحق والخير والعـدل والسعادة وغير ذلك الشر والخير هو الحرية والصحة والغنى والسعادة ،أما الشر فهو العبودية والمرض والفقر ويأتى عندما يقصرون فى تأدية الطقوس ومن هذا المنطلق نظم شخصية الساحر أو الكاهن وهى شخصية قاهـرة مسيطرة على الافراد فبيدها تصلح بين الفرد والآلهة وتبعد عنه الشر وتقرب اليه الخيـر •

٢ ـ البراهمانية :

نسبة الى برهمان ومعناه الكينونة وهى مستخرجة من الفيدا ، لها قواعد قاسية وقوانين صارمة على السالك أن يتبعها .

فكـرة الطبقية :

جعلت لطبقة الكهنة السيادة والشرف حتى أصبحت متوارثة بين أبناء هذه الطائفة وللبراهمة طبقات أربع :

١ ـ طبقـة الكهنـة .

٢ ـ طبقـة الجنـد .

٣ ـ طبقـة العمـال .

٤ ـ طبقة الارقاء والعبيد .

ولما كانت طائفة الكهنة تحتكر العبادات والتقرب من الآلهة والسلطة فقد أدى ذلك الى الثورة عليها وقيام مدارس حرة تمردت على الكهنة من البراهمة وهى مدارس :

١ ـ السـوفسطائيـة :

لقد كان أصحاب السفسطة الهندية والصينية يتحررون من القيم الخلقية ويبيعون أخلاقهم لمن يدفع الثمن ، ان الانسان مقياس كل شىء وأن الخير متكاثر والحقيقة متعددة .

٢ ـ المدرسـة المـادية :

هى مدرسة لا دينية تسخر من الوحى ولا تؤمن بالحقائق الا عن طريق الحواس ، لا يعترفون بأى قانون أخلاقى أو دينى ويعتبرون الطاعة الحقـة

أنما للذات فحسب ، وكانوا يسلكون طريق التنسك ولكن هذا التنسك ليس من أجل التنسك الاخلاقى أو الايمان بالله وانما من أجل تقوية الارادة حتى لا يكون عبدا للشهوات فكان بعضهم يدخل الى صوامع فى كثير من الايام ليحيا حياة التنسك ثم يخرج من صومعته كوحش كاسر ليرتكب أفظع أنواع الفسق •

٣ ــ المدرسـة اليوجيـة :

نسبة الى السوفسائية من ناحية جعلها الانسان مقياس الحقائق وأيضا المادية من ناحية تنسكها الصورى ، الا ان الغاية مختلفة •

اليوجـــا :

هى نبذ المنفعة الشخصية واعتزال جميع مظاهر الحياة الفانيـة ، واليوجية ليس لهم مذهب محدد الا بعض التعاليم التى تتعلق برياضـة النفس والتحرر من الشهوات ، وهى تعليمات يصدرها اله باطن الارض « حينما تقف الحواس ، حواس المعارف ، يتوقف العقل ، والذهن لا يتحرك ، وذلك أسمى السبل » ومؤدى هذه التعليمات يصل الى درجة يتجمد فيها وعندها يصل الى أسمى الغايات ، وهى تمكن الانسان من الوصول الى أعلى الدرجات وذلك بأن تجعله غير متميز أى ليس له طول ولا عرض ولا عمق ولا حس ولا عقل أى أنها تجعله روحا صرفة ، وهكذا يكون الوصول الى الخير المحض •

٤ ــ المدرسـة الجينية :

كلمة جينـا معناها الذى يتغلب على شهواته ، والجينيـة ديانة من

الديانات الهندية القديمة ، وغاية مذهبه هذا تحقيق الحريـــة والمسئولية الاخلاقية عن طريق أربعة مبادىء :

الامانـــة ، الصـــدق ، تجنب القتـــل ، التريض على الطهـــارة .

ولقد أضيف اليها مبدأ خامس فيما بعد وهو التخلى التام عن جميع الممتلكات الشخصية .

وعندما نشأت هذه المدارس الاربعة عمدت الى الطعن فى البراهمانية حتى تحول الناس عنها الى عقائد أخرى كالفيدية ، وأهم ما فى عقائد الهنود عقيدة التناسخ ، او الخلود النفسى فقد أعتبروا أن النفس هى الجوهر ، والجسم باطل ولا يدل على الانسان أما النفس فهى خالدة لا ينالها الموت اذ الموت ليس الا تغير لثوبها واستبداله بثوب آخر تبعا لاعمالها فى دنياها وأن الارواح غير متغيرة وخالدة .

٣ البوذيـــــة :

هذا المذهب ينتمى الى بوذا الذى أعتقد أن جميع الآلام أنما تنبعث من الشهوات الجسمية ، وقد ذهب أن الزهد والتخلى عن ملاذ الحياة هو الطريق للسعادة .

١ ـــ وينقسم اتباع بوزا الى قسمين :

(أ) الدينيون .. وهم الذين كلفوا أنفسهم بالطقوس الدينية .

(ب) المدنيون أو الاحرار .. وهم أقل تنسكا من الدينيين وأكثر تعلقا بالمـــادة .

فكل منهما تحاول البعد عن المادة والقسوة على النفس ، وتحظر على

أتباعها تناول اللحوم والاسماك ، وتتقيد بأنواع المأكـولات والملبوسـات والمشروبات •

ويرى البوزيون أن السعادة النفسية الحقة أنما تكون بالايمان ببوزا والتخلق بأخلاقه إذا أن روحه لا زالت حية •

٢ ـ فلسفة بوزا الاخلاقية :

تقوم على اعتبار أن الحياة كلها ألم وأن السرور مواقف ينتهى دائمـا الى ألم محقق وأنه لا راحة فى هذه الحياة ، والنجاة من هذا الالم ، بوسائل أربع :

* أن هذا العالم كله ألم •
* يجب استكشاف مصدر الالم •
* عن طريق معرفة الالم يمكن علاجه •
* علاج الالم يكمن فى عدة طرق يينبغى الاحاطة بهـا •

و« الزفانا » هى الغاية التى يتوصل اليها الانسان بعد خلاصه من الآلام وفوزه بانجاة ، وليس بعدها غاية للانسان وهى ليست نسبية وليست مطلقـة •

رزائـــل الجسـم
رزائـــل النطـق •
رزائـــل التفكير •

وهى ليست متساوية به تتفاوت حسب تركيبها والندم والتوبة هما افضل الوسائل للخلاص •

تقسيم بوزا للفضائل :

حب الحقيقـة ، الرأفـة ، الطهـر ، الاحسـان ، مداومـة التقوى ، احتمـال المؤلم وأعكروه •

المذهب الجديد : لكى ينجوا الانسان لابد وأن يتبع الفضائل الاتية :

الاحسان الكامل ، الخلق الكامل ، الصبر الكامل ، قوة الارادة الكاملة ، التأمل الكامل ، الحكيم الكامل •

فاذا صار الانسان على هذه الفضائل لا يصل الى الرفانا فحسب وانما هو نفسه بوذا آخر وذهب أصحاب الى ان الالم تجسد فى بوذا لينقذ البشرية وأنه رمز للالم وسيعود مرة أخرى لينقذ العالم ، ولما قام الاسلام لم تنوى البوذية ولا غيرها من المذاهب على الصمود أمام منهجه القويم فتخلى أصحاب هذه العقيدة عنها وانتكس مذهبها الاخلاقى •

٤ ــ نظرية النفس العظيمة :

تتركز هذه النظرية فى أن ادراك النفس العظيمة هو ادراك مستقل فى جسم البوذى ، والنفس العظيمة مستقلة أيضا عن النفس الصغـرى أو النفس الجزئية ، وهدف البوذى هو ادراك النفس العظيمة •

ويوجد اله يسمى الموت « ياما » وهو يقوم بحسـاب العاصى وان العاصى يتفتت جسده بعد الموت حيث يقوم بطريقة مخزية ليلتقى عـذابه ويقول له الاله •

* الم ترى رسولنا الاول والثانى والثالث أيها الانسان ــ يقول لا •
* ألم ترى شيخا أو مريضا أو ميتا ــ يقول نعم •
* الم يكن هذا تحذيرا وعبرة لله ــ لم أفعل يا سيدى •

* وأسفاه بناء على أعمالك فأنت الان تجنى نتائج عملك .

٤ ــ الزارادشيتية :

هى نسبة الى زرادشت وهو اعتناق الدين القديم الذى يقول بخلود النفس وأعلن ان الخلود هو جزء للفضيلة وقد رفض زرادشت قتل جميع الكائنات الحية بأى صورة وأنها تعد من أفظع الجرائم « بهدف أن القتل يمنع الخلود النفسانى ، وأن يوجد اله خير واله شر ، ولهذه الديانة كتابها المقدس « زاندانبيتا » ويحتوى على كلام زرادشت وأن جميع الالهة هى آله محلية أى أن لكل شعب آلهته وأن الاديان انما جاءت من أجل تعمير مبدأ الخير والقضاء على الشر . وأن الخير هو قلب الزرادشتية النابض وأن الخير سيعم الكون بأكمله عندما تسود الفضيلة ويقضى على اله الشر نهائيا .

ونحن نعتقد أن الزرادشتية عقيدة توفيقية لانها ترفض أى عقائد أخرى أو آله خاصة أو محلية وهى بهذه الطريقة تستحوذ على الاديان القديمة وتتضمنها فى عقيدتها بلا صراعات عقائدية .

٥ ــ المانوية :

نسبة الى مانى الذى كان متنسكا مترهدا ويذهب الى أن العالم قد نشأ عن عملاق ضخم قسم جسمه الى اجزاء فتكونت عنها الموجـــودات وتتلخص هذه العقيدة فى مبدأين الخير والشر وهما أزليان ومتساويان فى كل بشىء ، وأن العالم مركب من عنصرين ما يزالا قوتين حســيتين سمعيتين وبصيرتين النفس والصورة والتدبير متصادقين .

٦ ــ المزدكيته :

نسبة الى مذدك واعتقد بشيوعية المال والنساء وأن هذا سوف يقضى على الصراعات بين الناس وبياد الشر تماما من الوجود وقد أغوى أحد ملوك الفرس فى الدخول فى مذهبه هذا بعد أن أقنعه بأن سبب البلاء فى العالم هو النساء والمال وسلوك الملك القياده ، وفوضه مذهبه ، وكان يوجد ولى عهد كان حكيما ، فذهب الى مذدك متوسلا اليه الا يطبق هذا المذهب على الاسرة المالكة وقد قبل مذدك بعد أن أنحنى وقبل حذاءه ، وعندما مات الملك خلفه ولى العهد ، فاستدعى مذدك وقال له « أننى ما زلت أشم رائحة حذائك القذر فى أنفى ثم قطع رأسه » •

٧ ــ الكونفشيوسية :

نسبة الى كونفشيوس •• ومنهجه يستهدف تعليم تلامذته العدالة وارشادهم الى الحقيقة ، لا عن طريق المحاكاة بل بطريق التأمل والبحث وتجاوز العالم الحسى الناقص والانتقال الى العالم المعقول الكامل •

فلسفته الاخلاقية ، هو الخضوع للقانون الطبيعى الذى يتمـــر الخير والفضيلة والانحراف عن الشر ، فالطبيعة ليست فيها شرا لانها تقوم على أحسن نظام •

وهو يرى أن الانسان كالطبيعة يشتمل على قوتين الا ان الخلاف بينهما يرجع الى أن تغلب احدى القوتين على الاخرى ، فاذا تغلبت القوة الايجابية كان الانسان حكيما ، فالواجب على الانسان هو أتباع الطبيعة والطريق الى ذلك هو أتباع التعاليم الدينية •

والنفس الغير غاضبة هى التى تسمى بالنفس المعتدلة ، والاعتدال هو حالة انسجام وهو قانون عام وتأدية الواجب هو أساس الحرية النفسية ، وأن العمل أن قصد به المنفعة كان العمل ساقط عنه قيمته الاخلاقية •

ان الانسان بدون أخلاق لا يستطيع أن يتحمل الفقر والا الغنى وقتا طويلا فالاعتدال هو الطريق الوحيد ليكون الانسان أخلاقيا •

الاخـــلاق فى الفكـــر اليونانى

١ ــ أفلاطـــــون :

توصل أفلاطون الى فلسفته الاخلاقية عن طريق نظرية المثل التى تتمثل فيها كل معانى العدالة والخير والحق وأنه يرى أن معرفتنا بالاخلاق الكلية هى الاساس الذى يوصلنا الى الاخلاق الجزئية ، فمن الاخلاق الكلية يستقى الفرد أخلاقه وكيانه ووجوده •

ونحن لا نستطيع أن نطبق الاخلاق والعدالة الا عن طريق المثـــل فالمعرفة مثال كلى وللعدل مثال كلى ، والمعرفة عند أفلاطون يجب أن تكون كما هو موجود بالفعل وهو ليس فى عالمنا الحسى المادى لانه عالم ناقص (عالم الاشباح) فحقائق الكون ليست فى الشخوص الجزئية ولكن فى عالم المثل وينظر أفلاطون الى الخير على أنه واحد والفضائل ترجع الى الخير وتصدر عنه •

فالسلوك الاخلاقى هو أساس المعرفة ، فليس الشر الا خطأ يمكن اجتنابه بالتربية والتعليم والرذيلة انحراف عن الخير ويجب علاجهم كما يعالج المرضى ، وطريقة العلاج بالفلسفة (أن أنجح وسيلة للعـــلاج هى الفلسفة) •

وهو يرى ضرورة ردع الجانى وعقابه وأن المعرفة كافية لتطهير النفس وتربيتها على الفضائل ولم يحدد انا ما هى العقوبات المادية وأنه فى تصورنا أنه يقصد قصصا نفسيا كالنفس مثلا ، ولكن نظرتنا أنه لابد أن يعاقب فى روحانيته وماديته •

وينتهى أفلاطون الى أن الاعتقاد الدينى هو وسيلة من أنجح الوسائل فى التربية الاخلاقية وأنه لا يمكن ممارسة حياة الفضيلة والخير والعـــدل الا اذا جعلنا الله غايتنا ، ولقد صور الاله فى صورة كمال مطلق وأنه يعتبر الانسان الفاضل هو المخلص فى العمل وهو القدوة لكل ما يسمى فضيلة أو أخلاق فاضلة •

٢ ــ أرســـــطو :

حارب أرسطو مذهب اللذة ، وجعل السعادة هدفا وغاية والسعادة مذهبا أخلاقيا فلسفيا منظما متكاملا ، وأنه قبل الاخلاق علم وعملى يهدف الى غاية يود تحقيقها وهى الخير الاقصى ، وهو كاف بذاته لاسعاد الانسان وهو الخير الاقصى وأنكر اللذات الفردية الانانية ، فالعقل الخلقى لا يكون خيراً لانه يحقق منفعة بل لانه خير وفضيلة •

ويذهب أرسطو الى أن الاخلاق هى التى تحدد ما يجب على الانسان فعله واجتنابه وهى التى تنظم الحياة الفردية ، لذلك جعل الاخلاق علما سياسيا فكما هى سياسة للمجتمع فهى سياســـة للنفس وهو وضـــع علم السياسة على رأس الملوك جميعا لان الدولة بصفتها هى التى تسوس المجتمع أقدر من الفرد فى تحقيق الامن لما لها من قوة قهر وسلطة على الافراد •

٣ ــ رد على نظرية أفلاطون وأرسطو :

هل يمكن بالعقل وحده ان يصل الى التكامل الاخلاقى بالتأمل أو عن طريق التفلسف ، هل يمكن أن لا يمكن ؟

الــرد : لا يمكن لان العقل البشرى محدود وله حدود لا يمكن أن يتعداها فهناك مصطلحين ، مصطلح أفقى ، ومصطلح رأسى •

الرأسى : هو عملية استمداد من الله مثل ما نستمد الدفء من الشمس فالقول لا اله الا الله ، هذه فكرة كلية ــ فالدين هو هادى العقل الانسانى

فنحن نستمد من الله بالفكرة الكلية ونظرياتها الجزئية ، فلا بد من الايمان مع العقل لان الايمان يستمد من الكلى ومن الفكرة الكلية وهى لا اله الا الله فلا بد من العقيدة والوحى •

الافقى : النظريات الجزئية الحديثة كلها مستمدة من فكر أفقى من تجارب الاخرين أو من علوم الاخرين •

فالنظرية الجزئية لابد وأن توفق وفق نظرية كلية فلا بد من الايمان مع العقل لان الايمان يستمد من الكلى فالفكرة الكلية من الرأسى والفكــرة الجزئية من الافقى ، فالفكرة الجزئية مستمدة من الرأسى التى هى الفكرة الكلية فلا بد وأن تعتمــد على الفطــرة الســليمة ، فالفطــرة الســليمة لا تقول أن يوجــد أكثــر من الــه ، ولكنها تقــول أنه يوجــد اله ، ومن الممكن أن تؤمن الفطرة بشىء ولكن من الممكن ايجاد ملابسات مثــل اليونان يوجد أكثر من اله ، ولكن الفكرة الاساسية هى اله واحد ومنبثق منه عدة آلهة •

٤ ــ المعرفــة عند أفلاطــون :

جدل المعرفة هى محاورة من الجزء الى الكل لمعرفة النظرية الكلية التى تفسر الحياة وهو المنهج الذى يرفع العقل من المحسوس الى المعقول أو الجزئى الى الكلى ،وتلى هذه المرحلة مرحلة الجدل النازل من الكلى الى الجزئى ليربطها بمبادىء المحسوسات ليفسرها •

١ ــ المحسوس :

وهو ادراك عوارض الاشياء أو الاجسام سواء فى اليقظة أو المنام وهى ليست معرفة حقيقية وهى معرفة جزئية •

٢ ــ المعرفة الظنيــة :

وهى درجة أعلى من المعرفة الحسية مثل هذا مؤلم أو غير مؤلم وهو ليس على اليقين وهو غير ثابت •

٣ ــ علم الماهيات الرياضية التى تتحقق فى المحسوسات :

مثل معرفة شخص أو أشخاص من تجسيم الشخص أو الاعداد وهى معرفة مجردة عن العوارض الجسمية التى مجرد وحدات رياضية وهذه هى أساس المعرفة الحقيقية (المعرفة الاستدلالية) •

٤ ــ ادراك الماهيات المجردة من الاجسام والاعداد :

وهو عالم المثل • وليس عالم الحقيقة (التعقل) •

ما المعرفة ••• أو الجدل الصاعد من المعرفة الحســية ــ الظنية ــ الرياضية المجردة ، فالتأمل ان لم يكن سلوك أخلاقى فما قيمة التأمل ان كان الشخص يتأمل ثم يرتكب فاحشة •

الرواقيـــــة :

الحكمة الرواقية تدعو الى الحب والتسامح والاخـــلاص كطريق الى السعادة والفضيلة والانسان مستعدا لقبول كل شيء من خير وشر وظلم وجور ، وان يجعل الانسان رغباته حسب الظروف ، فان لم يستطع فعليه أن يجعل الظروف تبعا لرغباته •

الرواقية بهذا المنطلق لا توصلنا الى الفضيلة والسعادة ، لضيق نظرتها •

الفكر الحديث والاخلاق

١ ـ ديكـــــارت :

قسم ديكارت الاخلاق الى نوعين ـ أخلاق مؤقتة (العادات) وأخلاق نهائية •• ولا يتعارض الاثنان وكلاهما يستهـدف تحقيق حياة سعيـدة للانسان ، الا أن الاخلاق المؤقتة لم تعد لها أهمية فى هذا الزمان لانه أصبح بمقدور العقل ان يتخذ أماما ، والاخلاق النهائية تحقق سعادة أكبر من الاخلاق المؤقتة •

ويقسم الخبرات الى نوعين •• الخبرات التى بمقدورنا تحقيقهـا ومسئولين عنها •• الخبرات التى ليس فى مقدورنا تحقيقها ولسنا مسئولين عنها ، والاخلاق الحقة هى اخلاق من النوع الاول لانها راجعة الينا •

ديكارت « اذا أننا حكمنا حكما حسنا فمعناه أننا نفعل فعل حسنا » أى أن عن طريق أصدار احكام عقلية تكون الافعال فلا فرق بين الحق العلمى والحق الاخلاقى •

النقد •• أنه لا يكفى لان تكون الارادة الانسانية حسنة لكى يكون الفعل حسنا ، فالارادة ليست العمل والارادة يمكن أن تتحقق أو لا تتحقق فلا يصبح الشيء لمجرد ارادته حسنا الا اذا تحقق بالعمل •

ويربط ديكارت من ناحية أخرى بين النفس وقواعد الاخلاق ، فالنفس مستقلة عن الجسم ، وهى أشرف منه لانها روحية محضة وتتناول السعادة الابدية •

النقـــد •• يختلف معه فى نظريته عن السلوك الاخلاقى حيث يجعله عقلانيا صرفا وكأنه بمجرد النظر والتأمل يصبح سلوك الانسان فاضلا •

وعقل ديكارت عن السلوك العلمى فالعقل الانسانى بطبيعته ناقص ومن ثم فان أحكامه ليست صادقة بالضرورة اما الذى يحقق للعقل كما له أنما فى موافقة العقل الشرع ، ولن يتم ذلك الا بالاسترسال مع الله والعمل على طاعته لان أرتباط الاخلاق النظرية بالاخلاق العملية أو العقل مع الشرع على تطبيق الاحكام الشرعية هى أحكام الفطر السليمة والعقل الرشيد •• والسبب الذى جعل ديكارت يخرج باخلاق عقلانية هو أستسلامه لجنوح العقل •

لقدأستعار ديكارت منهج الغزالى لكنه لم يصل الى ما توصـــل اليه الغزالى من يقين •

ومنهج ديكارت •• لا يصبح قبول شىء حق أم باطل الا مايعرف فى وضوح ، يجب أن يقسم كل موضوع الى اجزاء حتى تكون سهلة ادراكها •• ترتيب المواضيع من السهل الى المركب •• فرض نظام من الموضـــوعات لايسبق بعضها فى النظام •

معنى ذلك أن ديكارت اراد بمنهجه ان يستبعد كل ما هو غير عقلانى وذلك يقصد تحرير العقل واستقلاله للوصول الى الوضوح الذى يراه •

الاختلاف بين الغزالى وديكارت :

ديكارت •• يعتمد على العقل اعتمادا كليا ويرى أنه لا معرفة الا بطريق الاستنباطات العقلية •

الغزالى .. العقل قد يصـل الى معرفة الله ولكنه ينزلق ويقـع فى المتشابهات فيرى الكوكب صغيرا رغم أنه كبيرا ، فالعقل أن كان سليما فهو يحكم به على الافعال لكنه يعجز عن الحكم فى الامور الغير محسوسة .

البصيرة عند الغزالى هو نور يقذفه الله فى قلب المؤمنين فيصبح علما وعالما ومعلوما جميعا .

البصيرة عند ديكارت هى حدث يتلبس بها الحق بالباطل وهى مخادعات وليس حقائق .

٢ بسـكال :

أنتهى الى أن العقل لا يهديه الى اليقين التى تنشده النفس ، وأختار الفلسفة الصوفية المسيحية طريقا الى المعرفة واليقين ... وقد شك بسكال فى قوى الطبيعة الانسانية ووجد الانسان مفطورا على النقص مملوءا بالآفات الغريزية ، فالانسان كما يراه بسـكال مجموعـة من الاكاذيب والمخادعات بل والرياء والضلال .

نقـد .. لقد بلغ بسكال فى أحتقار العقل ، وهذا لا نجده عند الائمة المسلمين أن العقل عندهم هبة لله وطريق التفكير السليم ، حقاأن للعقل حدود فليس وحده الطريق المعد للمعرفة الوهبية الا اذا صدق مع الله .. فقد أسرف بسكال فى اعقاله جوهرة العقل ثم أنه عزل نفسه عن النظر والفكر بل والشرع أيضا ، وفى ذلك خطورة يمكن أن تقوده الى الضلال والتهلكة ، ذلك أن ما يبث فى القلب يجوز أن تكون من غوايات الشيطان التى يتلبس فيها الحق بالباطل، فالشيطان ينفذ فى خاطر المرء ويحسن له سوء عمله ، ولقد وقع بسكال فريسة المرض والهواجس .

نتيجة لفلسفته الروحية التى تقوم على الانعزال والسلبية ، ولو فتح الله عليه حقا لاتخذ طريق التفكير والنظر العقلى مقتديا بنور العقل حتى يصل الى بر الامان ولو أنه فعل لآمن بالشريعة المحمدية الصالحة للنفس والجسم والقلب جميعا والتى لا ترفض العقل ما دام موافقا للشرع •

٣ ــ كارليل والاخلاق الاسلامية :

كان كارليل من أكبر المدافعين عن الاسلام بل كان سببا مباشرا لفهم كثير من الاوربين حقيقة الاسلام وتقيد وجه نظرهم المتعصبة ضــد الاســـــلام •

ولقد آمن بالقرآن الكريم والسنة المحمدية وعن طريق الايمان آتاه اليقين والامن النفسى لذلك يقول أن الالحاد والايمان ليس تقليدا أو محاكاة وأنما هو الاخلاص ظاهرة وباطن •

ان القانون الظاهرى أو القضائى يهتم فقط بالشكل والرسوم دون الخوض فى معنى النية والاخلاص ، لذلك ركز كارليــل اهتمامه بالســـلوك الاخلاقى الذى ينبع من الباطن أو من الايمان المبنى على الاخـــــلاص والطاعة •

٤ ــ فلسفة بكلــر الاخلاقية :

وضع جوزيف بكلر مذهبا أخلاقيا جديدا أسماه الضمير وقد دعا فى فلسفته الاخلاقية الى أرجاع الحاسة الخلقية الى باطن الذات ، وهو بهذا يعارض أهل السلف المسلمين ، والحاسة الخلقية هى الضمير أو العقــل الخلقى أو الالهى سواء كانت هذه الحاسة مؤسسة على عاطفة عقلانية أو أدراكا قلبيــا •

لقد كانت مواعظ بكلر عبارة عن تأملات ، فهو يرى أن السعادة للمجموع غاية السلوك الانسانى وأن هذه الغاية يقرها الضمير •

وان الحاسة الخلقية المتمثلة فى الضمير الاخلاقى قادرة على أن تؤدى وظيفتها تلقائيا بدون حاجة الى خبرة حسية ، وهناك أختلاف بين الحاسة الخلقية والضمير ، اذ ان الضمير انما ادراكه حدسى عقلى وتصدر عنه أوامر خلقية ••• وأوامر الضمير هى صوت الله وانها تمثل العدالة الالهية •

نقـد •• لقد وقع بكلر فى هوى الايمان بالضمير الانسانى ، والحقيقة أنه نقترف باسم الضمير الآلاف من الجرائم ، وأنه لا يكفى الضمير الانسانى وحده حكما عادلا ما لم يكن الانسان مؤمنا بالله عاملا بكتابه •

٥ ـ مذهب المنفعة عند بنتام :

أعتنق بنتام المذهب النفعى ، وظن أنه بذلك يحقق أكبر قدر من السعادة ويذهب الى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الالم ، شأنهم فى ذلك شأن الحيوان الا أنهم يمتازون على الحيوان بأنهم يستخدمون مبدأ المنفعة وذلك عندما يتبعون منطق العقل ، كما أن العقل يحكم على الفعل بأنه عندما يعود على المرء آلم مستمر •

وأهم مقياس استخدمه بنتام ليحكم به اللذة هو شـدتها ومدتهـا وخصوبتها ونقائها ، ومنفعة الفرد هى فى نفس الوقت منفعة للمجموع •

والواقع أن مذهب بنتام مذهب نفعى حسى مادى خال من الفكر المجرد حيث أخضع الانسان فيه الى سيطرة دوافع نفسية تتمثل فى عواطف اللذة والالم دون أن يضع لنا مثلا أعلى أو قيما كبرى يخضـع لها السلوك الانسانى •

واراد بنتام أن يصيغ علم الاخلاق من الواقع فعمد الى أحصاء اللذات واعتقد أنه بحساب اللذات يمكن تقييم نشاط الانسان وسلوكه .

وقال أن ينكر الايثار ، لان الايثار ما هو الا أنانية مقنعة ومتنكرة .

تعليـــق :

المذاطب الاخلاقية فى العصور القديمة على « التفكير فى موضوع السعادة » ، وعملت هذه المذاهب على ربط الخير بالسعادة برباط فلسفى .

أما المذاهب الاخلاقية فى العصر الحديث فانها أرادت ان تخضع الخير الى منطق التجريب العلمى ، بمعنى الحكم على شىء بأنه مرغوب فيه من عدمه وذلك بامتحانه بالتجربة العملية والمعملية .

ولما كانت التجربة لا تقبل الاشياء محسوسا أو ملوسا ، فقد أصطنع بنتام لذلك مذهبه على هذا النحو فجعل الخير ورقة مالية محاولا اقامة صرح الاخلاق عليها وذلك ما أسماه بحساب اللذات .

وظاهر أن بنتام نفسه أكثر مادية من أبيقور ، فقد ركـز ابيقور على كيفية اللذات بينما ركز بنتام على كميتها ، وينتقد بنتام أبيقور .. المهم ليس بكيفية اللذات وانما كميتها .

تهافت المذاهب الاخلاقيـة

أن كثير من الشعوب والامم ما تزال غارقة حتى آذانها فى أوهـام المذاهب والمعتقدات الخاطئة المنحرفة التى تعبد العجل والنار وتسلك سلوك الجاهل فى غفلة واغترار وتجعل من دون الله آلهة ، صنعتها نفوسهم المريضة

وقلوبهم المتحجرة فآمنوا بالطاغوت يذيقهم الشك والفزع والرجفة واليأس والقنوط فى الدنيا والحسرة فى الاخرة •

لقد جسدت الفيدية الهمم وقطعت جسمه أربا أربا ، ونشرت أشلاءه على العالمين ، ثم زعمت أن الحياة الخلقية السليمة أنما تكون فى جميع أشلاء الاله وتحقيق وحدته الجسدية (١) •

والبراهمانية جعلت السلوك الاخلاقى القويم مستحيـلا ، وقصرت السعادة على طبقة الكهنة ، وسدت جميع المنافذ بما وضعته من طقوس غامضة وشعائر معقدة أمام الناس لتتركهم فى ظلمة الجهل وحياة الخوف والشك (٢) •

ونجد اليوجية لتعبد الفناء ، وذلك بسحق العقل ، وفقد الحواس ، وتوهمت بانها بذلك تحقق السعادة لمعتقديها •

وأعلنت البوذية أن الحياة كلها ألم ، وأن العمل جهد مضنى ، ومجهود تام ، وأفترضت حلا لمشكلة الالم التى أخترعتها • وذلك بحل مشاكل الكون ، حتى يتمكن السالك من النجاة ، وبذلك تحقق له السعادة •

الزرادشتية عقيدة تلفيقية جمعت كل الاديان السابقـة بمللها ، ثم أضافت اليها عدم قتل الحشرات حتى ولو كانت ضارة ، وزعمت أن فى قتل أى نفس ولو كانت لحشرة ضارة ظلما عظيما •• اذا يوقف خلود النفس الذى تؤمن به •

---

(١) د. محمد غلاب — الفلسفة الشرقية .

(٢) د. حسن الشرقاوي — نحو تربية اسلامية •

أما المانوية فتجعل للعالم الهين أحدهما للخير والاخر للشر ، وهما متساويين فى كل شىء يستمران الى الابد •

والمزدكية تعلن الفجر والعهد مذهبا لها ، وتطالب الناس بشيوعية الجنس والمال ، بزعم أن ذلك السلوك يحقق السعادة المنشودة •

أما الكونفشيوسية فتؤمن بالقانون الطبيعى ، وتزعم أنه يحقق الخير فى الوجود ولذلك يجب أن يكون السلوك موافقا للطبيعة التى هى على خير نظام ولكن أى الطبيعة يقصد اليها كونفوشيوس هل هى الطبيعة الحيوانية؟ أم الطبيعة الكونية ؟

اما الفراعنة فقد عبدوا ملوكهم ، وقدسوا موتاهم ، وقدموا القرابين لاسلافهم خوفا وطمعا وسخروا حياتهم فى رشوة الكهنة ليدخلوا الجنة من الابواب الخلفية ••

وتجد أفلاطون أنه ظلم بمثاليته ومثله الناس والاخلاق وقسم الناس شيعا واحزابا ، وجعل منهم السعيد حقا والتعيس حقا ، فأعطى مفاتيح السعادة الابدية للفلاسفة وسحبها عن العامة من الناس وأسماهم بالرعـــاع وهبط بهم الى المستوى الحيوانى •

وأتى أرسطو ليرسم للانسانية الطريق الى السعادة ، وشرع للناس السلوك الخلقى الواجب الاتباع ، ويبطل بذلك الاديان السماوية •

ولم يتجاوز الفكر الاخلاقى الحديث النظريات القديمة ، حتى أنه يمكن القول أن ما هو حديث من هـــذه المذاهب الاخـــلاقية يمكن أن يكون قديما فالفكر الانسانى فى عملية اجترار دائم للسلوك والتطبيق •

لقد استعار ديكارت منهج الامام الغزالى وحاول تطبيقه للوصول الى نظرية أخلاقية مسيحية ، وانتهى الى طريق مسدود ذلك لانه توقف عند مرحلة العقل واعتمد على التأمل الصرف دون بذل العمل من أجل تنفيذ شعائر الله •

وأدخلنا كانط فى متاهات الواجب والزرادة الحرة وربط بين الخير والحرية الفردية ربطا عسفيا وأوقع نفسه فى تناقضات كثيرة عندما جعل الانسان ملتزما بالواجب وحرا فى نفس الوقت •

والوجودية الحديثة بمدارسها المختلفة تعبد الحرية الانسانية وتهدف الى اطلاق العنان بشهواته لتشيع فى الارض فسادا •

ولقد أشاعت الماركسية فوضى أخلاقية وقبلت كل القيم رأسا على عقب وزعمت أن الدين أفيون الشعوب وأن الايمان بالله تمثيلية وضعها البشر من عند أنفسهم وأعلنوا فى تبجح لا اله والكون مات •

ونجد أن كل المذاهب قد ركزت اما على الروح وحدها أو على المادة أو الجسم وحده ، ولا يمكن أن نفصل بين الروح والجسم حيث خلق الله سبحانه الانسان مكون من روح وجسم ، فنرى أن الاسلام يركز على الروح والجسم معا ولا يفصل بينهما ، كما فعلت المذاهب التعسفية الوضعية •

لم يعد أمامنا الا الاسلام دين التوحيد وعقيدة الحق وشريعة الله الخاتمة لتكون لنا المعين والمرشد • فنطبق القرآن ونعمل بمنهجه ونسلك طريقه ونتخلق بخلقه •

مطالب الحياة الخلقية فى الاسلام :

الخلق أما حسنا ، كما ورد فى قوله تعالى :

« وانك لعلى خلق عظيم » (القلم : ٤)

وأما سيئا كما ورد فى قوله تعالى :

« ان هذا الا خلق الاولين » (الشعراء : ١٣٧)

واذا كانت أفعال الانسان جميلة ومحمودة ، ومقبولة عقلا وشرعا ، اسمى صاحبها بذى خلق حسن ، أما اذا كانت أفعاله قبيحة مذمومة سمى بذى خلق سىء .

فالكريم .. والجواد .. والعفيف .. والورع .. وغيرهم من أصحاب مكارم الاخلاق ، انما يتصفون بالخلق الحسن ، لما طبع فى نفوسهم من الفضائل ، وما رسخ فى نفوسهم من الحكمة ، ولم يكن ذلك بسبب عرض زائل — ولا لأسباب وعلل مؤقتة — لان الاخلاق الكريمة لا ترتبط بمصالح أو منافع عابرة ، ولا بظروف معينة اذ أن أخلاق أصحاب الفضائل ثابتة دائمة (١) .

وكذلك الامر بالنسبة للخلق السىء كالبخل ، والشح ، والفجر ، والعهر ، والشره ، والجشع ، وغير ذلك من الصفات الذميمة ، فان أصحابها لا يتصفون بها الا اذا كانت طبعا فيهم وقد سخت فى نفوسهم وتمكنت منها

---

(١) الامام أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين ج ٨ .

فلا يستطيعون منها خلاصا . لانها دينهم ودنياهم اذ أنها ليست نتيجة حادث عارض أو سبب عابر .

ويرى الامام ابو حامد الغزالى ، اننا يمكننا أن نصف صاحب الخلق الحسن بالحسن أو صاحب الخلق السىء بالسوء ، عندما تصدر أفعال أى منهما دون رؤية أو تفكير فهذا يظهر أخلاقه الحقة ويبين رسوخ الطبع فيه.

وقد يستظهر شخص الشح والبخل رغم أن خلقه السخاء والجود ، وانما يفعل ما يفعل بسبب عارض لفقده ماله ، أو حادث سبب له هذا الحال فيصبح مقترا .

ولذلك لا يحسن الحكم عليه الا أن يزول السبب لان ما يحدث انكاره يكون نتيجة ظروف معينة ما تلبث أن تنقضى فيعود هذا الجواد الى طبعه الاصلى من السماء .

والاخلاق عمل فى الباطن وسلوك ينبع من الداخل وقوى محركة من القلب والخلق الباطنى ينقسم الى أقسام أربعة يتكامل بعضها مع البعض الاخر تكاملا متناسبا متآلفا ، حتى يوصف صاحبها أن حسن الخلق ، وهذه الاقسام هى :ـ

١ ـ قـوة العلم : (١)

أن القوة فى العلم أنما تتضح فى قدرة الانسان على التفرقـة بين الصدق والكذب وعلى التميز بين الحق والباطل فى مجال الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فيما يتعلق بالافعال .

---

(١) الامام ابو حامد الغزالى ـ احياء علوم الدين جـ ٨ .

فاذا تكاملت قوة العلم ، أثمرت ثمرة يانعة من ثمار المعرفة ، بل هى أشرف وأعز ما يتحصله الانسان ، الا وهى الحكمة ، مصداقا لقوله تعالى :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (البقرة : ١٩)

والحكيم بهذا المعنى أنما هو على رأس أصحاب مكارم الاخلاق اذ الحكمة قمة الاخلاق وينبوع الحق والفضيلة •

٢ ـ قــوة الغضب :

لا يعد الغضب عند بعض الائمة شرا كاملا ، انما فى بعض الاحيان

فاذا كان الغضب من أجل الدفاع عن حياض الوطن ، أو دفاعا عن صالحا وتاما وذلك عندما تقتضى لحكمة ذلك •

العرض أو الحق أو الدين ، كان ذلك دليلا على صلاحه وتمامه على أن يكون مرتبطا بالحكمة ومقترنا بها ، اذ هى الاساس الذى يحرك هذه القوة فى الطريق المستقيم والعمل الصالح •

أما اذا كان الغضب بلا حكمة أو سبب مما ذكرنا ، استخدمت هذه القوة فى غير موضعها وكان صاحبها آثما ومن ثم نعتبر هذه القوة فاســدة وذميمة ويتصف صاحبها بالخلق السىء •

٣ ـ قــوة الشهــــوة :

وكذلك الشهوة فانها لا تعد فى جميع الاحوال من الرذائل ، اذ أنها قوة من قوى الانسان الحسنة ، متى كانت تتبع بما تقضى به الشريعة وما يحكم به العقل ، والقوة الشهوانية أنما تكون صالحة وحسنة اذا سارت تحت أمرة الحكمة ، واتبعت الصراط المستقيم ، اما اذا أستخدمت الشهــوة لجلب

اللذات ، وموافقة الاهواء بلا حكم يحكمها فانما يكون صاحبها من الضاليين الظالمين •

٤ ـ قـوة العـدل :

والقوة الرابعة فى الانسان انما تكمن فى قوة العدل ، وهذه القوة ترجع الى النفس اذ أن النفس هى التى تحكم على قوتى الغضب والشهـوة وتأمرها باتباع هذا الطريق أو ذاك ، وقوة العدل تمتاز بقدرتها على التمييز بين ما هو شرعى ومقبول عقلا وبين ما هو محرم ومتروك شرعا وتتمثل هذه القوة فى ضبط النفس أو بمعنى آخر فى ضبط قوتى الغضب والشهوة وهى دائما تحت سلطان وأمرة الحكمة •

وتنمو قوة العدل فى الانسان من قوة العقل فكلما كان العقل واعيا سليما حكيما ، كان العدل عدلا ومنصفا بين قوتى الغضب والشهوة أما اذا كان مريضا فانه لا أنضباط بين قوتى الشهوة والغضب وبذلك يفقـد الشخص اتزانه •

طبيعـة الانحـراف الاخـلاقى :

يقع الانسان فى الانحراف والخطـأ ، ويصاب بالافـات والامراض النفسية ، نتيجة للالتباس والخلط بين الحق والباطل ، ولعدم تعوده على الاعمال الصالحة لاعتقاده أن ما يفعله هو الحق والصـواب ، وهذا هو الجهل بعينه لان الامر يتشابه عليه فيرى الحق باطلا ، والباطل حقا نتيجة لاعتماده على نسب باطله وتقديرات خاطئة واسباب ملفقة ودعاوى كاذبة

وآراء فجة وقياسات فاسدة وهذا مخالف للفطرة السليمة والعقل الرشيد والنفس المستقيمة .

ويمكن أن نقسم الناس فى الوقوع فى الخطأ والانحراف الى أربعة أقسام [١] . مرتبة بحسب تدرج الانحراف وزيادته :

١ ـ الشخص الجاهـل :

وهو الذى لا يستطيع أن يفرق بين الشر والخير فى الاعمال ولايمكنه أن يميز بين الحق والباطل من الافعال ولا بين الجميل والقبيح من الاشياء والجاهل يبقى دوما على ما بقى عليه من الغرائز دون أن يسعى الى تغيرها بالتعليم والتهذيب والتربية وهو يرى كل شىء حوله فارغا تماما من المعانى لم تنم فى نفسه يقظة ضمير ولا يؤمن بشىء أيمانا حقيقيا أن قلب الجاهل وعقله ونفسه جميعا خالية من الايمان والبصيرة ، وهذا الجاهل لم تنضج أخلاقه بعد فى حاجة ماسة الى معلم ذكى فطن عالم بخفايا النفس ونزوعها الى الاهواء ، خبير بأمراضها وآفاتها ، وهذا المعلم يعرف أن طالبه محتاج الى دافع أيمانى ، وباعث روحانى ليحركه من داخله ويجعله قابلا لتغير مزاجه وتربية نفسه واختيار القدوة الحسنة ، كما يمكن أن تتحسن أخلاقه أيضا عن طريق العلم الذى يمكن أن يبصره بالنسبة الصحيحة للاشياء ويجنبه النسب الفاسدة والخاطئة ، وبذلك يصبح شخصا سويا صالحا لنفسه ولمجتمعه .

---

(١) الامام ابو حامد الغزالى ـ احياء علوم الدين ج ٨ .

٢ ــ الشخص الشــــهوى :

وهو الذى لم يعود بعد على أفعال الخير والصلاح ، ويعرف قبح القبيح ويفرق بين ما هو خطأ وما هو صواب ، ينقاد الى الخطأ ويترك الصواب ذلك لاستيلاء شهوة النفس عليه ، فهو يريد أن يرضى نفسه ، ويجلب لها ما يلذها ويتجنب ما يؤلمها فيزين له سوء عمله الامر •

وهذا الشخص أعسر من الجاهل فى أمكان تغيير أسلوب حياته ولكن هناك طريقتين لاصلاح أمره •

(أ) أن يقتلع من نفسه نهائيا ما رسخ فيها من العـادات المذمومـة والاخلاق السيئة التى تحكمه فى طبعه وقادته الى الانحراف والفساد •

(ب) أن يجتهد فى أن يطبع نفسه بالامور الحسنة ويعودهـا على الاعمال الحسنة وهذا يقتضى منه الاخلاص فى ارادة التوبة •

فالشهوى يحتاج الى عزيمـة قوية لمحاربة هـوى النفس ، وهذا الشخص أنما يدخل فى دائرة النفوس التفسية التى ينتابها القلق والخوف والحيرة والضياع حيث أنه يعرف الحرام ولكنه يقع فى الباطل فيصاب بالافات النفسية •

٣ ــ الشخص المنحـرف :

وهذا النوع من الاشخاص أعظم انحرافا من سابقيه اذ له نظام ومنهج ومذهب يتأكد فى تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، فيرى الشر خيرا والخير شرا ، ويجعل الاخلاق القبيحة غاية له ويمارس ذلك دون خوف ، أو خجل زاعما أن ما خالف طبعه باطل وقبيح غير صحيح ، فهذا الشخص يتخذ

من الشر هدفه ومبدأه ، ذلك أنه شخص عدوانى شهوانى شيطانى لا يرجى منه صلاحا أو أصلاحا وذلك لتراكم الفساد والانحراف على نفسه وهو يستخدم التدمير والاتلاف حتى لا يكون فى الوجود غيره فهـو شخص متسلط متجبر عدوانى يشعـر بلذة مريضة فى أيلام الاخـرين .. وهذا الشخص مريض قد يصعب علاجه . فلا بد له أن يلازم عشرة صالحين حتى يستزرعو فى نفســه بذور الخير التى تساعده على التخلص من الافــات والشرور .

٤ ـ الشخص الشرير :

هو ذلك الذى يرى الفضيلة فى كثرة الشرور ، ويفاخر بذلك لانه قد نشأ على الرأى الفاسد وتربى على العقيدة المنحرفة ، فسعادة وهناء نفسه فى الاضرار بالاخرين ، ويفاخر بذلك ، وذلك عنده معناه البطولى والرجولى فهو مجرم بالطبع شرير على الحقيقة ، وهو يجد لذة عظيمة فى التدمير والاذى فهو لا أمل فى اصلاحه ، هذا الشخص يجب أن يعزل عن الناس والمجتمع حتى يحل أجله أو يهديه الله .

وهذه الانواع الاربعة من الانحـراف :

١ ــ ان من المرتبة الاولى الشخص الجاهل ينصلح حاله بالتربية والعلم والنصح .

٢ ــ أما فى المرتبة الثانية فنجد شخصا جاهلا وضالا (شهوانى) يمكن ان نغرس فيه مكارم الاخلاق .

٣ ــ أمافى المرتبة الثالثة فنجد شخصا جاهلا وضالا وفاسقا (المنحرف)

نتيجة لاعتقاد كاذب ورأى جاهلا فاسد ولا يتم اصلاحه الا بمعرفة طبيب فاضل حاذق •

٤ — أما فى المرتبة الرابعة فنجد شخصا شريرا وهو الجاهل الضال الفاسق صاحب مبدأ الشر ومذهب الضلالة فلا ينصلح حاله لا سبيـــل لارشـــاده الا برحمة من الله ومن حكمة الله أن هذا الشخص قليل الوجود •

٤ — اصلاح الانحراف الخلقى فى النظــرة الاسلامية :

الاسلام دين الفطرة السليمة والعقول الرشيدة والنفوس المستقيمة يستهدف عير الانسان فى الدنيا وسعادته فى الاخرة والتشريع الاسلامى مؤسس على الرحمة مقرون باليسر • تنطلق القواعد الاسلامية من وسط عدل وهو الخير الفاضل ، فلا عسف ولا ظلم ولا تقتير ولا تفريط ، القواعد الاسلامية معتدلة متوازنة تصلح للتطبيق على الجسم والنفس والمجتمع جميعا كما تتمتع الشريعة الاسلامية بمرونة عالية تسمح بامتداد قواعدها لتشمل الناس جميعا رغم تباين مشاربهم وتنافر طبائعهم فيقول تعالى :

« لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »

والدفع ليس صراعا ، انما الدفع تكامل بين الناس وتوازن فى الامور وانصاف وعدل فى الحقوق •

فالدفع نظرة اسلامية خالصة••والقول بعدم المشاحنة فى الاصطلاح قول مرفوض ، فاننا نتمسك بضرورة الفصل بين المصطلح الغربى والمصطلح الاسلامى ، فاذا قال أن هناك دفع بين الناس لتعمير الارض فانه يفهم وجود ما دفعه بين الخير والشر بين الفجور والتقوى ، وتتغير المدافعة من شخص لاخر وينصلح أمر المنحرف ويتوب العاصى •

أما أصحاب العلم الحديث فانهم يجمعون على حتمية الصراع ، وانه لا تتغير أخلاق المجرم أو المنحرف العدوانى ، لدرجة أن زعيم التحليل النفسى سيجموند فرويد يقول « أعطونى طفلا عمره ثمانى سنوات وأنا أتنبأ لكم بشخصيته فى كهولته » ••• فهذا معناه أنه لا مجال عن طــريق التربية والتعليم والارشاد لتغير الاخلاق من سيئة الى حسنة ، أو السلوك الا من الانحراف الى السواء •

أما ليفى برول فيزعم أن هناك حتمية اخلاقية كالحتمية العملية سواء بســـواء وينكر بذلك القيم الكبرى ومكارم الاخلاق •

اما النظرة الاسلامية •• فنرى أنه لو كان الامر كذلك ما كان هناك حاجة الى الاديان لهداية البشر ، ومعنى القول بالحتمية غلق لرحمة الله على العباد ورفض الهداية للمشركين والضالين •

ويقول الامام الغزالى (١) ••• أننا لو سلمنا مع هؤلاء فى رأيهم فكأننا ننكر الوصايا والمواعظ والنصح والارشاد للناس جميعا ، اننا دائما ندعو الناس الى المثل العليا حتى الرسول ﷺ روى عنه « حسنو مـــن أخلاقكم » •

اذن كيف يستقيم هذا الرأى وندعوا اليه ونحن نعرف أنه من الممكن تغيير طبع واخلاق كثير من الحيوان ، فما بال الانسان •

---

(١) الامام ابو حامد الغزالى ـــ احياء علوم الدين ج ٨ •

الفصل الثالث

علم نفس أســــلامى

مقدمـــــة :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

(الشمس : ٧ ، ٨)

اذا ما جهل الانسان نفسه فانه لا شك واقع فى الامراض النفسية المختلفة سواء كان ذلك فى صورة شعور بالنقص أو الذنب أو الضعة أو أحساس برغبات قسرية .. للانطواء أو العدوان أو السلبيــة .. أذن فالانسان محتاج بالضرورة الى التعرف على الافات النفسية التى يمكن أن يصاب بها وعليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للوقاية منها والتحصن ضدها حتى يسلم من الوقوع فيه .

والواقع أن علم النفس الحديث بمدارسه المختلفة التجريبيـــة والاكلينيكية والقياسية لم يتوصل حتى الآن الى تعريف الشخصيـــة الانسانية تعريفا كافيا وشاملا وواضحا .

أننا لا ننكر أنه قد وضعت مئات من تعريفات الشخصية الا أن جميعها يناقض بعضها البعض وقاصرة عقيمة ، ويرجع السبب فى قصـــور هذه التعريفات ـــ فى تصورنا ـــ الى المناهج التى يصطنعها علماء النفس الحديث ذلك أنهم يريدون أن يخضعوا الشخصية الانسانية للمناهج الوضعيـة والتجريبية .

لقد نسى هؤلاء العلماء ان النفس الانسانية غير المادة اذ توهموا خطأ أنه اذا تم لهم دراسة النفس دراسة جزئية وذلك بتفتيتها الى اجـــزاء وملاحظتها على هذا الاساس .

ومن ثم فان النتائج التي يتوصل اليها علماء النفس التجريبي لاتزودنا بفهم جديد أو للشخصية وها هو أحد كبار علماء النفس المعاصرين هـو « أيزنك » يقول :

« آن معـدل شـفاء العصـابيين ثابت سـواء عولجـوا باساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج » .

والواقع أن عالم النفس يتغير باستمرار ولا يمكن التنبؤ بتصرفات الفرد وسلوكه مهما وضعنا من المقاييس الدقيقة والمناهج الموضوعية ذلك لان النفس البشرية ليست مادة جامدة أنما هى عالم له أبعاد عميقة غير مقيدة ولا معينة ولذلك لا يمكن قياسها بقياسات وأدوات محدودة ... كما أنه من الصعوبة أخضاعها لاى منهج من هذه المناهج سواء كانت عملية أو موضوعية أذ كيف نحكم على ما ليس مقيد ولا محدود بما هو مقيد ومحدود ؟

علينا اذن أن نسعى جاهدين للبحث عن فهم رشيد للشخصـية الانسانية لنستقى منه الحقائق وهو القرآن لقد عرفنا تعالى بنفوسنا أكمل معرفة وبين لنا الطريق الحق للصحة النفسية فى الدنيا والاخرة .

فان الطريق الحق لعلاج النفس من أمراضها أنما يكمن فى تخلية النفس من نزعاتها الشهوانية ، وأوصافها المذمومة وتحليتها بالاوصاف المحمودة ولن يتحقق للانسان ذلك الا بالتربية السليمة والتنشئة على محبة الفضائل وبالتمسك بمكارم الاخلاق وبالتبصر بطريق الله .

١ ــ بين علم النفس الاسلامى وعلم النفس الحديث :

أعتبر « فرويد » الشخصية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد

على الغرائز واعتبرها الاساس الاول الذى بنى عليه نظريته أما محدد دورها فى تكوين الشخصية .

الداخلية (الغرائز) وبين العالم الخارجى (الموضوعات) ولقد ركز فرويد

ويلخص فرويد الى ان الاوضاع الحضارية والبيئة تفرضان قيودا على شخصية الطفل فيحدث صراعا بين قيود البيئة وبين الرغبات الغريزية ومن حصيلة هذا الصراع — فى رأى فرويد تكون شخصية الفرد سماتها وخصائصها فى الخمس سنوات الاولى من حياة الطفل ومهما يكتسب الفرد بعد ذلك من خبرات فى المراحل المختلفة من حياته فان شخصيته لا تتأثر كثيرا .

لقد جعل فرويد اللاشعور مستودع المكبوتات من انفعالات وحاجات وجمع فيه ما يعرف وما لا يعرف ، لقد خلط فرويد بين جبلات النفس وبين ما أودعه الله فى الانسان من مواهب ولطائف شريفة كالعقل والقلب والروح فهبط بالانسانية الى أسفل سافلين وقد خلقها الله فى أحسن تقويم .

أما فى الدين الاسلامى الحنيف يقول الله عز وجل :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

« وهديناه النجــدين »

أى طريق الخير وطريق الشر .. وان الانسان قادر على أن يختار بين الخير والشر . اذن الانسان قادر على الاختيار بل قادر على الصبر وكظم الغيظ ، وذلك بالعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها فالصبر حابس لنفسه عما تنازع اليه من الشهوات ، والصبر يأمر به العقل ولقد

صبر يعقوب — عليه السلام — وتحمل مفارقة ابنه وحبس نفسه عن الشكوى لغير الله ولقد عرف أن ذلك أختبار وأمتحان من الله تعالى •

الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، ومخالفة لاهوائها وانما هو موقف يدل على الصحة النفسية والقدرة على تحمل الابتلاءات ، والمكبوت غير الصابر لان المكبوت كما يتصوره — فرويد — مريضا يحيا فى عالم من الاوهام لا تتحمل أعصابه شيئا وأنه كآلة مشدودة تكاد تتقطع أوتارها ، أما الصبر فهوى قوى بالله •

فالصبر خوف من وعيد الله ورجاء فى وعد الله •

« ان الله مع الصابرين » (البقرة : ١٥٣)

فالصبر ليس سلبيا والصابر ليس مغلوبا على أمره وانما يقف موقفا أيجابيا فيه سمو عن الاحداث وأرتفاع عن الغرائز ورضا بالقضاء •

والتوبة ندم والندم موقف أيجابى لان فيه مخالفة لاهواء النفس واختيار الوسط العدل بهدف رجوع النفس الى الاعتدال والتوازن •

ليس اذن كما يدعى فرويد الانسان مغلوب على أمره بالحتمية النفسية أنما حقيقة الامر أن الطريق واضح والانسان عليه أن يختار أما طريق الحق أو طريق الباطل •

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »

أما بالنسبة لطبيب النفس الاسلامى فلا بد وأن يكون طبيبا ومربيا حيث يكون له طموح منظم فى تربية الشخصية الانسانية وذلك بطريقتين •

* جانب سلبى يقوم على أساس ان يخلي عن النفس صفاتها المذمومة •

* جانب أيجابى ويقوم على أساس تحلية النفس بصفات محمودة .

ومن هذا نجد أن المنهج الاسلامى منهج علاجى وقائى أما المناهج الاخرى فهى مناهج علاجية وليس وقائية .

٢ — بعض أمراض القلب :

(أ) داء الريـــاء :

ينطوى الرياء على الخداع فمن يرائى الناس يخادعهم لانه يظهر غير ما يبطن والرياء نوع من الشرك الخفى اذ أنه ادعاء كاذب يقول الرسول ﷺ « ان أدنى الرياء الشرك » .

أما المرائى فانه يولع بالاقنعة الكاذبة ويتلثم بالاغطية البالية ليكبت — باطنه — القبيح ويتستر على نفسه الامارة فيوارى الشر ويحسن الباطل ليخفى الحقيقة غشا وخداعا .

فالرياء اذن فسق وعبادة للذات ونسيان لله وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على نفس المرائى الذى يغويها بالاباطيل ، ومن الرياء حب الرياسة والتعظيم وتسخير الناس لمصلحة المرائى ، كما أن من الرياء سواء فى العلم أو العمل حب الاستعلاء ليعلو صاحبه وليغلم الاخرين وليعلم الناس أنه أعلم العلماء والمرائى يتفاخر بالدنيا ويتباهى بها فيقول لغيره أنت فقير لا مال عندك ، أو يسأل كم ربحت وكم عندك من المال .. وأنا عندى أكثر مما عندك .. ويتفاخر أيضا فى العمل ، فيقول لغيره أنا جاهدت وحاربت وأنت لم تحارب وقد جبنت عن الاشتراك فى النضال .

(ب) كلمـة الغضب :

والغضب من القوى الشيطانية التى أودعها الله فى الانسان ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وهو يسوق الانسان الى المرض وتكدر الطبائـع وأختلالها ، وذلك وجب معرفة مكانته ليمكن علاج المذموم منه وبيان فضيلة كظم الغيظ ثم التحلم والعفو والرفق •

قوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام

١ ــ حقيقـــة الغضب :

وتتوجه هذه القـوة فى ثورتها الى دفع الاضرار قبل وقوعهـا والتشفى والانتقام بعد حدوثها •• والانتقام هو قوة هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به •• الا ان المؤمن عندما يستفز بالاساءة اليه يصفح عن المعتدى •

٢ ــ الخير الفاضل فى الغضب :

التفريط فى القوة الغضبية دليل ضعفها وهو مذموم ، أما الافراط فهو الزيادة فى الغضب حتى يخرج عن العقل والحكمة والدين وهو أيضا مذموم فلا بد من الوسط العدل •

٣ ــ لماذا يغضب الانسان :

يحب الانسان بعض الاشياء والاعمال فاذا سلبت منه يغضب وبعض هذه الاشياء ضرورى له وبعضها كمالى ومن ذلك :

(أ) الغذاء والكساء والمسكن وصحة البدن والمال فاذا أعتدى على النفس أو سلب المال أو الملك أو جزء منها أو كلها غضب الانسان وكلها من الضروريات التى يغضب الانسان من زوالها •

(ب) المال والجاه والعرض •

(ج) ما هو ضرورى عند بعض الناس دون البعض •

٤ — علاج الغضب :

الرياضة النفسية وسيلة لتخفيف الغضب الى ما هو ضرورى لحد لاعتدال والمقصود منها عدم أطاعة الغضب عملا بالشرع • والغضب اذا كان لله فهو محمود واذا كان لغيره فهو مذموم •

(ج) الغفلة والنسيان :

ان علم النفس الاسلامى يعالج موضوع الغفلة والنسيان من قاعدة كثر شمولية •• فيظر للانسان كوحدة ، ولا يركز على الذاكرة أو الحافظة حسب ، انما ينظر الى النفس الانسانية فى غفلتها ويقظتها فيرى علم النفس الاسلامى ان الغفلة باب النسيان الحق ، ومنبع للانانية والشر وقوة لقلب وثمرة الغفلة الخيانة •• وغلبة الاهواء ، فاذا زادت الغفلة غلب على الطبع النسيان والغافل ينسب جميع الافعال والاعمال الى نفسه تكبرا وغرورا وينسى ان هناك خالقا مدبرا فيرجع الى نفسه كل توفيق ونجاح •

(د) الوســـاوس :

ويرى بعض علماء النفس المحدثين ان الفرد الذى يصاب بعصاب الوسواس يرغم على أفعال معينة تكون غالبا ضارة أو سخيفة ويميل علماء النفس الى أعتبار عصاب الوسواس حيلة دفاعية ، للتخفيف مما يعانيه المريض من شعور نفسى بالاثم والذنب •

فهذه الوسوسة هى قوة قهرية لا يستطيع الانسان التهرب منها ولكن ينظر أئمة الاسلام الى الوسوسة على أنها نتاج حديث النفس وأمانيها

وأخلاقها فى الشهوات واللذات فتقع فى الغفلة ونسيان الحق فينحـرف الموسوس الى الغواية والضلال ويرتكب أفحش الاعمال ويسقط فى النهاية صريع الفتنة وأثقل الامراض •

ويعالج علم النفس الاسلامى مرض الوسواس بغير الطرق المستخدمة فى علم النفس الحديث فالاصل فى الوسواس عند الائمة أنه شيطان رجيم يدخل الى صدر العبد الذى يوسوس له • فاذا ذكر الله خنس الشيطان وخرج من صدره حيث نجد ان الشيطان يدخل الى الانسان من باب الكبر والرياء والغرور والكسل والطمع •

(هـ) اليأس والقنوط :

اليأس هو أنقطاع الامل والرجاء واليأس أعلى درجات القنوط •• والقنوط أنقطاع الامل فى الخير أو اليأس منه وفى هذا المعنى ورد قوله تعالـــى :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

اليأس صفة لازمة •• دائمة للمشرك والكافر عند تجربته بالفاجعات وامتحانه بالمصائب واخباره بنقص فى الاموال والامـلاك لانه يظن أن ان الاحداث يجب أن تسير وفق هواه فاذا جاءت بخلاف ما يهواه ضاق وتبرم ويأس من رحمة الله وفضل الله •

اذن سليم القلب لا ييأس ولا يقنط من روح الله لانه يعلم ان الله يختبر بشتى أنواع الابتلاءات ويختبره ليعلم هل هو مؤمن حقا أم مراء •

(و) الحقـــد والحســـد :

من أمراض القلب التى قل أن يخلو منها أنسان •• الحسد الا ان من

الحسد ما هو مباح بل ومنه ما هو نقص وحرام •• وتعد المنافســة من الحسد المباح لانها مسابقة بين العباد ومجاهدة فى طريق الله وبذلك يكون هذا الحسد المباح فرض على كل مسلم تأييدا لقوله تعالى :

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

وأما الحسد المكروه كان يأتى لله رجلا مالا فينفقه فى المعاصى فيتمنى الحاسد أن يعطيه الله مثل هذا المال ليصرفه كما يصرفه الاخر فهما فى الاثم ســـواء •

والحاسد هنا يريد لنفسه الرياسة والرفعة وعلو المنزلة وينكرها على غيره كما أنه يرغب ان يزول عن غيره ما فيه من نعمة وجـاه ، فيخالف المتحاسدون بعضهم بعضا بغيا وحقدا والحسد المذموم يقع فيه المؤمن والكافر ويظهر الحاسد فى كراهية النعم للغير ومحبة زوالها ، والحسد المذموم بهذا المعنى نتاج الكبر والعجب والحقد والبغضاء والرياء فيغتم الحاسد عنه سماع الخير ولا يسعده الا الاضرار بمن يحسده •

٣ ـ الطريق الى الصحة النفسية :

(أ) الوسط العدل •• الخير الفاضل :

أن مفتاح الصحة النفسية فى الاسلام هو الوسط العدل •• والوسط العدل عملية تخليه وتحليه ، تخلية عن الاوصاف المذمومة وتحلية بالاوصاف المحمودة فهو بهذا المعنى استقامة للحق والصدق وهو موازنة وأعتدال •

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »

والوسط العدل صالح للتطبيق فى الزمان والمكان ، لانه شريعة الله للناس وليس هذا الوسط وسطا ظاهريا كمن يأمر بالمعـــروف ويرتكب

الفواحش نفاقا ورياء ، انما الوسط العدل ظاهر وباطن عمل صالـــح فى الظاهر ونية طيبة فى الباطن .

القســــط :

القسط يدل أيضا على الوسط العدل وهو مفتاح للصحة النفسية فى الدنيا والاخرة لان القسط عدل فى النفس فيعرف الانسان بالقسط حقوقه وواجباته فلا يجوز ولا يستذل .

الاستقامـــة :

تدل الاستقامة على الاعتدال والاستقامة من القيام بالشىء دون عوج أو التواء كأن يقوم للصلاة وأن يقوم بالعدل .

وترتبط الاستقامة بالقسط والعدل والاعتدال كما ترتبط بالقيام فيه صلاح الامور الدينية والدنيوية لانه مأمن للناس جميعا من الانحـــراف والضياع لقوله تعالى :

« أهدنا الصراط المستقيم »

ان الاستقامة توفيق الى طريق الخير والحق والسعـــادة والتى بها يستقيم حال النفس وتتصف بالامن والسكينة .

(ب) الصفح الجميل :

يرى أصحاب علم النفس الحديث ان القانون الذى يســود دنيانا النفس هو « كل أو فأنت مأكول » ونحن نرى أن هذه النظرة الى النفس الانسانية نظرة قاصرة ، حيث ان الحب والتسامح يظهر من سلوك المؤمن فى جميع أفعاله وأعماله فيتأثر بضروب الاذى والعدوان بل يحيلها جميعا الى عفو وتسامح واحسان فيرتفع عن الانتقام يكظم الغيظ والصـــبر على

الاعتداد هذا السلوك السوى فكمال الانسان فى أروع صوره وأجمل حالاته فمثلا فى قوله تعالى :

« فاصفح الصفح الجميل »

« فاعفوا واصـــفحوا »

والتسامح والغفران والتوبة قوام الحياة الانسانية السليمة •

(ج) ذكـــر الله :

ذكر الله طريق رائع للصحة النفسية لانه يربط العبد بربه ويقوده الى الخير الفاضل فى الدنيا والاخرة ويربى النفس على الايثار ويجنبها الجنوح عن جادة الحق كما يملأ القلب سكينة وطمأنينة وأمنا والذكر اقرار باللسان وتصديق بالقلب وتختلف ثمرات الذكر من ذاكر الى ذاكر حسب الصدق والاخلاص والاجتهاد وللذكر فضائل عديدة وآثار نفسية رائعة وثمرات جليلة وهو يعين الانسان على مجابهة المصاعب ويساعده على التغلب على العقبات والذكر ينقى القلب ويجعله قابلا لاستقبال المعانى الالهية والاسرار الربانية وينزل على النفس الامن والســكينة والطمأنينــة « ألا بذكر الله تطمئن القــلوب » •

(د) الامـن والامـل :

ويستقى علم النفس الاسلامى أصوله من منبع أصيل فــريد وهــو القرآن الكريم •• والسنة المحمدية الشريفة •• فيربط الاسلام بين الامن والايمــان برباط وثيق ومن أجل تحقيق الامن والسكينة للنفس الانسانية أعطى الله سبحانه وتعالى الحرية فى الاعتقــاد الدينى فحــرم الله تعــالى

ممارسة الضغط والاكراه فيها ودعى الالفة والمحبة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك لحماية حقوق الانســـان •

(هـ) محـــاسبة النفـــس :

على الانسان أن يعرف نفسه على حقيقتها مما من خير يسعى مجاهدا لعمله وألا تنازعه نفسه فيه وتريد خلافه وما من شر يقبل الانسان عليه الا وكانت نفسه داعية اليه فاذا حاسب الانسان على مذموم أفعالها •• وعرفها بحقيقة ريائها ووعظها للعمل على نسيانها ، ودوام على تأنيبها على اقتراف المستكرهات التى تقودها الى الهلاك وذكرها بوعد الله ووعيـــده وأبان لها طريق الخير الفاضل ، أن فى معرفة الانسان لنفسه وحذره منهـــا ويقظته فى تقلبها ضرورة لتحقيق الصحة النفسية •

٤ — استخدامات علم النفس فى المجالات المختلفة :

(أ) الرياضـــة النفســـية :

النفس اذا تركت دون تهذين وتربية وتأديب أنحرفت عن الاستقامة وسارت فى طريق الغواية والرياضـــة النفسية مجـــاهدة للنفـــس ولا تتم الا بمعرفة خصـــال أربع :

١ — معرفة الله تعالى : والمعرفة هنا ايمان وقول وفعل •

٢ — معرفة عدو الله ابليس : وهو مخالفة كل خاطـــر شيطانى يهجم على النفس والتعوذ الدائم من وسوسة الشـــيطان وتهاويـــله وأباطيـــله ومخاوفه وافزاعه « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » •

٣ — معرفة أن النفس أمـــارة بالسوء ، وما أبرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء •

٤ — معرفة العمل لله تعالى : والعمل هنا مجـاهدة أو جهـاد أكبر فى سبيل الله « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » .

ولكن كيف تتم الرياضة النفسية : يرى الائمة أن الرياضة كسلوك واجب التطبيق انمـا يتحدد فى قسمين :

١ — رياضـة الادب :

والادب المقصود ليس الادب الظاهرى ولكن أدب الظاهر والباطن معا وتتم رياضة الاداب بمخالفة أهواء النفس وحظوظها وهـذا النـوع من الرياضة يسعى الى سلب الاوصاف المـذمومة كالكبر والغـرور والرياء والشرك الخفى والتعجب .

٢ — رياضـــة الطلب :

أما رياضة الطلب فتحدد بالاخلاص والصدق فى مجاهدة النفس وهذه طريقة ايجابية فى علاجها وذلك بتحلية النفس بالاوصـاف المحمودة كالمحبة والشفقة والرحمة والتسامح والايثار .

(ب) التربيـة النفسـية :

التربية تحتاج الى علم وقد سمى أئمة الاسلام هذا العلم .. بعـلم المعاملة .. وقسموه الى ثلاثة أقسام :

١ — الاعتقاد : هو التعليم المنظم المرتب المبنى على الاقناع لحقيقة الدين .

٢ — التطبيق : ما تلقنه وأرشد اليه من علم مثل القيام بالفرائض كالصلاة والطهارة والزكاة والحج .

٣ ــ الترك : ثم يبدأ المربى بالاصعب من الامور وهو ترك أو استبعاد مالا يصلح تعليمه أو تلقينه ٠

(جـ) الاســــتعاذة :

يلاحظ الانسان بخواطر نفسه ويحاصر بوساوس الشيطان وتختلط الخواطر بعضها ببعض وتتزاحم على قلب العبد لذلك فانه يتوجب عــلى العبد أن يناضل هوى النفس وأن يكافح وساوس الشــيطان عن طــريق الاستعاذة بالله وذكره لذلك فان السبيل الحق الموصــل لمحــاربة هــوى الشيطان انما يتركز على الدعائم الاتية :

أولا : الاستعاذة بالله ظاهرا وباطنا قولا وعمــلا من أباطيل الشيطان وخداعه والسير فى طريق السلامة والاستقامة ٠

ثانيا : أن يثبت العبد على دينه ويحافظ على أداء التكاليف والفرائض الشرعية واتباع القدوة الحسنة ٠

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

ثالثا : التقرب الى الله تعالى بالذكر والنوافل ٠

رابعا : المجاهدة فى الله وذلك بكثرة الرياضيات وعمل الطاعات وتربية النفس وترويضها ٠

(د) العلاج بالتوحيــد :

من الواضح أن هناك أرتباطا وثيقا بين التوحيد الالهى وعلاج النفس الانسانية فالتوحيد معرفة تشرق بها النفوس وتلقى اليها المعارف فتهدى الى الطريق المستقيم والقيم العليا ٠٠ فتتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها

وتتطهر بالتوحيد من عيوبها ونقائصها وأثامها داخل اطار التربية النفسية والتخلق بالاخلاق الكريمة •

والتوحيد كما يراه الائمة استرسال مع الله تعالى فى كل أمر من الامور فتتعقد ارادة المريد مع ارادة الله تعالى فيثمر ذلك الصدق والاخلاص والعلم والمعرفة جميعا •

(هـ) العلاج بالذكر :

من أفضل طرق العلاج فى علم النفس الاسلامى « الذكر » لانه يصقل القلوب اذ أنه يبدل الخوف أمنا والعداوة محبة ويحول القلق والجزع والاضطراب الى سكينة والفزع والرعب الى سكينة ، ويغلب بالذكر على الذاكر روحانية على ترابيته فيعرف ان الريبة هواجس شيطانية والتوتر وساوس وجميعها من تهاويل الشيطان وتخاويفه لافزاع الانسان وارعابه فاذا أخلص الانسان فى عبوديته وأطاع ربه وأفتقر الى مولاه ، تولاه تعالى فيرفع عنه الهم والغم وبذلك ينشغل الذاكر أبدا مع الله •

(و) العلاج بالاضداد :

من لطرق العديدة التى أستخدمها الطب النفسى الاسلامى فى علاج الطالبين والعلاج بالاضداد والطريقة المثلى لاستخدام هذا العلاج تظهر فى توجيه المربى طالبه الى السلوك العملى الواجب اتباعه ضد ركون النفس الى الخطوط والتكاسل عن القيام بالحقوق وطلب التخفف من الاعباء •

وهذا العلاج النفسى عن طريق اتباع المضادات لطلب النفس ليس سلوكا عمليا صالحا من أجل الصحة النفسية فى الدنيا فحسب بل أنه يتعدى ذلك الى الحياة الاخرة •

هناك فارق كبير بين علم النفس الاســلامى وعلم النفس الحديث فالمنهج الاسلامى منهج علاجى وقائى أما المناهج الاخرى فهى مناهــج علاجية وليست وقائية ، حيث رأى أصحاب علم النفس الحديث أنه يمكن أخضاع النفس البشرية للتجارب المعملية ووضعها تحت الملاحظة والتجربة على العلوم الانسانية وبخاصة النفس البشرية •

وفى رأينا كيف يمكن ذلك على الرغم من أن علمــاء النفس الغربيين المحدثين والقدامى على حد سواء لم يتوصلوا حتى الان الى معرفة النفس البشرية وطبائعها ولكن الذى توصلوا له اللهم بعض الســلوك الانسانية وذلك لانهم استخدموا منهج خاطىء وهو منهج وضعى نابع من العقل حيث أن العقل قاصر على ادراك الحقائق •

وأيضا أسسوا علمهم على مسلمات وأسس غير صحيحة فمثلا نجد أن المحور الرئيسى الذى يدور حوله علم النفس الفرودى « فرويــد » هو الغريزة وأن بالانسان صراعات ، وهذه الصراعات هى التى تحدد شخصية الانسان حيث يدور الصراع بين الرغبة الغريزية وبين العقبات التى تحول بينها وبين أشباعها •

ولكن الا سلام يرفض مصطلحات الصراع ويستبدلها بكلمة الدفــع « ولولا دفع الله بعضكم ببعض » ، حيث علم النفس الاسلامى بنى على أسس ومسلمات مستقاه من القرآن والسنة المحمدية وهى أفضل المصادر •

الفصل الرابع

الاقتصـــاد الاســـلامى

منهج المســلم الاقتصــادى :

ليست الفروق بين منهج المسلم الاقتصادى والمناهج الوضعية تنحصر فى اختلاف النظرة للعمليات الربوية فحسب ، وانما اللفروق الجوهرية تكمن فى أختلاف الوسائل والغايات فاذا أعتبر المسلم أن المال وسيلة فقط لتحقيق غاية عظمى هى عبادته تعالى ، فان كل من الاقتصاد الموجه والليبرالى يعتبر ان المال غاية فى حد ذاته ، ومن هنا يظهر التناقض جليا واضحا بين النظرة الاسلامية ونظرة النظم البشرية الى المال وأثره فى المعاملات •

أنه لمن الاهمية بمكان ونحن نقبل على مرحلة تأسيس اقتصاد اسلامى أن نتخلى نهائيا عن محاكاة أى نوع من الانظمة الاقتصادية الوضعية وأن نتجنب تقليد المناهج التى شرعها البشر مهما قيل عن نجاحها فى مجتمعات أخرى وأن يمتنع بالكلية عن استيراد النظم الاجنبية ســـواء من الدول الغربية أو الشرقية رأسمالية كانت أو شيوعية •

يحتاج المسلمون الان اذن اكثر من أى وقت مضى الى منهج أقتصادى متكامل ، له أصوله المستمدة من كلمات الله التامات ومن سنة رسوله محمد ﷺ وهذا المنهج بمثابة السراج المنير الذى يشرق به طريق المسلم ، وبه يتعرف على حقوقه ويؤدى واجباته ويسترشد بالسلوك السليم الواجب الاتباع فى معاملاته المالية والاقتصادية •

وبمنهج الاسلام يتأكد له ما هو حلال وما هو حرام ، ويتعرف على الانشطة الجائزة والمباحة والمحرمـــة ، ويتفهم التصرفات التى يباركها

الاسلام والتى يشجعها ، وما هى الاعمال المستكرهة والتى يلتبس فيهـا الحق بالباطل التى يكتنفها الغموض وتظهر فيها الشبهات وتميل الى الفساد والافســـــاد •

وليس منهج المسلم الاقتصادى جامــدا او متحجــرا ، كما يزعم الحاقدون على الاسلام انما هو منهج مرن بدرجة يقبل معها مواكبة كـل تطور وملاحقة كل تقدم والسبق فى التطبيق والسلوك للافضل والاحسن والاكمل بما يحمل من يسر وفطرة ورحمة ودفع بين الناس لا نجده فى أى من الانظمة البشرية القديم منها والحديث •

ان عظمة هذا المنهج وتفوقه على غيره أنما تكمن فى ان واضع قواعده هو فاطر السموات والارض ، العليم بالنفس البشرية الخبير بما يصلح لعباده وما لا يصلح فكل ما أمر به تعالى صالح للانسان فى الدنيا والاخرة وكل قاعدة اقتصادية نجدها مع طول الفحص والتمحيص تواكب فطرة الانسان السليمة وتتمشى مع منطق العقل الرشيد ، وتهدى النفس المستقيمة الى الخير والصلاح والاصلاح •

وأهم ما يلاحظ فى منهج المسلم الاقتصادى أن قواعده تربط ربطا متينا بين الاقتصـــاد والدين فتطابق اخلاقياته معاملاته المالية ، بلا تكلف أو تظاهر أو ادعاء ، ان هذه القواعد الاقتصادية فى منهج الله هى النبراس الذى يستضىء به المسلم فى سلوكه الحياتى بلا خوف أو وجل ، لانه يعلم انها الحق الواجب الاتباع ، وانه بدونها لا تتحقق له السعادة فى الدنيا والاخرة ويمكن لنا أن نلخص هذه القواعد قدما يتبين لنا تفهمه من آيات الله البينات ومن السنة الشريفة فى النقاط الاتية :

١ ـ المـــال زينـــة :

ومن هذا المنطلق يعتبر المسلم أن المال المستخدم يقتصر دوره على الحياة الدنيا ،وأنه زينة يتزين به فى حياته الفانية ، أما المال فلا دور له فى الحياة الاخرة ولا حاجة اليه فيها • وبذلك يحترز المسلم المؤمن منه وينفقه فى الاوجه التى أمره الله ان ينفقه فيها وعليه الا يكنزه أو يكسبه بطريقة غير شرعية لان ذلك سيكون وبالا عليه وحسرة فى الاخرة ، اذ يعلم تمام العلم أنه سيتركه عند أنتقاله من هذه الدار رضى بذلك أم لم يرضى وأنه من الجهل أن يربط مصيره به اذ أنه عمل غير صالح •

« يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم »

(الشعراء : ٨٨)

والمال زينة فى الحياة الدنيا ، قاعدة أقتصادية لا نجد لها نظرا فى الشرائع والنظم الاخرى لذلك ينظر المسلم المؤمن الى المال نظرة المتوجس المتخوف منه ، ويحاول دائما أن يجعله فى يده وليس فى قلبه لانه صديق غادر لا تدوم صداقته فاذا أحسن الظن به أفسد عليه حياته وضيع مستقبله وشغله بمطالب الحس ، فخسر الاخرة والدنيا جميعا •

٢ ـ المال وسيلـــة :

ان المال لا يعطى صاحبه تفوقا على غيره من الناس ، اذ انه يمكن أن يكون فى يد صاحبه وهو حرام لايربى عند الله ، بل يمحق تعالى جامعـــه ويعتبره ظالما لنفسه خاسرا دنياه وآخرته •

فمركز المسلم ليس مهما فى المنهج الاقتصادى الاسلامى الا بقدر سلوكه فى تحقيق الغايات التى أمر بها الله والوسائل المشروعة لاكتسابه .

فاذا تعارض جمع المال وتكسبه مع تلكم الغايات ووضع المال المكتسب على ميزان الشريعة فشجبته كأن يكون عن طريق الحرام أو فيه أستغلال أو أحتكار أو ربا أو أغتصاب أو جمع نتيجة التعسف أو الاضرار بالغير ، فلا قيمة له على الاطلاق ولا يصـــلح حتى للتبرع أو التصـــديق به على المحتاجين والفقراء .

والحلال بين والحرام بين لكن بعض ضعاف النفوس والذين فى قلوبهم مرض ، ينتحلون شتى الاعزار ، ويستظهرون فى سلوكهـــم الاقتصادى المنحرف عند دخولهم فى عمليات مالية ، المحافظة على تعاليم الدين ، واذا ما كشفت كذبهم زعموا أن ما وقعوا فيه من معاملات مشبوهة ذلك يجعلهم بالشريعة الغراء ، وهؤلاء يظلمون أنفسهم ويقعون فى شبهة الحرام ويظنون أنهم يحسنون صنعا .

٣ ــ المـــال فتنـــة :

يظهر الله بالمال أيمان المؤمن وكفر الكافر ، اذ انه تعالى يجعل فى زيادة ونقص المال للعبد وسيلة لامتحانه والعاقل سواء كان غنيا أو فقيرا لا يقتر ويتملكه العجب اذا فتن بالمال ولا يعترض اذا قل وانما يرضى فى جميع الاحوال تصديقا لقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله »

(المنافقون : ٩)

ويحذر الله المؤمنين وغير المؤمنين من فتنة المال ويبين لهم تعالى أن لا مال ولا الاولاد بالوسيلة التى تقربهم اليه .

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى »

(سبأ : ٣٧)

٤ ـ المـال نعمة ونقمـة :

ان المال يمكن أن يكون نعمة كما أنه يمكن أن يكون نقمة فاذا كان المال حلالا ويكون أنفاقه فى الاوجه التى أمر الله بها الله دون أفراط أو تفريط فذلك يكون نعمة .

الا ان المال يمكن أن يكون نقمة لصاحبه وبه تضـل عن طريق الله وتتراكم عليه ـ عندما يأتيه المـال ـ المحن والمصـائب ويخسر دنياه وآخرته .

« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله »

(الانفال : ٣٦)

٥ ـ شجب الاغترار بالمـال :

يظن بعض الماليين أن المال يعطى صاحبه مركـزا خاصـا فى الدنيا والاخرة وما دام سبحانه وتعالى قد رزقهم به فى الدنيا فانه بالقياس الى ذلك سيرزقهم به فى الاخرة ولا يقف هذا الظن الفاسد عند هذا الحد بل يتعداه الى الاغترار والعجب .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله أن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطع له طلبا ،

وأحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا » •

(الكهف : ٣٨ — ٣٢)

وهكذا صدق فى صاحب الجنة قوله تعالى :

« ما أغنى عنه ماله وما كسب »

٦ — الرزق لا يزيد ولا ينقص :

أن القاعدة الاقتصادية التى وضعها الله تعالى ليطبقها المسلم المؤمن والتى تؤكد على أن الرزق لا يزيد ولا ينقص ، لا تتعارض مع السعى من أجل الرزق ولا يتناقض مع الجهاد لاستثمار المال وانمائه ، أنما تعاون فى ابراز الهدف من السعى من أجل الرزق ، وتحدده فى عبادة الله والعمل على طاعته والاخلاص له فى الظاهر والباطن حتى لا شغل بجمع المال وينسى خالقه وحتى لا يحوله الى غاية وهو وسيلة للتعمير والبنـــاء والتضامن والتكامل الاجتماعى بين المسلمين •

يقول عز من قائل :

« نحن نرزقكم وأياهم »

(الانعام : ١٥١)

« أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أن فى ذلك لايات لقوم يؤمنون »

(الروم : ٣٧)

أن أيمان المســـلم بأن الرزق لا يزيد ولا ينقص يجعل قلبه سعيـــدا ونفسه مرضية ولا شك ان ذلك يجنبه القلق والزمت والتلهف على جمعه

بأى طريق فالرزق المكتوب للانسان وان يتناقص مع السعى يجعل المسلم المؤمن آمن على نفسه وأهله جميعا ، وهذه القاعدة لا تجد لها من نظير فى النظم والمناهج والتشريعات الوضعية الاقتصادية .

خصـــائص الاقتصـــــاد الاســــلامى

مقدمــــــة :

ينفرد الاقتصاد الاسلامى بخصائص فريدة لا مثيل لها فى أى من النظم البشرية والتشريعات الوضعية والقوانين الاقتصــادية القديم منها والحديث .

وسنعرض لخصائص الاقتصاد الاسلامى فى مبادئه الثابتــة التى ينفرد بها ويستمد منها وجوده العملى والتطبيق والتى اذا أغفل العمل بها تصبح أقتصاديات الدول الاسلامية مسيرة رغم أنفها فى ملك غيرها مضطرة لاستعارة أنظمة معاملات أقتصادية ليست من الاسلام فى شىء .

ولا نقصد أنه عند تطبيق مبادىء الاقتصاد الاسلامى أن نستبعد الاساليب العملية والطرق التنظيمية فى الانتاج والاستهــلاك والتوزيــع والتداول المتبعة فى الدول التكنولوجية ، اذا أنها لا تخرج من كونها اسباب عملية قد تواضع الاقتصاديون عليها ثم أنها فى نفس الوقت عرضة للتغيير والتطور والتعديل .

وما دامت هذه الطرق التنظيمية لا تتعارض فى قريب أو بعيد مــع المبادىء الاقتصادية فى التشريع الاسلامى التى سنعرض لخصائصها والتى يمكن الاعتماد عليها فى تيسير العمليات الاقتصادية وتسهيل المعامــلات

المالية ، فلا مانع من أقتباسها والاعتماد عليها ما دامت تواكب شريعتنا الغراء وتتمشى مع مبادئنا الاسلامية ، ونحن لا نأبى الاقتباس فان الحكمة ضالة المؤمن [1] • فقد يكون هناك من الأساليب الحديثة ما أثبتت التجارب صلاحيتها أكثر من غيرها فى التطبيق ولا تتعارض مع ديننا القيم فى أصوله ونصوصه فلماذا لا يستفاد منها •

لقد ترك التشريع الربانى باب الاجتهاد مفتوحا أمام الفقهاء الا من بعض الاحكام التى تناولها القرآن بشىء من التفصيل مثل احكام الميراث والعقوبات •

والمتأمل فى آيات الله البينات يستخلص فى يسر وسهولة هذه الخصائص الاقتصادية والتى حاولنا تحديدها فى بعض العناصر على قدر ما تيسر لنا استيعابه من كلمات الله التامات •

الاستخلاف الالهى للمال [2] :

ينفرد دين الله القيم بنظرته العميقة للنفس البشرية وجبلاتها وتعالج النظرة الاسلامية متطلبات البشر فى الحياة الدنيا على قواعد تواكب الفطرة الانسانية •

ومن هذه القواعد الفريدة استخلاف الله البشر فى أمور معاشهم وجعل الارض مسخرة لخدمتهم ميسرة لتلبية احتياجاتهم الحياتية واستيفاء أغراضهم الدنيوية وتحقيق الرفاهية لهم متى أستقاموا دون عنت أو نصب أو معاناة •

---

(١) يرجع فى هذه النقطة الى : دكتور محمد بابلى — خصائص الاقتصاد الاسلامى ندوة المحاضرات ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م مكة المكرمة .

(٢) د • حسن الشرقاوى : نحو ثقافة اسلامية .

« ليستخلفهم فى الارض كما أستخلف الذين من قبلهم »

(النور : ٥٥)

ولم يقتر تعالى على خلقه ، بل جاد بنعمه و مننه وعطاياه وهو الجواد الكريم فأفاض عليهم بما يمتعهم ويلذهم ويرضى حاجاتهم البيولوجية والنفسية من ثمار وشراب مختلف ألوانه وفاكهة ولحوم وأسماك ومعادن ثمينة مخبؤة فى البر والبحر .

«هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه»

(الملك : ١٥)

الا أن الله تعالى فوض الانسان تفويضا مشروطا ، ووكله وكالة مقيدة واستخلفه فى المال والملك والامتلاك بعقد محدد المدة ينتهى بنهاية حياته الدنيوية حيث الحساب سواء بالثواب أو العقاب .

« ان الله تعالى بوصفه المالك الحقيقى ، والموكل الوحيد للبشر قد فوضهم لادارة شئون الارض ك

« واذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الارض خليفة »

(البقرة : ٣٠)

لكن هذه الخلافة لا تعنى حرية مطلقة تسعى فى الارض فساد وافساد وتستهدف تحقيق المصالح الانانية ، ولكن الله حذر البشر من عصيان أوامره أو الاخلال بالعقد الالهى وتلاعب فى نصوصه وبنوده وشروطه والله تعالى يختار بواسع الزمان والمكان لابطال عمل الوكيل حيث يمهل تعالى الوكيل الظالم والمسرف واذا لم يرجع الى الاستقامة غضب الله عليه فى الدنيا والاخرة واذاقه عذاب السعير .

« وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »

(الحديد : ٧)

« هو الذى جعلكم خلائف الارض »

(الانعام : ١٦٥)

١ — كفاية الموارد الطبيعية والبشرية

يرتكز الاقتصاد الاسلامى على دعائم متينة من الدين الخالص ، وهى حقائق يقينية لا تقبل الشك أو الريبة ، فهى أبدا صادقة فى كل الامكنة والازمنة والبيئات .. اذ أنها صادرة عن الخالق تعالى الذى رتب كل شىء بقدرته ، وأحاط بكل شىء علما ، فلا يهتم بشىء دون شىء .. اذ وسعت رحمته وقدرته كل شىء فى السموات والارض :

« وما كان ربك نسيا »

(مريم : ٦٤)

« قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى »

(طــه : ٥٢)

أن خصائص الاقتصاد الاسلامى الفريدة لا مثيل لها فى جميع النظم والتشريعات الوضعية والبشرية ، فهى تستمد وجودها من الينبوع الذى لا ينضب والحقيقة الكبرى التى لاتعرف النقض والزيف والعجز والتناقض والقصور ، كما أن تلك الخصائص مواكبة للفطرة السليمة التى تنشد الصلاح والاصلاح .

لقد بين تعالى فى كتابه العزيز أنه خلق الارض ليسكن فيها آدم وذريته من بنى البشر الى أجل معلوم ، وأنه جعلها كافية لهم الى أن تقوم الساعة ، وهى تتسع لهم من حيث الرزق والموارد والمكان ، فلا تضيق بهم أبدا ، ولا تفتقر فى الثروات الطبيعية الى ما شاء الله ، ولا تضن عليهم بخيراتها ، ولا تقف عن تلبية احتياجاتهم ، فهى تخرج لهم دوما كنوزها المخبؤة ، ومواردها الظاهرة والمستورة ، وتكشف لهم عن أسرارها البكر ، وتفيض عليهم بثرواتها الغير منظورة ما داموا فى حاجة لها ، وقد شمروا عن ساعد الجد لنيلها ، وأخلصوا السعى للظفر بها ، واعدوا أنفسهم لها ، واجتهدوا بالعلم فى كشفها واستجلاء غوامضها وفض أستارها .

لقد كشفت الارض لانسان القرن العشرين عن هذه الحقيقة الكبرى، فأخرجت بعض موادها المخبوءة ومعادنها الثمينة التى كانت مجهولة منذ الالاف السنين واستخدم — الانسان المعاصر — فى استصلاحها واستثمارها الات جديدة ، وطرقا مستحدثة ، فأعطيت من الطيبات والثمار أضعافا مضاعفة مما يزيد كثيرا عن حاجة البشر ، حتى أن بعض الدول تعمل حاليا الى اتلاف قسط من حاصلاتها الزراعية بغية المحافظة على مستوى الاسعار العالمية ... فعندما استخدم الانسان الحديث الالة أخرجت الارض ذهبها الاسود متمثلا فى المنتجات البترولية ومشتقاتها ، فأثرت بذلك بلدان كانت معروفة بأنها فقيرة فى مواردها الطبيعية ..

ان هناك حقيقة لا مراء فيها وهى أن ما تقدمه الارض من خبرات يزيد يوما بعد يوم رغم زيادة عدد السكان المطرودة ، وذلك يثبت أنها تتسع دوما

لساكنيها مكانا ورزقا دون أقلال أو شح أو أعسار • وهذا يدل دلالة قاطعة على كذب النظريات التخمينية ، والاحصـائيات التقريبية ، والتنبـؤات العلمانية ، التى تزعم أن الارض لن تكفى مواردها فى المستقبل القريب لحاجة السكان الامر الذى سيتسبب عنه المجاعة والفقر للبشر جميعا •

لقد كانت نظرية « مالتس » هى السائدة فى الفكر الاوربى حتـى مطلع هذا القرن ، وهذه النظرية تدعى أن موارد الارض لن تكفى حاجة البشرية اذا أستمرت معدلات الزيادة فى السكان على ما هى عليه ، اذ يزعم « مالتس » أن الموارد تزيد فى متواليات عددية ، بينما يزيد السكان فى العالم فى متواليات هندسية وبذلك يتضاعف عدد السكان بشكل رهيب بينما تتقلص الموارد شيئا فشيئا دون أن تلبى حاجة البشر •

ويفترض « مالتس » حلا لهذا الفرض المزعوم ، يدعو الدول جميعا الى تبنيه والعمل بموجبه ، ويتحدد هذا الحل فى ضرورة الحرب حتى يقل السكان ، وبالتالى تكفى موارد الارض لمن يبقى بعد القتال ؟؟!! ويحـذر « مالتس » الشعوب من السلم اذ أنه العامل الوحيـد الذى يقضى على الانسانية جميعا ، فالسلم فى نظره يزيد عن عدد السكان ، وبالتالىيستهلكون مقدارا أكبر من الغذاء ، ومن ثم تفقد الارض مواردها بعد حين ، وتنتشر المجاعات التى ستنهى الحياة حتما من أعلى الارض ؟؟ !!

وقد لقيت دعوة « مالتس » هذه قبولا لـدى الغربيين بل أمتـدت لتتبناها بعض البلدان العربية ، ولقد عمد الاوربيون الى تحديد النسل كوسيلة للمحافظة على توفير الغذاء اللازم عملا بنظرية « مالتس » مما نتج

عنه نقص فى المواليد هدد بتقلص بعض الدول الاوربية وأنقراضها ، ومع ذلك ما زالت بعض الحكومات العربية تدعو بشتى الوسائل التى تنظم بل تحديد النسل للمحافظة على مستوى المعيشة •

ولو سعى المنادون بتحديد النسل فى الارض عمرانا واصلاحا لاغدقت عليهم من خيراتها ، ولرزقهم من فضل الله رزقا عظيما •• بدلا من أستخدام الوسائل السلبية والاعتماد على السفسطة والجدل والتبطل والتكاسل عن طلب الرزق •

ان المفكرين والفلاسفة عاجزون فى البداية والنهاية عن معرفة أسرار الارض التى يعيشون عليها ، فما بالهم يحلقون بأجنحة مكسورة الى السماء بزعم أنهم أنتهوا من معرفة كل شىء على الارض ولم يبق من عمل لهم الا كشف أسرار السموات وحل طلاسم الوجود •

ان هذا هو الجهل المبين ، فقد ظلموا أنفسهم بافتراض ظنون لاحقيقة لها ، وادعاء مزاعم لا وجود لها ، كقولهم أن الارض لن تكفى مواردها نظرا للانفجار السكانى المتزايد •• لقد كذبهم الله فى آياته البينات ، وبين عقم نظرياتهم وتهافت مذاهبهم ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« والانعام خلقها لكم فيها دفء منافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيـل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل

الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره أن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبــلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وان تعدوا نعمــة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم »

(النحل : ٥ ــ ١٨)

ان الله تعالى قد ضمن للبشر معاشهم مهما تزايــد عددهم ، وتكاثر نسلهم ، وقدر تعالى للارض كفايتها من الثروات والموارد مما يشبع أضعاف مضاعفة حاجة البشر فى الان والمستقبل .

ان الانسان المؤمن بدين الله القيم وشريعته الغراء يوقن كل الايقان بكلام الله وعلم الله وحكم الله ، لذلك فهو آمن دوما على رزقه فى الارض ، ما دام يسعى ويجاهد ويأتمر بأمر الله وينتهى عما عنه ، فلسان حاله أبدا ــ يقول قوله تعالى :

« قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله »

(سبأ : ٢٤)

« يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء »

(سبأ : ٢)

واذا كانت الارض مسخرة بأمر الله للانسان تقدم له كل يوم جديدا ، وتكشف له فى كل زمن عن بعض كنوزها وثرواتها ، وتفيض عليه من نعم الله

ما ييسر له أسباب الحياة الهانئة ، وتمده باستمرار بما يسعده من خيراتها ونعمها فان على الانسان أن يعمل ويجتهد فى طلب الرزق ويسعى فى مناكب الارض لينتج ويستثمر ويفيد غيره من خيرات الارض التى يسرها له تعالى، وجعلها مسخرة فى خدمته وذللها لنفعه وسعادته :

« هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك : ١٥)

ولم يسخر الله الارض للانسان فحسب بل سخر له تعالى السموات والارض والليل والنهار والنجوم والشمس والقمر والبحار والانهار ، وهذا أعظم تكريم للانسان :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه »

(الجاثية : ١٣)

وكل ما سخره تعالى للانسان يستفيد منه علم بذلك أو لم يعلم ، ظهر له أو لم يظهر ، فالكون فى خدمته ونفعه ولم يخلقه تعالى عبثا أنما لصالح خير الانسان كمخلوق أكرمه تعالى وفضله على العالمين واستخلفه فى الارض ومكنه فيها :

« والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وأن من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم »

(الحجر ١٩ — ٢١)

فاذا ادعى بعض الاقتصاديين وجود بعض الشعوب معدومة الموارد ، الفقيرة فى الثروات الطبيعية ومن ثم عدم كفاية الغذاء لديها ، فاننا نرد

على أصحاب هذه المزاعم بأن ذلك ليس نتيجة لفقر الثروات الطبيعية ، وانما نتيجة ملازمة لسوء استغلال الموارد من ناحية ، وتحكم الانسان فى أخيه الانسان بالاستغلال والاستعمار ونهب الخيرات من ناحية أخرى ، وأندونيسيا أكبر شاهد على ذلك (١) ، فهى (٢) من أخصب بلاد العالم من حيث الثروات الطبيعية والموارد البشرية ، بينما تشير خريطة العالم الاقتصادية أن أدنى متوسط دخل فى العالم للفرد الاندونيسى اذ لا يتجاوز ٧٠ دولارا •

ان الجشع والاحتكار والتكالب والاستغلال والتحكم والسيطرة هى أساليب اخترعها البشر من عند أنفسهم لنهب بعضهم بعضا واستخدموها لتحقيق الانانية والمصالح الذاتية •

ان الفقر والجوع الذى يخيم على بعض شعوب العالم ليس بسبب فقر موارد الارض كما يدعى بعض الجاهلين ، فلو اتبع الانسان أمر الله ، وانتصف من نفسه الامارة ما كان هناك على الارض من فقير أو معدوم يسأل الناس الحافا ، ولعاش الناس جميعا أخوة يعين بعضهم البعض ، وبذلك يقضى على الجوع ويجد كل أنسان قوته ورزق عياله :

---

(١) للمزيد فى هذه النقطة راجع كتاب الاستاذ مالك بن نبى : المسلم فى الاقتصاد (٢٠ - ٦٥) •

(٢) وقد عالج هذه النقطة الاستاذ محمد الجبالى فى كتاب السوق الاوربية المشتركة بين السياسة والاقتصاد ، واورد احصائية سنة ١٩٦٠ ، تقول : ان متوسط دخل الفرد فى أفريقيا ١١٠ دولارات فى عام ١٩٦٠ وهذا المعدل ينخفض الى ٩٠ دولارا اذا استبعدنا اتحاد جنوب أفريقيا ، وهذا المعدل ايضا بالنسبة لغالبية شرقى آسيا ، وهذا المعدل يقدر باقل من عشر دخل الفرد فى اى من الدول الصناعية .

قال يحى بن سعيد :

« بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقيا ، وطلبت فقــراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيرا •• فـقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس جميعا •• »

لقد خلق تعالى الارض وذللها للانسان وسخر له الكون ، وزوده بما يحتاج اليه وبما لا يحتاج اليه الا فى المستقبل وضاعف نعمه على الانسان ، فمهما تعاظمت احتياجاته ، وجد الارض تحقق متطلباته ، ودون أن ينضب معينها ، أو يتقلص زادها أو تضعف مواردها عن أشباع حاجته ، واحتياجاته فى اليوم والمستقبل البعيد •

ثبــات النظــام الاقتصــــادى :

يثبت للانسان كل يوم تهافت القوانين الوضعيــة ، وعقم النظــم الاقتصادية البشرية ، وتناقض نظرياتها ، واختلاف مذاهبها ، وتبدل جلودها وتغير ألوانها ، وتعدد مناهجها فى كل وقت وحين •• ولم تصل بعد الى نظرية أقتصادية أو حياتية تحقق للانسان أمنها واستقرارها •

تدعو بعض المدارس الفكرية الى أنظمة اقتصادية تزعم أنها جنة الله فى أرضه ، وتروج لها بكافة الصور الدعائية ، وتضع لها القواعد الدقيقة ، والاحكام النظامية ، وتصيــغ بنودها فى ترتيب وتنظيم ، وتقنن لوائحها وقوانينها فى بناء متكامل •• ثم يستفتى الجمهور ، وتقرها المجالس الشعبية والنيابية ، ويبدأ العمل بها وتطبيق مناهجها ، ثم يتضح عند التطبيق فشلها فى تحقيق ما أستهدفته من غايات ، وما أراد واضعوها اليه من نتائج •

ويقوم دعاة جدد زاعمين أن فى مقدرتهم أصلاح ما فسد ، فيضعوا للناس نظما بديلة ويصوغوا لهم قوانين جديدة ، فيهدمون صرح النظام القديم ليقننوا ما يظنون أنه النظام الصالـــح الذى يتمشى مع التطـــور والتطوير والتقدم والترقى البشرى ، والعمرانى ، وما يلبث أن يظهر عند التطبيق تهافت دعاوى الجديد والتجديد والتطور والتطوير ويظلم الناس ، وتعقد كثرة القوانين سبل الحياة الرغدة ، وتزيد الانسان بؤسا وشقاء وتعاســـــة •

ويزعم المنظمون لهذه الانظمة الاقتصادية دائما ، أن الفشل فى التطبيق — اذا ما أمسى حقيقة واقعة — راجع فى المحل الاول الى المواطنين أنفسهم وليس بسبب تصور النظام الاقتصادى ، وذلك نتيجة لعدم تجاوبهم أو محافظتهم على أسسه أو لتعمد الاخلال بقواعده ، الامر الذى يؤدى الى الاهتزازات الاقتصادية ، وظهور ثغـــرات يستفيد منها بعض المتنافسين للظفر بأكبر عائد ممكن •• ولو كان ذلك على حساب الاخرين •

وهكذا تعانى الانســـانية من تجارب المغامرين ، ويزداد المستغـل استغلال والفقير بؤسا وشقاء •

وما يزال المجتمع البشرى على هذا الحال من التعاسة والظلم وسيبقى هكذا دائما •• ما دامت تستعين كل يوم بما ثبت فشله بالامس من نظم وأحكام ونظريات أقتصادية يروج لها لفيف من المستغلين والمفسدين فى الارض •

ان الله تعالى يعلم المفسد من المصلح ، لذلك وضع الاحكام العامـة والقواعد الضرورية التى تهدى الناس الى الحق ، وتبين لهم طريق الرشاد ،

فمنع بذلك الاستغلال والاحتكار والمضاربات والرهونات والمنافسات التى تضرهم جميعا فقيرهم وغنيهم ، أبيضهم وأسودهم ، عربيهم وأعجميهم .

وميزان الاسلام العدل ، وصدق احكامه ، ويسر قواعده ، وفطرية منهجه ، ومواكبته لحاجات النفس ومتطلبات الجسم وهدى الله ، يمكن أن تطبق الاحكام بلا أسراف أو تقتير ، وبلا أفراط أو تفريط ، وبمرونة كافية ، كما يمكن أن توزن الآراء على محكات الاحكـام ، وتستخـرج الجزئية والتفريعات الخاصة ، من الاصول الكلية .. وتقاس الانشطة والمعاملات البشرية قياسا عدلا فلا يظلم أحد شيئا .. ويحكم على اجتهـادات الاقتصاديين من خلال النظرة الاسلامية فتظهر ضعفها وكذبها ، وصلاحها وفسادها .. فيستفاد من الصالح والمصلح ويتجنب المفسد والفاسد .

أن احكام الله غير أحكام البشر ، فمحاولات الانسان الدائبة للتشريع الاقتصادى رغم وجود حصيلة ضخمة من التجارب الانسانية ، منيت جميعا بالفشل الذريع ، اذ أنها صادفت نجاحا فى فرع من فروع الحياة فشلت فى فروع الحياة الاخرى .. واذ يدعى أن هناك تقدما فى النواحى المادية ، ظهرت علامات القصـور والاخفـاق فى النواحى الاخلاقية والنفسـية والاجتماعية .

٣ ـ هدف المعاملات الحياة الآخرة :

أن أى نشاط مادى يعتبره المؤمن بشريعة الله ، وبدينه القيم على أنه أنطلاق مطالب به ، وسعى مأمور بتحقيقه ، وعمل مدعو الى أنجازه فهو يقوم أساسا فى ضمير المؤمن على علم راسخ بأن الحيلة على هذا الكوكب

رحلة فانية وهى وسيلة آخرة أعظم وأفضل وأسمى •• ينتقل اليها ليستقر على الدوام وفى جنة خالدة هائلة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ••

« الدنيا مزرعة الآخرة » (حديث شريف)

فالانشطة الدنيوية ليست الا أحد الجوانب التى تشغل أهتمامات المسلم المؤمن وليست هدفا وغاية له •• اذ أن جهاد المؤمن من أجل الرزق فى الدنيا أنما لان الله أمره بذلك ، وأما اذا سعى الانسان للدنيا وحدها ، وأصبح سعيه غاية فى حد ذاته •• فقد أهمل خاصية من أهم خصائص المنهج الاقتصادى الاسلامى وانقلب الدنيا خطرا يهدد أيمانه ، وينغص عليه حياته ، ويحيل سعادته هما وغما ، وأمنه خوفا وفزعا ، ومصيره يأسا وقنوطا وضياعا ••

« أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم »

(الحديث : ٢٠)

أن أخطر شىء على الانسان فى هذه الدنيا أن يظن أنها وما عليها وما فيها هى غايته الوحيدة ، وأن أمله فيها فينغلق عليها ، ويؤمن بخلوده ، ويتوقف على النظر الى ما بعدها من حياة آخرة هى الغاية من كل الانشطة الدنيوية •

فاذا كان ذلك حاله فقد كل شىء ولم يبق حياته الباقية شيئا •• اذ أنه أسرف فى دنياه على حساب آخرته ، فيسعى لتحقيق منافعه الزائلة ، ويجمع الاموال الطائلة ، والاملاك الفانية ، فيتركها آخر الامر دون أن

يكون قد أستفاد شيئا من كده ومثله فى ذلك دودة القز عندما تشغل حياتها بغزل خيوط الحرير ثم ما تلبث أن تلفه حول شرنقتها وما تزال تضيق الخناق على نفسها حتى تموت حسرة وكمدا بعد ما تدفن فى حريرها .. ليأت غيرها فيأخذه وينتفع به دونها (١) .

أما المؤمن فيسعى للدنيا وسعيها بأعتبارها باب الاخرة فلا يسرف ولا يقتر ، وأنما يعتدل أمره فيها ، ويجتهد اجتهاد المخلصين الصادقين العاملين بأمر الله الناهين عن المنكر والبغى ، الساعين للاخرة :

« من أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (الاسراء : ١٩)

أن هذه الخاصية الفريدة من خصائص الاقتصاد الاسلامى ترسم للمسلم حياته فى الدنيا والاخرة ، وبذلك يختلف فى نشاطاته تماما عن غير المؤمن ، ذلك أن من خصائص اقتصاد المسلم عدم التبطل والانعزال وعدم الجمود والسلبية من جهة كما أنه ينظم حياته الاقتصادية فيمنع عنها التكالب على المال والشراهة فى جمعه ، والاهتمام بالدنيا باعتبارها الهدف والغاية النهائية من جهة أخرى .. أن نظرة الاسلام جد مختلفة الى المعاملات عن غيرها فلا هى تبطلها ولا هى تطلقها .. ولا هى تشلها ، ولا هى تجعلها غاية اذا لم تحقق لطالبها أهدافه المادية ، ولا نظنها تحقق له .. ومن ثم مما لا ريب فيه القلق والفزع واليأس والقنوط :

---

(١) أبو طالب المكى — قوت القلوب — الجزء الاول ١٧٤ : ١٨٤ .

أما المسلم المؤمن فانه يعلم تمام العلم أن الدنيا قنطرة الآخرة ، وأن ما يزرعه فيها من خير أنما يحصده خيرا في الاخرة ، فلا يبالى اذا لم يتحقق له الكسب المادى ، والمركز المالى ، وكثرة الملك والاملاك فى هذه الدار الفانية، أنما المهم عنده ما يأمله من ثواب الآخرة والتى كان سعيه فى دنياه من أجلها وفى سبيلها ، وحتى اذا تحقق له من المال فى الدنيا وأثمر سعيه ثراء فان ذلك لا يزيده الا استمساكا بدينه تجنبا لفتنة المال ، برجاء فى وعد الله ، وخوفا من وعيده تعالى •• ثم أنه ينظر الى ماله على أنه الى فناء ، ولحياته على أنها زوال فلا يحسن الظن بها وينسى آخرته •• والا ضاع كما يضيع الغافلون ضياعا رخيصا ••

حق الغير فى المـــال :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم »

(البقرة : ٢٥٤)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم »

(البقرة : ٢٦٧)

« ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا »

(النحل : ٧٥)

ليس المال فى الاسلام — كما سبق الإشارة — غاية فى حد ذاته ، بل هو وسيلة لتحقيق غاية ألا وهى عبادة الله فى الارض ، فاذا أنقلبت الوسيلة لتصبح غاية ، وانحرف بها الانسان لتحقيق مآربه الشخصية ومنافعه الذاتية وشهواته التى لا تشبع ، كان مصيره القنوط والخوف واليأس •• وبدل أن يعمر الارض بماله أفسدها ، وبدل أن يعدل ، جار وظلم ، وبدل أن يتصدق

ويغطى شحت نفسه وشرهت وقترت وبخلت ، وبدل أن المال مال الله وأنه مستخلف فيه •• ظن كذبا وبهتانا أن المال ماله وتملكه العجب والغرور وطغى وتكبر ••

لذلك كله فقد أمر الله تعالى بزكاة المال وحدد النصاب الواجب التصديق به •• وحتى لا ينسى صاحب المال وغفل ، ويظن أن له مطلق الحرية للتصرف فيما أنعم ء ليه من مال وأملاك •

ان الحكمة الالهية من الزكاة •• التذكير بحقوق الغير من الفقراء والمعوزين والتعرف بنصيبهم فيما أنعم الله على الانسان من مال هذا من ناحية •• ومن ناحية أخرى فانه تعالى بواسع حكمته ، جعل من المال وسيلة للترابط والاخوة والتكامل الاجتماعى ، كما جعله تعالى وسيلة لدفع الناس بعضهم ببعض ، كيلا تفسد الارض ، اذ أن فى جمع المال وكنزة وحجزه عن الاخرين افساد وفساد ، لانه تنمية لروح الانانية ، وبث للفرقة والعداوة والبغضاء ، وغرس للحقد فى النفوس ، ومعاونه على تفشى الجرائم والسلب والنهب للاغنياء من جانب الفقراء •• وهذا ما تطالعنا به الصحف بين الحين والاخر فى أيطاليا وأمريكا وفى كثير من الدول الرأسمالية •• من وجود عصابات منظمة تستخدم الوسائل الاجرامية من خطف أبناء الاغنياء وفكهم نظير أتاوة يدفعها ذووهم •• وتلك العصابات المنحرفة تستخدم أحـدث الوسائل للسطو والتخريب ، ويتفنن فى استعمال التكنولوجيا الحديثة لتنفيذ مخططاتها الاجرامية •• حتى أنه يقال أن تلك العصابات دولة داخل دولة •

وأن وسائل الامن عاجزة فى أكثر الدول تقدما عن القضاء عليها ، وحتى ملاحقة أصحابها ، وايقاف نشاطهم فى السلب والنهب والتخريب •

أنه لمن الغرابة ان نجد فى دولة كأمريكا •• تحذيرات للمواطنين فى والتلفاز الامريكى من تلكم العصابات ، أغربها هذا التحذير الذى سمعه وشاهده سكان مدينة نيويورك :

لا تنزل الى الشارع ومعك أقل من عشرة دولارات •• لماذا •• حتى اذا هاجمك أحد اللصوص ولم يجد معك شيئا أعتدى عليك •• أما اذا وجد معك بعض المال أخذه وتركك فى سلام •

أين الامن والامان •• فى دولة تزعم أنها أكبر دول العالم تقدمـا وأعظمها حضارة •• وفيها يعيش الانسان غير آمن على نفسه وأهله وماله جميعـا •

ان الله تعالى أعلم بنفوس عباده ، ولذلك شرع لهم من الدين ما يصلح لهم ، ووصاهم بالعمل بما أمر به ، ونبذ ما أمرهم بتركه وتجنبه ، ذلك لانه الاصلاح والصلاح للنفس والمجتمع •• يقول تعالى فى ذلك :

« وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »

(سبـأ : ٣٩)

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم »

(الانفال : ٦٠)

« وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله »

(البقـرة : ٢٧٢)

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد — (محاضرة) خصائص العقيدة الاسلامية — ندوة المحاضرات رابطة العالم الاسلامى ١٣٩٢ •

٤ ـ الصـــلاح والاصــــلاح :

يقترن الاقتصاد الاسلامى بالايمان بالله ، وتتجه المعاملات جميعها لتنفيذ تعاليم الدين القيم ، ويستقى بالنشاط الاقتصادى أصوله من كلمة التوحيد التى تشتمل على مفاهيم الصدق والطهارة والامانة •

أن شجرة الاسلام الطيبة تنبت بالضرورة باذن ربها نباتا طيبا والنبات الطيب مبعثه الصدق ، والصدق هو تعبير عن الحقيقة التى نجد صداها فى كل قلب سليم بدون شوائب الضلال تصديقا لقوله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلهـا ثابت وفروعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها • ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون » •

(ابراهيم : ٢٤ ـ ٢٥)

اذن الصدق هو صلاح واصلاح وهو منهج المسلم فى المعاملات ، ولايمكن الا ان يقرن المسلم المؤمن بهذا الصلاح وذلك الاصلاح فى جميع معاملاته ونشاطاته وسعيه من أجل الرزق :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنـات الفـردوس نزلا » (الكهف : ١٠٧)

« ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »
(العصر : ٢،٣)

ان النظرة الفاحصة لتعاليم الدين القيم فيما يتعلق بالمعاملات تتبين لنا بوضوح أن الاسلام لا يعتمد على أسلوب التلقين ، لان هذا الاسلوب

لا يكفى وحده للايمان وانما تعتمد تلكم التعاليم على مخاطبة العقل السليم فى أن ما يعرضه تعالى صادق عند التطبيق وفى التجربة وفى السلوك ، ولذلك يخاطب به العقول لتتدبر أمرها ، ولتنظر الى هذا الكون الفسيح العريض لتتعرف على عوالمه ومخلوقاته :

« قل أنظروا ماذا فى السموات والارض » (يونس : ١٠١)

« أن فى السموات والارض لايات للمؤمنين » (الجاثية : ٣)

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (الذاريات : ٢١)

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (آل عمران : ١٩١)

ان خاصية الصلاح تجعل منهج الله بعيد كل البعد عن الشـك والريبة .. يرسخ فى الاذهان والعقول ... يشجب التعقيد والغموض ... ينفر من التحكم والتجبر والاستغلال الذى ينتج بالضرورة العسـف والظـلم لطرف دون آخر ... فلا يستغل أحد الاطراف الظروف غير المناسبة ليضر بغيره .. اعتمادا على أن شروط التعاقد المسبقة تجيز له الاسـتفادة من موقف الضعف الذى يمكن أن يقع فيه غيره نظرا لقلة خـبرته أو التغيير الطارىء للسوق .

ان صاحب أو أصحاب المشروع فى النظم الاقتصـادية المعـاصرة الرابحون هم دائما سواء خسر المشروع أو كسب وهذا هو الظلم العظيم ... ذلك لانهم يتحكمون فى السوق وفى أقوات الناس ، ويستغلون أموالهم دون مخاطرة من جانبهم ، وبذلك يتحقق لهم فى جميع الظـروف المـكاسب الطارئة ، دون جهد أو كد أو على الاقل دون مخاطرة من جانبهم فى الربح والخسارة .. فهى عمليات لا علاقة لها بالاخلاق ، ولا ارتباط لها بالدين ،

وانما تنمو مع منطق الانانية ، وترتكز على تحقق المصـــالح الشخصية ، والمنافع الذاتية •••

الوضـــــوح :

من أهم ما يطالعنا به منهج الله ، خاصية الوضوح ، اذ أنه واضـــح كل الوضوح ميسر لكل انسان عاقل تفهمه ، مهما كان حظه من العلم ••

وهذا الاقتصاد الواضح الميسر يمتاز عن الاقتصـــاديات الاخـــرى بامكانية تطبيقه على كل انسان وفى كل مكان وزمان ، ذاك لانه يخاطب عقل الانسان ووجدانياته جميعا ،كما أنه يزيده عند التطبيق ايمانا وثباتا ويقينا•

ويرتبط الوضوح فى الاقتصاد الاسلامى بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فكل نشاط مالى أو اقتصادى يقوم أساسا على الحـــق والعـــدل والرحمة ، ويشجب كل العمليات التجارية التى فيها شبهة الحرام ويرفض جميع صور المعاملات المالية التى تتدخل فيها المضـــاربات والاحتـــكارات والاستغلال بجميع أنواعه ، وينفر الاقتصاد الاسلامى نفورا شديدا من الاستثمارات التى تنم على الغموض والتعقيد ويتجنب الاعمال التى تعتمد على الخداع أو الدعايات الكاذبة أو التغرير بالاخرين أو التعاقدات الظالمة التى يسمح ببعضها القوانين الوضعية ، ونظم الاقتصادية البشرية •

لذلك فان الاقتصاد الاسلامى يقوم على الصلاح والاصلاح ، ويرفض كل صور الفساد والافساد :

« ان أريد الا الاصلاح ماستطعت » (هود : ٨٨)

« ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها » (الاعراف : ٥٦)

« انا لا نضيع أجر المصلحين » (الاعراف : ١٧٠)

« والله يعلم المصـــلح من المفســـد » (البقرة : ٢٢٢)

لذلك يرتبط الاقتصاد الاسلامى بالاوامر الالهية التى لا تبديل فيها ولا تغيير ، وهى تبين السلوك الواجب على المسلم العمل به فى المعاملات والانشطة المادية ، وهذا السلوك يرتبط أساسا بتجنب الحرام ، ولو حقق ظاهريا مغانم أو مصالح أو منافع مادية .

« وأحل الله البيـــع وحرم الربا » (البقرة : ٢٧٥)

« وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه »

(الانعام : ١١٩)

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

(الاعراف : ٣٢)

نجد الوضوح اذن كاملا فى آيات الله البينات ، فالمحرمات واضحة كل الوضوح والمباحات أكثر وضوحا ، فلا تردد أو تشكك فى أى فعل أو عمل ، وكل من يدعى غير ذلك فهو مريض القلب ضعيف الايمان .. يرائى الناس قاصدا أن يبدل أوامر الله وأن يحولها عن أهدافها الســـامية ، ومبـــادئها القويمة ليجعل من الخير شرا ، ومن الباطل حقا ، ثم أنه يتهم دين الله القيم بالغموض ، ويدعو بافتراء بضرورة وضع نظم بشرية واقعية عملية ، زاعما أن الشريعة السمحاء قواعدها اجمالية لا تمتد الى التفصيلات الجزئية .. والواقع يكذبه ، والحق يفضحه ..

فالوضوح وليس الغموض هو ما اشتمل عليه القرآن الكريم ، اليسر هو المنطلق الذى يجلو الغموض فى الوقائع والتفصيلات والجزئيات فلا شىء

يمكن أن يغمض على ذى العقل ، ولا شيء يثقل على تفصيل العالم والفقيه، وها هو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول فى رسالة القضاء لابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما :

« الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الامثال والاشياء ، وقس الامور عند ذلك ، واعمد الى أحبها الى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أو أمدا ينتهى اليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أتقى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ فى العذر » .

أين هذا العقل الراجح ، والفهم الرشيد ، من فهم بعض العلماء اليوم ، ومن جنوح عقولهم الى الهوى ، واتباعهم الظن ، وسيرهم فى طريق الغفلة عن الحق ، وموافقة غواية الشيطان ..

ان التشريعات الوضعية تستمد وجودها من الواقع المشاهد ، والتجربة العملية والمعملية ، فتخرج مبعثرة مشوهة ، أما فى التطبيق فنجدها عاجزة عن تقرير العدالة ، مليئة بالثغرات والآفات ، مما سهل نقضها وسلوك ما يخالفها ، واظهار ضعفها ، وعدم قدرتها على الامتداد لتشمل الناس جميعا .

ان القواعد الاقتصادية البشرية ، والانظمة المالية الوضعية ، يشوبها الغموض والتعقيد ، تنطبق فقط على الضعفاء ، أما الاغنياء فهم فى حل عنها لانهم بنفوذهم وسلطانهم يجعلون من المحظور ممكنا ، ومن الممنوع جائزا

ومن المكروه مستحبا ، أنهم يلعبـــون بتلك التشريعـــات لتحقيق مكاسب ، ويطبقونها حسب مقتضى مصـــالحهم ، فاذا عارضت منافعهم اسقطوها ، ودفعوا أعوانهم الى •

قـــواعد الاقتصـــاد الاســـلامى

١ ـ الاقتصاد الموجه والحر فى النظرة الاسلامية :

يتحكم فى عالمنا المعاصر مفهومان أقتصاديان كبيران يفرضان وجودهما غصبا وأجبارا ، هما الاقتصاد الموجه من ناحية والحر من ناحية أخرى •

ويترأس جبهة الاقتصاد الحر أو الليبرالى الولايات المتحدة الامريكية ودول السوق الاوربية المشتركة ، كما يترأس الاتحـــاد السوفيتى ودول المحور والصين الشعبية جبهة الاقتصاد الماركسى أو الشيوعى أو الموجه •

وتدور أكثر دول العالم فى الوقت الحاضر فى فلك أحدى الجبهتين ، ومهما زعمت بعض الحكومات باستقلالها التام عن المعسكرين ، ومهما غيرت من جلودها وادعت أن لها نظرية ثالثة تستفيد من كلا النظامين ، وأنها تأخذ من كل منها ما يفيد ويناسب مجتمعاتهـــا ويؤدى الى تحقيق مصالحهـــا الاقتصادية ، فانه يبقى واضحا أنها لابد أن تنحاز الى أى من الجبهتين الاقتصاديتين مهما زعمت غير ذلك •

ومهما قيل أن بعض الدول تأخذ بالنظام الاقتصـــادى المختلط الذى يرتكز على الموازنة بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، فان المعامـــلات الاقتصادية التى تقوم على العمليات الربوية أو تؤسس على الغاء الملكية الفردية أو التأميم أو تستهدف الاحتكار لبعض الاسواق أو السلع ، أن

هذه المعاملات الاقتصادية تبقى هى الخط المميز للسياسة الاقتصادية لدولة مـا ، اذ تظهر المسار الذى تنتهجه سـواء أعلنته أو أخفته عن عيـون الجماهير •

ويمكن الحكم على النظام الاقتصادى لدولة من خلال غلبة النظـام الاقتصادى الحر أو الموجه ، ومن الغاء وتقييد الملكية الفردية أو اطلاقها ، ومن سيطرة الدولة أو الافراد على المال والاقتصاد •

ولكننا اذا أردنا أن نضع الدول الاسلامية فى مكانها الصحيح فى عالم الاقتصاد فلا تكاد نتعرف على ذلك المكان من قريب أو بعيد [1] • فقـد سلبت النظم الاقتصادية الحديثة بشقيها الرأسمالى والشيوعى المسلم وعيه الاقتصادى ، وسار خلفها كالمهبوت ردحا من الزمن لا يفهم من عملياتها الغامضة المعقدة شيئا ثم اذ به يرفع النقاب فيكشف عن وجهها القبيح ، وأساليبها الاستغلالية وطرائقها العسفية ، والاستغلالية وأسلوبها الربوى فى شتى أنواع المعاملات ، فأصيب بحالة من القلق والفزع • لم يبرأ منها حتى الان بل أصبح زمنا وحصرا دائما •

لقد جعلت هذه النظم جمع المال وكنزه غاية لها ، وأصبحت العمليات البنكية الربوية الاساس الذى يقوم عليه النشاط الاقتصادى ، وفرضت نفسها فرضا على ممارسات المسلم الاقتصادية ، وأدخلته جبرا فى تكتلاتها المالية سواء كان لذلك فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى •

---

(١) لمزيد من التفصيل فى هذه النقطة يرجع الى كتاب (المسلم فى الاقتصاد) للاستاذ الكبير مالك بن نبى •

أن المسلم يعيش فى عالم اقتصادى غريب فقد فيه مفاهيمه ومنهجه وشرعته وأخلاقياته ، وأدخـل فى ألعوبة العـرض والطلب والعمليات الاستثمارية ، وخـدعها فى الاحتكار ، والاعيبها فى تنمية جمـع المـال واستغلاله .

أنه لمن العجب أن نجد العالم الاسلامى يمثل الكفة الخاسرة دائما فى الاقتصاد العالمى ، فخريطة الغنى والفقر العالمية تضع الامة الاسلامية فى جانب الدول الفقيرة والمعدمة — اذا ما استثنينا بعض دول الخليج لاسباب خاصة — اذ يتبين من الاحصائيات أن دخل المسلم يقل كثيرا جـدا عن معدلات دخـل الفرد الامريكى أو الاوربى ، ويكفى أن تبين أن دخـل الاندونيسى فى المتوسط ٧٠ دولار ، بينما تثبت الاحصائيات أن متوسط دخل الامريكى ٣٠٥٠ دولارا (١) .

أن هذا الفرق الشاسع بين متوسط دخل المسلم والغربى غير المسلم لا يتصور أن يكون نتيجة لفقر الموارد الطبيعية فى البلاد الاسلامية ووفرتها فى البلدان الاوربية والامريكية .. فان الواقع يشهد بغير ذلك .

ويكفى القول بأن أندونيسيا الاسلامية وهى تمثل أدنى متوسط دخل فى خريطة العالم الاقتصادية — كما سبق الاشارة — تعد أغنى بلاد العالم من حيث الثروة الطبيعية والبشرية .

انه لا مناص من القول بأن هناك أسبابا غير الموارد الطبيعية تحول

---

(١) راجع هذه الاحصائيات فى كتاب : السـوق الاوربيـة المشتركة ، للاستاذ محمد الجبالى ، وقد أظهر أن الافريقى لا يزيد دخله عن هـذا المتوسط الا بقـدر يسـير .

دون تقدم البلاد الاسلامية أقتصاديا ، وهذه الاسباب تكمن أساسا فى مخطط أستعمارى أقتصادى يربط حياة المسلم بعجلة الدول المتقدمة أقتصاديا •

ويعمل على محاكاة الوسائل الاقتصادية فى الدول الغربية وتقليدها بدون تفهم لفاهيمها وأغراضها والاعيبها وخدعها وما تستهدفه من غايات •

ان مفهوم الاقتصاد لدى المسلم يختلف تماما عن مفهوم الغربى له ، فالاخير يعتبر المال غاية فى حد ذاته وليس وسيلة لتحقيق غاية ، فى حين أن المسلم يعتبره وسيلة فحسب ، فهو مستخلف فيه من قبل الله تعالى ، ولا يحق له أن يجمعه أو ينفقه بالوسائل المشروعة ، وفى الابواب التى أمره تعالى أن ينفقه فيها •• فلا يحق له أن يكنـز المـال ، أو يحتكـر عملا أو سلعا أو سوقا ، كما يحرم عليه أن يضارب أو يشتغل غيره ، بالاضافة الى التحريم القطعى للعمليات الربوية فى أشكالها المختلفة وسواء كان هو المقرض أو المقترض •

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »

لا يعرف الاقتصاد الاسلامى الاشكال الحديثة من العمليات الربوية التى تسعى لتحقيق أكبر ربح مادى ، وتستهدف فائضا للقيمة ، وتفضل فصلا عسفيا بين الاخلاق القويمة واستثمار المال ، وبذلك يستثمر المـال بطرق غير مشروعة فيها أضرار بالغير وغبن وخداع وظلم شديد •

ان الاقتصاد الاسلامى يرتبط بالدين ، وخلق المسلم يأبى أن يتعامل مع الغير على أساس السيطرة والتحكم والاستغلال ، ويرفض أن يولد المال بغير العمل المشروع ، والاستثمار المباح ، والسعى فيما أحل الله ، فالقاعدة

الإقتصادية الاسلامية تنص على أن المال لا يولد مالا •• فاذا وضعت أموالا في صندوق أو بنك فلا يمكن أن ينجب دنانيرا •

وللاسف الشديد فان أقتصاديات الدول الاسـلامية لم تظهر بعد نظريتها الاسلامية فى مواجهة النظريات الاقتصادية العالمية وبرغم وضوحها وسهولة تطبيقاتها فهى مضطرة حينا ، وراضية أحيانا أن نتعامل مع الدول الغربية وفق شروطها ووسائلها بل وغاياتها •• الامر الذى جعلها مطية سهلة لهذه الدول تفعل بها ما تشاء فى أى وقت تشاء •

أن بعض المستغربين ••• الذين يديرون مؤسساتنا الاقتصادية فى الدول الاسلامية ، والذين تعلموا من فضلات الغرب ، وورثوا مناهجه وطرقه فى التعامل المالى والاقتصادى ، ان هؤلاء يفرضون على حكوماتهم الاسلامية ضرورة محاكاة الغرب وتقليد وسائله فى تخطيط النظام الاقتصادى ، بدعوى مواكبة الحضارة الحديثة ومسايرة التقدم والتطور •

ويدعو هؤلاء المستغربون الى المبادرة العاجلة باختيار حكوماتهم أما لليبرالية آدم سميث أومادية ماركس وكأن الله تعالى لم يخلق الاالرأسمالية والشيوعية •• !!

والاقتصاد الرأسمالى يطلق الفرد حرا طليقا ، يـ فعل ما يشاء ، ولو كان ذلك على حساب الغير ، فيستغل ويحتكر ويظلم ويتجبر فى الارض دون زاجر من قيم ، أودع من الدين ، ويعللون صحة ذلك السلوك الفردى المتحر بأن الفرد اذ ترك بلا قيود ليتعامل اقتصاديا فانه يتوازن حتميا مع

(١) مالك بن نبى — المسلم فى عالم الاقتصاد ص ١٤—٦٧ •

الأخرين ولذلك فان الاقتصاد الليبرالى يضع شعارا لحرية الفرد الأقتصادية استمده من مقولة آدم سميث : دعه يعمل •• دعه يسير •• ومعنى ذلك أن يتحلل من الاخلاق والقيم والدين ويترك له العنان ليحقق نزعاته وشهواته ورغباته التى لا يمكن أن تشبع أو تتوقف عند حد •

واذا أنتقلنا الى الصورة الاخرى التى يمكن أن يختارها المستغربون كنظام أقتصادى لحكوماتهم الاسلامية •• طالعنا الأقتصادى الماركسى بكل جموده وجحوده وظلمه للفرد •• اذ يجعله أسيرا فى حياته ، سجينا فى نشاطه الاقتصادى ، مقيدا بسلاسل الخنوع والمذلة ، مسلوب الامل ، ضائع الحاضر والمستقبل ، مفتقرا الى الامن والراحة •• وهبط به الى حظيرة الحيوان ، ليأكل ما تأكله الانعام ، ويشقى كما تشقى البهائم •• فلا حقوق له ولا مطالب ولا حرية ولا مال ••

واذا تأملنا كل النظامين من خلال الفطرة السليمة ، ووضعناهما على ميزان العدل والقسط ، وحكمنا عليهما بشريعة الله ودينه القيم ، لالفينا أن النظامين الليبرالى والمركزى قد خرجا عن الاقتصاد الى الاسراف ، وعن التوازن الى الغلو ، وعن الاعتدال الى الجنوح والابتذال ، وعن القصد الى الظلم والعسف والضلال •

وكأنما ضاقت الدنيا بمن فيها ، وتجمدت العقول المسلمة ، فلم تلد الدنيا الا هوى آدم سميث ومادية ماركس •• وكأن المستغربين جدوا واجتهدوا فلم يجدوا الا تقليد الرأسماليين ومحاكاة الماركسيين ، واستيراد مناهج الغرب المادية ، واستعارة نظمهم الاقتصادية والحياتية •

أليس هناك فى المسلمين من الاقتصاديين من يبز هؤلاء وهؤلاء ؟ اليس فى تراثنا الاسلامى جواهر فريدة ، ودور نادرة تتفوق على هذا الفكـر « المنحرف » وتصد جنوح هذه النظريات التى تبتعد عن أوامر ديننا ، وتخترع من عند أنفسها نظما بشريا يشقى بها الانسان ويظلم ويظلم ويضيع ؟ !!

أليس هناك حلولا أسلامية وعقولا اسلامية مؤمنة تستطيع أن تنبت فكرا أقتصاديا مصدره القرآن والسنة ، قمينة بالرد على هؤلاء المدعين •• لنؤكد وجودها فى هذا القرن اللعين •• وتقف حاجزا منيعا ضد استيراد النظم الاقتصادية ، واستعارة المعاملات البنكية الربوية ؟

أليس فى المسلمين عالم أقتصاد يأتى بالنظرية الثالثة الصالحة للتطبيق فى هذا الزمان وليثبت بها عقم النظريتين الاقتصاديتين الاخرتين المسيطرتين على العالم ويفضح دعاويهما ويثبت تهافتهما وبعدهما عن تحقيق سعادة الانسان وأمنه واستقراره على الارض •

٢ — مفهوم الملكية الخاصة فى الاســـلام :

يمتاز الاسلام بنظرته المستقلة تماما عن نظم الملكية التى ســادت وتسود العالم القديم والحديث على السواء ، وبما ان نظام الملكية الخاصة هو حجر الزاوية فى النشاط الاقتصادى البشرى برمته لذلك يجدر بنا أن نتفهم نظرة الاسلام الى نظام الملكية الخاصة ثم نقارن بينه وبين النظم التى تسود العالم حتى تثبت للطاعنين والمتشككين تفوق الاقتصـــاد الاسلامى على غيره من النظم الاقتصادية •

ولا شك أن أطلاق الملكية الخاصة أو ادعاءها له تأثيره البعيد والقوى فى البنيان والاقتصادى لاى مجتمع من المجتمعات •

ولقد عالج الاسلام موضوع الملكية الدردية عاملا متوازنا عادلا يواكب الفطرة السليمة فلا يظلم الفرد على حساب الجماعة ولا يظلم الجماعة على حساب الفرد ولا يتحيز لطائفة دون طائفة لقد أمر الاسلام بالملكية الخاصة ولكن بشروط أوردها جملة وتفصيلا فالتشريع الاسلامى يقرر حق الفرد فى الانتفاع بما يملكه وحق التصريف فيه مدى الحياة وبعد الممات ، ونص على حماية صاحب المال ، من الاغتصاب والسرقة والاعتداء سواء من الغير أو من السلطة وأصحابها ، وقرر الاسلام أنه فى الظروف التى تستدعى نزع الملكية الخاصة لمصلحة المجتمع فان على الدولة أن تعوض الفرد عن ملكية المنزوع تعويضا عادلا •

ولا يعنى ذلك أطلاق الملكية الخاصة دون روابط أو حدود أو شروط كما هو جارى العمل به فى الاقتصاد الغربى ، حيث أن المالك فى هذه النظم الوضعية هو صاحب السلطان المطلق فيما يملكه دون قيد أو شرط الامر الذى يترتب عليه الظلم والعسف وينتج عنه الاستغلال والاحتكار •

أما الاسلام وأن أباح الملكية الخاصة الا أنه فرض شروطا والتزامات على المالك ، وهذه الشروط وتلك الالتزامات منها ما هو أيجابى ومنها ما هو سلبى ، وهى جميعا تنبع من أصول مقررة فى التشريع الالهى لتمنع الظلم والعسف والضلال •

والمال سواء كان عقارا أو منقولا أو تجارة أو صناعة لا يملكه صاحبه الا بصفته مفوضا فيما يملكه من قبله تعالى ، وما يمكله الا وديعة أودعها الله

عنده ، وقد أمره بالانتفاع بها فى وجوه حددها له الشارع تعالى كالوفاء بحاجاته وحاجات أهله وأصلاح معاشه ، على ألا يتسبب الانتفاع هذا بأضرار تلحق بغيره أو بطغيان يقع على أحد • كما أنه لا يحق لصاحب المال أن يعبث فى الارض فسادا أو أفسادا •• أو أن يظلم غيره أو الجماعة فى تصرفاته ومعاملاته بأى صورة من الصور •• أنما واجب المالك المسلم المحافظة على الوديعة ، والشكر على ما أولاه تعالى من استخلافه عليها ، وما أسبغ عليه من نعمة ، وأن يأتمر بما أمره وذلك بالتصديق والانفاق من هذا المال اذ أن عليه للفقراء والمعوزين حقوقا ، كما عليه أن ينفقه فى أعمال البر والخير كما أمره تعالى بذلك ، والا يسرف فيه ، ولا يغل يده ، فى شح وبخل وتقتير:

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بما وصل عليهم »

(التوبة : ١٠٣)

والاسلام يبين أن على صاحب المال التزامات ايجابية والتزامات سلبية ، فمن الالتزامات الايجابية ضرورة السعى من أجل استثماره وعدم تركه معطلا أو وقوفه حياله موقف المتبطل ، أو كثرة دون انتفاعه به ، أو دون استفادة الجماعة من استثماره وجريانه فى السوق من أجل منافع الجماعة •

١ ــ الالتزامات الايجابيــة :

يختلف الاسلام فى هذه النظرة التى تدفع صاحب المال الى الجهـد والاجتهاد والجهاد والسعى فى تنمية ماله •• من غيره من النظم والشرائع التى تحبذ حياة الفقر وتوصي بالتزهد فيه بالكلية باعتباره شرا كله يجب

الخلاص منه •• كما تختلف نظـرة الاسلام للمـال عن غيره من النظم الاقتصادية التى تجعل غايتها جمع واستغلال المال والاستزادة منه بطرق مشروعة أو غير مشروعة حتى وأن كانت مشوبة بالعسف والظلم والاستغلال والاضرار بالغير أو بمصلحة المجتمع •• ومثال ذلك ما نجـده فى كل من الاقتصادين الرأسمالى والشيوعى •

وتعتبر الشريعة الاسلامية الزكاة من الالتزامات الايجابية المقررة على صاحب المال متى بلغ النصاب المحدد وعليه أن يؤديها باعتبارها تزكية وتطهيرا لنفس صاحبها ، وباعتبارها فى الوقت نفسه تنمية للمال بما ينتج من نفع عند تحريكه فى أيد كثيرة وبما يعود — من تقديمه للاخرين — من أنشطة لم تكن لتوجد لو أمتنعت الزكاة وما يساعد عند التصديق به ترابط وأخوة وتآلف للقلوب •

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »

كما أن المالك الذى يزكى بماله أنما يعالج نفسه من البخل والشح والشره والفتنة اذ أنه بالانفاق يعود نفسه على البذل والتضحية والايثار ويدفع عنها الاثرة والانانية والتقتير ، وحب الذات وعبادة المال •• وصاحب المال الذى يزكى بجزء من ماله كل عام أنما ينشر الخير والصلاح بين ثنايا المجتمع ، ويمنع من تكوس الاموال والاملاك فى أيدى نفر قليل ، اذ الشرة فى طلب المال وكنزه يدفع التجبر والتكبر والاغترار ما ينشأ عن ذلك من فساد وأفساد •

كما أن صاحب المال مطالب من الله تعالى أيضا كالتزام عليه ، أن ينفق من ماله فى سبيل الله وقد ترك تحديد كم الانفاق الواجب لاختياره المطلق

اذ الامر هنا موكول الميل بحسب مقدرته وحبه للخير والانسان ، وأن في قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه درسا عظيما للمسلمين فى انفاق المال على حبه ، فلقد أصابت المسلمين مجاعة ، فبدل تجارته التى جاءت فى الف بعير لله ، وتصدق بها لفقراء المسلمين ، ورفض أن يبيعها لتجار المدينة الذين اجتمعوا حوله وسعوا ان يزيدوا عليها حتى وصل الدرهم بخمسة دراهم ، فأنفق عثمان المال كله فى سبيل الله بهدف تأمين سلامة المجتمع عملا بقوله تعالى :

« جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون » (التوبة : ٤١)

أن الانفاق فى سبيل الله كالتزام أيجابى فريضة على المالك المسلم أن يؤديها الا أنها غير محددة الحصة بخلاف الزكاة .

(ب) الالتزامات السلبيـــة :

وأما الالتزامات السلبية التى على المالك أن يتحرز منها ، ولا يستعملها فكثيرة ، منها عدم الاحتكار أو الاستغلال أو الربا بأنواعه أو الاضرار بالغير والمجتمع — كما أن من الالتزامات السلبية ألا يعطل المال أو يكنزه صاحبه أو يوقفه دون استثمار عامدا متعمدا .

واذا كان الاستغلال المالي وما يتبعه من نفوذ سياسى يعد اسرافا وابتذالا وغلوا وأفسادا فى الارض ، فان أكتناز المال ومنعه من التداول يعد شحا وبخلا وتقتيرا .. فالفعلان اذن أضرار بمصلحة وسلامة المجتمع ، اذ هما مبغوضان فى النظرة الاسلامية ويعدان كسبا غير مشروع .

والاسلام يحرص على أن لا تؤول الثروات لفئة قليلة من الناس تندفع الى السيطرة والتحكم فى المجتمع وتوجيهه لمصالحها واشباع نهمها فى المـال والسلطة كما هو ظاهر حاليا فى الغرب الرأسمالى ، لذلك فان المالك لا يحق له أن يوصى بكل ماله لوريث واحد — مع وجود كثرة لهم نفس الحقوق عليه — وأن فعل فلا ينفذ من وصيته الا الثلث ، ثم يوزع على المستحقين بالقسط ، وذلك لضـمان توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن من الناس • وعدم جمعها فى أيد قليلة حتى لايصيب المجتمع الكســاد والفساد •

واذا قارنا نظام الملكية الخاصة فى الاسلام بنظم الملكية فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى ، لوجدنا أختلافا جوهريا بينهما فى الفكـر والسلوك والتطبيق •

ففى النظام الاقتصادى الليبرالى تفتقر الملكية الخاصة على أسس أهمهـــا :—

١ — الحرية الفردية المطلقة فى العمل والسعى فى طلب الربح ، واباحة الكسب ولو كان غير أخلاقى وغير مشروع ما دام يقره القانون الوضعى •

٢ — الانفصال التام بين النشاط الاقتصادى والدين والاخـــلاق والقيم بمعنى أن الذى يحرك النشاط الاقتصادى فى المجتمع الغربى بواعث أقتصادية بحتة دون الاهتمام بما ينجم عنها من ضرر للغير أو المجتمع سواء كان هذا الضرر ماديا أو معنويا أو أخلاقيا •• ومثالنا على ذلك تجـــارة الرقيق الابيض والجنس المنتشرة فى الغرب الاوروبى ، فهى وسيلة ناجحة لتنشيط السياحة وتحقيق الارباح الطائلة ، وهى تجارة رابحة تعتمد على

أثارة الشهوات واستنزاف الاموال من جيوب الضحايا من ضعاف النفوس واستغلال النساء كسلع رخيصة يتبادلها أصحاب رؤوس الاموال لتحقيق لهم كسبا ماديا كبيرا ، دون أعتبار لما تنشره من فساد وأفساد وما ينتج عنها من الانحلال الخلقى ، والتفكك الاسرى والاضرار بسلامة وتأمين المجتمع •

٣ — يقوم الاقتصـــاد الغربـــى الحـــر على أساس المنافسة الكاملة وذلك يترك السوق حرا فى التعامل دون تدخل يذكر من قبل الدولة •• اعتمادا على مسلمة أقتصادية ، أعلنها مؤسس الاقتصاد الغربى آدم سميث تقـــول :

« دعـــه يعمـــل دعـــه يســـير »

ومعنى ذلك ان الاقتصاد الغربى يترك للفرد العنان فى الانطـــلاق لتحقيق مآربه وأشباع نهمه فى الكسب والربح بدعـــوى أن التنافس بين المستثمرين سينتهى آخر الامر الى بقاء الاصلح •

ونظرية البقاء للاصلح لا تستخدم فى الفكر الغربى فى المجـــال الاقتصادى بخاصة ، وانما نظرية عامة تطبق فى العلوم الحياتية كقاعدة للسلوك الانسانى بعامة •

وقد أستعيرت نظرية البقاء للاصلح من علم نفس الحيوان ، الذى أكتشف •

وخلاصة القول ان هذه النظرية الاقتصادية قد هبطت بالانسان الى البهيمية ، وجعلته فى صراع دائم مع غيره بقصد البقاء والانتصار والظفر على غيره ، ولو كان ذلك على حساب القيم والاخلاق والمثل العليا •• وكأن القانون السائد هو :

« أربح واظفر وليمت الآخرون »

وكأن القانون الأخلاقى عش ولو سحق غيرك ..

وكأن الفكر الاقتصادى الغربى يقول :

ان لم تتذئب أكلتك الذئاب ، وان لم تعتد أعتدى عليك ، وان لم تغلب غلبك غيرك و أضعت كل شيء .

ونستخلص من ذلك أن شريعة الغاب هى التى تحكم النشـــاط الاقتصادى الليبرالى ولا يمكن أن يتحقق من هذا الصراع الحيوانى للبحث عن أكبر كمية من الاشباع الا التقاتل الوحشى الذى سينتهى حتما الى فناء البشرية اذ لم تحكم الارض بشريعة الله ، وتنظم المعاملات الاقتصادية القيم والاخلاق الاسلامية .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »

(المائـــدة : ٤٥)

واذا كنا قد عرضنا للاقتصاد الغربى ونظريته فى اطلاق الملكية الخاصة وتحكم قانون العرض والطلب وتحديات المنافسة الكاملة والصراع من أجل تحقيق المنافع الانانية بمسلمة حيوانية هى البقاء للاصلح وغلبة مبدأ القوة على الحق والمنفعة على الخير فطغيان على مصلحة الجماعة .

اذا نحن قد عرضنا لذلك كله فيجدر بنا أيضا أن نعرض الى الاتجاه المناقض للاقتصاد الليبرالى وهو يمثل الاقتصاد السائد فى الشرق الشيوعى لنتعرف على نظريته الاقتصادية فى المال بعامة والملكية الفردية بخاصة .

ولقد قام هذا الاقتصاد عندما بلغت الفردية أشدها ، وغالى الاقتصاد الليبرالى فى ظلمة واستغلاله للطبقات الفقيرة والمحرومة ، فظهرت الشيوعية

التى هى أدهى وأمر كرد فعل لغلواء الفردية ، ووجدت — فى أعلانها الغاء الملكية الخاصة — القبول عند المحرومين والمعوزين والكادحين بل والحاقدين على الرأسماليين والاقطاعيين وأصحاب الملايين •

واذا كان النظام الليبرالى مفرطا كل الافراط فى غلبة الانانية الفردية وأطلاق الحرية لتحقيق أكبر ربح وأعظم كمية من المنفعة الذاتية ، فان النظام الشيوعى جاء ليهدم صرح الرأسمالية تماما ويسلب الفرد حريته ، فهو يقتر كل التقتير اذ يبخس الفرد حقه فى التملك ويمنعه قطعيـا عن الامتلاك والربح الاستثمارى ••

وهكذا نجد النظامين قد بعدا عن الوسط العدل ، فقد غلا أحدهما غلوا شديدا فى اسراف وافراط الفردية والتنكر للمجتمـع كما هو حادث فى الرأسمالية ، وغلا الاخر فى شح وتقتير وبخس وتدمير للفرد على حساب المجتمع كما نجد ذلك واضحا فى الشيوعية التى تلغى الملكية الخاصة لمصادر الانتاج وتجعل الافراد تروسا تحركها السلطة اذا أشتكى قذف به ليوضع فى سلة المهملات واستبدل بترس آخر •• وهكذا ، والشيوعية بهذا المعنى تتعارض مع الفطرة الانسانية ومع جبلات الانسان التى منها حب التملك كما أنها تتجاهل الحوافز الفردية وتوقف دفع الناس بعضهم ببعض الذى به يثمر النشاط الاقتصادى غاياته ويحقق الصلاح والاصلاح فى النفس والحياة والمجتمع •

ولا نشك فى أن كلا النظامين الى زوال قريب بما يشتملان على قواعد غير أنسانية ظالمة •• وما يستهدفان من تحقيق مادى زائل •

الربا .. فائض .. قيمة .. بعينه

يعرف بعض الاقتصاديين فائض القيمة بأنه ذلك المقدر من حق الغير الذى يأكله القادر لتمتعه بمركز مميز .. وبهذا التعريف يصبح فائض القيمة هو مال الغير أو حقوق الاخرين التى يأخذها المركز الاقوى هنا يمكن أن يكون المقرض أو المقترض كما سنبين فيما بعد .

وبناء على ذلك يكون فائض القيمة عملا ممقوتا ومستكرها لا يمكن أن يقبل المسلم المؤمن أن يتعامل به ، اذ نهى الشـــارع تعالى عن الظلم فى المعاملات ، وفائض القيمة أنما هو عملية ربوية ظالمة بكل معانيها محرمة شرعا اذ يدخل فيه نوع من أنواع الربا كربا السيئة وربا الفضل . ولا شك أن العمليات البنكية التى هى طابع هذا العصر أنما تستهدف تحقيق أكبر فائض قيمة ممكن وتتحايل على القوانين والانظمة من أجل الوصول الى الهدف .

ان الموضوع الاساسى الذى يشغل ضمير المستثمر المعاصر تحقيق فائض قيمة فى جميع الظروف اذ هى الغاية التى يصبوا اليها فى تعامله المالى أسواء كان يدرى أنه ربا أو لا يدرى .

لقد أمسى تحقيق فائض قيمة للعمليات التجارية والصناعية والبنكية هدفا لكل من الاقتصاد الرأسمالى والشيوعى على السواء ، اذ أنها أوسع المعاملات المالية أنتشارا تسعى اليل الدول والافراد .. حتى أنه أعتبرت من ضروريات هذا العصر التى لا يقوم لاقتصادها قائمة بدونها .

لقد تغيرت النظرة فى عصرنا هذا الى القرض بفائدة عن نظرة اسلافنا القدامى ، وزعم بعض الفقهاء المحدثين الذين تأثروا بالفكر الاقتصادى الغربى أن طلاب القرض بفائدة فى الاقتصاد الحديث ليس هم طلابه فى العصور السابقة ، وعلى ذلك يتضح — فى نظرهم — عملية الاقراض والاقتراض بفائدة لا تدخل ضمن المحرمات •

وزعم هؤلاء ان الذين يطلبون القرض قديما هم طبقة الفقــراء أو المحتاجين والمعــوزين فحسب ، وكان الاغنياء والموســرون يعاونونهم بالصدقات أو بالتخلى عن جزء من أموالهم كزكاة عن أنفسهم أو يمنحونهم على الاقل قرضا حسنا [١] بلا فائدة •

ويدعى هؤلاء أن الموسرين كانوا يفعلون ذلك لعدم وجود تطور صناعى يستقطب أموالهم كلها ، وانما كانت أموالهم الفائضة قليلة الاستثمار ممــا كان يعمل على تشجيع الاقراض بدون تحقيق أى منافع شخصية أومصالح ذاتية ، وانما كان دافعهم لذلك حب الخير وأعمال البر ، وتزكية النفــس بالصدقات للتقرب لله ••

كما أن المقترض من ناحية أخرى لم يكن يلجأ الى الاستدانة الا عند الحاجة أو الاعسار ، الامر الذى يضطره الى طلب السلفة وذلك لتغطيــة احتياجاته الضرورية من غذاء وكساء فضلا عن سد متطلباته الاستهلاكية الاخــــرى ••

---

(١) محاضرة للاستاذ الدكتور عيسى عبــده (ندوة المحاضرات — مــكة المكرمة) ١٣٩٤هـ •

ويستشهد هؤلاء بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يوصى بمساعدة الفقير والمعسر ودفع الحاجة عن المحتاج والمريض المعوز « القرض صدقة » ..

أما النظم غير الاسلامية فقد كان الاغنياء يقرضون المحتاجين بفوائد ، ولم تكن المشكلة فى سداد الفائدة فحسب ، بل فى سداد أصل الدين . لذلك كان غالبا ما يتوقف المدين عن السداد لعجزه ، وكانت القوانين الجائرة فى صالح الدائنين دائما(٢) .. اذ تنص على حبس المدين اذا كان عبدا ، ويسترق اذا كان حرا فى بعض تلكم النظم .. وبالجملة كان يدفع المدين ثمن عجزه عن السداد من حريته وكرامته وجهده وقوت يومه جميعا .

وقد نظر الفقهاء المسلمون السابقون الى القرض بفائدة على أنه نوع من الربا ، وأجمعوا على تحريمه .. لما ينتج من من أضرار مادية ومعنوية تلحق بالمدين ، واذا تأملنا رأى الفقهاء القدامى لوجدنا أن لهم الحق كله فى تحريم القرض بفائدة ، بالنسبة لقيم المجتمع الاسلامى والذى يأمر دينه القيم بالبر بالفقير ، وضرورة تقوية روح التعاون والاخوة بين المسلمين ومد يد العون للمحتاج والمعوز والفقير بالقرض الخالى من الفائدة ، لذلك لم يظهر ضرر القرض بفائدة — الا فى عصرنا هذا ، نظرا لتمسك الناس بدينهم ، خوفا من وقوعهم فى شكل من أشكال الربا .

أما اليوم فقد اختلف الامر تماما ، ولم يعد المحتاجون للقرض من الفقراء والمعوزين الذين يستدينون من الاغنياء ، لسد احتياجاتهم

---

(٢) للمزيد فى هذه النقطة يرجع الى كتابى الاستاذ الدكتور عمر ممدوح — القانون الرومانى ، وتاريخ القانون .

الاستهلاكية •• بل انعكست الاية فأصبح المستدينون هم أصحاب البنوك والشركات والمؤسسات والمصانع بل أصبحت الدول الكبيرة والصغيرة على السواء هى التى تقبل على هذا النوع من القـــروض بهـــدف الاثراء على حســـاب الفقير •

والدائنون اليوم هم طبقة العمال والصناع وصغار الموظفين الذين يكدون ليدخروا من أقواتهم مبالغ زهيدة يوفرونها نظير ربح ضئيل ، أما المستدين هنا فهو القوى والدائن هو الضـــعيف •• وليس البـــاعث على الاستدانة الا الطمع فى زيادة الارباح ومضاعفة رأس المـــال ، وذلك لتحقيق المنفعة الحدية التى هى أقصى وحدة من الاشباع للمال ممكن تحقيقها • • وذلك على حساب الدائنين المساكين والفقراء ••

ان المستدينين الان هم الذين يفرضون شروطهم على الدائنين وليس العكس كما كان متبعا قديما •• ومن ثم وجب على الفقهاء المســـلمين الان حماية الدائنين لا المستدينين ••

لم يصبح المدين اذن ذلك الضعيف الذى لا يستطيع أن يوفى بأصـــل الدين فضلا عن فوائده •• بل أصبح ذلك الحـــريص الشره الذى يستغل حاجة الفقير ويمتص ماله ، وكل استثمار لمدخراته التى يود أن يستعين بها •• وقت الشيخوخة أو المرض أو العجز أو البطالة لسد حاجته ومتطلباته أهله وأولاده ••

ان المدين الان بنكا كان أو مؤسسة أو هيئة أو دولة تعمـــل فى أكثر الاحيان على امتصاص مدخرات الفقراء بكل طريق •• لتستغلها فى تضعيف ثرواتها وتحقيق الارباح الضخمة باستغلالها فى مشروعات وهميـــة ، أو

اقراضها بفائدة فاحشة أو لتأسيس شركات تجارية تعلن افلاسها المصطنع بعد فترة من انشائها لتضيع أموال الناس بالباطل ، ثم أنه وفى الاحوال فان هؤلاء المدينين يعطون فى نهاية الامر للدائنين المساكين دراهم ضئيلة وهى النزر القليل من الارباح الهائلة التى حققوها •• بعد أن تكون قد امتلأت جيوبهم من أموال الفقراء المساكين ••

هذه هى حقيقة القروض بفائدة فى عصرنا ، لقد تغير شكل القروض ـ كما سبق الاشارة ـ فأصبحت قروضا انتاجية من رأسمال المدين القوى •• وليست كما كانت فى الماضى عبارة عن قروض استهلاكية تسد حاجة الفقير حتى لا يموت جوعا هو وأولاده ••

لقد كان الدائنون المسلمون القدامى اما أن يعاونوا الفقراء وذلك لمد يد المساعدة بالمال أو الغذاء أو الكساء كصدقة أو زكاة عن أنفسهم •• أو أنهم كانوا على الاقل يقرضون الفقراء بلا انتظار لفوائد •• أو أرباح •• أو منافع ذاتية •• ولم يكن المقرضون ـ كما هو الحال الان ـ يحتاجون الى استثمار أموالهم فى مشروعات انتاجية اذ لم يكن الانتاج قديما يستنفذ كل رؤوس الاموال مهما كان حجمه كما هو حادث الان وذلك لاسباب سنتحدث عنها فيما بعد ••

ومن ناحية أخرى لم يكن المقرض يتعرض لاى خسارة ما دام يثق فى المقترض ويعلم أنه سوف يوفى بالتزامه ••

وقد لخص الدكتور عيسى عبده آراء الفقهاء فى حل هذه القضية التى يعانى منها جمهور المسلمين ، وهم يطمعون أن يبين لهم المجتهدون رأى الدين فيما يجب أو لا يجب أن يتبعونه من تلك المعاملات المالية

المستخدمة ، وهل تدخل فى باب التحريم أو الاباحة ، ولقد وردت بهذا الخصوص نظريات ثلاث :

١ — نظرية تضيق باب التحريم فى المعاملات المالية وتعد هذه النظرية ميسرة على الناس ، اذ تتمشى مع حاجاتهم ومتطلبات المعيشة فى هذا العصر ويسميها الدكتور عيسى عبده بنظرية التحديد اذ تحدد المحرم من المعاملات المالية ..

وهذا التيسير ناتج من موقف الفقهاء ازاء الظروف الاجتماعية الراهنة ، فكما سبق القول قد تغيرت الاوضاع الاقتصادية فى هذا العصر ، وأصبح المقترض هو القوى الثرى ، أما المقرض فهو الضعيف الفقير ، ولذا وجب حماية هذا الضعيف من جشع المقترض الغنى ، الامر الذى يتطلب بشكل حاسم اباحة التعامل بغرض الانتاج مع تنظيم فائدته بما يوافق أحكام الشريعة ، بمعنى اجازة تحديد الفائدة على قرض الانتاج حماية للمقرض الضعيف .

٢ — نظرية توسع باب التحريم فى المعاملات المالية ، وهى لا تحرم قرض الانتاج بفائدة فحسب ، بل تحرم أيضا قرض الاستهلاك .. الامر الذى يجعل الفقير مستثمرا كان أو مقترضا يزداد ضعفا واضطهادا ، اذ تحرمه من ناحية من ضمان الثمرة التى يمكن أن تعود عليه من قرض الانتاج بفائدة مشروطة ، كما تحرمه من ناحية أخرى من الاقتراض لتلبية احتياجاته الضرورية فى ظل قرض الاستهلاك .

وفى تصورنا عن النظرية الموسعة فى تحريم المعاملات المالية أنها توقع الناس فى الحرج الشديد اذ تغلق جميع الابواب فى وجوه طالبى

التيسير فى مختلف معاملاتهم وتجعلهم يشعرون بالظلم ، اذ الدين يسر لا عسر وأنه لا يتعارض البتة مع مقتضيات الحياة المعاصرة ما دا م ليس هناك ضررا ولا ضرار ..

لقد كان الفقير المسلم قديما أكثر اطمئنانا وثقة فى الناس والمجتمع فمتى احتاج الى العون المـادى .. لجأ الى أحد الموسرين الذى يقرضه وهذه المعاملات الطيبة التى غرستها مبادىء الاسـلام أنزلت فى القلوب الطمأنينة والسكينة ، فلم يكن الغنى أو الفقير يخاف من المستقبل كما هو واقع فى عصرنا هذا .. وكانت الناحيـة الاخـلاقية مرتبطـة بالناحيـة الاقتصادية ، ولم يكن التكالب على جمع المـال والشره فى تحقيق أكبر ربح ممكن هدفا للثرى ، كما أنه لم يكن الخوف من العجز أو البطالة يدفع بالفقير الى ادخار جزء من قوت يومه للمستقبل المجهول .

لقد ضعفت روح التعاون والايثار والاخوة فى هذا العصر المـادى وحل محلها الاثرة والانانية وحب الذات ، وأضمحلت الثقـة المتبادلة بين الناس وحل محلها الشك والريبة ، وتقلص سـلطان العقيـدة الدينية فى النفوس وحل محلها التجشع فى طلب الماديات والتصارع من أجل تحقيـق المصالح الشخصية والمنافع الذاتية ..

كيف يكون الحل اذن لهذه القضية المعقدة التى نصوغها على النحـو التـالى :

« مقرض فقير يعطى نسبة ضئيلة جدا كعائد لمدخراته يضطر لقبولها اضطرارا من مقترض غنى قوى وفى أغلب الاحيان يجد نفسه هو الخاسر

نتيجة ارتفاع الاسعار فيجد ماله الذى قدمه للمقترض الغنى قد قلت قيمته الشرائية ، بعد فترة من الزمن وكأنه ينقص ولا يزيد أبدا » .

وقد يلجأ هذا المقرض الضعيف بعد تجربته السابقة الى أن يغير نشاطه الى الاقتراض ليقوم بمشروع صغير كبناء مسكن له أو ورشة أو شراء سيارة أجرة يعمل عليها . فيضطر تحت عامل الحاجة الملحة الى الاقدام على الاقتراض بفائدة متجاوزا اعتقاده فى تحريم الدين لهذا النوع من المعاملات ، الامر الذى ينمى روح الاستهتار فى النفس بما يتوهم أنه من أحكام الشريعة وما يترتب عليه من ريب ومظنة فى أن قواعد الشريعة تشمل على الجمود والغموض والتعقيد ..

الفصل الخامس

السياسة

الديمقـــــراطية الاشـــتراكية

وحـــــكم الله

يتشدق بعض متفلسفى هذا القرن بمزاعم مغرضة ، وآراء جامحة ، ومفاهيم غامضة ، ومذاهب غريبة بعيدة عن الحق ، وثيقة الصلة بالضلال •

وهذه الافكار ، وتلك المذاهب شرعتها عقول تجنـــح الى الاهــواء ، وقلوب مريضة بالاغترار والكبر ، استغلت ما وهبها الله من ارادة حـــرة لتفسد فى الارض بغير علم ، وتفتى بما لم يأمر به تعالى ، وتروج مفترياتها على الدين بفروض ظنية ، وعلوم وهمية :

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا »

(يونس : ٣٦)

ويخلط هؤلاء المتفلسفون خلطا فاضحا بين حكم الله وبين الديمقراطية والاشتراكية ، ويلبسون الحق بالباطل ، وكأن لا فرق يذكر بين الناموس الالهى والقانون الوضعى(١) •

لذلك كان واجب كل عارف بشريعة الله أن يدفع ذلك اللبس المقصود ، وهذا الخلط المتعمد ، وأن يوضح للناس ابتعاد هذه المذاهب عن حكم الله وحجته البالغة وأمره الواجب الاتباع •

وهذه المذاهب الوضعية فضلا عن خطورتها ، تســتجلب كثيرا من الانصار الى صفوفها ، وذلك لجهلهم بالشريعة الغراء ، والدين القيم •

---

(١) يوسـف كمال احمد ـــ بين العلمانية والشيوعية والاسلام ص ١٥ــ٦٧ دار المختار الاســـلامى •

والواقع أن المذاهب الديمقراطية والاشتراكية ــ كنظم علمانيــة ــ ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، اذ يلمس المتبصر ذلك واضحا فى تطبيقاتها فى الدول التى تدعى بأنها ديمقراطية واشتراكية ، بما تنص فى دساتيرها من اتباع ذلك النظام أو ذاك •

وأول ما تغفله هذه الدساتير ، الشريعة الالهية بدعوى الحــرية فى العقيدة ، وعدم التعصب لصور جامدة من الدين ، غير قابــلة للتطــور ، لا تتمشى مع مقتضيات العصر ومتطلبات الانسان المعاصر ، وبذلك تستبدل الدين بتشريعات وضعية عن طريق قوانين صاغتها أقلام بشرية ، وتتغافل عن حكمة الله البالغة ، وهذه القوانين تعتمد كلية على الملاحظة والتجربة ، وأنانية المشرعين ، وأهواء بعض الجمهور ، بزعم أنها تحقق رغبات شعوبها وآمال مجتمعاتها •

والاسلام يشجب منهج هذه النظريات الظالمة ، ويبين فى صراحــة ووضوح أنها علوم ظنية لا تغنى عن الحق شيئا ، وتحايل متعمد للبعد عن الحــق الواجب الاتباع •

لذلك فقد أمرنا تعالى جميعا أن نتبع شريعته ، وأن نسير على منهجه وألا نعبده على حرف واحد ، وأن ننبذ نظم الحــكم المضــللة ، وحــكم المتفلسفين المتهافتة ، وأن نتجه اليه منفــذين ومطبقين ما شرعــه لنا من أحــكام •

« أمــر ألا تعبــدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر النــــاس لا يعلمون » (يوسف : ٤٠)

ان الله تعالى خلق الانسان ، وعلمه البيان ، وعرفه الســبيل الى الاستقامة والعدل ، لكن الانسان ليطغى ويتجبر ويتكبر ويغتر ويبدل كلام الله ، ويدعو الى موافقة رغباته النفسية ، واتباع غواية الشيطان .

ومن غرور انسان هذا القرن والحاده ، أنه يفرض ظنونه على الناس والعباد ، ويستخدم أساليب منمقة وشعارات زائفة ، وبدعا رخيصة يدعو اليها ويزعم أنها جنة الله فى أرضه .. حتى يتمكن من استجلاب السذج من الناس واستمالة ضعفاء النفوس .

ومن هذه الاساليب المضللة والمزاعم الفاسدة ادعاء أن ما يتقوله من البديهيات والمسلمات التى لا تقبل الشك ، اذ تعتمد على العقل ، وكل ما لا يقبله العقل فاسد لا يعول عليه ، باطل لا يصلح الحكم به ، جامد لا يواكب التطور ، رجعى لايتمشى مع التجربة العملية والمعملية .

ومن دعاة هذا الفكر الخـــرب فى عصرنا الحاضر الديمقراطيين والاشتراكيين الذن ينادون بحكم الشعوب لانفسها ، على أساس مبادىء العدل والمساواة والحرية ، وبذلك يلغون الناموس الالهــى ، ويقيمون القانون الوضعى مكانه ، وبذلك فلا يسن قانون الا بحسب ما توحى به عقول الاغلبية من الجمهور ، ولا يقنن تشريع الا بموافقتهم ، وهذا الجمهور يرفض أشياء ويقبل أشياء أخرى ، ويرضى بأحكام ويسخط على أحكام ، ويفوض بعض اللجان لالغاء قانون قديم ، وصياغة قانون جديد ، وذلك تلبية لنزعات الانانية وموافقة الاهواء الرخيصة ، فتتبدل نظم ، وتتغير

أحكام ، وتصاغ قوانين بدون تحقيق مصلحة شعوبها ومنفعتها [١] .

وينتهى الامر ان تباح المحرمات ، وتنتهك الحرمات ، ويعلن باسم الحرية هدم كل مقدس ، وتدمير كل جليل ، والسخرية من التدين والمتدنيين، حتى اذا ما حققت أغراضها سعت الى الانفكاك عن القيم الدينية ومكارم الاخلاق استنادا الى مبدأ حرية العقيدة التى كفلها هذه التشريعات .

ويشهد التاريخ فى مداه الطويل أنه لم يتحقق لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات التى حكمت بشعار الديمقراطية أو التى طبق فيها نوع الاشتراكية ، أى من النجاحات التى تدعو اليها ، فليس هناك مجتمع من تلكم المجتمعات سادت فيه العدالة الاجتماعية أو المساواة أو الامن ، أو حقق الخير لمواطنيه .

ان شعارات الديمقراطية والاشتراكية مثل موضـــات الازياء تتغير حسب الامزجة والاهواء والحرارة والبرودة ، بل أن أصحابها والمنادين بها يختلفون دائما فيما بينهم على ما هو حق وما هو باطل ، وعلى المفاهيم والاسس ، فليس هناك منهج واضح فى هذه المذاهب ، وهذا دليل قاطع على الحق والخير والعدل .

فديمقراطية أثينا القديمة ــ كما هو معروف ــ كان يحكمها الغوغاء ، ويقود أفكارها السوفسطائيون [١] الذين يزعمون أن الانسان معيار كل شىء فما يراه باطلا فهو باطل ، وما يراه حقا فهو حق .

---

(١) الامام ابو الأعلى المودودى ــ نظرية الاسلام السياسية ص ١٩ ــ ٢٣ دار الفكر .

(١) الامام أبو الحسن الندوى ــ النبــوة والانبياء فى ضــوء القــرآن ص ٢٠ ــ ٢٢ المختار الاســلامى .

هذه هى أسس الديمقراطية التى ينادى بها بعض المتفلسفين فى العصر الحديث مع تهجينها بالاشتراكية ، وتطعيمها بالمساواة ، ونفخها كالبالون بهواء الحرية ، وهذه الديمقراطية التى يزعمونها هى نفسها التى أعدمت الفيلسوف سقراط الذى كان ينادى بتحقيق العدالة والخير والحق ، لقد أعدمته هذه الديمقراطية وهى رافعة شعار العدالة والخير والحق ، وأدانته باسم حكم الشعب ، لا لشىء الا لانه كان يدافع عن نفس الشعار الذى تدعى أنها تدافع عنه .

لقد فضح سقراط أصحاب الشعارات المنمقة ، وأظهر فى شجاعة نادرة أنها أكذوبة باطلة ، اذ هى شكل بلا مضمون ، مبنى بلا معنى ، فجعلت من الحق باطلا ، ومن الباطل حقا ، ويتم ذلك كله تحت ستار من النفاق والكذب والزيف وحكم الاغلبية الجاهلية .

ومن الغريب حقا أن كل الدول التى تزعم التقدم والتحضر بما تحكم به من نظم اشتراكية أو ديمقراطية أو اليهما معا ، لم تتعلم حتى الان من التاريخ الانسانى ، ولم تقترب من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، فلم تكتشف عقم هذه النظم والتشريعات الوضعية التى ما زالت يتلبس فيها الحق بالباطل ، والعدل بالظلم ، والخير بالشر ، والعبودية بالحرية وكأن الناس قد فقدوا عقولهم ، فلا يشعرون بما ينخر مجتمعاتهم من فساد وانحلال ، كأنهم استكانوا لاراء بعض الذين أوهموهم بأن الديمقراطية الاشتراكية هى الطريق الامثل المزين بالورود ، وأنه الموصل الي السعادة والرفاهية ، اذ هو جنة الله فى أرضه .

ولا شك أن هذا ادعاء كاذب تشجيه وقائـــع التاريـــخ عبر الاجيال المتطاولة ، ويظهر الواقع التطبيقى بعده عن الحق ، ويشهد على فساده المجتمعات التى طبقت فيها هذه النظم ، والدليل على صدق ما نقول ما نجده دائما من تناقض فى أحكامها وتبدل فى قوانينها ، وتخبط فى تشريعاتها ، وهذا بطبيعة الحال ناتج عن أن الفكر البشرى فى نهاية الامر عاجز قاصر ، وأن علم الانسان ظنى ، وأنه لو ترك دون هداية وتوجيه لضل السبيل الى الحق :

« ان يتبعون الا الظن وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

(النجم : ٢٨)

ومن الشعارات التى يرفعها بعض الساسة والحكام — فى هذا العصر — عندما أفلست هذه المذاهب عن الاتيان بالمبتكر والجديد ، ليروجوا له ، ويلهوا شعوبهم ، شعار مستحدث يقول « أنه ليس أختـــلاف بين الدين والديمقراطيـــة والاشتراكية ، بل أوهمـــوا شعوبهم أن الديمقراطيـــة والاشتراكية من الدين فانخدع كثير من ضعاف الايمان بهذه الانظمـــة ، وبدأوا يخلعون عليها خلعا من القيم الدينية ، ويرقعوا بها نظم الحكم ، ويرتقون بها قوانين دولهم وتشريعاتها ، ثم يزعموا ان ذلك كله من عند الله وليتأكد فى ضمير العامة ذلك الضلال ، وزيادة فى التعمية ، فان هؤلاء المدعين يعمدون الى أرتداء ازار الاسلام رياء ونفاقا وكذبا .

« وجعلوا لله شركاء الجـــن وخلقهم »

(الانعام : ١٠٠)

يريدون أن يشرعوا للناس غرورا وأفتراء على الله :

« وما لهم بذلك من علم أن هم الا يظنون »

(الجاثية : ٢٤)

لقد نبذ هؤلاء الحق المتمثل فى الناموس الالهى ، واستبدلوه بالقانون الوضعى ، ثم أدعوا أنه لا خلاف بين ما يدعون اليه وبين حكم الله •• ونسوا أنهم يعبدون الله على حرف واحد ، ويمزجون بين التقنين البشرى الناقص العاجز ، وبين ما هو الهى شامل كامل جامع ، أرادوا غرورا أن يخلقوا موجودا ، وأن يبعثوا ميتا ، وأن يشرعوا مع الله •

« جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم »

(الرعد : ١٦)

ان هذه المحاولات الدائبة التى يقوم بها بعض المفكرين المغرورين للمزج بين ما شرعه الله وما يقننه الانسان ، انما هو أتباع لاهواء النفس ، وغواية الشيطان ، وعبادة للظن وسجود للعقل الجانح عن الصواب ، والمادة الجامدة الصماء •

ان الاشتراكيين والديمقراطيين ينصبون لدعاتهم تماثيلا يسجدون لها من دون الله ، ويضعون صورهم فى كل بيت وديوان كآلهة كاملة ، روجوا لها ثم قد سوها برغم حياة أصحابها الحافلة بسفك دماء الابرياء ، وبذلك ينحرفون عن الصراط المستقيم ، ويدعون فى عصر الفضاء الى عبادة الاوثان :

---

(١) الاستاذ محمد المبارك ــ ذاتية الاسلام ص ٦ وما بعدها ــ دار الفكر

« أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين »

(الصافات : ١٢٥)

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »

(فاطر : ٥)

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »

(الشورى : ٢١)

لقد أوصى الله عباده باتباع دينه الحق ، ومنهجه المستقيم ، وشريعته التى أوحى بها للنبى الامى محمد — ﷺ — وبين للناس أجمعين أنه لن تستقيم أمة ، ولن يصح حكم ، ولن يستقر نظـام الا باتباع القانـون الالهى [1] :

« ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها »

(الجاثية : ١٨)

فاذا جاء بعض المدعين الى مناهج غير مناهج الاسلام [2] ، كنظام سياسى أو أقتصادى أو أجتماعى للحكم والحياة ، ويلجأون الى الجماهير يستشيرونها فى تشريعاتهم وتقنيناتهم ويتصـدر بعض المرشـحين بزعم الرفاهية للناس عن طريق تنفيذ هذه القوانين ، ويطلب هؤلاء المرشحون من الناخبين تزكيتهم لتمثيلهم فى المجالس التشريعية ، وينشطون فى الدعاية

---

(١) للمزيد راجع : أبو الأعلى المودودى — تدوين الدستور الاسـلامى ص : ١٧—٦٦ .

(٢) للمزيد راجع : أبو الحسن الدرى — النبوة والانبياء فى ضوء القرآن ص : ٥٦ وما بعـدها .

لانفسهم ويستخدمون طرقا مريبة ، ويعتمدون على مقاييس غريبة ، أساسها الشهرة والدعاية والمال .

ولا ينجح فى هذه الانتخابات الا من يستطيع جذب انتباه العامة ، والاغراء بكل الطرق الممكنة ، وسلب العقول بماله وجاهه ، ودعايته الكاذبة فاذا ما نجح هذا الديمقراطى الاشتراكى ، واستولى على أصوات الناخبين وقفز على رؤوس الاشهاد ، نسف ما وعد الناس به ، وسعى ليحقق أهدافه الشخصية ومنافعه الذاتية ، وعمل على تعويض ما خسره من مال فى الدعاية الانتخابية ، وهذا الاسلوب نجده متبعا فى أكثر الدول ديمقراطية واشتراكية كدليل عملي واضح على عقم التشريعات وبعدها عن الحق والهداية والحكمة :

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »

(آل عمران : ٨٥)

« ان الدين عند الله الاسلام »

(آل عمران : ١٩)

لقد نزع الله من البشر جميعا سلطة التشريع ، وسحب منهم تقنين القوانين أو أختراع قوانين جديدة ، سواء كانوا المشرعون أفرادا أو جماعات ، فأنه لا يحق لهم تقرير أمر قد نهاهم الشارع عنه ، والزم الناس باتباعه ، يقول أبو الاعلى المودودى مستشهدا بالقانون الالهى :

« ان الحق تعالى قد أفرد لنفسه حق وضع القوانين للبشر ، وبين الكيفية التى يجب أن تطبق بها » :

« ان الحكم الا لله امر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم »

(يوسف : ٤٠)

ليس للزعيم أو القائد أو الحاكم أو الملك اذن الحق فى أستحداث أوامر لم يأت بها الله [١] . ولا تقنين عقوبات ، وتشريع أحكام ، وصياغة قوانين جديدة ليست مستقاة من الدين فان الله كفل للبشر المنهج القويم ، وبين لهم الصراط المستقيم ، وأوضح ما هو واجب ومندوب ومحظور ، وهو تعالى أعلم بقلوب عباده ، وما يخفى وما يظهر ، وما يكتم وما يكشف ولا أمر الا أمر الله ، ولا مشيئة الا مشيئته تعالى ، ولو اجتمع الجن والانس على أن يصيغوا تشريعا للبشر لعجزوا عن ذلك ، وكشفوا عن ضعفهم وتناقضهم وقلة حيلتهم ، ولو أن الحياة الدنيا غرتهم وأرادوا أن يصطلحوا على قانون يماثل القانون الالهى فى الكمال لاختلفوا فيه ، وظلموا أنفسهم ، وتنازعوا فى الامر وانحرفوا عن الحق ، وانقادوا الى الاهواء :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »

(المائدة : ٤٥)

الحكم أذن لله وحده [٢] ، وليس لاحد أن يدعى من عنده أن جانبا من الدين يتوافق مع مصلحة المجتمع ، وأن جانبا آخر لا يتوافق ، وأن هذا حرام ذاك حلال ، ثم يغير بغرور عقله شيئا من شريعة الله ، الا اذا كان ببرهان من الله ووحى منه تعالى ، وهذا ما فعله الانبياء جميعا ، فكل منهم قـــال :

« أن أتبع الا ما يوحى الى »

(الانعام : ٥٠)

---

(١) للمزيد راجع ابو الاعلى المودودى — نظرية الاسلام وهديه ص ٢٦ .
(٢) للمزيد راجع أصـــول

القانون السائد فى الدولة التى تدين بالاسلام هو القانون الالهى ، ففى جميع الظروف والاحوال ، وفى كل زمان ومكان يجب أن يكون ولا تستحق أى حكومة من الحكومات طاعة الناس لها الا اذا كانت تحكم بما أنزل الله ، وتنفذ أمره تعالى ، واذا سأل الحاكم الله تعالى ، هل لى فى الامر من شىء ؟ •• كان الجواب فى كل زمان ومكان :

« يقولون هل لنا فى الامر من شىء ، قل أن الامر كله لله »

(آل عمران : ١٥٤)

الديمقراطية الاشتراكية التى يدعو لها كثير من الذين أفلسوا فكريا ، هى منهاج مستحدث وضعه البشر كنظام للحكم ليس من القرآن والسنة فى شىء ، فسلطة القهر والالزام فى هذه الانظمة من الحكم بيد الشعب فى الظاهر ، والشعوب بحسب تكوينها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية تود ما هو سهل محبب ، وتنبذ ما هو ثقيل مستكره من النفس ، وكثير من الشعوب لا تعرف مصالحها ، فان البشر خلقهم الله على ضعف فطرى كامن فى نفوسهم ، فيرون وجها من الحقيقة دون وجهها الآخر •• ثم أنهم يجنحون عن العدل ، وهم فى غالب الامر مغلوبين على أمرهم •

وقد دلت تجارب الامم على أن الانسان لا يستطيع ان يكون شارعا لنفسه بنفسه والا عبد هواه ، وغفل قلبه عن الحق ، وابتعد عن الصدق وركب الباطل غرورا وكبرا :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه »

(البقرة : ٧٥)

لقد استثنت الولايات المتحدة الامريكية ، وهى التى تزعم أنها أكبر دولة ديمقراطية قانونا يحظر على الناس مقارعة الخمور ، عندما ثبت لها علميا وعمليا بالدليل القاطع ضررها من الناحية الصحية ، وقدم القانون الى الكونجرس الامريكى ، فوافق عليه المجلس باسم الشعب ، لكن هذا القانون رغم ذلك ولد ميتا ، فلم يكتب له الحياة ، بل تفنن الناس فى التهرب منه ، وذلك بوضع المسكرات الاكثر ضررا فى زجاجات « البيبسى كولا » وفى عبوات خاصة بالعطور ، واستبدلت أنواع أخرى من المخدرات أشد فتكا بالانسان سميت بأسماء مختلفة مثل « حبوب الهلوســة » و « حبوب السعادة » وكلها حيل جديدة للتهرب من القانون ، وعدم الوقــوع تحت طائلة العقــاب ، وكل ذلك تم تحت ستار الديمقراطيــة التى هى حكم الشعب .

لكن حكم الله فى هذا الامر لا يغلب .. وسلطته لا تقهر .. يتبعها الأمير والفقير والحاكم والمحكوم ، فالكل عباد الله ، وعنده سواء ، لا تمييز بينهم الا بالتقوى ، ولا قربى الا بالعمل المخلص فى سبيل الله (١) .

أن أية حكومة مهما كانت لا يحق لها أن تكون سلطة قهر على الافراد الا فيما يتعلق بتنفيذ أمر الله ، وما تتبعه من حكمته تعالى ، فاذا خرجت عن القانون الالهى ، وشرعت بما لا يقضى به الله وجب عزلها ، وتنصيب غيرها بلا تردد ، ولا بد أن تستوعب جميع شئون الانسان الحياتية عمــلا

---

(١) أبو الحسن الندوى — النبوة والانبياء فى ضــوء القــرآن ص ٢٦٠ وما بعدها — المختار الاســلامى .

بنصوص الشريعة وروحها وأحكامها ، فاذا أفتقر الى النص الصريح لم يقطع بشيء الا باجماع المسلمين ولا يسمح لاحد أن يستجلب قوانين وضعية من أية أنظمة أخرى بدعوى التقدم والتطور الا اذا كانت تواكب شريعة الله (٢) ، لقوله تعالى :

« يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا الذين أتخذوا دينكم هزواً ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء »

(المائدة : ٥٧)

« انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد »

(غافر : ٢٦)

فالذين يفترون على الله الكذب ويلبسون الحق بالباطل ، ويرقعون نظم الحكم بتشريعات وضعية ، وقوانين ظنية ، يأخذون من كل واهم ما يتمشى مع أهوائهم ، ويعبدون الله على حرف واحد ، أنما هم قد ظلموا أنفسهم :

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله »

(البقرة : ١٤٠)

« ومن أظلم ممن أفترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام »

(الصف : ٧)

« فمن أظلم ممن أفترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم »

(الانعام : ١٤٤)

---

(٢) أبو الاعلى المودودى — نظرية الاسلام وهديه ص ٥٠ وما بعدها .

الباب الخامس

نحـــو مصـــطلحات اســلامية

مقـــــدمة :

لعب المستشرقون والمستغربون على السواء دورا خطيرا فى استقطاب التراث العالمى الاسلامى وامتصاصه ، واظهار دور أوربا المعـاصرة على أنها وحدها الملكة المتوجة على دولة العلم والحضارة والرقى فى هذا الزمان.

وتقوم النظرة العلمية الحديثة على أساس الفصل بين الشرق والغرب، والشرق بعامة والغرب بخاصة فى تصور هذه النظرة يعنى التأخر والتحجر والجهل ، أما الغرب فقد تجاوز علوم الارض الى علوم الكواكب الاخرى .

وقد ساعد فى تركيز النظر الى هذا التقسيم المزعـوم بين العقليـة الشرقية والغربية بعض المبهورين من العرب بحضارة الغـرب فأخـذوا يرددون — بحسن نية أو بسوء نية — وما يتقوله بعـض علماء الغـرب المتحيزين عن التفرقة بين الفكر الاوربى الارى وبين الفكر العربى السامى والجامى ، وتحيزوا تحيزا متعمدا فى ابراز القدرات الخـلاقة فى التركيب والانشاء عند الغربيين ، وظلموا العرب والمسلمين عندما أتهموهم بتهافت آرائهم وضعف قدراتهم وقصورهم عن الابتكار والتجديد .

لقد أصبحت مناهج الغرب فى التربية والتعليم هى الضوء الوحيـد الذى يجب أن يسلط على الناس جميعا قبرا واجبارا ، وعلى من يريد البحث والدرس أن يطفىء كل شموع المعارف الاخرى فى نفسه حتى ينال شرف الانتماء الى الطلائع التقدمية والعلمانية والتحضر ..

لقد بطشت الحضارة الاوربية المـادية ذلك الاخطبوط المتحكم فى رقاب البشر بكل عالم صادق ينادى بكلمة حق ، حيث أثبرت أن ما يكشفه نقاب التاريخ للناس يوما بعد يوم من أن الحضارة الاوربية أمتداد طبيعى

الحضارة الاسلامية ، انما خطر يهدد كيانها ، وأن ما يظهره العلم من أن كثيرا من النجاحات العلمية الغربية راجع فضله فى المقام الاول الى الامة الاسلامية يعد عدوانا على حضارتهم اذ يثير بالطبع غبارا حول تفوق الغربيين العلمى ، ويعمل على تقويض دعاوى السيطرة العقلية والقهر السياسى على الشعوب العربية والافريقية التى يستعمرها — المتحضرون — فكريا وماديا ..

الا أنه يجدر الاشارة الى أن الحضارة الاوربية لم تستفد حتى الان ولا نحسبها ستستفيد فى المستقبل من الثقافة العربية التى غرستها الشريعة الاسلامية فى قلوب شعوبها اذ أن أوروبا تنظر الى الحضارة الاسلامية بين الشك والخوف ... وان لم يستبين خطورة هذه الحضارة حتى الان عليه فما زال الغرب يظن واهما أنه قد قضى تماما على ايمان تلك الامة بنفسها ، وليس هناك بعد الموت من بعث لها ولا نشور ..

لقد عمى هؤلاء المخدوعون بعلومهم الظنية عن حقيقة هامة هى وأن الايمان اذا وجد فى القلب لا يموت أبدا وان ضعفت قوته ، وعندما يأتى المناخ المناسب فانه ينمو كالطود الهائل طفرة واحدة حتى يبلغ أعنان السماء .. فيخيل للناظرين أنه تشققت عنه الارض أو هبط من السماء دفعة واحدة بلا مقدمات ..

لقد أسرفت الحضارة الاوربية فى ادعاءاتها ، وظلمت الحق والحقيقة ونالت من الذين سبقوا أن أحسنوا اليها .. وردت جميلهم بالنكران ، وأوغلت فى الحقد والكراهية وأستعبدتهم بالنار والحديد ، ونزلت فيهم قتلا وتشريدا .. وزعمت بعد كل ذلك أنها حاملة لواء العلم ورايات الحرية ودستور المساواة والعدالة للعالمين ..

ولا غرو فان ما يدعيه الغرب المتحضر من دعاوى التفوق على الجنس البشرى فى العلم والحضارة والرقى •• هو حاصل الغرور العقلى والاعتداد بالقوة الغاشمة وأن ما نجده الان من مروق الحضارة الغربية عن الحق واتباع الظن ، مسطور فى آيات الله البينات وحكمته البالغة :

« وما يتبع أكثركم الا ظنا وان الظن لا يغنى عن الحق شيئا »

(يونس : ٣٦)

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » (آل عمران : ٢٦٧)

أن بعض ساسة العرب يروجون لحضارات الغرب بتزلف منمق ، ويعرضون علومهم المادية فى أطباق شهية ، ويدافعون عن أغراضهم بشعارات مزيفة ليبهروا الشعوب التى أستعبدوها ويتعمدون تعقيد مصطلحاتهم ، ويضيفون الى فنونهم هالة من الغموض ليظن من يستقبل علومهم أن القصور فى فهمها راجع لجهلهم وقلة حيلتهم ، اذا أن أصحاب التحضر هم وحدهم العلماء ••

لقد آن لنا — نحن العرب — الان أن نكشف عن تلك الأكذوبة الكبرى [1] ، وأن نبين عقم المناهج الوضعية وعجزها عن أمدادنا بالمثل الرشيدة ومكارم الاخلاق ، وأن تعدنا للسير فى الطريق المستقيم الواجب الاتباع ، بعد أن كشفت للنظريات التجريبية عن ساقيها ، وأظهرت ضعفها

---

(١) عرض الاستاذ أبو الاعلى المودودى فى كتابه نظرية الاسلام وهديه لغرابة المصطلحات التى يستخدمها العلماء العرب رغم وجود مصطلحات اسلامية بديلة صالحة للتطبيق ويرجع سبب عدم الاخذ بها تعطل نظام الاسلام السياسية ومن هذه المصطلحات : السلطان والملك والحكم والامر والولاية راجع الكتاب ص ٢٤١ .

وضحالة نظرتها ، وضآلة حجمها ، وعجزها عن منح الامن والسكينة للانسان ...

وأنه ليبقى علينا الان وبلا تردد أن نطرح جانبا براقع الحياء عن وجوهنا لنقول كلمتنا الفاصلة فيما يقدم الينا من سموم فى أطباق ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ..

آن لنا أن نكشف تلك العبارات الرنانة ، والتعبيرات الراقصة، والمعانى المتناقضة والمصطلحات الغامضة التى قدمها ويقدمها لنا الغرب كل يوم باسم الخلق الجديد والابتكار العبقرى والابداع النفسى والاختراع العلمى (٢) .

آن لنا أن نفهم أن قوانين الحتمية (١) . ومذاهب المنفعة ، ونظريات اللذة وسيكولوجية الجنس ، والاخلاق التجريبية المادية العلمية الجدلية شعارات زائفة وظنون كاذبة ، وهلوسات ووساوس ليست من الحق فى شيء وأن علينا أن نراجع كل ما يقدم الينا ونفحصه من خلال منظارنا الاسلامى فلا نقبل الا ما يتمشى مع الفطرة السليمة والعقل الرشيد الذى هو الوجه المشرق للدين القيم ..

أما اذا وضعنا رؤوسنا فى الرمال وبقينا على هذا الحال من السلبية والجمود وقعدنا مع القاعدين ، وقلنا ماذا نقدر أن نفعل مع هذا الزحف

---

(٢) لمزيد من التفصيل :

(١) راجع للمزيد الشيخ وحيد الدين خان :

أ ــ الدين فى مواجهة العلم   ب ــ الاسلام يتحدى   جـ ــ حكمة الدين

المدمر الذى لا قبل لنا بايقافه » وتواكلنا وانعزلنا وتبطلنا مع المتبطلين وقلنا ما قاله بعض المرثين :

« فاذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون » (المائدة : ٢٤)

فقد حقت علينا كلمة العذاب والاستعباد فى الارض ، وسنظل أبدا نقاسى من ويلاته حتى تقوم الساعة وسيصدق فينا قوله تعالى عن المنافقين:

« ان المنافقون هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)

لقد مضى الوقت الذى كان فيه المستعمر الغربى يقدر أن يكمم أفواه المناضلين ، وأن يكتم انفاس المجاهدين للتخاذل عن الجهاد بالعلم والعمل معا ، ولنبدأ بالعلم اذ الملاحظ أن كثيرا من المصطلحات التى يستخدمها علماء الغرب المحدثين — كما سبق الاشارة — تصلح فحسب فيما يتعلق بالعلوم الجزئية والتطبيقية ولا نتصور أنها يمكن أن تمتد لتنضوى تحت مناهجها العلوم الحياتية ، تلك التى تتعلق بالانسان كانسان كعلم الاجتماع والنفس والاخلاق ، ومن ثم فان تطبيقات مناهجها فى مجالات السلوك الانسانى تعد تعسفا ، بل ظلما وخداعا وغشا ..

ولذلك فانه من الضرورى اذا أردنا أن نستخدم منهجا اسلاميا فى مجال العلوم الانسانية والحياتية ، العمل على غربلة تلك المصطلحات ، أو على الاقل اعادة النظر اليها بمنظار اسلامى فنفحص ما هو صالح وننبذ مالا يصلح منها ..

والمصطلحات البديلة التى نقترحها لا ندعى أنها من اكتشافنا ، اذ أن

أصولها واردة فى القرآن الكريم والسنة المحمدية ، وهى عديدة نشير الى بعض منها كأمثلة حسب ما تيسر لنا فهمه من أغراضها ٠٠

ويبقى على العلماء والدارسين أن يستكملوا هذا العمل المتواضع الذى يساعد على تدعيم العلوم الانسانية فى عصر يغزو أرض الامة الاسلاميـــة الغث الثمين من الحضارة الاوربية ، ويفرض على الناس فرضـــا دون أن يملك أحد حق المعارضة بعد أن استحوذت سيطرة هذه الثقافة المادية على أذهان الدارسين وطالبى العلم والباحثين ٠٠ حتى وكأنه لا يوجد لها مـــن بديـــل :

« ومن أصدق من اللـــه حديثـــا » (النساء : ٨٧)

الفصل الأول

الزاجر لا الضمير

الزاجـر لا الضميـــر

اصطلاح الضمير بشقيه النفسى والاخلاقى اصطلاح حديث مأخوذ عن الكلمة Conscience الاجنبية ، ولا نجد لهذا المصطلح أصــلا فى الشريعة الاسلامية ..

وقد تبين لكثير من المفكرين والباحثين غموض هذا التعبير ، اذ مـا يزال يشق فهمه على وجهه الصحيح بالرغم مــن انتشار استخدامه عنـد العلميين باعتباره من ناحية ، شعورا داخليا فى النفس بالواجب عمله وهو ما يسمى « بالضمير الاخلاقــى » ..

كما يستخدم من ناحية أخرى باعتباره حكما على الاعمال والافعــال الخيرة منها والشريرة ، فهو أداة لرفض كل ما هو مذموم ، وللاقبال علــى كل ما هو محمود وهنا يسمى « بالضمير النفسى » ..

وواضح من هذا التقسيم أنه من الصعوبة بمكان التمييــز تمييــزا واضحا بين الضمير النفسى والضمير الاخلاقى ، اذ يكاد لا يعرف مـــا يقصد به على الحقيقة برغم تلك التعريفات المتعددة التى تظهره على أنــه كل شيء فى الانسان ..

واذا ما حاولنا سبر غور واستجلاء معناه ، خفى علينا أمــره ، واذا أردنا تحديد وظائفه لبس علينا الامر وغمض ، وتفرقت بنا السبل وأضلنــا ضلالا مبينا ..

ومع ذلك فانه يقال أن الضمير محكمة الانسان المستعجلة [1] . وأنه

---

(١) د. ابراهيم مدكور — دراسات فى الاخلاق والاجتماع ص : ٦—٢٥ .

يصدر أحكامه على القضايا المعروضة دون تباطؤ ، كما أن أمــره واجــب التنفيذ ، غير قابل للطعن أو النقض ..

الا أنه يبقى واضحا لنا أن الضمير الانسانى — كما دلت التجــارب عبر العصور المختلفة — لا يعد ميزانا عدلا ولا خيرا فاضلا وليس بصالح للتطبيق فى الزمان والمكـــان .

لقد أرتكبت وترتكب كثيرا مــن المظالم بأسمــه ، فكم مــن الجرائم الوحشية اقترفت تحت ستار الضمير ، وكم زهقت نفوس الابرياء — كيــدا وحقدا — ولم تهتز لها قلوب من يدعون أصحاب الضمائر ، وهــذا يعنــى أن الضمير كلمة مبهمة يمكن أن تتشكل بحسب المصالح وطلــب اللذات ، وأن تتلاعب الكلمة بأصحاب الاهواء فينحرفون عن الحق ويتخذون لفــظ الضمير مبررا لتنفيذ أغراضهم ومنافعهم ، وهم يظنون أنهم يحسنــون صنعـــا ..

ترفيهية فيقيمون مباريات وحشية يقدمون فيها أجساد ضحاياهم من بنــى الانسان كغذاء للحيوانات الكاسرة ، ويصفقون لهذه المجازر كثيرا ويهتفون من أعماقهم فى سعادة غامرة ، ويتراقصون على أنغام الموسيقى الصاخبة ، والحيوانات الكاسرة تنهش — أمام أعينهم وعلى مسامعهم — الاجســاد الادمية ، وتمزقها أربا أربا ، ثم تلتهم لحومها فى شراسة وشراهة .. ومــع ذلك لم نسمع أنه كانت ترق لهذه المجازر الدموية ضمائر المتفرجين ..

وما زال أثر تلك العروض اللا انسانية باقيا حتى الان فى صور أخرى حيث تقام بعض المباريات الوحشية مثل مصارعة الثيران ، ومسابقـــات

السيارات التى تنتهى دائما بكوارث تزهق فيها الارواح بدعوى المغامـرة والمخاطــرة ..

والمعروف أنه تتدخل فى هذه المباريات عوامل المنفعة الذاتية والمصلحة المادية فيما يتخللها من عروض المقامرة وما يتبع ذلك من رهونات تطفىء فى النفس معانى الرحمة بما تثيره من الانانية وحب الذات ويصدق فى هؤلاء وأمثالهم قوله تعالى :

« ثم قســت قلوبكم من بعد ذلك فهــى كالحجارة أو أشد قســوة »

(البقــرة : ٧٤)

واذا أنتقلنا الى صورة أخرى من صور العدوان فى القرن العشريــن والتى يستغل فيها كلمة الضمير استغلالا منفعيا ومصلحيا أناس يقال أنهم ينتمون الى مجتمعات التحضر والتقدم فيقترفون باسمه أبشع الجرائـم الوحشية ، وهم يحملون على صدورهم لافتات مدون عليها الحرية والعدالة والمساواة ..

وليس ببعيد ما فعله ويفعله الصهاينة بشعب فلسطين من سلب ونهب وتشريد وتقتيل وازهاق لارواح الابرياء من العــزل ومــن بقر لبطــون الحوامل ، وسفك دماء الرضع والاطفال ، وهدم بيوت الله على من فيها ، وقذف المدارس والمصانع بالاسلحة الفاتكة ، والنساسة على مسمع ومرأى من العالم كله ، دون أن يهتز ضمير الحضارة الغربية لمـا يجرى من مذابح دموية تلين لها الحجارة الصماء ..

ولا يمكن أن ينســى جيلنــا الحاضر التعصب الاوربــى البغيض فى أفريقيا ، وغيرها من القارات اذ يشعر الانسان بقساوة قلب الرجل الابيض

ومعاملته اللانسانية للافريقى ، حيث يعتبره سلعة تباع وتشترى ، ويــرى ضميره أن الاسود مخلوق وضيع لا قيمة له ولا كرامة فهو بمثابة مطيــة يستخدمها فحسب لتحقيق منافعه المادية ، وتحقق سيطرته دون أعتراف بآدميته أو احساس بانسانيته حتى وكأنه قد نزع كل القيم من نفســـه وعقله وقلبه جميعـــا ..

ان القول بأن الضمير الاوربى الحديث يمثل أصدق أمانى جنسنا بما يردد من شعارات المساواة والحرية والعدالة ، وما يدعيه من العلمانيــة والموضوعية ، زعم يكذبه الواقع المشاهد ، وتنكره الحقائق الدامغة ..

وما دام الانسان لا يتبع طريق الحق ، فلا مفر من وقوعه فى الاخطاء وانحرافه عن جادة الصواب ، وموافقته الاهواء والشهوات والسيــر فى طريق الضلالات ..

لقد نزلت شريعة الحق لتبين للناس الطريق الواجب الاتبـــاع .. اذ أنه لو ترك الانسان حرا ، لطغى وتكبر وأفسد فى الارض وادعى لنفســـه العصمة كذبا وأفتراء ، لذلك كان الخطاب موجها من الله الى الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — لتبليغ رسالة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونصيحة بعدم اتباع آراء الناس الفاسدة التى عبر عنها بالاهواء التى هى جهل وفساد :

«ثم جعلناك على شريعة من الامور فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذيــن لا يعلمون» (الجاثية : ١٨)

فلو كان ضمير الانسان كافيا لمعرفة الحق الواجب الاتباع ، وانتهاج الطريق القويم ، ما كان هناك من داع للانبياء والرسل من قبله تعالى

ليبلغوا رسالاته على الارض مبشرين ومنذرين ، ولكان الضمير الانسانى كافيا بذاته ليحقق الخير والحكمة دون حاجة الى الاديان والشرائع والرسالات ..

لقد بلغت الشرائع والاديان السماوية لتهدى العقل الى الحق ،وتبين للناس السبيل القسط للحكم على الامور ، وتهديهم الى طريق الاستقامة والعدل اذ النفس لا تدرى اذا تركت دونما توجيه أو ارشاد الهى الى ما فيه صالحها على الحقيقة ومن ثم كان خالقها أدرى بما يتوجب عليها عمله، لذلك بين تعالى حكمته البالغة المؤدية لخيرها :

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » (البقرة : ٢١٦)

« وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » (البقرة : ٢١٦)

يبصر الحق تعالى الناس بمنهجه الاقوم ،وطريقه الارشد الذى ينشده الساعى الى الخير والذى يشرق فى نفس المتأمل فى الناموس الكونى وحجج الله البالغة ..

ومن لطف الله ونعمه ورحمته أن لا يكره الناس على الايمان حتى يكون التوحيد قائما على التعقل والتأمل والتفكر والعلم ، وليس تسلطا أو اجبارا أو عسفا ، فلا يحاسب المخطىء أن اضطر مكرها مع ايمانه الى الوقوع فى الانحراف لان ما تم من اثم لم يكن عن طريق الاختيار الارادى وهذا دليل قاطع على كفالة الله لحرية الانسان فى أروع صورة :

« لا أكراه فى الدين » (البقرة : ٢٥٦)

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (البقرة : ٩٩)

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل : ١٠٦)

يبين تعالى أن ما أستخلصه للناس من الدين مواكب للفطر السليمة والقلب السليم والعقل الرشيد ، والله تعالى يدع الانسان بعد ذلك يختار ما يشاء دون قهر أو أكراه •• وهو اذ يضرب له الامثال ، ويبين له الايات ، ويمده بالاسانيد الدامغة والحجج البالغة ، أنما يحميه من الدعاوى والمزاعم حتى لا يكون على الله حجة بعد البلاغ ، ولا يكون الانسان مطية للاهواء ، فيزين له سوء عمله فيراه حسنا ••

واذا كان هناك حرية في الاختيار منحها الله للناس ، فليس معنى ذلك أن أختيارهم للافعال والاعمال والاحكام صحيح ، وأنه ما دامت ضمائرهم راضية بما يفعلون فانهم سائرون الى الحق المبين ••

لقد فرق تعالى بين طائفتين من الناس ، احداهما تحظى بقلوب رحيمة ، وأخرى تحمل قلوب قاسية ، ثم فتح باب التوبة ليرجع الآثم عن أثمه ويلتحق بركب الصالحين :

« وجعلنا فى قلوب الذين أتبعوه رأفة ورحمة » (الحديد : ٢٧)

« ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » (الحج : ٥٣)

« فمن تاب من بعد ظلمة وأصلح فان الله يتوب عليه »

(المائدة : ٣٩)

« فمن تاب من بعد ظلمة وأصلح فان الله يتوب عليه »

وقد بين تعالى أن هناك طائفة من الناس تتظاهر بموافقتها للمؤمنين ، لكن قلوبهم على الكفر والفسق والضلال :

« يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »

(التوبة : ٨)

يبقى بعد أن أتضح لنا عدم صلاحية مصطلح الضمير ليكون حكما عادلا يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقيا ، أن تدعو الى مصطلح أسلامى بديل للانسان واعظا وحكما ..

واذا تأملنا الآيات البينات وجدنا أن هناك تعبير الزاجر بمعنى الواعظ للانسان ، اذ الزجر أعمق معنى وأكثر أنطباقا على ما يجرى داخل النفس الانسانية وما يشغل باطنها من أحوال وما يصدر عنها من أحكام ..

ويبدو لنا أن لفظ الزاجر صالح للاستخدام باعتباره مانع للانسان من الاقدام على أقتراف المعاصى ، وأنه بدونه يظلم نفسه ويتعدى حدود الله، ويسرف فى أمره ويغفل ويبخل ويعتدى ويأثم .

والزاجر [1] اذن قوة فى الانسان اذا تكامل كان نعمة ورحمة ، وهدى له ، فيه يستقيم حاله فيكون الصدق شعاره والاخلاص بابه ، والطاعة خالصة ، فالزاجر بهذا المعنى واعظ فى القلب يدل على خوف العبد من وعيد الله ورجائه فى وعده تعالى ..

وانقداح الزاجر فى قلب العبد علامة على التوبة ، وكلما قوى فى الانسان ازداد صلاحا واستقامة ، ولقد ورد لفظ الزاجرات — جمع زاجر — فى آيات الله البينات فى قوله تعالى :

« والزاجرات زجرا » (الصافات : ٢)

---

(١) الفاظ الصوفية ومعانيها — للمؤلف (الزاجر) .

كما يقصد بالزاجر الدفع والطرد ، فيقال ازدجره وزجره ، أى أنهره ومنعه ونهاه ، وزجر الراعى غنمه • أى صاح بها ودفعها ، والزاجر جمعه الزاجرات ، وهى الملائكة التى تنهى عن المعاصى ، وتلهم بالحق والخير ، ومن الزاجر مزدجر :

« ولقد جاءهم من الانبياء ما فيه مزدجر »

(القمر : ٤

فالزاجر اذن تنبيه وتأنيب للانسان يأتيه فى صورة واعظ (٢) ، ويدخل الى قلبه ويهتف فى أعماقه ، ويرشده الى سبيل الاستقامة ، ويبين له طريق الحق ليتبعه ، والباطل ليتجنبه ••

ويطيع المؤمن الزاجر ، فلا يزكر نفسه ، ولا يحسن سوء عمله ، فيركن للاهواء بدعاوى مغرضة ومزاعم فاسدة ، اذ أنه واعظ الحق الى القلب السليم والنفس المستقيمة والعقل المسترشد بنور الايمان •• —

وأخيرا نحن نرفض مصطلح الضمير بشقيه الاخلاقى والنفسى ، ذلك لان معنى الضمير كما أورده المتفلسفين والعلميين غامض ، بالاضافة الى أن شيوع استخدامه لتحقيق وجهة نظر معينة ، شعورا داخليا يعمل النفس فى الداخل ، يعد خلطا والتباسا يبعده عن الصدق ، ويحيد به عن الغاية التى يستهدفها ••

والحق كثيرا ما يتجبر الانسان ويتغافل ويضل ويضلل ، وهو يفعل كل ذلك وهو مرتاح الضمير ، أما المؤمن بالله فان زاجره يأتيه عن مداومة

---

(٢) لمزيد من الايضاح كتاب نحو علم نفس اسلامى — للمؤلف — الطريق للصحة النفسـية .

تمسكه بالعروة الوثقى واسترساله مع الله أبدا ، وانشغاله بما أمر ونهى ، فان أخطأ أو نسى دعى الله مستغفرا :

» ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا «

(البقرة ٢٨٦)

والزاجر أذن واعظ فى القلب ويرشد الى الحق والاستقامـــة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعاون الانسان لسلك طريق الخير فى الدنيا والاخرة ..

الفصل الثاني

الفطـــــرة لا الحتميـــــة

٢ — الفطـــرة لا الحتميـــة

قانون الحتمية السائد فى العلوم الحديثة يتصوره بعض العلماء صالحا للتطبيق على الظواهر الطبيعية والمظاهر الحياتية جميعا ..

وهذا القانون يقرر أن كل ظاهرة لها تاريخ ، وهذا التاريخ أنما يتلخص فى الاحداث التى سبقت حدوث الظاهرة ، سواء كانت هذه الظاهرة تتعلق بالعلوم الطبيعية أو الانسانية (١) .

وقانون الحتمية بهذا المعنى يراد أن يمتد ليشمل الاحداث الانسانية النفسية مثل الحب والرغبة والانفعال والكراهية والسلوك والادراك . الخ ، وكأنه قد ثبت للعلماء التجريبيين بالبرهان اليقينى وجود تماثل بين الانسان والاشياء ، وراحوا يخضعون كل شىء لعمليات طبيعية من سبب ومسبب أو علة ومعلول ، وزعموا أن كل ما يحدث لا يحدث من تلقاء نفسه ، بل هو نتاج ضرورى لعمليات محتومة ، أى أن الاحداث تلازم بعضها بعضا تلازما زمنيا أيجابيا دون الاعتماد على خالق أو فاطر السموات والارض ، أو أى قوى ربانية لها تأثير على مجرى الاحداث ..

ويستخلص هؤلاء العلماء المحدثون من قوانين الحتمية مسلمات تدعى أن ما يطبق فى مجال علم الميكانيكا يمكن أن يطبق فى مجال علم الاخلاق ، فاذا كان التيار الكهربائى أو المجال المغناطيسى مثلا يخضع كل منهما لقانون حتمى ضرورى ، فان السلوك النفسى يخضع أيضا لنفس القانون الحتمى .

---

(١) راجع : د. عبد الحميد صبره — علم المذهب التاريخى ١٩٥٩ وهو ترجمـــة لكتاب العــلامة .

ويعترض « ماكدوجال » على هذا القانون الذى يريد أن يطابق بين المادة الجامدة الصماء وبين الانسان فيقول :

ـ وهذه الخاصية هى التلقائية »

« يتميز الكائن الحى بخاصية ينفرد بها ـ بخلاف المخلوقات جميعا والتلقائية موقف اختيار ذاتى يختلف عن حركة المـادة الجامدة ـ فالكائن الحى ينزع الى سلوك أو نشاط لا يفرض عليه ، أنما يحدثه من تلقاء نفسه دون أن ترافقه علاقات ترابطية ملـزمة ، وبذلك يخرج السـلوك الانسانى عن دائرة الظواهر الطبيعية التى تمتاز بالتكرارية ، وهذا معناه عدم خضوع السلوك الانسانى لقانون الحتمية العلمية .

أن قانون الحتمية هذا قانون جامد لا ينسحب على السلوك الانسانى الذى يمتاز بالحركة والتلقائيـة ، فالمواقف والاتجـاهات والانفعـالات والعواطف جميعها من سمات الكائن الحى الذى يلتزم واقعيا أو تجريبيا بهذا القانون ، ولا يخضع لمواصفات الحتمية من قريب أو بعيد . يقول العلامة بوبر [١] .

« أنه لا يمكن أن يكون للتطور قانون يسيطر عليه وانما هناك أتجاهات فحسب » .

لذلك فانه من الضرورى اذا أردنا أن نطبق المنهج العلمى الاسلامى أن نستقى من القرآن الكريم والسنة مصطلح متكامل كفيـل بأن يؤدى ما نستهدفه من غايات فى مجـال العلوم الحياتية ، مثل علـوم الاجتماع

---

(١) عقم المذهب التاريخي ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

والنفس والاخلاق والسياسة ، حتى لا نضل الطريق أو ننحرف عن سواء السبيل ..

وليس ما نبغيه أختراعا أو أكتشافا جديدا نهدم به مصطلح الحتمية الذى أختلفه العلماء المحدثون أختلافا ، أنما غايتنا أن نمضى فى تأملاتنا للقانون الالهى حيث نستضىء بالمعانى المناسبة ، والتعبيرات المتكاملة ، والالفاظ الصالحة ، التى لا يمكن أن نتشكك فى قدرتها على الامتداد لتشمل السمات المشتركة فى الكائنات جميعا والتى نظم بها الخالق ناموسه الكونى .

أن لفظ الفطرة فتصوره كمصطلح بديل أفضل ما يكون تحقيقا لغاياتنا ذلك أنه أشمل من مصطلح الحتمية وأصلح فى التطبيق وأطوع فى الامتداد للتعرف على الحقائق الكونية ، وتفهم المباحث الانسانية ، اذ الفطـرة موجودة فى الانسان كما هى فى الناموس الكونى ، فهى تعبير عن الوسط العدل ، والخير الفاضل ، وبذلك تنطبق على كل شىء فى هذا الوجود ، ففى النبات فطرة ، وفى الحيوان فطرة ، وفى الكون فطرة ، وكل ما سخره تعالى من سموات وأرض يسير بهذه الفطرة ، فلا أنحراف عنها والا عمت الفوضى وشاع الفساد وأنطبقت السماء على الارض ، وأنهدم كل شىء ...

والفطرة صلاح وأصلاح ، ونظام قسط وكمال لا نقص فيه ولا عوج ، فالنبات يسير بفطرة سليمة ، فاذا أزدنا الماء الى النبات فسد ، واذا أقللنا الماء عن النبات ضعف أو مات ، فهناك اذن وسط عدل أو خير فاضـل فى النبات ، وكذلك الامر بالنسبة للحيوان والكائنات الاخرى .

واذا تأملنا الكواكب السيارة من حولنا تأكد لنا أنها تسير على فطرة

سليمة [١] اذ أنه اذا أنحرف كوكب ـ كالقمر ـ عن مداره المرسوم ومساره الفطرى فسد النظام والتناسق والتناسب الموجود فى الكون ، وأرتطمت الكواكب بعضها ببعض وأختل كل شىء وما أستمرت الحياة على الارض .

واذا تغير مسار الشمس درجات نحو الارض أختفت الحياة من على سطحها واحترق كل شىء حى ، وبالمثل اذا أرتفعت الشمس دراجات عن مسارها المقرر ماتت الكائنات الحية زمهريرا وبردا ، فهناك فطرة سليمة اذن فى السموات والارض .

والانسان ان لم يواكب الناموس الكونى ، ويسير مع الفطرة السليمة ويسعى عاملا بالقانون الالهى فى الارض بفطرته السليمة المودعة فيه ، ويتخذ حكمة الله البالغة منارة يستضىء بها فى طريقه ، فانه واقع لا محالة فى الفوضى والفساد .

والفطرة كقانون تربط الانسان والكون والطبيعة بالخالق فاطـر السموات والارض ، ومن ثم فانها تربط العلم بالإيمان ، وهذا ما لم نجده فى قوانين الحتمية المستحدثة ، اذ أن من مسلمات الحتمية الاساسية الفصل التام بين العلم والدين .

والفطرة كناموس الهى يختلف عن القوانين البشرية التى تحاول أن تجرب لتكتشف أسرارا مستخدمة ، وأدوات محددة ، وقياسات معينة ، للوصول الى نتائج متواضعة يمكن أن تتحقق أو لا تتحقق ، أو تصدق أو لا تصدق ..

---

(١) جمال الدين الفندى ـ السموات السبع ، ص ٢٠ الى ص ٨٠

كما أن قانون الفطرة بالاضافة الى أنه قانون سماوى فان قواعــده مرنة بدرجة تسمح له أن يصل الى نتائج فيها صفات الحق والصدق ••

فالفطرة تسمح بتجاوز قانون الحتمية فيما يتعلق بالسلوك البشرى ، كما أنها لا تلتزم بقواعد تعسفية مثل المنهج الحتمى ، بما تترســمه من أمكانية النقلة أو الطفرة أو التغير غير المتوقع ، وهذا يعد استحالــة فى الحتميات اذ تلتزم صدور المعلومات عن العلل .•

ويمكن تطبيق قانون الفطرة تطبيقا مناسبا يسمح بتطبيقه على شئون الحياة المختلفة كما يسمح لنا بتطبيقه فى مجال العلوم التجريبية والرياضية على السواء •

لقد وردت الآيات البينات تبين لنا أن القانون السائد فى هذا الكون هو قانون الفطرة وقد أوجده تعالى لانه خير قانون يصلح للخلق ، وأنه تعالى بواسع علمه ، وفيض رحمته ، وعظيم حكمته ، لم يخلق هذا الكون عبثا ، أنما خلقه فى أنسجام وتناسب وتناسق وترابط ووحدة ، حتى يحقق الاصلاح والصلاح ، يقول تعالى :

« قل بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن » •

(الانبياء : ٥٦)

وهذه الفطرة التى فطر الله الســموات والارض عليها على غير مثال سابق ، هى خلق أتمها فاطر السموات والارض فى أبهى صوره وأكمل نظام من المحال أن يتوصل اليه عقل بشرى أو يستبين كنهه أنسان ، أو يدعى العلم به كائن ما كان ، وأنه لمن الغرور أن يحاول عالم من العلماء أن يخضع هذا الخلق لقانون يفترضه من عنده أو يظنه فى خياله :

« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض » •

(الانعام : ١٤)

وكما أن السموات والارض خلقها تعالى بنظام فريد ، فكذلك الانسان خلقه تعالى فى أكمل تقويم ، وفضله على العالمين ، وحمله رسـالة على الارض الى يوم الدين ، ولقد أنشأه تعالى خلقا آخر بعد ما سواه من طين فنفخ فيه من روحه وأودع فيه المواهب والاذواق ، وأنعم عليه بالفؤاد والسمع والبصر فكيف يدعى بعض علماء هذا العصر أن كل شىء يسيره نظام الحتمية النفسية والطبيعية والاخلاقية :

« ومالى لا أعبد الذى فطـرنى » •

(يس : ٢٢)

علينا اذن أن نتأمل الفطـرة الانسـانية ، وأن نستلهم من آيات الله البينات الحقائق والبديهيات والمسـلمات والاوليات والمقدمـات قبل أن نخوض فى بحث السلوك الانسانى ، اذ أن نعم الله الغامرة ، وحججه البالغة هى مرشدنا الامين الى فهم النفس والخلق ، وملهمنا الصادق الى كشف الاسرار الخفية ، وقائدنا الخبير الى طريق الامن والحكمة •

وليس هناك من شك فى أننا سنقع فى الضلال اذا توهمنا أننا بقادرين أن نخترع لانفسنا منهجا نقيمه من غيبيات مفترضة ، ونبتدع من خيالاتنا مصطلحات غير متحققة ونتواضع على أسس وقواعد منفعية نحاول بها أن نفهم ونفسر ونتنبأ ونتحكم فى أخلاق الانسان ونفس الانسان وسـلوك الانسان ، زاعمين أن ما ابتدعناه يوصلنا الى الحق واليقين •

« ان يتبعون الا الظن وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

(النجم : ٢٨)

ان ما نزعم أننا بقادرين على خلقه وابتكاره من مصطلحات وقوانين أنما هو وهم واهم ، وظن لا يغنى من الحق شيئا ، ناتج عن فساد الامزجة وقصور فى التأمل للخلق والكون ٠

ان الله تعالى قد أوصانا أن نتبع حكمة الدين ، وأن لا نطع من أغفلنا قلبه عن الرشد وأسرف فى أمره وضل سواء السبيل ، فانه تعالى وحده يعلم قصورنا وضعفنا ، ويعلم قدراتنا وحدود معرفتنا ، بما خلقه فينا من قوى وما يسره لنا من الادلة والحجج والاسانيد ، كما أنه تعالى يعلم أن الانسان ليطغى حيث أنه يمكن أن يطيع غواية الشيطان ، وأهواء النفس وطيش العقل وغروره ، فيبتعد عن طريق الامن والسلامة ويظلم نفسه ٠٠

لقد أوصانا تعالى لذلك بالالتجاء اليه والسير فى الصراط المستقيم ، وهو العدل والقصد والحق ، ولا نجد فيما أرشدنا اليه من أختلاف أو تناقض أو أعوجاج أو تبديل أو تحويل ، اذ أن ما أمرنا باتباعه هو صلاح واصلاح ، وبه نحقق الغاية التى من أجلها قد خلقنا وباتباع ما أمرنا الى غايتنا من السعادة فى الدنيا والآخرة ، ونزداد علما بأنفســـنا ، كما نزداد يقينا بربنا وخالقنا وموجدنا ، يقول تعالى :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »

(الروم : ٣٠)

اذن لكى يدرك الانسان حقيقته يجب أن يتوجه الى دين الله ، وهذا الدين القيم هو حقيقة الفطرة الانسانية ، والذي ينحرف عن هدي الدين

أنما ينحرف عن فطرته السليمة ويتعدى حدوده ويعطل حكمة وجوده فيظلم نفسه ويهوى فى ضلال مبين .

أن مصطلح الفطرة كبديل لمصطلح الحتمية رجوع الى الحق ، وربط محكم بين العلم والدين ، ومن هذا القانون الربانى نستطيـــع أن نثرى أبحاثنا ، ونسير قدما نحو غاياتنا فى العلم والحكمة ، وبذلك تتسع معارفنا بالنفس والكون والله ونهتدى الى حقائق لم تكن لنهتدى اليها بمصطلحاتنا العلمية ، اذ أن الهداية منه وتفضلا وتعطفا من الله وحده :

« الا الذى فطرنى فانه سيهدينى »

(الزخرف : ٢٧)

الفصل الثالث

الهدى لا الخلق

٣ ـ الهـــدى لاالخلـــق

شاع تعبير « الخلق » فى الفكر الحديث عن الفنانين والادباء والعلماء على السواء ؛ على أنه الابداع أو الابتكار أو الاختراع أو الكشف الجديد الذى لم يسبق اليه أحد من قبل ، بل لقد غالى بعضهم فاعتبر عملية الخلق الفنى خلقا من عدم ، وقد أدعى أن هناك عوامل للخلق الفنى أهمها [١] .

١ ـ الاصـــالة :

ويقصد بها أن يكون الخلاق فنانا كان أو عالما هو هو ، بمعنى أن يشبه بذاته ولا يشبه غيره ، بمعنى أن ينفرد المبتكر بخصائص لا نجـدها فى شخص آخر أو على الاقل لا يعمل على تقليد غيره .

٢ ـ التلقائيـــة :

يمكن تعريف التلقائية على أنها رؤية الخلاق ، الا يراه غيره ، أى أن العالم أو الفنان يكتشف بحساسيته الفائقة ، ويلاحظ باحساسه المرهف ما لا يستطيع أن يكتشفه أو يلاحظه الشخص العادى .

٣ ـ الشك فى رؤيته للواقع :

يتصور ديلاكروا أن الخلاق يسمو على المعرفة الحسية باعتبـار أن عملية الخلق ثورة على الواقع الفعلى ، ويزعم أن عملية الخلق ليست معلولة أنما هى علة بنفسها ، ويبدو أن الخيال الخلاق ينسحب على قدرة العالم

---

(١) د. هويسمان ـ فلسفة الجمال ترجمة د. أميرة مطر ص ٩٣ ومابعدها

والفنان على تغيير الواقع أن رؤية الواقع بخلاف ما هو عليه •• وواضح هنا تأثير الافلاطونية على هذا التفسير حيث أن أفلاطون يرى الحقيقة الجمالية فى عالم المثل ، اذ العالم المحسوس الواقعى ناقص ولا يمكن للفنان أن يحاكيه •

وعملية الخلق بهذه الصورة عملية ذاتية تنبع من ذات العالم أو الفنان دون مؤثرات أخرى ، كما أنها فريدة فى نوعها ، ويؤكد شاتوبريان [٢] هذا الرأى عندما :

« كنت أنظر الى ما يجرى فى نفسى من أشياء ، لقد كان حلما ، أن هذا (الخلق) لا شعورى » •

وتفسير جورج صائد عملية الخلق عند شوبان فتقرر :

« أن الخلق عند شوبان كان يأتيه تلقائيا ومعجزا »

ويعلن فيينى فى تعبيرات حسية جريئة :

« أن سعادة الالهام هى هذيان يفوق الهذيان الفيزيقى المقابل له عندما يسكر الانسان بين زراعى المرأة ، لان شهوة النفس أطول والنشوة الاخلاقية أسمى من النشوة الفيزيقية » •

ويظهر أن مفهوم الخلق — كما أوضحنا — من آراء لبعض العلماء والفنانين الاوربيين تعبير غامض يراه بعضهم الهاما ويراه غيرهم ولادة تلقائية جديدة ، كما يقرر بعضهم أن الخلق شهوة نفسية أقوى من الشهوة الجسدية ، كما أنهم يزعمون أنه عمل معجز •

وواضح من هذه الاراء أنها جميعا لم تصل بعد الى تعريف شامل

---

(٢) المرجع السابق •

واضح للصيغ الفنية والعلمية التى يضيفها الفنان أو العالم الى معرفتنا ، وهذا ناتج — فى تصورنا — من عدم قدرة الخيال الانسانى لسبر غــور باطن الانسان ، كما أنه راجع من جهة أخرى الى عجز المناهج التجريبية الى الاهتداء الى معرفة الصور غير الحسية ، ومن ثم عدم أمكان وصفها وصفا تقريريا أو وضعها فى قالب عقلانى .. اذ أنها تتجاوز حــدود الصــور والقوالب الملموسة والمنظورة والمادية حيث أن محركات الالهام ليست نابعة من المدركات الحسية ، أو الشهوات النفسية أو اللذات وكما أن النفس تلهم بالخير ، فانها تلهم بالشر أيضا ، فتهدى الى التقوى ، كما تغوى بالفجور والفواحش تصديقا لقوله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

(الشمس : ٧)

الالهام عملية أرســال الى الــذات الانسانية وأستقبال منها حسب استعدادها وسعيها ونقصها وكمالها ودنسها وصدقها .

واذا أردنا أن نصور معنى الالهام فى أعلى صورة تمثلنا بقصة نوح — عليه السلام — واهتدائه الى صناعة قطعة بحرية معجــزة استطاعت أن تسخر عباب البحر العالية فى ظروف قاسية لا نظن تستطيع التغلب عليها أحدث عابرات المحيطات فى القرن العشرين مع ملاحظة أن صناعــة هذا النوع من العبارات تم فى مجتمع يمكن أن يسمى مجتمعا بسيطا أوليا ، لم يعرف بعد التقدم التكنولوجى ، كما نعرفه الان فى عصر الصواريخ مما يزيد من دهشة المتأمل وعجبه ، لكن الله تعالى يوحى الى رسله بتمام العلم ،

وكمال العمل دون عبرة بالماضي والحاضر والمستقبل ، كمـــا يلهم انبياءه وأولياءه ببعض أسراره منه تعالى وفضلا :

« وأوحينا اليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا »

(المؤمنون : ٢٧)

لقد ألهم الله تعالى الخضر عليه السلام لانقاذ المساكين الذين يعملون فى البحر من الملك الظالم ، وذلك بابتلاء لطيف ، وذلك بخرق السفينة التى يركبونها ، كما ألهم ببناء الجدار ليبقى لليتيمين مال يقتاتان منه عندما يبلغا أشدهما ، وأمره تعالى بقتل الغلام ليعوض الله والديه بأصلح منه ، ولم يصبر موسى — عليه السلام — على ما فعله الخضر ، الا بعد أن بين له حكمة الله البالغة بما آتاه من أفعال وأعمال كانت تخفى عليه ، وأوضح له أن ما فعله لم يكن من أمره ، ولكن بالهام ربانى •

والالهام الربانى [1] يدفع الانسان الى معارف جديدة ما دام مقترنا بالجهاد والعمل لله ، فاذا فتر للجهاد فتر الالهام ، واذا زاد العلم والعمل زاد الالهام •

لقد مكن تعالى لفرعون موسى فى الارض فترة من الزمن وتزعم شعبا وقاد جيشا جرارا فى الوقت الذى كان موسى — عليه السلام — وحيــدا بنفسه قويا بالله تعالى •

---

(١) راجع : الفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف (الالهام) .

وفرعون موسى الطاغية المتكبر كان عبرة وعظة لكل من له عقل يتأمل وقلب يفقه .

لقد أطاع فرعون نفسه الظالمة ، وركب غرور عقله ، وألهمه شيطانه بالشرك والكفر ، وظن كذبا وبهتانا أنه لا اله الا ذاته ، وفرض على الناس الوهيته عسفا وبغيا وعدوانا ، وتجبر فى الارض وأمــر العباد ألا يعبدوا ألا أياه ..

كذب فرعون برسالة موسى — عليه السلام — ودعوته له الى الايمان، وارتاب فى أمره وقال لوزيره هامان :

« يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لاظنه من الكاذبين » .
(القصص : ٣٨)

أراد هذا الطاغية الظالم بما فتنه الله من أسباب القوة والمنعة أن يركب السماء لا لشىء الا استعلاء واستكبارا وطغيانا ، وظن بخبل عقله أنه سيحاط علما باله موسى اذا كان له وجود شخصى حقا ، أى له طول وعرض وأرتفاع وهذا دليل قاطع على الجهل وسوء الظن والارتياب ، والدليل على ذلك أنه كان موسوسا ومغترا بنفسه مكذبا لموسى عليه السلام ..

لم ينجح فرعون فى مسعاه اللئيم ، وكيف له أن ينجح وهو ظالم لنفسه داع الى الشرك متوهم أن ما يراه الله من أمكانيات عمرانية وادوات هندسية ووسائل بشرية كافية بذاتها بدون عون الله لتحقيق مآربه وكشف ما غمض عليه معرفته . ثم عرف فى النهاية أنه ضل وما أهتدى .

« وأضـــل فرعـــون قومه وما هـــدى » •

(طه : ٧٩)

وكيف يهتدى الى الحق من اراد غرورا أن يعرف الاسرار ، ويعبر الاستار ، أن من ســنن الله البالغـــة الا يهـــدى الظالمين ولا الكافـــرين ولا الفاسقين اذ أن رحمته تعالى موكولة باستقامة العبد واتجاه القلب الى طريق الحق القويم ، أما الذى يتبع هواه ويسرف فى أمره ويظلم نفسه ، فانه واقع لا محالة فى الضلال المبين :

« ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » •

(القصص : ٥٠)

« ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » •

(غافر : ٢٨)

وهذا الادعاء الفرعونى مازال قائما مع طغاة القرن العشرين الجاهلين، فكثيرا ما نسمع من يردد قول فرعـــون بصياغـــات جديدة ، وتعبيـــرات مستحدثة فيقال :

١ ــ الزعيم الاوحـــــــد ••

٢ ــ القائـــد الخالـــــــد ••

٣ ــ العبقـــرع المبـــدع ••

٤ ــ العالم المعجـــــــز ••

٥ ــ الفنـــان الخـــــلاق ••

حتى أصبحت هذه المصطلحات تعبيرا شائعا وقصدا متعمدا ، وكان الخلاق والمبدع والخالد والاوحد والمبتكر يمكن أن يكون الانسان ••

« أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » .

(الواقعة : ٥٩)

الهداية أذن من الله فى العلم والعمل جميعا .. كما أنها مقرونة باتباع الصراط المستقيم الذى هو عدل وحق وخير فاضل ، ويتفضل تعالى بهديه على من يشاء من عباده المعتصمين :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

(آل عمران : ١٠١)

ولقد شاءت حكمة الله البالغة أن يكون بين الناس من هو ضال ، ومن يهدى الى الصراط المستقيم ، ولو شاء تعالى لهدى الناس جميعا الى الحق وأرشدهم الى طريق العدل والحكمة وما يطلبون :

« قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين »

(الانعام : ١٤٩)

« ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا »

(الشورى : ٥٢)

لقد سخر الله تعالى للانسان بعض ما فى الكون من كائنات وحيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وثمار ليتمتع الانسان بكل ذلك حسا وتأملا وتبصرا ليعرف فضل الله وليذكره ذكرا كثيرا ، وليحمده على عطاياه ، وليكبره تكبيرا :

« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم »

(الحج : ٣٧)

وأما اذا ظلم الانسان نفسه وظن كذبا وبهتانا أنه خلاق بلا مشيئة الخالق ولا أذن منه ــ أو يدعى أنه الزعيم الاوحد والعالم الخالد العبقرى عندما يكشف ما يسره الله له من نعم ، وما سخره له من أدوات ، فانه يضل عن الصراط المستقيم ، ويبتعد عن الهداية والرشاد :

« أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون »

(الواقعة : ٥٩)

ولقد جبل الانســـان على حب الشهــوات ، والتفنن فى الدعـــاوى والادعاءات وطلب المدح ، وحب الذات ، والبخل والضعف ، كما أن الانسان كثيرا ما يطغى ويظن وهما عندما ينعم عليه أنه الجبار فى الارض ، وينس خالقه ، ويتغافل عن موجده ، ويتكبر بما يصادفه من نجاح دنيوى وتفوق مادى ، فيتفنن ويغتر وينحرف عن الرشد ويهتم بالمظاهر الزائلة والمغانم النفعية ، مما يبعده عن الورع والتقوى والايمان الذى يمتاز به صاحب القلب السليم المتجه دوما الى فاطره وهاديه تعالى ، وهناك يبتعد عن رحمته وهديه :

« الله لا يهدى القوم الظالمين »

(الانعام : ١٤٤)

فالهدى من الله ، والرفعة فى العلم فضل منه تعالى واستجلاء الحقائق الكونية لا يتم الا باتباع الانسان الصراط المستقيم والاهتداء الى بعض ينابيع المعارف ولا يتم للانسان الا بنور الله وبفضله تعالى ومنته :

« قال كلا أن معى ربى سيهدين »

(الشعراء : ٦٢)

لقد خلق الله فى الانسان قوى وقدرات ومواهب تعاونه على أستكشاف سنن الله والتعرف على بعض الحقائق ، واستيضاح ما استغلق عليه من غامض الاسرار :

« ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين »

(البلد : ١٠)

ولا يتم ذلك العلم الا بهدى الله وحكمته البالغة ، اذ أنه ليس راجعا الى عبقرية الانسان ولا أختراعا من عنده — كما يدعى بعض العلماء الماديين — أنما يتم ذلك بمشيئة الله وارادته ..

ونحن كأمة مسلمة أذا أردنا أن نؤسس لنا منهجا علميا يسير على هدى من الدين القيم ، ونستقى أصوله من الكتاب الكريم والسنة المحمدية الشريفة ، فعلينا أن نستخدم ألفاظ القرآن الواردة فى شريعة الله ، اذ هى وحدها الكفيلة بتوجيهنا الى أقامة العلم البعيد عن مواطن الشبهات ، الهادى الى الرشد ..

ويمكن أن يعترض بعض الطاعنين ، وتثار دعاوى الخوالف المغرضة فيما نسوقه من مسلمات وبديهيات لا تقبل الشك عن حاجتنا الماسة الى استخدام مصطلحات اسلامية فى مجال العلوم الطبيعية والانسانية حتى لا ننزلق أكثر مما أنزلقنا فى الوهم والضلال ..

ويمكن للطاعنين أن يزعموا أن مصطلح الهدى لا يصلح أستخدامه كبديل لمصطلح الخلق أو الابتكار أو الابتداع أو الاختراع خاصة عندما يعالج علوما طبيعية أو رياضية أو تطبيقية لا علاقة لها بالايمان بوجود الله ؟

ولا يسعنا الا أن نرد على الطاعنين بآيات الله البينات المسطورة فى كتابه الشريف فى توضح لنا أن الهادى على الحقيقة هو الله تعالى :

« قل أن الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب »

(الرعد : ٢٧)

« ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء »

(النحل : ٩٣)

« نور على نور يهدى الله من يشـــاء »

(النور : ٢٥)

هناك أذن من الناس يهديه تعالى الى الحـــق ، وهناك من يضله ، فالهداية فضل ومنه ورحمة من الله تعالى ..

ولكن يمكن أن يعترض على حكم فاطـــر الكون ، وخالق الســـموات والارض وما بينهما اذ أنه تعالى حدد لنا الطريق الواجب الاتباع — وبين لنا الايمان به غاية الغايات ، ولقد وعد الله عباده المهتدين بزيادة فى الهدى كثمرة لجهادهم :

« ويزيد الله الذين أهتدوا هدى »

(مريم : ٧٦)

والذى يظن وهو لا يؤمن بالله أنه قد أكتشف جديدا ، وخلق معدوما واخترع مستحدثا ، بغير فضل الله وعودة ومشيئته ورحمته ، فقد أختلط عليه الامر وتلبس عليه الحق بالباطل [١] ، اذ أن ما أختلقه ليس الا ظنا ،

---

(١) العلم والايمان فى الاسلام ص ١١ ندوة القيروان ١٩٧٦ تونس .

وما ابتدعه ليس الا وهما ، وخيالا ، لم يثبت بحق ولم يؤكد بيقين ،ولن يكتب له البقاء فى الارض ، وسيكون حسرة على صاحبه وهما وغمـا .. وحتى اذا أنصاع البعض الى مزاعمه فانما أنصياع الى فتنة تثير بعض الغبار حولها ، ثم ما تلبث أن تنكس ضلالاتها ولا تمكث فى الارض الا قليلا .

ومن لم يهده الله الى الصراط المستقيم ، فلن يفتح عليك بعلم يقنى وانما ببعض المخادعات التى تكون سببا فى سقوطه بلا رحمة الى أسـفل سافلين ، ولن ينعم عليه بشىء من رحمة الله وعلم الله الا فتنة لينتكس بعد ذلك ويقع فى الضلال المبين :

« واذا شاءت حكمة الله البالغة أن يحظى كثير من الناس فى شبابهم

« ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون »

(يس : ٦٨)

واذا شاءت حكمة الله البالغة أن يحظى كثير من الناس فى شبابهم بالصحة والعافية ، فان ذلك موقوت ، فلم يلبث أن تأتى فترة الشيخوخة لتبدل القوة ضعفا والصـحة هزالا ووهنـا .. واذا فتح الله على بعض الجاحدين بعلم واستكشاف طرائق وصناعات يستخدمونها ويتكسبون منها فان ذلك ليس بحجة على الله ، أنما هو دفع منه تعالى لتصلح الارض معاشا ويكمل الناس بعضهم بعضا ، فاذا لم يفتن تعالى الكافرين ببعض المنافع الزائلة والنجاحات الدنيوية المؤقتة لاتخذوا طريق الله نفاقا وكذبا ورياء ، لذلك فانهم يجاهدون بظنونهم بغير علم ولا هدى مغترون بما صدفـوا من نجاحات عن طريق استخدام آلات وأدوات موجودة فى الطبيعة التى خلقها الله ..

فاذا أغتر هؤلاء العلماء الماديون بعلومهم ، وتوهموا أنهم أصحاب المخترعات والمبتكرات والخلق الجديد ، ونسبوا لانفسهم طغيانا وطمعا والرياسة فى العلم والسيادة على الناس دون أن يحظوا بندر الايماء ، فانه أحرى أن يوصموا بالغافلين اللذين غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور .. ويصدق فيهم قوله تعالى :

« ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » (آل عمران : ٦٦)

فالذين يريدون أن يتحكموا فى العقل الانسانى ويريدون وضعه فى صيغ مادية ، ويخضعوا الانسان الى مناهج تجريبية ووضعية ، ويطوعون حياته النفسية والاجتماعية والاخلاقية عسفا الى قواعد العلوم الطبيعية التى صادفوا فيها نجاحا ..

أن هؤلاء مثلهم كمثل أحبار اليهود الذين أوحى الله اليهم أن موسى ــ عليه السلام ــ كان يهوديا ، وأن عيسى ــ عليه السلام ــ كان نصرانيا . فأرادوا أن يصدورا أحكاما على ما لم يحيطوا به علما ، وأن يقيسوا بأقيسة فاسدة ما لم يخبروه ، وأفتروا على الله كذبا ، وتقولوا من عند أنفسهم ، وركبوا غرور عقولهم ، فزعموا أن أبراهيم ــ عليه السلام ــ كان يهوديا أو نصرانيا ..

لقد تلبس على العلماء الماديين الحق بالباطل ، مثل ما تلبس على أحبار اليهود وظنوا أنه لا حدود لعلمهم ، وأنهم قادرون على أستكشاف

ما غمض عليهم معرفته فاخترعوا خيالا ، وابتكروا وهما ، وظنوه خلقـا جديدا ..

أن الحد الفاصل بين الكفر والايمان هو معرفة الانسان حدوده التى يجب الا يتعداها ، فاذا جاوز ما له به علم الى ما ليس له به علم ، فقد وقع فى الظن والشك والوهم ، وظلم نفسه وابتعد عن الهدى والصراط المستقيم والحق الذى يجب عليه اتباعه .

الفصل الرابع

الاستقامة لا الموضوعية

٤ ـ الاستقامـــة لا الموضوعيـــة

يستعين أصحاب المنهج العلمى الحديث بمصطلح الموضوعية باعتباره السمة المميزة للابحاث العلمية القائمة على الملاحظة والتجربة والاستقراء والتحليل المقارن •

ولقد أمتد تطبيق مفهوم الموضوعية فى مجالات الابحاث والدراسات العلمية المختلفة حتى أصبحت الخاصية المميزة للاتجاه المسيطـر فى الدراسات الحياتية والانسانية منذ أنتشار المذهب العلمى Scieutisme فى العصر الحديث (١) •

وكما هو معروف فان المناهج العلمية الحديثة تعتمد اعتمادا كليا على الدراسة الوصفية والكمية بغية الوصول الى القوانين العامة أو التقنينات للقضايا الكلية الانسانية منها وغير الانسانية ••

ويعتقد العلميون أن الاتجاه الموضوعى هو الفيصل الاوحد فى كشف حقائق الوقائع ، والتعرف على طبائع الظواهر ، بل لقد غالى بعضهم ـــ من التجريبيين والواقعيين ـــ فى الاعتماد على الموضوعية العلمية وتوسعوا فى استخدام هذا المصطلح حتى يجعلوا له الصدارة فى كل علم من العلــوم ، واعتبروا الدراسة الموضوعية هى الحد الفاصل بين الحق والباطل (٢) •

وبهذا المنظار الضيق طلعت علينا نظريات اجتماعية أدعت لنفسها القدرة على حل الصعوبات التى تواجه الانسانية عن طريق ربط المجتمع بمشكلاته ••

---

(٢) معجم مصلحات العلوم الاجتماعية ـــ ص ٥٨٠ــ٥٨١ •

ولقد زعمت أن نجاحها هو ثمرة استخدام هذا المنهج الموضوعى الفذ الذى يحمل شعار العلم للعلم ..

وحتى يتسنى لاصحاب هذا المنهج تطبيقه فى مجال العلوم الطبيعية والانسانية على السواء ، فقد فصلوا بين ما يستطيع العقل ادراكه ومـا لا يستطيع ادراكه .

وبهذا التقسيم التعسفى أمكن أخضاع الموضوعات الى الدراسـة الوصفية الكمية ، والتعرف على الظواهر واستكشاف قوانينها من الخاص الى العام واحلال الملاحظة والاستقراء والوصف والتحليل كبدائل للتأمل والاستجلاء النظرى [1] .

لقد أنبهر العلميون بالتجـريب وجعلوه الاساس فى دراسـاتهم ، واستغنى به عن معرفة العلل والاسباب البعيدة أو الاولية ، وبذلك تواضع المنهج العلمى جدا حينما استبعد محاولة معرفة القوانين الكونية التى تعبر عن العلاقات المضطردة بين الظواهر ..

لقد أقتحم المنهج الوضعى بفضل كل من أوجب كونت وتلميـذه دور كايم ميادين العلوم والدراسات الاخلاقية والنفسية والاجتماعيـة ، واستعار مناهج العلوم الطبيعية مع ملاحظة حذف واضافة التعديـلات لتتناسب مع دراسة العلوم الاجتماعية التى تمتد الى الماضى وتشمل الحاضر والمستقبل جميعا .. فاستعان مثلا بالاحصاء كبديل للاستقراء ..

وما زالت النظريات الاجتماعية التى أنبثقت عن الدراسات الموضوعية

---

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٥٨٠ — ٥٨١ .

تفرض وجودها الى الان وتسيطر على مجال الدراســات الاجتماعية رغم النقد الموجه لها لقصور نتائجها وعدم أنسحابها الى المجموع ..

لقد أدعى دور كايم (٢) أن الظاهرة الاجتماعية منفصلة عن تجسداتها الفردية ، بمعنى عدم ارتباطها بصور الافراد أو بالمشاعر والاعمال ، ثم أنه خلص من ذلك الى أعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء خارجية لها موضوعيتها وأنها سابقة فى الوجود على الافراد ..

أنه يجدر الاشارة ان الاشياء الخارجية أو الموضوعات التى أهتم بها دور كايم وجعلها أساسية فى منهجه ، قد أختلف فى تعريفها المفكرين ، فمن قائل أن الموضوع هو الفعل (Action) ومن قائل أنه ليس الفعل فى ذاته — كالبرجماسيين — لكنه نتائجه وآثاره .. ولقد وجد العقليون فى الذات الانسانية الحقيقة والمعرفة ، بمعنى أن العقل الانسانى هو القادر وحده على كشف هذه الحقيقة ..

الا أن فريقا من الفلاسفة خالفوا هذه الآراء وقالوا أن وجود الموضوع ليس رهنا بمعرفته ، اذ أن هذا الوجود ليس قائما على مجرد الادراك .

ويتضح مما سبق أختلاف الفلاسفة والمفكرين فى تعريف ما الموضوع على الحقيقة ، وهذا الغموض الذى يكتنف مصطلح الموضوعية يجعلنــا نتشكك فى أمكانية جعله أساسا لاستخلاص الحقائق ، وتفسير الســلوك البشرى ، والقيادة لطريق المعرفة القويمة ..

ومن الجدير بالذكر أن المنهج الموضوعى يفترض أن المعرفة الحقــة

---

(٢) المــرجع الســابق .

تخضع للتجربة الحسية والاستقراء فحسب ، وما عدا ذلك من المعارف وهم وخيال وافتراض وظن ..

ورغم أن هذا المنهج يدعى أنه حسى وتجريبى الا أنه فى واقع الامر غيبى وتصورى .. ويظهر ذلك جليا عندما يفترض وجود أصول ميتافيزيقية للظاهرات الاجتماعية ، ومع ذلك فانه يهتم بدراسة هذه الظاهرات معتمدا على التجربة والاستقراء ، ويفصل بينها وبين أصولها فصل تعسفيا ، فيجعل الموضوعات التى يمكن الكشف عنها بمنهجه موضوعا للدراسة ، وينبذ غيرها، كأن ليس لها من وجود .

أن ما ينكره الموضوعيون يمكن الكشف عنه بوسائل أخرى ، اذ هو داخل نواتنا ، كما يمكن التعرف عليه عن طريق التأمل والفطرة السليمة التى أودعها الله فى الانسان .

يحتاج الامر أذن الى مصطلح بديل للموضوعية التى تزعم لنفسها الالتزام بالصدق فى نتائجها وبعدها عن الخيال والتخمين والظن ، واعتمادها كلية على الادراك الحسى والتجربة ، فتنصرف الى كل ما هو ملموس ومحدد ومحسوس ومقيد ، وكل ما له طول وعرض وعمق وكل شىء ..

لقد أتضح من عرضنا ابتعاد هذا المصطلح عن العدل الذى هو قوام الشىء ، والذى بدونه لا يستقيم شىء ولا يعتدل فكر ولا يتحرى صدق

أن مصطلح الاستقامة كبديل للموضوعية أفضل ما يكون نظرا وعملا ، أذ أنه يعبر عن الوسط العدل الذى هو الخير الفاضل .

والاستقامة بعد عن الظلم والجور والسقوط والانحراف والغفلة فكل أستقامة أقامة للعدل والموازنة والتسوية والاستقرار والمساواة ، سواء كان

ذلك بالمعنى الحسى كالمساواة بين النظيرين أو النعدلين ، أو بالمعنى المعنوى الذى ينصرف الى معنى الصراط المستقيم تصديقا لقوله تعالى :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم »

(الانعام : ١٥٣)

ان الاستقامة هى العنصر الاساسى فى المنهج العلمى الموصل الى أهدافنا العلمية ، اذ يتعذر أن يبلغ الباحث أو العالم غايته دون أن تكون الاستقامة رائدة فى البحث والتفحص والتحرى والدراسة والتأمل ، أو دون أستقامة نفسه وابتعادها عن الاهواء :

« أستقم كما أمــرت »

« فاستقيمــوا اليــه »

(فصلت : ٦)

والاستقامة هنا بلوغ غاية محددة هى قوام الامر خلال طريق هو أقوم الطرق بل هو الطريق الوحيد الموصــل الى الغاية •• يقول تعالى :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

(آل عمران : ١٠١)

« ولو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا »

(الجــن : ١٦)

والاستقامة عامة فى كل شىء ، فى العلم والنفس والحكم على الاشياء والافعال والاعمال كما أنها ثمرة للعدل والتسوية والقسط ••

وتستهدف الاستقامة الصواب والصدق والحق ، وتبتعد عن الاسراف والغلو وتنبذ التقتير والشح :

« وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم »

(الاسراء : ٣٥)

« هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »

(النحل : ٧٦)

والقويم المعتدل ، والامة القيمة المعتدلة ، وقوام الانسان قامته وحسن طوله :

« وذلك دين القيمة »

(البينة : ٥)

« ولم يجعل له عوجا قيما »

(الكهف : ٢)

ومن الاستقامة القوامة ، واذا أريد قيام الشيء وجب عدله أى أقامته على وجه الاستقامة ، كذلك بالنسبة للطريق سواء كان حسيا أو معنويا ، فاذا استقام فقد أصبح سويا و اعتدل الى الهدف وكان موصلا الى الغاية .

«أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى من أمشى سويا على صراط مستقيم»

(الملك : ٢٢)

ولقد ورد لفظ الانسانية فى القرآن الكريم بالمعنيين الحسى والمعنوى، كما أرشد تعالى عن نفسه أن طريقه هو الصراط المستقيم :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه »

(الانعام : ١٥ـ)

« ان ربى على صراط مستقيم »

(هود : ٥٦)

ونخلص من كل ذلك الى أن مصطلح الاستقامة هو النجم الرائد نحو منهج علمى أسلامى ، اذ الاستقامة تنير الدجى ، وتبعد عن التشـــكك والغموض وتهدى الرشد وتسمو عن الحدود الموضوعية ، وترتفع لتشمل الاشياء الحسية والامور المعنوية وتصلح لكل زمان ومكان » دون تناقضات سواء طبقت فى مجال العلوم الفيزيائية والكيميائية أو فى مجالات الدراسات النفسية الانسانية .

الفصل الخامس

كظم الغيظ لا الكبت

٥ — كظـم الغيـظ لا الكبـت

أعطى فرويد مفهوما جديدا للشخصية غير المفهوم الذى كان سائدا قبله اذ أعتبر الشخصية مجموع ما لدى الكائن من السمات ، أى مجمـوع حسابى ناتج من عمليات حسابية مجردة .

فقال [١] : أن الشخصية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفـرد الداخلية « الغرائز » وبين العالم الخارجى « الموضوعات » .

ومعنى ذلك أشتراك عوامل متعددة فى بناء الشخصية ، تنمو مـن تفاعلات متبادلة بين البيئة الأجتماعية والتكوين الوراثى .

لقد ركز فرويد على الغرائز واعتبرها الاساس الاول الذى بنى عليه نظريته ، أما البيئة فحدد دورها فى تكوين الشخصية ، بل وحصره فى أمكانية أشباع الغرائز ، وتلبية حاجات الفرد أو أحباطها .

ويلخص فرويد الاوضاع الحضارية ، والبيئة تفرضان قيودا وقيما على شخصية الطفل ... ومن ثم تتنازع هذه القيم والقيود مع الحاجات والمطالب الغريزية التى تريد أشباعا فيحدث صراعا بين قيود البيئة .. وبين الرغبات الغريزية ... الامر الذى يتحتم معه التلويح بالعقبات من جانب البيئة وذلك بتهديد الغرائز فى صور متعددة أقصاها الحرمان من الحب .

ومن حصيلة هذا الصراع — فى رأى فرويد [٢] — تكوين شخصـية

---

(١) د. صبرى جرجى — التراث اليهودى الصهيونى والفـكر الفرويدى ص ٢٤٣ — ٢٤٥ .

(٢) د. سيجموند فرويد — الموجـز فى التحليـل النفسي ص ١٤ — ٦٥ ترجمة د. سـامي محمـود .

الفرد ــ سماتها وخصائصها ــ فى الخمس سنوات الاولى من حياة الطفل ، ومهما يكتسب الفرد من خبرات فى المراحل المختلفة من حياته ، فان شخصيته لا تتأثر كثيرا فلا يحدث تغييرا عميقا فى معالم الشخصــية ، بمعنى أن ما يحدث بعد ذ لك أنما هو طلاء وزخرفة لبناء شامخ استقامت جدرانه ، أى أن كل أضافة جديدة أنما هى داخل الاطار العام للشخصية التى سبق تكوينها فى السنوات الخمس الاولى .

ومن ناحية أخرى تأثر فرويد بالمذاهب التى سادت القــــرن ١٩ واستعار أراءها وهى تزعم أنه لا توجد أى قوة عاقلة داخل الكائن ، غير القوىالطبيعية الكيميائية ، وهذه القوى ترد الى قوتين : الجــذب ... والدفــــع .

وخلاصة ما تستهدف اليه هذه المدارس .. أن عالمى الكائنات النباتية والحيوانية أسرة واحدة ، وأن أختلف مظاهرها .

والنتيجة الحتمية لهذا الرأى أنما تكمن فى أعتبار عملية التطــور للكائنات عملية ديناميه وليس هناك من خارجها محركات عليا ، أى أنكار تام للجواهر والارواح والتنظيم والتخطيط من أعلى ، بل ليس هناك اله يؤثر فى هذا العالم (١) .

وهذه الفكرة المستعارة عمل على تلفيقها فى مذهبه لتفسير السلــوك الانسانى ، ليخرج لنا نظرية تدعى أنه يمكن أعتبار ما هو غير معقولا ، بما

---

(١) سبق الى القول بهذا الرأى أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم صاحب مذهب اللذة والذى قال : ان الالهة لا يهتمون بالبشر وانهم مشغولون عنا ... راجع لمزيد من الايضاح الاستاذ يوسف كرم ــ تاريخ الفلسفة اليونانية .

أسماه بالحتمية النفسية ، ومؤدى هذه النظرية أن كل مظاهر السلوك التى تبدو غريبة •• وغير مفهومة هى فى واقع الامر نتيجة منطقية لاسباب سابقة ارتبطت بها وأدت اليها ، فمثلا الاعراض المرضية كفقد ذاكرة أو عثرات اللسان أنما ترجع الى أسباب متصلة بالجانب اللاشعورى فى الانسان •

واللاشعورى (٢) • الذى تناوله فرويد وربطه بالحتمية النفسية ، لم يكن أول من أكتشفه ذلك أننا نجد أحبار اليهود فى التراث الصهيونى قد عالجوا موضوع اللا شعور الذى يعد ضربة موجهة لعقل الانسان وارادته ، اذ أن الانسان عند فرويد مدفوع لا محالة بقوى لا شعورية وبذلك أطاح فرويد بالارادة والاختيار والعقل ••. واستبدل بهم اللا شعور ••• الذى يراه قمة الدوافع والرغبات والغرائز الحيوانية •••

لقد جعل اللاشعور مستودع المكبوتات من أنفعالات وحاجات ، وجمع فيه ما يعرف وما لا يعرف ، وأرجع اليه ما يفعله الانسان ••• وما لا يفعله ، فهو مستودع أوحال •• ومخزن أفكار •• ومحل يحوى من الابرة الى الصاروخ •• كل شىء فى اللاشعور •• وكل شىء من اللاشعور ولا شىء خارجه ••

وكأن الانسان كتاب تعرف موضوعاته بقرائتها ، أو أطار سيارة يبلى بعد أستخدامه ٥٠ ألف كيلو ، أو كأن الانسان عبد طفولته •. لا يستطيع عنها عتقا أو أنه أسير لشعوره •• لا يقدر عنه تحررا !!

لقد جعل الشعور بالاثم والخطيئة ، لاشعوريا أيضا •• بلا علم

---

(٢) هناك نظريات جديدة تنكر الجانب اللاشعورى — راجع ايزنك — الحقيقة والوهم — ترجمة باشراف د. يوسف مراد •

الانسان •• وبلا أرادة ••• وبلا أختيار ••• أى مفروض على لاشعور الانسان •

ولقد خلط فرويد بين جبلات النفس ، وبين ما أودعه الله فى الانسان من مواهب ولطائف شريفة •• كالعقل •• والقلب •• والروح ، فهبط بالانسانية الى أسفل سافلين •• وقد خلقها الله فى أحسن تقويم •

جعل الغرائز والشهوات •• مصيره الابدى •• وغايته •• اراد ••• أو لم يرد •••. حتى أن أرتفع عنها ، وتساوى فما ذلك الا ، برفان يخفى ذاتيته ، ويحتال به لاشباع غرائزه المتوحشة ، ونسى القوة الربانية التى وهبها الله للانسان من خير •• ومن روع •• وتقوى ، من ضمير وعقل

فلا وسط ولا أعتدال عند فرويد وانما انقياد أعمى للغرائز وارجاع أعور للشهوات ، ودفع •• وجذب من آلة صماء يفسر بها قوانين العلة والمعلول ، ولا تفسير خارج عنها •• ولا قوة عليا تستمد منها حركتها ، وأنما سبب ومسبب •

ولكننا نتساءل ••• من خلق السبب والمسبب ؟ ••• بل ••. من خلق العلة والمعلول فى هذا الانسان الحاصل على كل شىء من داخله ؟••

لقد رد فرويد الشخصية الانسانية المتعددة الجوانب ، والتى تحمل حد الخير وحد الشر ، والحق والباطل ، الايمان والكفر والسمو الى الكمالات الاخلاقية ، والسقوط الى البهيمية •

رد فرويد حقيقة الانسان الى قوى غريزية غامضة •• تدفعه الى سلوك غير متبصر •• وأعمال قسرية غير واعية •• فحبس عقله وجعله

حيوانا أعجميا •• تقوده ضغوط البيئة فى العمل والسلوك والحياة •

فالذى تقبله البيئة يسلكه •• والذى ترفضه البيئة يكبته •• أى صورة مشوهة هذه للانسان ؟ ••• ألم يرفعه الله !! ألم يصورة على صورته [١] .

ألم يقل تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

(التين : ٤)

ثم أن فرويد يدعى أنه يمكن تفسير أمراض وتصرفات الانسان الحاضر ، بدون شيء خارجى •• أى أن الانسان يحمه فى ذاته علل معلولاته، وأسباب مسبباته ••• والمطلوب الرجوع الى السجل لنفتحه ونقرأ ، فنعرف سبب ما يحدث له ، وما يحدث ليس غريبا ولا غامضا ••• لاننا نكشفه بمجرد أن نرجع للماضى لفرد وبالاخص •••• لطفولته •••• وبالتحديد •.•• للسنوات الخمس الاولى •

لا داعى أذن للتوبة •• لان هناك حياة نفسية حتمية ••• ولا داعى للندم فهذا الانسان تحركه دوافع وحاجات قسرية ••• وأن الخطيئة والاثم لا يفعلهما الانسان بارادته •• فالانسان مغلوب على أمره ••• وهذا الرأى مرفوض فى جميع الشرائع بل مرفوض بالفطرة الحسنة •••

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

(الشمس : ٧)

« وهديناه النجدين »

(البلد : ١٠)

---

(١) خلق الله آدم على صورته حديث شريف عن ابى هريرة وأحمد فى مسنده .

أى طريق الخير وطريق الشر ... وأنه قادر على أن يختار بين :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »

(الكهف : ٢٨)

وبين :

« من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين »

(يوسف : ٩٠)

اذن الانسان قادر على الاختيار ، بل قادر على الصبر وكظم الغيظ على ضياع المحبوب وتحمل المكروه ، وذلك بالعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها ... فالصابر حابس لنفسه عما تنازع اليه من الشهوات .. وما تشكو من المستكرهات :

« ستجـــدنى أن شـــاء الله صابرا »

(الكهف : ٦٩)

والصبر يأمر به العقل ... والعقل موهبة أودعها الله الانسان ، وليس بصحيح ما يدعيـــه فرويد بأن الكبت لا دخـــل للعقل فيه ، وبأنه عمليـــة لا شعورية ليس بصحيح هذا الرأى ، اذ أننا فاضلنا بين فوائد الصبر ، وما يتبعه من الخير عاجلا أو آجلا ... ظهرت حينئذ فضائل العقـــل وخساسة الهوى ..

والذى يصبر ويكظم غيظه ، قادر أن يغضب وأن يثور وأن يؤذى ، لانه فى موقف اختيار ... الا أنه يختار الافضل والاحسن والابقى .. وذلك وارد فى قوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ •• والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »

(آل عمرن : ١٣٤)

لقد كبت سيدنا يعقوب — عليه السلام — ألمه ، وكظم غيظه ، وكتم حزنه ، عندما أخبر كذبا بأن أبنه يوسف — عليه السلام — قد أكله الذئب ، فورد قوله تعالى عنه :

« وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم »

(يوسف : ٨٤)

ولقد صبر يعقوب — عليه السلام — وتحمل مفارقة أبنه له ، وحبس نفسه عن الشكوى لغير الله لانه آمل فى الله ، وان ذلك أختبار ، وامتحان من الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أنى أعلم من الله ما لا تعلمون »

(يوسف : ٩٦)

وكانت ثمرة الصبر أن جمع الله بينه وبين يوسف فى لقاء كريم ، وأرتد بصيرا :

« فلما جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم أنى أعلم من الله ما لا تعلمون »

(يوسف : ٩٦)

فالانسان المؤمن يكظم غيظه ، ويصبر لله فى سبيل الله ، ومن الله وعن الله ••

« وأصبر حتى يحكم الله »

(يونس : ١٠٩)

كما يتحمل الالم وهو واع به ، آمل فى الله ، عالم بصبره ، والا كيف يصبر ... وذلك فى الله تعالى :

« وكيف تصبر على ما لم تحط بل خبرا »

(الكهف : ٦٨)

والصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، ومخالفة لاهوائها ، وليس موقفا مرضيا أو عصبيا ، وانما هو موقف يدل على الصحة النفسية ، والقدره على تحمل الابتلاءات ... والاختبارات والامتحانات ...

« فصــبر جميـــل »

(يوسف : ٨٣)

وعكس الصبر الجزع و القلق والخوف والهلع ، وذلك وارد فى قوله تعالى عن الصابرين :

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس »

(البقرة : ١٧٧)

أى الصابرون فى جميع الاحوال دون اعتراض أو تمرد أو رفض ...

« انا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب »

(ص : ٤٤)

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين »

(الانفال : ٦٥)

والمكبوت غير الصابر ، لان المكبوت كما يتصوره ـ فرويد ـ مريضا

جزعا ، يحيا فى عالم من الاوهام ، لاتتحمل أعصابه شيئا ، كأنه آلة مشدودة ،، تكاد تنقطع أوتارها •••

أما الصابر فهو قوى •• آمل فى الله ، لانه صاحب عقيدة ، مؤمن بها أيمانا لا ريب فيه ••• والصابر يغلب مائة أو عشرة أثنين على الاقل غير صابرين •

والصبر ابتلاء من الله ، وليس ناتجا عن ضغوط بيئة قسرية كما يدعى فرويد أنما هو أمتحان للفرد لمعرفة قدرته للتحمل فى الله •••

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين »

(محمد : ٣١)

ولا يشعر بحقد أو حسد ••• والصبر رجاء فى وعد الله ، فلا يطلب الصابر لذة حسية أو شهوة ابرة ، أنما آمل على الدوام فى فضل الله •• ونعم الله •• وعطايا الله :

« ان الله مع الصـــابرين »

(البقرة : ١٥٣)

ليس هناك بين الصابر وبين ربه حجاب ، فهو أنس الله ، آمن بما يهده الله من سكينة وطمأنينة •

« وما صبرك الا بالله »

(النحل : ١٢٧ :)

فالصبر ليس موقفا سلبيا ، والصابر ليس مغلوبا على أمره ، وأنمـــا صاحب موقف أيجابى فيه سمو عن الاحداث ، وارتفاع عن الغرائز ، ورضا بالقضاء ، وليس هو موقف المرتعب ، وانما موقف المطمئن ، هو سكينة ليس فيه عجلة ، ولا حركةوأنما موقف علم أو معرفة أيمانية ، أساسها الحكم

الراجح .. والعقل السليم .. الذى يهدف الى الاستقامة ، والاستقامة هنا .. الوسط العدل . الذى هو العمل الصالح ... والقسط والاقتصاد والاعتدال ...

أما الغفلة فهى حركة فيها ضعف ، والضعف أضطراب وقلق فيعمى الانسان عن الحق ، ويختلط الصالح بالطالح ، فتسير الانسان غرائز ، ما دام العقل غافلا ..

أما الصابر .. فهو كمرآة تتلألأ عليها المنوار .. تتلقى الحقائق فى أنتظار فرج الله ... ورحمة الله ...

« أنه من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين »

(يوسف : ٩٠)

وفى تصورنا ان الانسان ليس مستودعا للشهوات والرغبات والحاجات الغريزية فحسب ، كما يدعى فرويد وتلامذته .. وأنما اذا كان الله قد أودع فى جبلة الانسان بعض الشهوات والآفات والعيوب ، فانه أيضا وهبه عقلا راشدا ، وقلبا واعيا ، وروحا من لدنه تعالى ... فاذا وقع الانسان فى الاثم ... فعليه أن يبادر الى التوبة .

والتوبة ندم ، والندم علم أيجابى لان فيه مخالفة لاهواء النفس ، واختيار للوسط العدل ، ورياضة أساسها العزم بل سياسة .. ورعاية .. ومحاسبة [1] .. ومراقبة تستهدف رجوع النفس الى الاعتدال والتوازن .

فالندم توبة ، لانه رجوع الى الحق ، وبعد عن الاثم والعدوان بل عن الجهل والجهالة .. تصديقا لقوله تعالى :

---

(١) الامام ابو عبد الرحمن السلمى — طبقات الصوفية — ٦٥ ، ٦٦ .

« أنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة »

(النساء : ١٧)

أما الذى يعمل لسوء •• وهو يعلم الحق ، فهو المنافق والمرائى ، والكاذب والمخادع والمرجف ، والفاسق ، والكافر •• وجميعهم أصحاب قلوب مريضة •• وعقول حمقى •• ونفوس فاجرة •••

ليس اذن — كما يدعى فرويد — الانسان مغلوب على أمره •• وأن الحتمية النفسية (١) هى ميراث مفروض •• وقدر محتوم ، لا يستطيع الانسن منه خلاصا ••• أنما واقع الامر ، أن الطريق واضح جلى •. والانسان عليه أن يختار •• أما طريق الحق ، أو طريق الباطل :

« وأسروا قولكم أو أجهروا به ، أنه عليم بذات الصدور »

(الملك : ١٣)

فالباطن والظاهر •• والشعور واللاشعور •• كله بعلم الله ، وفضل الله •• ومنه الله ••

والانسان مطالب بأن يتقى •• ويصبر •• وأن يهجر فسقه ، وهوى نفسه ، وأن يصدق ظاهره مع باطنه ، فاذا تم له ذلك وهداه الله الى الرشد •• فلا أمراض نفسية ولا عصاب . • ولا مذلة •• ولا مسكنة لغير الله ، أنما قلب سليم ••وعقل سليم ، أما الفاسق •• فهو مخادع ، يكذب ويرائى لمرض فى قلبه :

---

(١) ك. هوك . لندزى — نظريات الشخصية ص ٢٩—٣٤ ترجمة د. أحمد فرج — مراجعة د. مليكه .

« يا أيها الذين آمنوا أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة : فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

(الحجرات : ٦)

وهذا الفاسق قد أختار الظلمة لنفسه طريقا مسدودا ، فوقع في الامراض والعلل بنفسه •• لجهله وفساد أختياره •• وحمق عقله •• ومرض قلبه ، فغفل عن الحق • واتبع الهوى :

« ولا تتبع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »

(الكهف : ٢٨)

« ومن أعرض عن ذكرى ، فان له معيشة ضنكا »

(طه : ١٢٤)

« واذا ذكر الله وحده أشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون »

(الزمر : ٤٥)

« أنما يتذكر أولى الالباب »

(الرعد : ١٩)

ونحن لا يمكن أن نتفق مع منطق فرويد ، فى أن العصابين هم حملة مشاعل الحرية والحضارة ، بل على العكس ، هم حملة الظلمة والخوف والرعب والفزع ، واذا كانوا كما يدعى ، بركانا يغلى من الداخل ، ومستودعا للمتناقضات والنكوبات التى لاتستطيع نفاذا على سطح الشعور •

فان العصاب ليس تعبيرا اذن عن نفس القوى التى أدت الى

أسمى أمانى جنسنا ، وانما على العكس من ذلك تماما ، يمثل العصاب أنواعا من الامراض •• وكل من فى قلبه مرض ، وكل من يشيع الفاحشة والاضطراب فى الناس •.• تصديقا لقوله تعالى :

« ولئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا »•

(الاحزاب : ٦٠ ، ٦١)

والمرجفون كالمنافقين •• توعدهم الله تعالى بالرجفة •• وهى الاضطراب الشديد •• والقلق والفتنة •• هؤلاء عقابهم من الله شديد ، وذلك وارد فى قوله تعالى عن هؤلاء المنافقين ، الذين فسقوا وخانوا عهده بعد ما بلغوا برسالته ونصحهم النبى صالح عليه السلام :

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »

(الاعراف : ٧٨ ، ٧٩)

لذلك فاننا نرى أن الامراض النفسية العصابية التى يذكرها فرويد ، انما تنطبق على مريض القلب ، الذى لا أيمان له ، المتهالك على هوى نفسه، والذى عبدها ، وسجد لها ، ••• وأما المؤمن بالله فلا يصاب بهذه الامراض ••• لانه يعرف طريقه ويتجه الى خالقه بكليته ، ويخالف حظوظ نفسه وأهواءها •• وباطنه وظاهره سواء •. فهو صادق فى سره وعلانيته ، لان الله سبحانه وتعالى يطمئن قلبه ، وذلك تصديقا لقوله تعالى :

« قال لا تخافا أننى معكما أسمع وأرى »

(طه : ٤٦)

أما الفاسق فهو المذكور فى الاية الكريمة :

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم »

(محمد : ١٦)

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »

(محمد : ٢٣)

« صم بكم عمى فهم لا يرجعون »

(البقرة : ١٨)

اذا كان فى زعم فرويد أن هناك فى منطقة اللاشعور تناقضات وخلط بين قوى غريزية جنسية متصارعة •• فاننا نرى أن ذلك فرض لا أساس له من الصحة ، أنما هناك قلب مريض ، فيكون باطن الانسان مريضا •• وباطن سليم ، فيكون باطن الانسان سليما ، مصداقا لقوله تعالى فى ذلك :

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

(الاحزاب : ٤)

فليس هناك اذن •• تناقضات فى قلب الانسان •• وضمير الانسان وليس هناك ميراث لا شعورى يجهله الانسان ، أنما كل مايعلمه الانسان مسئول عنه ••• وكل ما يجهله مرفوع عنه حسابا ••• ولا يمكن أن يحمل الحق تعالى أنسان أوزارا أو أعباز هو غير مسئول عنها •••

ولذلك كان الخطاب من الله — سبحانه وتعالى — دائما للذين كذبوا بآيات الله ، والذين صدقوا آياته ، فيقول تعالى :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات »

(الانعام : ٣٩)

« أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى »

(الزخرف : ٤٠)

والله ينذر قبل أن يحاسب ، ويعلم قبل أن يعاقب ، ويعرف قبل أن يسـائل :

« فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون »

الله سبحانه وتعالى أذن .. يعلم عبده بالطريق الواجب الاتباع :

(الاسراء : ٣٦)

« ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا »

(الحديد : ٢٦)

والقول بأن الانسان مغلوب على أمره قول مرفوض ، ذلك أن الله قد أنذر العباد منذ الخلقة الاولى ... وأخذ عليهم ميثاقا غليظا ... ولكـن بعضهم نقضوا العهد .

« نسوا الله فنسيهم أن المنافقين هم الفاسقون »

(التوبة : ٦٧)

والمشرك بالله فى غفلة ، وهذه الغفلة يظن كذبا أنها مؤدية لخيـره وسعادته ... والشيطان يحسن له سوء عمله ، ويوسوس له ، فينقاد الى غروره :

« قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين »

(ص : ٨٢ ، ٨٣)

« فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون »

(الحديد : ١٦)

والمنافق فاسق ، مريض القلب ، يخادع الله ، ويستظهر الطاعات وقلبه خال من الصفاء والصـــدق :

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » .

(النساء : ١٤٢)

بل أن قلبه كاذب .. كذوب :

« والله يشهد أن المنافقين لكاذبون »

(المنافقـــون : ١)

« وبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما »

(النساء : ١٣٨)

والمنافق والكاذب والفاسق يعلمون الحق .. ومع ذلك يحرفون الكلام عن مواضعه ليخادعون ... ولسان حالهم يكشف عن باطنهم :

« ويقولون سمعنا وعصينا »

(النساء : ٤٦)

ومثل الفاسق كالذى يبنى فى ملك غيره ، ويجوز عليه ، ويدعى أن ذلك حقه ، فذلك ستبداد منه وظلم .. وغواية وهوى للتسلط .. والتجبر ، والتكبر ، وكذلك المنافقون فحكمهم كالفاسقين :

« أن المنافقين هم الفاسقون »

(التوبة : ٦٧)

والمنافقـــين يتظاهـــرون باستقامـــة الا أن قلوبهـــا مريضـــة

« الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت »

(محمد : ٢٠)

« يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم »

(التوبة : ٦٤)

فليس هناك اذن موقف لا أدريه ، وأنمـــا موقف أيمانى •• وموقف أنحرافى ، فالمنافقون ••• قلوبهم مشـــحونة بالحقد والكراهية :

« رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون»

(التوبة : ٩٣)

« يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

(الفتح : ١١)

« قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم »

(المائدة : ٤١)

فاذا أدعى أصحاب علم النفس الحـــديث •• بعد ذلك أن المريض العصابى مغلوب على أمره ، فهذا فرض غير مقبول نظرا وعملا •

الفصل السادس

الدفـــع لا الصراعـــات

٦ — الدفـــع لا الصراعـــات

يؤكد كثير من الفلاســفة والعلمــيين على لفــظ الصراع الانسانى حتى أنه شاع استخدامه فى مجالات العلـــوم الحياتيــة المختلفة ، خاصة ما يتعلق بالاخلاق والاجتماع والسياسة والنفس .

ويعرف « فرويد » الصراع [١] بأنه فقدان الشخص الثقة فى قدرته على رفع التناقضات بين القصور المؤلم وبين النفس ، مما ينشأ عنه صراع يؤدى فى النهاية الى محاولة استبعاد هذا القصور المؤلم كلية .

ولما كانت هذه المحاولة يائسة ، فان الشخص يجهد نفسه فى تحقيق هذه الغاية بصورة تقريبية ، فيسعى لحل هذا الصراع بطرق تحويليــة واسقاطيــة يستهدف منها أسقاط المضمون المؤلم على العالم الخارجى أو الغير ..

ولقد شاع استخدام تعبير الصراع النفسى الصراع الاساسى فى مجــال علم النفس وفى مجال علم الاجتماع شاع تعبير الصراع التطبيقى والبيئى والاجتماعى كما أنسحب الصراع الى الاخــلاق والسياسة أيضا كتعبير عن التناقضات بين المتطلبات الذاتية للموضوعات الخارجية ، وبين الحوائل أو الموانع أو العوائق التى تحول دون تحقيقها فى الواقع ..

ويقسم بعض علماء النفس ألوان الصراع المختلفة الى [٢] :

١ — صراع بين مغريات الطفولة ومغريات الرجولة .

٢ — صراع بين شعور المراهق بذاته وشعوره الشديد بالجماعة .

---

(١) د. عزت راجح — الامــراض النفسية والعقليــة — دار المعــارف ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) راجع سيجموند فرويد ، الموجز فى التحليل النفسى ترجمة د. سامى محمـــود .

٣ — صراع بين طموحه الزائد ، وميله الى الاعتراف بعجزه .

٤ — صراع بين الميل المتيقظ وبين تقاليد المجتمع أو بينه وبين ضميره

٥ — صراع دينى بين ما تعلمه من شعائر وبين ما يصوره له تفكيره الجديـــد .

٦ — صراع عائلى بين ميله الى التحرر وبين سلطة الاسرة .

٧ — صراع ثقافى بين جيله والجيل الماضى .

٨ — صراع بين الواقع ومثالية الشباب [1] .

ويقيم الفيلسوف هيجل صرح مذهبه الجدلى من أفتراض وجـــود صراع بين نقيضين فى البناء الاجتماعى والاخلاقى والنفسى .

وقد أستفاد هيجل — مما لا شك فيه — من نظرية أفلاطـــون التى فحواها وجود صراع بين القوى الغضبية والشهوية من جهة ، وبين القوى العاقلة من جهة أخرى ، ولقد عمم أفلاطون هذا الصراع لجعله ينسحب على المجتمع أيضا ، لذلك فانه عندما تخيل مدينته المثالية قسم الناس فيها الى أقسام ثلاثة ، جعل الفلاسفة الذين يمثلون القوة العاقلة الحكـــام ، ثم يليهم العسكر الذين يمثلون القوة الغضبية ، أما العامة أو الشعب فانهم يمثلون القوة الشهوانية [2] .

وكما استفاد هيجل من نظرية أفلاطون ، استفاد ماركس من نظريتهما معا ، ولقد حول — فى مذهبه المادى الجدلى — فكرة الصراع النفسى الى صراع طبقى وافترض وجود تنازع بين الطبقات الاجتماعية ، وزعم أن كل

---

(١) د. عزت راجح — أصول علم النفس ١٩٥٧ ص ٢٧٧ .

(٢) راجع يوسف كرم — الفلسفة اليونانية افلاطون .

مجتمع يحوى نوعا من الصراع بين الاقوياء والضعفاء ، أو بين الاغنياء والفقراء وأن هذا الصراع هو السبب المباشر لشقاء الانسان •• ولا يمكن أن ينمحى الا باذابة الطبقية حتى يسود العالم المحبة والوئام ••

ويؤكد أصحاب مدرسة الشخصية ، وعلى رأسهم « فرويد » على الصراع النفسى [٣] ، باعتباره المكون الاساسى لبناء شخصية الفـرد ، فضلا عن أنه المعبر عن فلسفة الانسان الحياتية التى تقوم فى نظرهم على أساس من التناقض بين الحياة والموت لذلك فانهم يرون أن السلوك ينازعه مواقف ثلاثة :

١ — موقف دفع بين الناس ••

٢ — موقف دفع بعيد عن الناس ••

٣ — موقف دفع الشخص نحو الناس ••

وهذه المواقف المتناقضة الثلاثة تعبر عن الصراع الاســـــاسى فى الشخصية الذى يخوف الشخص من فقدان ذاته وانقسامها ، فيبذل جهدا أساسيا للوصول الى حل لها ، ومع أنه غالبا ما ينجح فى أيجاد نوع من التوازن المصطنع الا أنه لا يلبث أن يجد صراعات جديدة تنشأ دائما • الامر الذى يحتاج معه الى معالجات جديدة لازالتها ••

وكما سبق القول فان « فرويد » يعتقد أن هناك صراع أنسانى أساسى بين غريزتى الحياة والموت ، وهو نزاع يراه شاملا عاما غير قابل للحــل فى النهاية ••

---

(٣) باتريك ملاهى — عقدة اوديب — ترجمة جميل سعيد مراجعة أحمـد زروى ص : ٢٦٥ — ٢٦٧ •

ومعنى ذلك أن الصراع حتمى ، وأن الانسان مجبر بحتمية نفسية — كما يرى هورنى [١] لحل هذا الصراع سواء بالطرق التعديلية أو المواقف التحويلية بالتوبة ينقل الانسان من حالة الرجفة والفوضى النفسية والفساد الباطنى الى حال الامن والسكينة والطمأنينة — وهذا التغير ليس نتيجة صراع قد تم ، أنما ذلك ناتج من أتخاذ النفس طريق الاستقامة سبيلا لها وغاية وهدفا ورفض طريق الهوى .. عن أرادة واختيار بعد ما علت أن ما وقعت فيه من الاثم كان جهلا منها :

« أنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (النساء : ١٧)

وليست التوبة مشروطة على الله ، أنما ذلك من فضل الله ورحمته وهداه ، فالواضح من النظرية الاسلامية أن هناك شر وخير ، وعمل صالح وعمل طالح ، وأن ذلك فعلا له وجود واقعى ، اذ تلهم النفس بغواية الشيطان ، كما تلهم بتقوى الله .. تصديقا لقوله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

(الشمس : ٧)

« وهديناه النجدين »[١] (البلد : ١٠)

ولكن لم يذكر تعالى فى آياته البينات أن هناك صراع حتمى — كما يدعى العلماء المحدثون — داخل النفس ، مجهول عليه الانسان .. وأنه

---

(١) باتريك ملاهى — عقدة أوديب — ترجمة جميل سعيد مراجعة احمد زروى ص : ٢٦٥ — ٢٦٧ .

(١) أى بصرها بطريق الخير وطريق الشر .

يعيش حياته حاملا على كاهله مهمة تقويض هذا الصراع واسكانه ، والعدل على حله بشتى الطرق والاساليب سواء المشروع منها وغير المشروع .

انما ذكر تعالى أن هناك دفع فى النفس ، ودفع بين الناس ، وهـذا الدفع يمكن أن يكون استكانة وخضوع ومذلة ، كما جاء عن النساء فى حديث رسول الله ﷺ :

« انكن اذا جعتن دفعتن »

ومعنى دفعتن هنا الرضا بالدون من المعيشة ، وما ساء احتماله من الفقر[٢] وينسحب معنى الدفع أيضا الى صد العدوان والمجاهدة بالنفس والجهاد فى سبيل الله ، وتسليط الاشرار بعضهم على بعـض حتى تعمـر الارض ، ولولا وجود هذا الدفع فى النفس والخلق والمجتمـع لفسـدت الارض وما عليها من كنائس ومعابد ومساجد ، اذ أنه من سنة الله أن يوجد وأن ينتصر أخيرا الخير على الشر اذ يسخر تعالى عباده ليدافعوا طغيان الظالمين ، وينتصروا للحق المبين .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »

(البقرة : ٢٥١)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهـدمت صـوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » (الحج : ٤٠)

فليس هناك اذن صراع بالمعنى العلمى الحديث داخل النفس ، وانمـا هناك دفع وهذا الدفع مـوقف اختيارى من الانسـان ، فاما يتصرف الى

---

(٢) المعجم الوسيط — الجزء الاول ص ٢٩٠ .

الاستكانة والمزلة ، واما أن يكون عدوانا وتسلطا وتجبرا ، أن يكون جهادا وصبرا وصفحا وعفوا يقول تعالى :

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصـــفون »

(المؤمنون : ٩٦)

« ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم»

(فصلت : ٤)

فهناك دفع ودفع مقابل له ، وينصح تعالى أن يكون الدفع للمؤمن ردا لطيفا طيبا على الدفع للسىء ، وصفحا جميلا عن المعتدى ، وعفوا واحسانا .. وهذا بطبيعة الحال يخجل العدو الذى نالك بالاساءة « فيصبح بين ليلة وعشاها صديقا حميما وأخا حبيبا لك » .

وليس معنى الدفع أن تسكت على الظالمين وتهادن المعتدين الكافرين ، كما يفعل المنافقون ، انما الدفع يستخدم للدلالة على الوسط العدل وانتهاج طريق الخير الفاضل ، فاذا كان الدفع أحيانا بالصفح الجميل ، والعمـــل الطيب ، فهو كذلك جهاد ضد الظلم والالحاد .

وقد وجه تعالى لومه الى المنافقين عندما تخاذلوا عن الدفع عن الدين، أو دفع الظلم عن أنفسهم ، ورضوا بالمذلة والتبطل والخنوع ، وقد ورد هذا المعنى فى قول عز من قائل :

« وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو دافعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان » (آل عمران : ١٦٧)

الدفع هو المصطلح العلمى الصالح للاستخدام ، اذ أنه مرن بدرجة تسمح له بالانسحاب الى النفس والناس والمجتمع بحيث لا يحمل معنى

التناقض ، كما هو واضح فى مصطلح الصراع الذى يظهر منه انتصار طرف بالقوة الجبرية وهدم طرف فى الصراع بشكل أو بآخر ․․ أما الدفع فيجوز أن يكون صفحا جميلا وقولا حسنا وكظما للغيظ فى سبيل تحقيق الوئام والمحبة والسلام ․․ كما أنه يجوز أن يكون دفعا عن الظلم ودفاعا عن الحق، وجهادا فى سبيل اعــلاء كلمة الله ․

فالدفع موقف ارادى اختيارى يحقق للانسان الغاية من خلقه ، اذ يحقق لصاحبه الامن والســلام والطمأنينة ، أما الصراع فانه لا ينتهى الا بظلم النفس أو الاستكانة والتبطل والسلبية والوقوع لا محالة فى هاوية الخوف والفزع واليأس والقنوط ․

وفى الدفع تنافس شريف وعمل بالاركان ، وطلب للغــايات النبيلة ، والمعارف السامية ، ورد الامور كلها لله ، وثمرته العلاج والاصلاح ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ․

أما الصراع فهو بحث فى المنافع الذاتية ، والمصالح الشخصية ، وطلب للملذات الدنيوية ، وانبات للحقد والحسد ، وزرع للبغضــاء والكراهيــة والعداوة ، وعبادة لغرور العقل ، وسجود للحس والمــادة ، وثمرته الفساد والافساد والفوضى والضلال المبين ․

الفصل السابع

الحكماء لا الفلاسفة

٧ — الحكماء لا الفـلاسفة

يحلو الى البعض أن يزعم أن هناك حاجة ماسة فى الوطن العربى بل الامة الاسلامية الى الفلاسفة القادرين على حل مشاكلها ، واصلاح أمرها، وجعلها تواكب الحضارة الغربية الحديثة •

الا أن حقيقة الامر اننا فى أشد الحاجة الى القادة الملهمين بالحكمة مصداقا لقـوله تعـالى :

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

(البقرة : ٢٦٩)

وهنا نريد أن نتساءل : أو ليست الفلسفة هى الحكمة •• والفلاسفة هم الحكماء •• ؟ حقيقة الامر أن الفيلسوف غير الحكيم ، والفلسفة غير الحكمة فى المفهوم الاسلامى ولهذا يجب أن نفرق بين فيلسوف شهير أثر فى مجتمعه بالباطل ، وتأثر به الناس وبين حكيم أتخذ طريق الحق ولم يحـد عن السـواء سبيلا •

واذا كان الفيلسوف ينبع رأيه من فكره الذاتى ، فانه يمكن القول أن الفلاسفة ما داموا يستخدمون تفكيرهم الذاتى وقياساتهم العقلية المحدودة فانهم واقعون لا محالة فى الخطأ ، حيث يرون الحقائق من جانب واحـد دون الجوانب الاخرى لها ، ذلك لان الفلاسفة يعتمدون كليا على العقـل البشرى ولمـا كان العقل البشرى امكانياته محدودة ، فانه بالتالى لا يستطيع أن يصدر حكما على الغيب ، وهو من الامور التى هى فوق حدوده •

من أجل هذا نرى أن الامة تحتاج للحكماء لا للفلاسفة ، اذ أن الحكيم فى النظرة الاسلامية يستمد علمه من الله تعالى ويعمل بأوامره وينهى عـن

نواهيه ، ويؤدى حقوق الله عليه ، ومن هنا كان التوفيق حليفه ، والحق رائده . فهو لا يدعى لنفسه قدرة أو علما ، ولا حول ولا قوة ، ولا يزعم لنفسه ذكاء ولا عبقرية .. ولا ابداعا ولا خلقا .. انما ينسب الحق والصواب الى الله والتقصير والفشل الى نفسه ، وبذلك يشرف قلب الحكيم دوما بالمعرفة المستمدة من الانوار الالهية .

وهنا نريد أن نتساءل ألا يصدق لفيلسوف أبدا ؟

حقيقة الامر أنه لو صدق الفيلسوف فى عدة قضايا ، وخاصة تلك القضايا التى تتعلق بالخالق وأخطأ فى قضية واحدة ، ما قلنا أنه صدق أبدا وما عد صادقا أبدا ذلك لان الفيلسوف يصل الى نوع من الانفصال بين الله والعالم ، مثلما حدث للمعلم الاول » أرسطو « الذى وقع فى خطأ جسيم عندما قال أن الله دفع هذا العالم ثم تركه .. فالله عنده لا يهتم بالعالم الان[1] .

والذى أدى بأرسطو الى هذا الرأى أنه أعظم من أستخدم المنطق العقلى فى البحث عن الحقيقة فيما وراء الوجود الظاهرى دون أن يتعلق ذلك بالايمان القلبى فالفلاسفة جميعا يعبدون العقل الا النذر القليل ، ولذلك فان العقل يقودهم الى أن الله تعالى موجود ، ولكنهم لا يعرفون الله حق معرفته .

أو أن العقل يقودهم الى القول أن الله دفع هذا العالم ثم تركه ،

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧٧ .

ويجهلون أعظم حقيقة وهى أن الله تعالى المهيمن على كل شىء ، بيده ملكوت السموات والارض العلم القدير ..

وهنا نجد سؤال يطرح نفسه كيف يقر الفلاسفة أن الله تعالى موجود ، ولكنهم لا يعرفون حق معرفته ؟

يمكن لنا الاجابة على هذا السؤال من خلال تلك المقابلة التى تمت بين الفيلسوف الاندلسى ابن رشد ، وبين الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى . وفى هذه المقابلة كان هذا الحوار ، سأله ابن رشد : هل وجدتم الامر فى الكشف والفيض ما أعطاه النظر ؟ ويرد أبن عربى فى ثقة : نعم .. ولا .. وبين نعم ولا ..مثلما بين المؤمن والكافر أو قال : بين نعم ولا تطـــير الارواح ...

ذلك لان العقل قد يهدى الى الحق ويدرك ويلبس اسرار الكـــون وعجائبه واياته ، بل يعرف حد الصحة وحد المرض ، وحد الصواب وحـــد الخطأ ، لكن العقل الانسانى يعجز مع ذلك ، ومع وصوله الى قمة الفهم والتميز بين الخير والشر فى ادراك حقائق الاشياء فينحدر وينزلق ويضـــل ويقع فى المتشابهات .

معنى ذلك أن العقل محدود فى قوالبه له حدود فى معارفه لو تعـــداها لوقع فى الشطط ، وسقط فى براثن الضلال وجنح عن الحـــق والصواب ، فالعقل يعرف أن الله موجود ، وهذه اجابة الشيخ الاكبر بنعم ، ولكن هذا العقل نفسه لا يستطيع أن يعرف كنة الله أو أصول الاشياء ، وهنا الاجابة بـــــلا .

فاذا أستخدم الانسان عقله محاولا أن يعرف أصول الاشياء وحقائق

الوقائع ضل وهو كما حدث لكل الفلاسفة الذين أغتروا بعقولهم فوقعوا فى الضلال المبين .

أما الحكماء الذين عرفوا قدر أنفسهم ، ففرقوا بين مقـام العبودية ومقام الربوبية ، وأظهروا ضعف الانسان وحاجته الى الهدى الرحمانى ، العون الالهى ، والتفضل الربانى والتى بدونها يضل الانسان ويشقى .

من هنا نصل الى ان الفرق بين الفيلسوف والحكيم ، هو أن الاول يغتر بعقله ، ويتصلب فى رأيه ، ولا يعترف بعجزه عن معرفة ما هو فوق حدوده وقدراته كأصول الاشياء ، وكنه الحقائق . ويحاول فى منهجـه أن يتدرج من معلولات الى علل ومن مسببات الى أسباب حتى يصل الى أثبات ما يريد اثباته .

أما الحكيم فهو يستخدم عقله كالفيلسوف تماما ويتأمل ويبحث ، لكنه يربط ذلك كله بآيات الله التامات وبسننه البينة ، وحججه الدامغة ، ورحمته الواسعة ، فمنهجه هو المنهج الرأسى الافقى أى أنه يربط بين الاصـول والفروع فى مباحثه العلمية فلا يشذ عن طريق الحـق أبدا ما دام رائده الكتاب والسنة والاجماع والقياس ... وغير ذلك من المبادىء التى أجتمع عليها علماء الامة .

أن الحكيم يربط بين وجوده وبين خالقـه فيسترسـل مع الله أبدا ويستسلم له دوما ويعمل له ظاهرا وباطنا ، وفكرا وسلوكا ، علما وعمـلا وأخلاصا .

والفيلسوف يريد أن يحقق ذاتيته ، وله منهجه العقلى وفكره الذى يعتقد أنه الصواب فيقع أكثرهم فى الخطأ والضلال .

لهذا ما أحوجنا الى المتفكر الحكيم الذى يربط بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، بين التقدم الحضارى والايمان بالله •

أما اذا نظرنا الى الفلسفات المعاصرة فاننا نجد أنها لا تؤدى بالانسان الى شىء لقد أعلن سارتر عند احتضاره أن فلسفته الوجودية أودت به الى حياة القنوط واليأس ، وأعلـــن وليم جيمس أن كتابه السيكولوجـــى والباراسيكولوجى يمثل كتلة كريهة وأن لا شىء يسمى بعلم النفس •

وها هو جاكب يغلق على نفسه بابه ويتناول كمية من الحبوب المنومة ليموت منتحرا معلنا يأسه وفشله برغم أنه من أعظم المفكرين فى أمريكا •

وها هو أرثر كيسلر وزوجته يقدمان على الانتحار فى الاونة الاخيرة وهو من أعظم الادباء والمفكرين الفرنسيين ، بعد ما أصيب بالقنوط واليأس وأنقطاع الرجاء فأطلق على زوجتهبعـ ض الاعيرة النارية ثم أنتحر بنفس الطريقة •

من هذا نجد أن هناك أفلاس فكرى ومأزق لا يستطيع منه الفلاسفة فكاكا أو خلاصا ، الا أنهم يستطيعوا أن يتجاوزوا المحنة وأن يعبروا جسر الازمة لو أنهم تواضعوا لله وآمنوا بعجز العقول عن الوصول الى حقائق الاشياء وأن الحل أنما هو فى التسليم لله والعمل بأوامره والنهى عمـــا نهى عنـــه •

الفصل الثامن

العبودية لله ... لا الحرية

٨ — العبودية لله ٠٠ لا الحرية

أن أخطر ما يواجه عالمنا الاسلامى بعامة والعربى بخاصة أستخـــدام المصطلحات الغربية بدون أن نتعرف على مقاصدها عند أصحابها ٠. ومن أخطر هذه المصطلحات مصطلح الحرية الذى يقصد منه الغربيون حرية أن يفعل الانسان أى شىء فى حدود القانون الوضعى المتغير لا فى حدود شريعة الله الثابتة ٠٠ ومن ثم فان مفهوم الحرية يصبح بهذا المعنى ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ٠٠٠

ويزعم بعض المستغربين أن مفهوم الحرية كما يفهمه المفكـــرون الغربيون هو من الثمار اليانعة لانتصارات الحضارة الحديثة ، ويعتبرون هذا المفهوم من المسلمات الاساسية التى لا تقبل نقاشا فى تفاصـيلها أو أرتدادا عن مضامينها ٠٠٠

ولا شك أن بعض هذه المسلمات التى يتضمنها مفهــوم الحرية عند العلماء الغربيين تبتعد تماما عن المفهوم الاسلامى ومن ثم تخالف شريعة الله التى شرعها للناس ٠٠٠

وكثير من الحريات التى تكفلها القوانين الوضعية الغربية والتى تتمثلا فى حرية الرأى مثلا تتيــح للمشركين بالله أن ينشروا دعاويهم على الناس فيستجيب لهم بعض الجاهلين فيزعمون أن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ولا أثر للخالق ٠

يستقطب الشيوعيون بعض الشباب فينضموا تحت أراجيفه بلا وعى ويحاكوا ذلك الفكر المرق الذى يدعى زعيمه لنبين أنه لا اله والكون مادة ٠٠

كما تتيح الحرية فى مفهومها الغربى حرية ممارســة الجنس مادام الطرفان راشدين ٠

أن دعاوى الحريات الغربية واصلت أرهاصــاتها الفوضــوية حيث أصدرت تقنينات تبيح العلاقات غير المشروعة مع الجنس الواحد « المثلية الجنسية » وهذا أسوأ ما أنحدر اليه مفهوم الحرية عد الغربيين ٠٠٠

ويمكن قياسا على ذلك أن نعطى أمثلة أخرى لتوضيح مفهوم الحرية والموجه ٠٠

عند الغربيين باعتباره مفهوما قد أبتعد تماما عن الفطر السليمة ، وهذا يمكن أن نجده فى حرية المعاملات الربوية فى النظامين الاقتصــادين الحــر

أن الله تعالى حدد للانسان طريق الاستقامة والقوامة والعدل وبين للانسان ما يجب أن يفعله وما لا يجب أن يفعله فان ناطح الانسان شريعة الله وإبتعد عن الصراط المستقيم بدعوى الحرية فقد ضل سواء السبيل ٠٠

فاذا كانت حرية المعاملات الربوية فى الاقتصاد الليبرالى والموجه على السواء اساسية لا يمكن التنازل عنها ٠٠ فان هذه الحرية يشجبها التشريع السماوى فى وضوح تام ٠

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »

وكذلك الأمر بالنسبة لفوضى الجنس ، فقد حرم الله الزنا واللواط ، وقال تعالى :

« ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة وساء سبيلا »

(الاسراء : ٣٢)

كما أن الله تعالى منع المشركين أن ينفثوا سمومهم فى المجتمع الاسلامى فيلوثوا عقول الناس بالفساد والافساد ... —

« قل أنما أمرت أن أدعو الله ولا أشرك به »

(الرعد : ٣٦)

ولا يسمح الاسلام للمؤمن أن يدعو الى الحرية الفوضوية وأن يؤمن بما ليس به علم ولا هدى ، فيتبع أصحاب الاهواء الذين يجعلون من الحق باطلا ومن الباطل حقا ، ويضلون الناس عن سواء السبيل ..

ليست الحرية تلك التى تدعو الى مقارفة الاثم ، واتيان الفواحش وأنكار الحق وأظهار الباطل والفساد والافساد فى الارض بالبعد عن فطرة الله التى فطر الناس عليها .. فكيف تسمح لهؤلاء الذين يريدون أن ينشروا الفساد والافساد بدعوى ممارسة الحرية كما يفهمها الغربيون أن يعلنوا على الملأ أراجيفهم ويتقولوا على الله كذبا ..

أن الحرية فى مفهومها الاسلامى تلتزم بالعبودية لله ، فاذا خرجت عن ذلك المفهوم .. أصبحت هى الفوضى بعينها ... حيث تخرج بذلك عن حكم الله وأمر الله ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

(المائدة : ٤٤)

الفصل التاسع

التفكير لا الفكر

التفكـــر لا الفكـــر

يلاحظ المتأمل فى آيات الله البينات أنها قد خلت من لفظ فكر الا آية واحدة :

« أنه فكر وقدر فقتل كيف قدر »

(المدثر : ١٨)

الفكر معناه الارتباط بالنفس وحدها ، وتركيز الذهـــن على ما يريد صاحبه أن يتقوله بعيدا عما رسمه الله له وهداه رسوله ، وبذلك يخرج هذا المفكر عن الصدق ، ويطعن بالباطل ليدحض الحق ، فيستحق من الله — بذلك الفكر الذاتى — العقب •

لذلك جاءت الآيات البينات كلها تدعو الى التفكر وهو تأمل عقلى فيما يبينه الله من حجج دامغة وأدلة صادقة كقوله تعالى فى المقارنة بين المبصر والكفيف :

« هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون »

(الانعام : ٥٠)

فالتفكر تأمل عقلى لكنه مرتبط بالايمان بالله فاطر السموات والارض وهو غير الفكر الذاتى أو التفكير العقلى المحض الذى يفصل بين العبودية والربوبية بدون علم ولا هدى •

يقول عز من قائل :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »

(الحج : ٨)

فالفكر الذاتى يحمل فى طياته جدلا ، يبتعد فيه عن التفكر فى آيات الله البينات ، وبذلك يجنح الى الباطل ليدحض الحق ، ليظفر بتبرير أدعاءاته

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق »

(الكهف : ٥٦)

فأصحاب الفكر الذاتى أنما يتبعون أهواءهم ويتغافلون عن ربهم ، ويقيمون حججا ظنية وأدلة تخمينية ودعاوى متوهمة ، يناطحون بها الحق والحقيقة .

أما الذين يتفكرون فى خلق الله ، وقد رسخت أقدامهم فى حظيرة الايمان ، يجادلون بالتى هى أحسن وهم يرتبطون دوما بخالقهم :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض » (آل عمران : ١٩١)

فالجدل فى القرآن يقوم على التفكر فى الله .

والمتفكر فى ذاته دائم وهو بعقله خلق الله وآياته البينات :

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »

(الاعراف : ١٧٦)

« أن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون »

(الرعد : ٣)

للذلك فان الجدل العقلى الذى يأمر به الله لابد أن يرتبط بالحقائق لا يمكن أن يحظى بها الفكر الذاتى بدون الاستعانة بالهدى الالهى والا وقع فى المتشابهات وأنزلق بعقله الى هوة الضلالات ... ، لذلك يأمرنا الله تعالى بعدم المجادلة عن الخونة ولا نندافع عنهم ، اذ هم خانوا أنفسهم باتباع غواية الشيطان وموافقة هوى نفوسهم :

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم »

(النساء : ١٠٧)

يتبين مما ذكرناه أن الجدل القرآنى يعتمد على التأمل العقلى لكنه مرتبط بالايمان بالله وبآياته البينات •

فاذا خرج المتأمل عن الرابطة بين العبودية والربوبية فقد أغلق باب المنة الالهية ، وابتعد عن الحق الى أتباع الهوى فيصبح جداله من أجل تحقيق منافع شخصية ومصالح ذاتية •

لذلك فان الجدال الفلسفى الذى عماده التفكير الذهنى فحسب ، مثل الجدل الخطابى (السوفسطائى) لا يصل الى حقائق لانه يستخدم التوجيه الالهى فى اثبات قضاياه •

ومن ثم يقع فى المتناقضات ويسقطف براثن الضلال •

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد »

(الحج : ٣)

أن معظم الفلاسفة يعتمدون على الفكر الذاتى والتأمل العقلى المرتبط بامكانياتهم الذهنية ، الامر الذى يوقعهم فى المتناقضـــات عند بحثهم فى العقل البعيد أو أصول الاشياء أو حقائق الوقائع •• فيضلون فى بيداء لا حدود لها ولا قيود ••

لذلك فان الحكماء المسلمين قد تفهموا حدودهم العقلية ، واعتمدوا على فاطرهم فى التفكرالعقلى والتأمل الذهنى ، وقادهم التوجه الالهى الى بر الامان عندما بحثوا فى أصول الاشياء وحقائق الوقائع •

الفصل العاشر

التسخير لا التنبـؤ والتحكـم

١٠ — التسخير لا التنبؤ والتحكم

يهتم العلم الحديث كنشاط أنسانى بمحاولة فهم الظواهر بقصد السيطرة عليها والتحكم فيها لتحقيق أغراض نفعية وعملية •

وأهم ما يميز المنهج العلمى أستهدافه الكشف عن العلاقات التى تقوم بين الظواهر المختلفة ، وذلك بمقارنتها بغيرها من الظواهر ••

فاذا لم يتسنى للباحث أيجاد علاقة ما بين الظاهرة موضوع الدراسة ، وظاهرة أو ظواهر أخرى ، فأنه لا يستطيع فهم هذه الظاهرة ، ومن ثم التنبؤ بصدق حدوثها فى المستقبل •• وبالتالى التحكم فيها ، لذلك تحدد أهداف العلم الحديث وتنصرف غاياته الى أهداف ثلاثة : ا لفهم والتنبؤ والتحكم :ـ

١ ـ الفهم :

ينظر العلميون الى الفهم باعتباره المعرفة التى تتم عن طريق أكتشاف العلاقات المختلفة بين المتغيرات ••

ويعطى لنا صاحب كتاب المنهج العلمى (١) بعض الامثلة يحدد فيها المقصود بالفهم فيقول :

« اذا ذهبت الى منزلك ووجدت أثاثه متناثرا هنا وهناك ، ونظامه مضطربا فانك تفسر هذه الظاهرة فى ضوء ربطك بينها وبين دخول شخص غريب الى بيتك (كسطو لص) مثلا ، وبالمثل اذا حدث وباء فى بلدة ما ، فانك تربط بين هذا الوباء وبين تلوث المياه التى تعتقد أنها سببا لانتقال

---

(١) دكتور محمد عماد الدين اسماعيل — المنهج العلمى وتفسير السلوك ص : ٥٤ — ٨٦ •

العدوى ، وهذا الربط بين سرقة البيت وسطو اللص ، والوباء وتلوث المياه يعد من الظن ، اذ أنه غير قائم على دليل ، ولكنه يعتبر من ناحية أخرى فرضا يمكن أمتحان صحته أو كذبه ٠

فالفهم بهذا المعنى رابط وضابط للعلاقات بين الظواهر بين الظواهر المراد تفسيرها — فوصف الشمس مثلا ليس بكاف وحده اذ لابد من ربطها بوضع القمر بالنسبة للارض ، كما أنه من الصعوبة بمكان فهم الشخصية المرضية السيكوباتية عن طريق وصف سلوكها فحسب ، بل يلزم ربطها ببعض المتغيرات حتى يتسنى التنبؤ بسلوكها فى مواقف أخرى ٠٠

٢ — التنبــــؤ :

يستخلص من نظرة أصحاب العلم الحديث ان التنبؤ يعنى أنطبـــاق القاعدة أو القانون على مواقف جديدة غير التى تنشأ عنها أساسا ، فقانون حركة الاجسام مثلا يقول : « أن كل جسم متحرك يستمر فى حركته ما لم يعوقه عائق » ٠

ومن تطبيق هذاالقانون يمكن التنبؤ أن الجســـم المستدير الاملس يستمر فى حركته أكثر من الجسم الخشن ، لان احتكاكه يكون فى الجسم المستدير أقل منه فى الجسم الخشن ، ومعنى ذلك أن الفهم يساعــد على التنبؤ ، والعكس اذ التنبؤ أيضا يساعد على الجسم ٠

الا أنه فى كثير من الاحوال يصعب التنبؤ برغم فهم الظاهرة فهمــا واضحا ٠٠ ومثال ذلك أنه اذا قسمنا تلاميذ أحد الفصول الدراســية الى أقسام بحسب توحد كل مجموعة فى مستوى الذكاء ، الا أننا نلاحظ كذب النتائج عندما يتضح لنا وجود فروق ظاهرة فى تصرفاتهم وسلوكهم ، لم

تكن عندما تم التنبؤ فى الحسبان ، كأن لا يوضع السن والتكيف الاجتماعى كمتغيرات عند تقسيم التلاميذ الى مجموعات .

يقول العلامة الاقتصادى الكبير شومبيتر (١) . « التنبؤ عن المستقبل يعد عملا غير ذى صبغة عليه حتى تجاوز نطاق تحليل الاتجاهات التى هى موضع الملاحظة » ومعنى ذلك وجود عوامل خارجة عن نطاق ملاحظاتنا يصح أن يحول دون الوصول الى النتائج المترتبة على هذه الاتجاهات :

٣ — التحكـــم :

يرى العلميون أن التحكم فى الظاهرة لا يتحقق الا عندما نضع كـل الظروف التى تحدث الظاهرة فى أعتبارنا ، فاذا لم نستطع تحديد الظروف ، فاننا لا نستطيع أن نتناول ظاهرة أو نحدث فيها أى تعديل (٢) .

ومن هنا يتضح أن هناك نوعا من العلاقة بين فهم الظاهرة والتحكم فيها ، لا تختلف كثيرا عن العلاقة الوثيقة بين التحكم والتنبؤ ، لذلك فانه من المتعذر أن نفصل الفهم عن التحكم ، أو التحكم عن التنبؤ ، اذ أنها جميعـا أهداف العلم الثلاثة التى بدونها لا يستقيم بحث أو تستمر دراسة .

ومن ناحية أخرى فان أى تفسير لا يسمح بتحقيق هذه الاهـداف لا يعتبر تفسيرا علميا باستثناء علم الفلك اذ أننا لا نستطيع أن نتحكم علميا فى الظواهر الفلكية ، وانما نحاول فقط أن نفسرها .

وينتقد بعض العلميون التفسيرات القديمة التى كانت ترجع فيضـان النيل مثلا الى دموع الالهة ، وبطبيعة الحال لا يعد هذا التفسير علميا ، اذ

---

(١) د. عبد الحميد متولى ـ الغزو الفكرى الالحادى — ص ٥٣ .
(٢) المنهج العلمى وتفسير السلوك ص ٥٤—٨٦ .

لا يجيب اجابة واضحة عن أسبان الفيضان ، وبالتالى لا يحقق أى هدف من أهداف العلم •

ان هذا التفسير لا يضع بين أيدينا أى عوامل أو متغيرات يمكـــن ملاحظتها أو الاستدلال بها على حدوث الظاهرة ،كما أنه لا يفيدنا فيما اذا كان الفيضان سيكون هذا العام عاليا أو منخفضا •• ومن ثم لا يمكن التحكم فى الفيضان ، فهذا التفسير وأشباهه غير مقبول من الناحية العلمية ، أما اذا قلنا أن سبب الفيضان سقوط الامطار فى الحبشة مثلا ، فلا شك أن هذا التفسير يمكن أمتحانه علميا ••

وكذلك الامر بالنسبة للانفعال ، فاننا اذا قلنا أنه ناتـــج من مـــادة الفلوجستين (وهى مادة غير معروفة) فان هذا التفسير لا يساعدنا فى وضع أيدينا على متغيرات محددة مسئولة عن حدوث ظاهرة الانفعال ، ومن ثم لا يمكننا التنبؤ بالمواد التى يمكن أن تكون أسرع احتراقا عن غيرها من المواد •

أما التفسير العلمى لهذه الظاهرة ، فانه يقول : « أن الاحتراق هو نتيجة اتحاد الجسم بالاكسجين المخلوط فى الهواء الجوى تحت ظروف معينة وهذا التفسير يعد مختلفا تماما عن التفسير الاول ويمكن أمتحانه بدراسة العلاقات بطريق الملاحظة ، وعمل التجارب اللازمة ، ثم أيجاد صيغة مناسبة العلاقة بين المتغيرات موضوع الدراسة ، وبين ظاهرة الاحتراق •

نخلص من عرضنا لاهداف العلم الحديث الى أنه يعتمد على مقومات ثلاثة رئيسية هى الفهم والتنبؤ والتحكم ، والتى بدونها لا يتقـــدم بحث ولا تستقيم دراسة ••

ولا شك أن هذا المنهج حقق بعض النجاحات وأختط لنفسه طريقا واضحا فيما يتعلق بالاشياء والموضوعات المادية والحسية التى تخضع للتجريب والاختبار والاستقراء •

الا أن المنهج العلمى الحديث لم يتوقف عند هذا الحد ، بل جاوز ما يصلح للاختبار الى ما لا يصلح للاختبار ، لقد أراد أغترارا أن يفرض نفسه على علوم الانسان كالاخلاق والنفس والاجتماع ، والتى تختلف تماما فى طبيعتها عن الاشياء الجامدة التى تطبق عليها المناهج الطبيعية ، وبذلك خرج من الموضوعية الى الظن والغيبيات والخيال •

السلوك الانسانى :

لا يمكن القول — برغم تقدم المنهج الحديث أنه قد تحرر من التخمينات والفروض الغيبية (١) فى أثناء محاولاته لتفسير السلوك الانسانى ، فلاتزال هذه التخمينات موجودة فى نظرياته التى تتعلق بالدراسات الانسانية بعامة، ونظريات علم النفس بخاصة ، وهى تنزع جميعا الى التفكير الخرافى الغيبى ، أو الميتافيزيقى ، وذلك بادعاء عدم أمكان تطبيق التفسير العلمى فى مجال هذه الدراسات ••

ويمكن التدليل على صدق ما نقول اذا ما عرضنا لنظرية الغرائز أوفكرة المجالات العصبية ، أو فكرة الوراثة مثلا ، والتى يتضح لنا منها أنها تخمينات يلجأ اليها علماء النفس فى تفسير السلوك الانسانى ، وهذه التفسيرات لا تحقق هدفا واحدا من أهداف العلم مثلها فى ذلك مثل فكرة دموع الالهة التى تزعم أنها سبب فيضان النيل •

---

(١) دكتور محمد عماد الدين اسماعيل — المنهج العلمى وتفسير السلوك ص : ٥٤ — ٨٦ •

وكذلك الامر بالنسبة للتفسيرات السيكولوجية التى تخضع فى واقع الامر الى أهواء المفسر الى أقصى حد ممكن ، بما يفرضه توهما من وجـــود أسباب وعوامل غيبية ليس من الممكن تحديدها أو أثباتها علميا وعمليا ...

ومن هنا كانت التفسيرات المفترضة عن الغرائز أو الوراثة أو المجالات العصبية لا قيمة لها من حيث أنها لا تحقق أهداف العلم ولا تساعدنا فى الوصول الى نتائج محددة للتنبؤ والتحكم فى الظواهر النسبية المختلفة

التســـخير :

ونحن نتصور أن محاولة تطبيق هذا المنهج العلمى على الســـلوك الانسانى بهذه الصورة التعسفية أخرج العلم الحديث عن مجاله وأبعده عما أختطه لنفسه من غايات وبدى لنا فارغا من الصدق التجريبى الذى ينشده .

يجدر بنا اذن أن نراجع هذا المنهج ونضعه فى حجمـــه الحقيقى ، مستبصرين بمنهج الله المشرق بالحق والكمال حتى نتعرف على الميزان القسط والخير الفاضل وبذلك أن يمكن تستقيم دراستنا ، ونهتدي الى الحـــق الواجب الاتباع ، يقول تعالى :

« ألم ترو أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض »

(لقمان : ٢٠)

« وسخر لكم ما فى السموات والارض جميعا منه »

(الجاثية : ١٣)

واضح من الايات الكريمة أن التسخير للسمـــوات والارض وليس للانسان ، كما يزعم الماديون والعلميون ، وفى تصورنا أن عدم نجاح المنهج الحديث للوصول الى نتائج تفسير السلوك الانسانى راجع الى أنه يحاول

أن يسخر الانسان بما يطبقه من مناهج غايتها التنبؤ والتحكم فى الانسان ، حتى ولو أدى ذلك الى نتائج غيبية صادرة عن مقدمات مفترضة ، كل ذلك من أجل ربط حياة الانسان الاخلاقية والسلوكية بشكل أو بآخــر بقانون حتمى ، مثله فى ذلك مثل المواد والاشياء المسخرة للانسان (١) .

واذا أردنا تقييم هذه النتائج على ميزان الشريعة ، ومراجعة هذه النظريات المستحدثة من خلال تفهمنا لحكم الله فى الكون والخلق ، لا تضح لنا من الدراسة المتأنية وابتعاد هذه النظريات عن مواكبة الفطــر السليمة ، وتصورها عن أدراك ماهية الدفع الانسانى .

أن أهداف المنهج الاسلامى ليس التنبؤ والتحكم فى السلوك الانسانى أو بمعنى آخر ليس تسخير الانسان ـــ كما يستهدف المنهج العلمى الحديث ـــ اذ أنه قد تركه تعالى لاختياره بعد أن بين له الطريق الحــق الواجب الاتباع ، أما فيمايتعلق بالكون فقد سخر تعالى للانسان السموات والارض كموضوع للاستقراء والتجربة والتحليل والمقارنة .

والباحث المتأمل يرى أن الله تعالى قدر له الصعــاب ، ليكتشـــف ما غمض عليه فهمه ، وييسر له السبل للدراسة والبحث ، وهداه الى أقامة الادلة والبراهين اذاأخلص العمل ، وأودع فيه من المواهب ليشهد القوانين الكونية ويستجلى العلاقات الموجودة فى النظام الكونى .

لقد وهب تعالى للانسان قدرات وملكات لاستخدامها فى التعرف على الاشياء الخفية ، وحدد له مجال البحث والدراسة تحديدا دقيقا وبين له أنها

---

(١) لمزيد من الايضاح راجع كتاب منهج التربية الاسلامية للاستاذ محمد قطب

السموات والارض ومابينهما ، ولم يطلب اليه ان يضع من عنده قوانين يفسر بها الاسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، ولم يأمره أن يشرع قواعد السلوك الانسانى ، يتحكم بها فى الانسان ويعامله معاملة المواد والحجارة والحيوان ، لم يطلب تعالى من الانسان ذلك وكل الايات البينات شاهدة على صدق ما نقول •

لقد خص تعالى نفسه بتشريع القوانين الاخلاقية والسلوكية الواجبة الاتباع وتكفل تعالى بصياغة بنودها وتشريع قواعدها ، ووضع نظمها وتقنين معاملاتها ، وهذا هو الفرق الواضح بين المنهج الاسلامى الذى يطبق على المادة الميتة الصماء الخرساء العوراء ••

ان الانسان ليس مسخرا للانسان ليتحكم فيه ، ويجاوز حدوده فيتنبأ بسلوكه المقبلة ويزعم أن نشاطه الحاضر يرجع الى أسباب وفروض غيبية ميتافيزيقية ، وتخمينات خرافية وظنية يدعى فيها أنها الاصول الحقيقية لما يعمله الانسان أو سيعمله فى المستقبل •

أن محاولة العلم اصدار قوانين دون الرجوع الى حكمة الله البالغة فى الكون والخلق تدخل سافر فى الناموس الكونى ، اذ أن هذا التفكير ينم عن غرور واضح ، اذ يظن مدعيه واهما أنه يخلق معدوما ، ويبتكر قانونا ويخترع نظاما ويشرع دستورا ، ويشارك الله تعالى فى الامر والحكم ، وينسى فى غفلته أن الله تعالى قد حدد للانسان مجال البحث الذى يستطيع أن يقف عليه فيبين تعالى أن الانسان يستطيع أن يدرك بحسه ، ويتأمل بعقله ويتعرف بوجدانه ، ويكتشف العلاقات والنظم الكونية التى وضعها فاطر السموات

والارض لينتفع بها الناس ، ويسعى فى الارض أصلاحا ونمــاء ، ويجتهد لكشف ما تيسر لهم من الحقائق والاشياء الخفية فى النظام الكونى •

أن الحدود التى يجب الا يتجاوزها الانسان أمر لا رجعة فيه ، ومشيئة الهية اذا خالفها الانسان لن يفلح أبدا فى علمه أو عمله وأن ارادته هى الغالبة شاء الانسان أو لم يشأ ، أهتدى أم ضل السبيل ، لقد شاءت حكمته تعالى أن تعمر الارض بالانسان وأن يكون دفع الناس بعضهم لبعض تحقيقـــا لعبادة وعملا بارادته وقضائه وأمره ، يقول تعالى :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »

(البقرة : ٢٥١)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع »

(الحج : ٤٠)

لكن انسان العصر قد تطاول على خالقه ، وغرته الحياة الدنيا ، فتعدى حدوده ؛ وتجبر وتكبر وادعى أنه لا معبود سوى العقل الانسانى ، وأنه يجب أن يتحكم فى كل شىء ويشرع لكل شىء ويخلق كل شىء ••

لم يكتف هذاالانسان بما يسره تعالى له من المواهب لينطلق فى تأمل الكون الرحيب وتفهم قوانينه وجعله موضوعا للبحث والتفحص والدراسة واجراء ما شاء له من التجارب وأن ينتفع بكل ذلك ويزيد معارفه وييسر سبل حياته على الارض، يقول تعالى :

« قل سيروا فى الارض فانظروا »

(العنكبوت : ٢٠)

« أو لم يتفكروا »

(الاعراف : ١٨٤)

« أو لم ينظروا »

(الاعراف : ١٨٥)

لم يكتف الانسان بكل ذلك بل تعـداه الى تفسير الحقائق الكونيـة تفسيرا ماديا وكأنه أنتهى الى معرفة كل شىء عن هذا الكون ، ولم يبق له ألا وضع التشريعات والقوانين ليعاند بها حكم الله وكلام الله ، فأخرج منهجا أسماه « العلمانية » ظن أنه يهدى الناس الى الرشد والحـق » وزعم أنه أصدر فلسفة مستحدثة تحقق للانسان الرفاهية ، وادعى كذبا أن الدين رجعى جامد لا يحقق سعادة الانسان المنشودة بما يفرضـه من قيـود والتزامات تجعل الانسان عبدا مستعبدا ••

لقد نسى الانسان الحديث فى غمرة النجاح المادى فاطـر السموات والارض الذى سخر له السموات والارض وما بينهما بهدف عبادته ، والعمل على توحيده ، وأقرار ربوبيته وذكر نعمه الظاهرة والباطنة ذكرا كثيرا ••

نسى الانسان أو تناسى لغروره وتعاليه وظلم نفسه ، خالقه وموجوده، ونسى تفضله وتلطفه ورحمته ، وتغافل عن شكره بالتقرب اليه بالصـلاة والنوافل وتكبيره على ما هداه اليه من علم ومعرفة ، نسى قوله تعالى :

« كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون »

(الحج : ٣٦)

لقد سخر الله تعالى الابل لنأكل من لحومها وننتفع من شحومها وعظامها وجلودها ونتصدق بها على الفقراء والمحتاجين ، وهذا التسخير لمصلحـة الانسان مما يوجب الحمد والشكر والامتنان لله •

« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على هداكم »

(الحج : ٣٧)

فالتسخير متعلق بالشكر ، والشكر أقرار بحق الله ووفاء له تعالى على ما هدى الانسان اليه من نعم ومنن وعطايا وهبات سواء كانت فى الارض أو فى السماء •

لقد رفع تعالى الانسان درجات فلم يجعله موضوعا للتسخير ، حتى لا يتحكم فيه غيره من المخلوقات اذ خلقه فى أحسن تقويم ، فعلمه الاسماء وحمله الامانة ،وبين له الطريق المستقيم وجعله فى الارض خليفة ، وصوره على صورته ، وتركه بعد ذلك لاختياره بعد ما أودع فيه الارادة والعقل والتمييز ••

أن الانسان لا يخضع للقوانين الحتمية ولا للانظمة الموضوعية ، خاصة لا تتقيد بنظام العلة والمعلول والسبب والمسبب ، اذ اختياره حر وسلوكه أرادى سواء كان خيرا أو شريرا •

ولا للنتائج التجريبية انما هو متحرر تماما عن كل ذلك ، حيث أن له حرية وهذه الميزة التى ميز الله بها الانسان عن سائر المخلوقات كانت لحكمة الهية أرادها تعالى حتى يجربه ويمتحنه فى هذه الدنيا ، ثم ترك له مهلة الى يوم الدين بعدها تقيم أفعاله وأعماله وتوزن بميزان عدل حياته الدنيوية :

« وأن ليس للانسان الا ما سعى »

(النجم : ٣٩)

« وكل أنسان الزمناه طائره فى عنقه »

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهير »

(ق : ٢١)

اذن السلوك الانسانى لا يمكن أن يخضع بشكل أو بآخر الى تفسيرات غيبية أو تحكمات علمية أو فلسفات مادية ، أو نظريات أفتراضية أو حتميات أو غيرذلك من المزاعم والدعاوى المستحدثة التى يراد بها أخضاع الانسان الى قوانين تعسفية كأنها مادة جديدة تضاف الى المواد المصنعة تخضع للتحكم الالى • فيدخل داخل القوالب ليخرج سلعة تباع وتشترى أو آلة تتحرك بمجرد الضغط على أزرارها فتسلك سلوكا تحكميا أو أجباريا •

أن الانسان ليس هذا الانسان المراد صناعته • انه مخلوق الهى خلقه تعالى فى أحسن تقويم وأبهى صورة ، فالانسان يمكن أن يتوب بعد العصيان وأن يؤمن بعد الالحاد ، وأن يندم بعد أقتراف الاثام ، وأن يتبدل منحال الى حال ، كمايمكنأنينتكس ويقع فى المتشابهات ، ويبتلى بالمحن والفتن ، كما يمكن أ يصبر أو يفكر فى الامتحانات والاختبارات ••

لذلك فانه من الصعوبة بمكان أن نتحكم فى سلوكه وأن نتنبأ بتفكيره واتجاهه بعد فترة أمنية ، ونسيطر على نشاطه المقبل ، ونخضعه لقوانين حتمية ، ونرجم بالغيب عما يمكن أن تكون عليه أخلاقه أو حياته الاتية ، أنما علينا أننبتعد عن التحكم فى الانسان اذ أن تسخيرنا للانسان بأى صورة هو تعبير عن الظلم والجحود والالحاد ، وبعد عن التعقل والفهم الرشيد ومجانبة الحق والصواب علينا فقط أن نهتدى بحكم الله وأن نعمل به وأن نأمر بالمعروفوننهى عن المنكر ثم نترك الانسان ليتولاه الله برحمته ويهديه الى محبته ويتفضل عليه بنعمه ومنته ••

ان التحكم فى حياة الانسان بهذه الصورة التعسفية يغلق أبواب الخير، ويسد منافذ التوبة ، ويعمل على التضليل والافتراء على الله بالكذب ، كما يعد تدخلا فى الارادة الالهية والحكمة من الخلق •

واذا كان — كما سبق الاشارة — التحكم أو التنبؤ ينسحب على ما سخره الله تعالى للانسان من أرض وجبال ووديان وزرع وبحار وسماء وأنهار ومعادن ودواب كلها تعمل من أجل تحقيق رسالته على الارض ، فان تعالى أوصانا أن نعتدل ولا نسرف ولا نقتر فى معاملتنا ومعالجتنا واستخداماتنا لما سخره من أشياء أو أدوات ومخلوقات •

كما بين تعالى لنا ما يمكن أن نتحكم فيه ، وتسخيره لمنافعنا ليس ألا تفضلا وتعطفا منه تعالى ، يقصد التقرب اليه وشهود بديع صنعته ، وتذكر كامل خلقته والعمل على تنفيذ مشيئته •

فالفهم والتنبؤ والتحكم أنما هو تسخير الهى وشيئة ربانية ، وليس خلقا جديدا أو أبتكارا أو أختراعا ناتج من عبقرية الانسان وقدراته الذاتية — كما يدعى الغافلون — انما سخر تعالى ما سخره لمصلحة الانسان — ليسعى ويجتهد ويعمل ويدفع الناس بعضهم بعضا لينتفعوا بما يسر لهم فى السماء والارض من نعم •

وعلى ذلك فاننا نرى أن مصطلح التسخير أفضل كثيرا فى الاستخدام عن مصطلح التحكم أو التنبؤ اذ التسخير يقصد به ما ترك للانسان الانتفاع به ومعرفته ودراسته فى هذا الكون الرحيب ، وبذلك يكون التسخير صالحا فى التطبيق حيث يشتمل على الفهم والتنبؤ فيما يتعلق بالسموات والارض وما بينهما ، ولا يتعدى ذلك الى الانسان •

التسخير اذن لا يمتد الى وضع قوانين للسلوك الانسانى ، أو تقنين تشريع أجتماعى أو قانونى أو أخلاقى أو نفسى • مثلما يستهدف العلميون عند استخدامهم مصطلحات الفهم أو التنبؤ والتحكم من تسخير الانســـان لمناهجهم المادية وأغراضهم النفعية •

أن التسخير كما يراه المنهج الاسلامى أنما ينسحب فحسب على ما أمر به تعالى وليس التسخير هو تحكم الانسان فى الانسان •

الفصل الحادي عشر

١١ ـــ الرؤيا لا أضغاث أحلام

١١ ــ الرؤيـا لا أضغـاث أحـــلام

الرؤيا كعلم له أصل فى الشريعة الاسلامية اذ أن هناك عديد من الايات البينات قد ذكرت الرؤيا ففى قوله تعالى :

« أذ يريكم الله فى منامك قليلا »

(الانفال : ٤٣)

تأكيدا للرؤيا الحق فقد تفضل الله تعالى على الرسول ﷺ فى منامه فصور له ضعف وقلة جيش الاعداء ليطمئنه ومن معه على أنتصارهم على أعداء الله •• وليثبتهم فى قتالهم •• ولو ترك الله الرسول ﷺ ولم يبشره بهذه الرؤيا لاعتقد فى كثرتهم ، ولتردد فى الامر ، وكان هناك تنازع بين الاقدام على حربهم وعدمه •

كما أن القرآن الكريم يفرق بين الرؤيا والاحلام فى قوله تعالى :

« يا أيها الملأ فى رؤياى »

(يوسف : ٤٣)

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين »

(يوسف : ٤٤)

يقول الرسول ﷺ : « اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانما هى من الله فليحمد الله عليها وليتحدث بها ، واذا رأى غير ذلك مما يكرهه فانما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره •

فهناك أذن رؤى صادقة ، كما أن هناك أضغاث أحـــلام ، فليس كـــل ما يراه الانسان فى المنام صحيحا يجوز تعبيره ، أنما الصحيح منه ما كان

من الله تعالى ، أو يأتى به ملك الرؤيا الذى يدعى «صديقون» أو «روحائيل» أما خلاف ذلك من المنامات فيعد أضغاث أحلام لا تفسير له ولا تأويل (١) •

ويقسم الشيخ النابلسى (٢) • المنامات الى ثلاثة أقسام :

١ — البشرى :

وهى المبشرات أو الرؤيا الصالحة والصادقة • ولقد سأل أبو ذر الغفارى عنها ولقد سمع أبو هريرة — رضى الله عنه — الرسول ﷺ يقول :

« لم يبق من النبوة الا المبشرات : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيـا الصالحـة » (٣) •

٢ — رؤيا تحذيـر :

وهى من تخاريف الشيطان وأفزاعه للنائم ، وهذه رؤيا باطلة لانـه لا يعقل أن يفزع الله النائم أو يخيفه • يقول الرسول ﷺ :

اذارأىأحدكمالر ؤيا يكرهها فليبصق على يساره ثلاثا •• ويستعذ بالله من الشيطان ثلاثا ، ويتحول عن جنبه الذى كان عليه (٤) •

٣ — رؤيا امانى النفس :

وهى أحلام النفس وأمانيها ،وهى تعد رؤية باطلة •

اذن هنالك فرق بين الرؤيا والاحلام ، فالرؤيا لا تكذب ، والحـلم لايصدق •• والحلم بهذا المعنى هو الرؤيا الباطلة لقوله تعالى :

---

(١) الشيخ ابن شاهين الظاهرى — الاشارات فى علم العبارات ص٣—١٣

(٢) الشيخ عبد الغنى النابلسى — تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١—٨ •

(٣) رواه ابو هريرة — رضى الله عنه •

(٤) رواه مسلم عن جابر •

« بل قالوا أضغاث احلام ، بل أفتراه بل هو شاعر »

(الانبياء : ٥)

والحلم أو الرؤيا الباطلة تنقسم الى سبعة أقسام :

١ — حـــديث النفـــس :

حديث النفس تعبير عن أمانى النفس أو تمنياتها ورغباتها الدنيوية وحظوظها الشهوية •• وأضغاثها •• وخيالاتها •• مثل أن ينام النائم وفى نفسه لذة محرمة ، أو رغبة كاذبة ينزع الى تحقيقها •• ويود أشباعها ••• وكل أمانى النفس لا يعول عليها لانها من الشيطان •• وأن الله تعالى ينسخها فلا تحقق كما أنهاكأحلام ليس لها من تفسير لقوله تعالى :

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم »

(البقرة : ١١١)

« الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان »

(الحج : ٥٢)

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وأرتبتم وغرتكم الامانى »

(الحديد : ١٤)

الحـــلم الموجب للاغتســـال :

وهو الحلم الذى يتوجب فيه الطهارة من الجنابة ، وليس لهذا الحلم عند الائمة تأويلا ، الا أن الامام ابن سيرين [١] • يرى أن الجنب أو المرأة الحائض يمكن أن ترى رؤيا صادقة فلا تخل الجنابة أو الحيض بصحة الرؤيا

---

(١) الامام ابن سيرين — منتخب الكلام فى تفسير الأحلام ص ١٨ هامش كتاب تعطير الانام ••

فى ذاتها ، وانما المدار على موضوع الرؤيا ، فاذا كانت تتعلق بمواقعة أو علاقة محرمة فانها تعدمن الاباطيل ، ومن تحسين الشيطان للفواحش :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء »

(البقرة : ٢٦٨)

٣ ـ تهاويل الشيطان :

أحيانا يتسلط الشيطان أو يسلط أتباعه على النائم ليفزعـه ويرعبه ويخيفه ويهول اليه الامر ويلقى الحزن والغم والهم فى قلبه ليخيفه وقد ورد فى ذلك قوله تعالى :

« أنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا ألا بأذن الله » (المجادلة : ١٠)

« فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا »

(النساء : ٧٦)

٤ ـ افعـال السـحرة :

يقوم بعض السحرة من الانس أو الذين يعوذون بالجـن فى بعض أعمال السحر والممارسات النفسية ، لاستجلاب منافع •• أو موافقة بعض الرغبات الضالة المنحرفة •• ويستعين السحرة ببعض الرموز والطلاسم والادعية والتعاويذ والاوفاق لتنفيذ مآربهم ، ويدخلونها أحيانا فى روع النائم •• وقد ورد ذلك فى قوله تعالى :

« وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

(الجن : ٦)

« فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى »

(طــه : ٦٦)

« يعلمون الناس السحــــر »

(البقرة : ١٠)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »

(يونس : ٧٧)

« وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا »

(الفرقان : ٨)

٥ ـ غلبــة الطبائــع :

للانسان طبائع أربعة •• الســوداء •• والصــفراء •• والبلغم •• والدم [1] • وعندما تتكدر هذه الطبائع ويختلف بعضها مع بعض ، ويغلب أحداها على الاخرى فان النائم فى هذا الحال يرى بحسب الطبيعة الغالبة عليه •• فاذا كان غاضبا •• كان حلمه عدوانا أو أنتقاما أو كيدا • واذا كان خائفا كان كدرا وغما أو حانقا فيكون حلمه حسدا وحقدا •• وان كان راغبا فى شهوة محرمة كان فحشا وفجرا وفســقا •• ولذلك تعد هذه الرؤى من الاباطيل التى لا تفسر لها ••

يقول على ـ كرم الله وجهه ـ : « لا رؤيا للخائف الا ما يجب »•• ومعنى ذلك أن أفزاع النائم أو تخويفه لايعد من الرؤيا ، أما اذا كان مايراه النائم فرجا لغمه ـ وتفريجا عن كربته ، كانت من الرؤيا الحقة لانها تبشير له بذهاب الحزن والخوف •

---

(١) ابن القيم الجوزية ـ الروح ص ١٠ ـ ٧٠ •

٦ ــ الذكريات القديمــــة :

يقول بعض الائمة أن الذكريات القديمــة جدا ويسمونها بالرجــع ، والتى يرى صاحبها نفسه فيها فى زمن مضى منذ عشرين عامــا أنها من الاضغاث والاباطيل .. كأن يرى النائم نفسه فى المنام صبيا صغيرا ، رغم أنه شيخ فى الخمسين من عمره .

ــ الحلــم الشيطانى :

أحيانا يتعرض الشيطان للانسان بوسوسته لصرفه عما أمره الله ، كأن يغضب ، أو يحسن له أفعــال الشر فى النوم فيوســوس له ، برفــع التكاليف ، ويغويه بالافطــار فى رمضــان ، أو الزنــا .. أو غير ذلك من الفواحش ، ولا يعد ذلك من الرؤيا ، لانه أمر منكر ونهى عن المعروف :

« ان الشيطان ينزغ بينهم »

(الاسراء : ٥٣)

« وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله »

(فصلت : ٣٦)

أما الرؤيا الحق فهى على خمسة أقسام :

١ ــ الرؤيا الصادقة :

وهى الرؤيا الظاهرة الصدق ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهى واردة فى قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين » (الفتح : ٢٧)

فالرؤيا الصادقة بهذا المعنى هى من الله مباشرة بدون واسطة ... كما أنها لا تحتاج الى تعبير ولا معبر أو مفسر والرؤيا الصادقة نجدها أيضا فى قصة سيدنا أبراهيم — عليه السلام — فى قوله تعالى على لسانه :

« يا بنى أنى أرى فى المنام أنى أذبحك »

(الصافات : ١٠٢)

وفى قوله تعالى :

« وناديناه أن يا أبراهيم قد صدقت الرؤيا »

ورؤيا يوسف — عليه السلام — فى قوله تعالى :

(الصافات : ١٠٥)

« يا أبت أنى رأيت أحـد عشر كوكبا والشمس والقمـر رأيتهم لى ساجدين »

(يوسف : ٤)

روى محمد بن وزير هذه الرؤيا :

« رأيت النبى ﷺ فى المنام فدنوت منه وقلت : السلام عليك يا رسول الله فقال لى : وعليك السلام يا محمد بن وزير . ألك حاجة ؟ .. قلت :نعم يا رسول الله . دعوات أدعو بها فى سفرى ، وفى حضرى ، وأستعين بها على أمورى فقال لى: أقعد .. هنا عليك ثلاث دعوات .. فادع بها فى كل وقت شدة ، وفى دبر كل صلاة .. قل :

« يا قديـــم الأحســـان »

« ومن أحسانه فوق كل أحسان »

« ويا مالـــك الدنيـــا والاخـــرة »

ثم التفت فقال « أجتهد أن تموت على الاسلام والسنة ، وعلى حب هؤلاء .. أبو بكر .. وهذا عمر .. وهذا عثمان .. وهذا على . فانه لاتمسك النار » (١) .

٢ الرؤيا الصـالحة :

وهى بشرى من الله الى العبد ليحيى فى نعمة وسرور ويثبت بها الله سبحانه وتعالى قلبه ، وقد سأل أبو ذر الغفارى الرسول ﷺ عن المبشرات

« هى رؤى يراها المؤمن ، فتتحقق له » .

وقد بينها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فى قوله :

« فلما أن جاء البشير القاه على وجهه »

(يوسف : ٩٦)

« فلما ذهب ابراهيم الروع وجاءته البشرى »

(هـود : ٧٤)

وقوله تعالـى :

« لهم البشرى فى الحياة وفى الاخرة »

(يونس : ٦٤)

ومن المبشرات ما هى تحذير من الوقوع فى الذنوب ، والتنبيه على الغفلات والزجر عن المخالفـات ، ، فهى بمثابة أنذار من الله تعالى للعبد ، وعون له فى تجنب الخطيئة ، والبعد عن الهوى ، وهى تعد بهذا المعنى طريقا للصحة النفسية فى الدنيا والاخرة ، وقد وردت فى قوله تعالى :

---

(١) عن الصـابونى وذكـره المحب الطبرى فى الرياض النضرة ص ٤٣ الجـزء الاول .

« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين »

(الكهف : ٥٦)

والمرسلون أما أن يكونوا أنبياء أو ملائكة كملك الرؤيا الذى يبشر وينـذر .

روى عن أبى حذيفة (١) قال طلبت النبى ﷺ فوجدته فى حائط من حوائط المدينة ، نائما تحت شجرة ، فكرهت أن أوقظه فوجدت عسيبا (أى جريدا — وهو سعف النخل) فكسرته فاستيقظ النبى ﷺ فقال لى : أبشر بالجنة ، فجاء أبو بكر فاستأذن من وراء الحائط فرد السلام وبشره بالجنة ، ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك وبشره بالجنة ، ثم جاء عثمان ففعل مثل ذلك وبشره بالجنة ،ثم جاء على ففعل مثل ذلك (٢) .

وقد ورد عن الرسول ﷺ هذا المعنى اذ قال : ألا أنبئكم برجالكم من اهل الجنة ،قلنا بلى يا رسول الله ، قال : النبى فى الجنة ، والشهـيد فى الجنة ، والذى يزور أخاه فى الجنة (٣) .

وقد ثبتت الصديقية لابى بكر والشهادة للثلاثة ...

كما روى عن عائشة بنت سعد ابن أبى وقاص أنها قالت : سمعت أبى يقول : « رأيت أبى فى المنام قبل أن أسلم بثلاثة أيام ، كأنى فى ظلمة لاأبصر شيئا ، ثم أضاء لى قمر فتبعته ،كأنى أنظر الى ما سبقنى الى ذلك القمر ، فانظر الى زيد بن حارسة والى على بن أبى طالب والى أبى بكر .. وكأنى

---

(١) هو حذيفة بن اليمان . احد المبشرين بالجنة رضى الله عنه .
(٢) اخرجه خثيمة بن سليمان وذكره الطبرى فى الرياض النضرة ص ٤٥
(٣) اخرجها بو بكر الاسماعيلى فى معجمه .

أسألهم : متى أنتهيتم الى ها هنا ثم بلغنى أن رسول الله ﷺ يدعـو الى الاسلام فى اخفاء .. فلقيته بعد صلاة العصر فسألته . الى من تدعو ؟ قال تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟ ... قلت أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. » ولقد تحققت هذه الرؤيا مباشرة فلم يسبق سعد الى الاسلام الا من رآهم فى منامه (١) .

كما روى ابن عباس أنه رأى النبى ﷺ فى المنام على « برزون » وعلى رأسه عمامة من نور ، وبيده قضيب من الفردوس ، فقلت يا رسول الله : أني فى شوق الى رؤياك ، وأراك مغادرا ، فالتفت ألى وتبسم ثم قال : ان عثمان ابن عفان أضحى عندنا فى الجنة ملكا عروسا وقد دعينا الى وليمته وها أنا مبادر اليه (٢) .

كما روى ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعـد طلوع الشمس فقال : رأيت قبل الفجر كأنى أعطيت المقاليد والموازين فأما المقاليد فهى المفاتيح وأما الموازين فهذه التى يوزن بها . فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فوزنت بهم فرجحت ، ثم جىء بأبى بكر فوزن بهم فرجح ثم جىء بعمر فوزن بهم فرجح ، ثم جىء بعثمان فوزن فرجح ، ثم رفعت (٣) .

ويعلق المحب الطبرى على هذه الرؤيا التى لا تحتاج الى تعبير أن

---

(١) الرياض النضرة ـــ ص ١٧٦ .

(٢) عن ابن عباس من حـديث الملا ، وذكره الطبرى فى الرياض النضرة ص ١٧٦ جـ١ .

(٣) ذكره أحمد فى مسنده والقـزونى الحـاكمى فى الاربعين والطبرى فى الرياض النضرة ص ٥٣ جـ١ .

الرسول ﷺ • قد رجحت كفته على الامة ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم رفع الميزان وهذا اشارة الى الاختلاف بين المسلمين الذى حدث ••

كما روى عن أبى بردة أنه رأى فى المنام كأن ناسا جمعوا ، فاذا فيهم رجل يعلو فوقهم بثلاثة أذرع ، فقلت : من هذا ، قالوا عمر ، قلت ولم ؟ قالوا : لانه فيه ثلاث خصال :

١ — لا يخاف فى الله لومة لائم •••

٢ — وخليفة مستخلف •••

٣ — وشهيد مستشهد •••

وقد قصصت هذه الرؤيا على أبر بكر الصديق ، فدعى عمر بن الخطاب وبشره ثم قال أبو بكر — رضى الله عنه — أقصص رؤياك ، فأعدتها الى أن بلغت خليفة مستخلف ، فنهرنى عمر وقال : تقول هذا وأبو بكر حى •

ولما ولى عمر الخلافـــة فبينما هو على المنبر دعانى وقال : أقصص رؤياك ، ، فقصصتها فلما بلغت ••• « لومة لائم » قال عمر : أنى لارجو أن يجعلنى الله منهم ، فلما قلت : خليفة مستخلف ، قال : قد أستخلفنى الله •• وأسأله أن يعيننى على ما أولانى ، فلما ذكر شهيد مستشهد ، قال أنى لى بالشهادة وأنا بين أظهركم ، تغزون ولا أغزو ثم قال : بلى •• يأت الله بها أن شاء الله ، يأتى بها أن شاء الله •

٣ الرؤيا بطريق ملك الرؤيا :

وهى الرؤيا التى يراها الانسان عن طريق ملك الرؤيا ويسميه الامام ابن سيرين [١] (روحائيـــل) ويسميـــه الشيخ الامـــام النابسى [٢] (صديقون) ، وهذا الملك هو الذى جعله الله يضرب الامثال بالرؤيا ، كما هو مودع فى علم الغيب ، ومسطور فى اللوح المحفوظ ، ومما هو كائن من خير أو شر وهذا الملك يعرفه الله سبحانه وتعالى بكل شىء ، وبدوره يعرف الانسان ويبشره وينذره ويعلمه ، وهذا الملك أما أن يبشر برؤية حسنة وتأتى للرائى فتتحقق فى الواقع بعد أيام ليكون الرائى فى نعمة وسرور ، أو يبشر برؤيا منذرة ، وهى التى تتحقق مباشرة بعد الرؤيا لكى يعيش الرائى مغموما ..

روى أن الرسول ﷺ كان كارها موافقة النصارى أن يضرب بالناقوس فى وقت الاذان ، فرأى عبد الله بن زيد هذه الرؤيا فقال : رأيت أنه قد طاف بى فى الليل رجل وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس ، فقلت له : أتبيع الناقوس ؟.. فقال : وماذا تصنع به ؟.. قلت : أدعو به الى الصلاة ، قال : ألا أدلك على خير من ذلك ، فقلت : بلى ، قال : تقــول الله أكبر... الله أكبر .. الى آخر الاذان ثم تقول اذا قمت الى الصلاة الله أكبر .. الله أكبر ، وسرد الاقامة الى آخرها ، فلما أصبح عبد الله بن زيد أخبر الرسول ﷺ بما رأى ، فقال ﷺ أن هذه الرؤيا حق أن شاء الله ، فقم مع بلال ودعه يوذن بما رأيت ، فانه أندى منك صوتا ...

---

(١) ذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة جـ١ ص ٢٧٥ـــ٢٧٦ .
(٢) ابن سبرين ، منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ص ٣ـــ٧ .
(٣) النابلسى ـــ تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١ـــ٨ .

ثم أذن بلالا فى المسلمين فسمعه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فخرج من بيته قائلا : والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى (يقصد أبن زيد) فقال ﷺ : فلله الحمد (١) .

كما روى أن سعد ابن أبى وقاص قال : رأيت عن يمينى النبى ﷺ وعن شمالى يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد ، (يعنى جبريل وميكائيل) (١) .

كما قال رسول الله ﷺ : رأيت كأنى فى غنم سـود ، ردفتهـا (أى تبعتهـا) ، غنم بيض ، فلم أستبن السـود من البيض ، قال أبو بكر : يا رسول الله هذه العرب ولدت فيها ثم تدخل العجم فلا تستبين العرب من كثرتهم قال :كذلك عبرها الملك (٢) . (ملك الرؤيا) .

٤ — الرؤيا الرمزية :

وهى من الروح وتحتـاج الى مفسر أو معين يبين معانيها ويشرح مدلولها ، وهناك شروط سنذكرها فيما بعد ، يجب أن تتوافر فى المعبر الذى يفسر الرؤيا الرزمية ، ويمثل النابلسى للرؤيا الرمزية بالرجل الذى رأى ملكا من الملائكة فقال له ؟ ان امرأتك تريد أن تسقيك السم ، فحدث أن صديقا له زنا بزوجته ، وكانت رؤياه تعبير صادق عما حدث ، اذ أن السم مستور ، كما أن الزنا مستور ...

---

(١) اخرجه احمد وابو داود والترمذى وابن اسحاق .
(١) اخرجه ابو حاتم والمحب لطبرى .
(٢) اخرجه سعيد بن منصور فى سننه والحاكم ابن عبـد الله بن الربيـع واللفظ له وهـو مرسـل .

عن ابن عباس أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أنى رأيت فى المنام سحابة تسقط عسلا وسمنا ، والناس يمدون أكفهم منهم المقـل ومنهم المستكثر فى الطلب ، ثم رأيت سببا (حبلا) وأصلا من السماء الى الارض ، فأمسكت به وعلوته ، وأمسك به بعدى آخر وعلاه ثم جاء ثالث وعلاه أيضا ، واذا بشخص رابع يمسك بالحبل فينقطع ، ثم أوصل الحبل فاعتلاه فعلا (أرتفع به) ، وكان يحضر مجلس الرسول ﷺ أبوبكر — رضى الله عنه — فقال : أتركنى أعبر هذه الرؤيا يا رسول الله قال : عبرها ، قال أبو بكر : أما الظلة •• فالاحلام ، وأما السمن والعسل فهو القرآن وحلاوته أما من يمدون أكفهم •• منهم المقل ومنهم المكثر فى الاخذ من القرآن ، وأما الحبل فهو الحق الذى أنت عليه •• أخذت به فعلوت وأخذ به آخر فعلا ، ثم أخذ به آخر فانقطع ثم وصل له فعلا ••

كما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : رأيت كأنى أعطيت قدحا كبيرا مملوءا لبنا ، فشربت منه حتى أمتلأت ، فرأيتها تجرى بين عروقى بين الجلد والعظم فتفضلت منها فضلة فأعطيتها أبابكر ، قالوا : يارسول الله هذا علم أعطاه الله لك حتى اذا أمتلأت منه فضلت فضله فأعطيتها أبا بكر ، قال : قد أصبتم (١) .

٥ — الرؤيا بالشهود :

وهى الرؤيا التى تجعل من الخير شرا ، ومن الشر خيرا ، وهى التى تصح للصبى والمؤمن والكافر ، كرؤيا يوسف — عليه السلام — وهو صبى

---

(١) عن ابن عمر ، واخرجه ابن حاتـــم . . .

لم يتجاوز السابعة ورؤيا فرعون مصر وهو كافر فى قصة سيدنا يوسف — عليه السلام — ومثال الرؤيا بالشاهد كمن رأى أنه يقرأ القـرآن فى الحمام ، أو أنه يرقص ، فانه يشتهر فى أمر فاحش ، أو فى معصية ، لان الحمام مكان لا تدخله الملائكة ، وهذا التباس الخير بالشر .

روى سيدنا على — رضى الله عنه — لابنه الحسن فى اليوم الذى قتل فيه : «يا بنى رأيت النبى ﷺ فقلت له يارسول الله ما لقيت من أمثلة من اللارواء واللدود (أى الشدة والخصومة) فقال : أدع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى ، ثم أنتبه وخرج للصـلاة فقتله ابن ملجم [٢] .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة فيما يختص بالرؤيا عن الرسول ﷺ منهـا :

١ — « من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله » .

٢ — « لم يبق من النبوة الا المبشرات يراها المؤمن أو ترى له » .

٣ — « أصدقكم حديثا ، أصدقكم رؤيا » .

٤ — « اذا أقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن ولا ينبغى لاحد أن يكذب فى رؤيا » .

٥ — « ان من تحلم بحلم لم يره ، كلف أن يعقد بين شعرتين ولم يفعـل » .

(مثل من يصلى ولم يصم أو يصوم ولم يصلى)

---

(٢) أخرجه ابو عمر والقلعى عن الحسن البصرى وذكره المحب الطبرى فى الرياض النظرة .

يفصل علم النفس الاسلامى بين الرؤيا والاحلام ، وهذا هو الخلاف الاساسى بين النظرة الاســلامية ، ونظرة علماء النفس الحــديث الذين يخلطون بين الرؤى والاحلام ، ويرون أن كل حلم له معنى حتى وأن كان غير معقول •• اذ أنهم يعتبرون أن كل حلم عبارة عن حل لصراع لا شعورى يبدو فى صورة رمزية ، ويمثلون لذلك بالاب القاسى المعتدى ، فانه يرمز اليه فى الحلم بالثعبان أو بحيوان ضار ، كما أن الاب بوجه عام يظهر فى الحلم فى صورةرجل شرطة أو ملك أو أى شخص صاحب سلطة • كما يرمز للام بالارض أوالملكة ، وللاطفال بالديدان والحيوانات الصغيرة ، وللموت بالرحيل والفراق ، أوا لوصول للمحطات النهائية ، وأما صعود السلم أو نزوله فهو تعبير عن الافعال الجنسية ، والاشياء المستطيلة والمدببة ، وحرف ٣ هى رمز للاعضاء التناسلية ••

ويرى بعض علماء النفس [1] ، أن ظهور الاحلام فى صور رمزية ، أنما هى حماية للنائم ومعونة له على النوم ، وذلك أن الرغبات المحظــورة والمكبوتة لو ظهرتسا فرة صريحة لازعجت النائم وأيقظته ، لذلكترى فى حال النوم فى أشكال ملتوية رمزية •

وينتهى هؤلاء العلماء الى القول بأن المرض النفسى حلم طويل ، وأن الحلم ما هو الامرض نفسى قصير الامد ، ثم يخلصون الى أن عملية تفسير الاحلام مثلها كمثل تحليل الاعراض المرضية تحتاج الى حل لهذه الطلاسم والرمــــوز •

---

(١) د • عزت راجح — الأمراض النفسية والعقلية ص ٢٤٨ •

ولكى نفهم ما يرمى اليه فرويد ، يجب أعتبار أن الحلم مرض نفسى قصير الامد ، ولذلك فان علينا أن نشير الى بعض تعريفات فرويد للاحلام .. فهو يرى فى أكثر تعريفاته للاحلام أيجازا أن الحلم هو قنـاع يحقق رغبة مكبوتة .

وتعريف الحلم بهذا المعنى يجب أن يشتمل على المظهر الكلى للاحلام المستتر منها وغير المستتر ، أى الذى يتعلق بالاعمال ، وكذلك الحلم الجلى الواضح وهى يراها جميعا مركبات لمكونات من أجزاء متعددة .

ويعتبر فرويد أن الحلم الذى يتعلق بالاعمال والانشطة ، هو أكثر أجزاء الحلم جوهرية ، ذلك أنه من خلال فهم الشروط والقواعد يمكن معرفة مضمون الحلم الكامن أوا لمستتر الذى تمكن فيه على حد قوله ، الحقيقة والرغبة المقنعة أو المتنكرة .

وخلاصة ما يهدف اليه فرويد بنظرية الاحـلام ، أن الاحـلام هى تحقيقات وهى تخـدم وتحافظ على النوم ، وذلك فى سبيل تحقق الرغبات المكبوتة ، وقد قبل كثير من علماء النفس هذه الفكرة القائلة بأن الحلم هو رغبة ثابتة تريد أنتتحقق لانهم تصوروا أن الاحـلام هى نتاج للمجـال اللاشـعورى الذى لا يعرف لنشاطـه غاية غير تحقيق الرغبات المكبوتة والدوافع المرغوب فيها .

ولهذا السبب يقول فرويد أن تعبير الاحلام أنما هو الطريق الملكى لمعرفة النشاط اللاشعورى فى العقل الانسانى .

ويضرب فرويد مثلا للحلم الغير معقــول والذى يرى أن له تفسيرا فيقـــــول [١] .

« اذا حلم أحد أن هناك منزلا وعلى سطحه بالخرة ، ورأى حرفا من الحروف الابجدية ، ثم رأى شخصا يجرى منزوع الرأس » .

فيقول : اذا أردنا أن نوفق فى تعبير هذا الحلم ــ الذى هو لغز ــ يجب أن تستبعد الانتقادات الموجهة اليه ، وبذلك يمكن أن نركب من عندنا صورة شعرية رائعة لهذا الحــلم فالحلم هو لغز مصور من هذا القبيل ، ويستطرد قائلا :

« أن افكار [٢] الحلم الكامنة قد ظهرت لنا فى هذه الصــورة كمعنى رمزى ولا يمكن ترجمة هذا الرمز الا بتطبيق قاعدة التداعى المطلق ، وذلك بتحديد العناصر التى يومىء اليها الحلم أو يدل عليها دلالة ملتوية ، فمتى حصلنا على هذه العناصر ، تمكننا من فهم الحلم وعرفنا مقصده على وجه الدقـــة .

أما اذا وضعنا هذا الحلم حسب النظرية الاسلامية فى تعبير الرؤى فاننا نجد أن هذاالحلم يضاف الى الشيطان ، ولا معنى له ولا تفسير تصديقا للحديث النبوى :

« أن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » .

ونحن نرى أن هذه الصورة التى يتمثل بها فرويد هى نوع من الحلم المفزع والمرعب الذى يحمل الخديعة والخوف ، ولا يمكن أن يكــون ذلك

---

(١) فرويد ــ تفسير الاحلام ص ١٢٩ ــ ٢٩٢ ترجمة الاستاذ مصطفى صـــــفوان .

(٢) المرجع الســـابق .

الا من الشيطان ، ومن ناحية أخرى فان أمكان تفسير الاحلام عن طـريق التداعى الحر أنما هو تفسير لامانى النفس ومخاوفها ، ولا يصلح دليـلا على الصدق والحق .

كما أن شروط المفسر أو المعبر أن يكون عالما بكتاب الله ، فطنا ، ذكيا تقيا ، فلا يصلح أن يفسر الرؤيا أذن من يسقط نخرته على الغير ، ويتدخل بفكره الذاتى فى تأويل الرؤيا والاجتهاد الفردى فيها بلا سند مؤيد أو أصول من القرآن والسنة .

أما النظرة الاسلامية فى تأويل الرؤيا تعتمد أساسا على كتـاب الله وسنة رسوله .

والملاحظة الثانية التى نراها جديرة بالاهتمام أن فرويد وتلامذتـه يفسرون الاحلام من منطلق غريزى لا يشذون عنه ابدا ، وهو أرتبـاط الاحلام بالميول الكامنة والدوافع والغرائز الخفية والانفعالات والرغبات المكبوتة والاحساسات السابقة ، وينتهون الى تعريف الاحلام بأنها تعبير عن العقـل الباطن أو اللاشعـور أى أن الحلم هو نوع من المكبوتات تظهر وجودها فى الحلم كرغبة لم تشبع بعد ، فهى نوع من الارضـاء الخيالى للرائى (١) .

ويجتهد بعض علماء النفس ، فيرون أن الاحلام يرجع فى تفسيرها الى المخاوف التى يعانى منها الرائى وحدها ، بل يدعون أنها ربما تنجم عن محاولة حل المشاكل اليومية .. وهذا بخلاف النظرة الاسلامية اذ أن ربط الرؤيا بما يرغب أو يود الشخص تحقيقه هو نوع من الاضغاثات (٢) .

---

(١) أرنست جونز — التحليل النفسى ص ٥٣—٥٧ ترجمة د.م. الشنيطى
(٢) تفسير الاحـلام ص ٣—٧ .

لقد عرضنا لرأى أصحاب مدرسة التحليل النفسى لنبين الى أى حد يختلف المحللون النفسيون بعضهم مع بعض فيما يتعلق بالاحلام ، وليس هنا رأيا واحدا يتفقون عليه للتعبير عن الاحلام وتفسيرها .

وكما سبق القول ، فليس هنــاك فى الواقع تفسيرا لحــديث النفس ولا لمخاوف الشيطان ، كما أتفق الائمة على أنها من الاباطيل ، وأنها من عمل الشيطان أو مماتريه الطبائع اذا أختلفت وتكدرت ، وجميعها تسمى بالاضغاث لاختلاطها بعضها ببعض ، مثل الحــزمة التى يختلط حابلهــا بنابلها .

أما فيما يتعلق بالمبشرات فهى رؤى صادقة أو صالحة من الله مباشرة يثبت بها الله قلب الرائى ليحيا فى نعمة وسرور ، وهى من أسباب الصحة النفسية لانها تعلم وتهدى وتهدى وتنذر فتبين الطريق الى الحق وتجنب طريق الباطل .

ولقد كانت السيدة عائشة — رضى الله عنها — اذا أخذت مضجعها « اللهم أنى أسألك رؤيا صالحة .. صادقة غير كاذبة .. نافعة غير ضارة .. وحافظة غير ناسية » (١) .

وهذا معناه أن الرؤيا على دربين ، حق .. وباطل ، والباطــل هى الكاذبة .. والضارة .. والمشوشة .. والتى ينساها أو ينسى بعضها الرائى عند يقظته .

فهناك أذن رؤيا مضافة لله — سبحانه وتعالى — ورؤيا مضافــة الى

---

(١) النابلسى — تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١ — ٨ .

الشيطان والنفس ، كما أن هناك رؤيا صادقة لا تحتاج الى تفسير ، ورؤيا رمزية مضرة تودع فيها الحكمة والانباء وتحتاج الى معبر عالم ليفسرها بالقرآن والسنة •

أما الاحلام التى لا حكمة فيها سواء كانت أمانى أو مخاوف فانها تعود الى رائيها ولا معنى لها •

ويختلف علماء النفس الحديث فى تفسير الاحلام أختلافا بينا ، فيرى بعضهم أن الحلم هو تحقيق لرغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها فى اليقظة ، ويخالفهم نفر آخر فى هذا الرأى ، ويفسرون الحلم على أعتبار أنه أنذار لصاحبه عن الجريمة التى أرتكبها من قبل •

ويرى البعض الاخر أن الحلم هو أعداد لحل المشكلات التى تواجه الانسان أو أنه خداع المرء لنفسه (٢) •

أما « يونج » تلميذ فرويد ، فيزعم أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية فى مقابل الحياة الشعورية التى يحياها الانسان ، بهذا المعنى يكون الحلم ليس تعبيرا عن الرغبات الجنسية اللاشعورية فحسب ، بل ويشتمل على القيم الاخلاقية الشعورية أيضا •• فالحلم يمثل عندهم عذاب الضمير ، أو العقاب ، لذلك فانه ينتهى الى أن الاحلام لهذا السبب لا تفزع وترعب الانسان وتخيفه •

ويضيف « يونج » أن رؤية الحيوانات الكاسرة فى الاحلام أنما تمثل ذكرى الحياة التى كان يعيشها الانسان فى الغابة ، أو بمعنى آخـر للحياة البدائية •

---

(٢) د . أحمد فؤاد الاهوانى ـ النوم والارق ص ٩٧ ج ١ •

والواقع أن هناك تخبطا فى آراء اصحاب التحليل النفسى .. بل وحيرة ذلك لانهم خلطوا بين الرؤيا والحلم ، ولم يتنبهوا الى أن لكل منها بواعث مختلفة ، فجاءت تفسيراتهم غير منسجمة مع بعض ، بل غير مقبولة منطقيا أو واقعيا .

أما علماء النفس الاسلامى فهم يأخذون عن الله تعالى ويقيســون الرؤى بما ورد عنها فى كتابه العزيز من آيات ، لذلك فان فهمهم للرؤى فهم واضح جلى لا خلط فيه ولا التباس ، فاذا كانت الرؤيا تدل على الفواحش والقبح فلا تقص ولا تعبر ولا تروى ، ويرون أن النفس اذا تجردت عن الشواغل والانغماس فى الشهوات الحسية فان الله يضرب بالرؤيا أمثلــة يراها العبد حسب استعداده ، وذلك عن طريق ملك الرؤيا فيتحقق فى الواقع ما يراه النائم ، كما يرى بعض أصحاب التحليل النفسى ، وتمنعه من النوم ولا تعينه على الاستمرار فيه ، وأنما كما يقول سيدنا على — كرم الله وجه — عن الرسول ﷺ :

« ما من عبد ينام يمتلىء نوما الا عرج بروحه الى العرش » [1] .

هذا يدل على أن من لا ينام نوما ممتلئا ، أى الذى يفزع عند النوم ، فان رؤياهكاذبة ، أو حلمه لا يتحقق فى الواقع ، وليس له من تأويل أو تفسير ...

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

---

(١) الامام ابو حامــــد الغــزالى — احيــاء علــون الدين ج ١٦ ص ٢٩٤٥ وما بعدها — كتاب الشعب .

« عجيب لرؤيا الرجل ، يرى الشىء ما يخطر له على بال فيكون آخذا به ، ويرى الشىءفلا يكون شيئا » (١) .

وهذا يعنى أن بعض الناس يرون أشياء تتحقق لهم رغم أنها لم تخطر على بالهم أثناء اليقظة ، وفى الحياة اليومية ، ولم تكن رغبات مكبوتة أو دوافع مخبوءة — كما يدعى أصحاب التحليل النفسى — ومن ناحية أخرى فان هناك بعض الناس يرون فى حالة النوم أشياء لا تتحقق ولا يحدث لها فى الحياة اليومية أثرا ...

الرؤيا والصحة النفسية :

يرى بعض الائمة أن الرؤيا هى باب للتائبين والصالحين والزاهدين ، وأن أسباب التوبة ترجع أحيانا الى أنذار فى شكل رؤيا أو بشرى من الله أو من ملك الرؤيا ، فينصلح حال الرائى ويدخل فى طريق الله ..

وفى الرؤيا غير الحلم،يبرز دور القلب .. لانه هو الذى ترد عليه أنوار الكشف فينعكس ذلك فى ساحة الصدر لتراه عين الفؤاد لا عين العقل ، فيتم أدراك الرؤيا بنفسه (٢) .

فالانسان فى النوم تخرج نفسه عندما تكون خالية من أشغال البدن منصرفة عن دواعى الشهوات ، فيسمح لها أن كانت على طهارة أن تسجد تحت العرش ، فاذا عادت قصت ما شاهدت من رؤى شريفة (١) .

ويبين لنا بعض الائمة أن النفس الانسانية أذا أنصرفت عن شهواتها ،

---

(١) الامام ابن القيم الجوزى — الروح ص ٢٩ — ٣٣ .

(٢) المرجع السابق .

تهيأ لها استقبال الرؤى الصادقة ، أما اذا كانت سائرة فى غواية الشيطان ، فانها تصادف الشيطان فيلقى فى روعها ما يفزعها ويخيفها .

والرؤيا الكاذبة هى أحلام ليس فيها علاقة بين الصور الخيالية الجزئية وبين المعانى الكلية ، لذلك فهى تعبير فى غير محله ، لا تؤدى الى علم ولا تتحقق فى الواقع القريب أو البعيد .

اذن .. فرؤيا المؤمن هى كلام الحق تعالى لعبده ، ولذلك يرى كثير من الائمة أنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، أما الكلام على القلوب فى اليقظه أو الذى يسمى عند علماء النفس بأحلام اليقظة .. فهو أكثر من ثلث النبوة [1] .

وتصدق الرؤيا عندما توافق أحكام الشرع ، وعندما ترد فى آخر الليل أو أول النهار ويحكم على صدقها عندما تكون لحكمة أو لسبب شرعى .

ولقد أجمع الصوفية على أن الله لا يرى فى الدنيا بالابصار ولا بالقلوب الا من جهة الايقان ، لان ذلك يعتبر غاية النعيم ، ولو أعطوا فى الدنيا أفضل النعم ما كان فرق بين الدنيا الفانية والاخرة الباقية .

والدنيا هى دار فناء ، ولا يجوز أن يرى الباقى فى الدار الفانية ، فلو رأوا الله — سبحانه وتعالى — فى الدنيا لكان الايمان به ضرورة .

فالرؤيا اذن بهذا المعنى تختلف عن الحلم ، لانها لا تتعلق باحساسات أو ميول أو حوادث سابقة أو مصاحبة ، وأنما تتعلق فى حقيقة الامر بجزئيات لاحقة وأحداث متحققة ، وهذا بخلاف ما تذهب اليه مدرسة التحليل النفسى بما يتعلق بالاحلام من أنها تعبير عن رغبات مكبوتة أو أنذار

---

(١) الامام ابن سيرين — منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ص ٣ر٨ .

لاحداث وقعت للنائم أو عقاب له على أفعال أرتكبها ، أو تعليق على الاحداث الجبريـــة •

وعلى هذا فالرؤيا طريق الى الصحة النفسية ، فهى بشرى للمؤمن ليقوى قلبه كما أنها ثمرة من ثمرات توكله ومجاهداته ، وانذار لما يمكن أن يقصر فيه علمه ، أو يبعده عن الحق والاستقامة والصدق ، فهى بهذا المعنى تعريف بطريق الانسان للوصول الى السعادة فى الدنيا والاخرة •

الحلـم والاحتـلام :

أما الاحتلام • فانه صورة من صور الاحلام ، تعبر عن أمانى النفس الحسية ويرى الامام الشعرانى [1] ، أن المريد يؤاخذ فى الاحتلام ، اذ أنه أمنية من أمانى النفس تظهر عند النوم — لكون أن الاحتلام لا يقع للمريد الا بعد أستمتاع بصره بالمنظر والتفكير فيما لا يحل له ، فتنشغل النفس بالامانى فى تحقيق ما يلذها ، ولا تجد ذلك الا فى حال النوم فيقع الاحتلام •

وينظر الصوفية الى الاحتلام نظرة المرتاب ، اذ أن أبليس يحاول أن يغرى العبد فى يقظته بالشهوات ، فاذا حيل بينه وبين غوايته ، أتى عنـد النوم مستهدفا أن يشغل خاطر الانسان بالتفكير فى الشهوات ، ليتمكن من السخرية منه ويمنعه من الصلاة والذكر الى أن يتطهر من الجنابة ، بل ربما يمنعه الليلة اذا ماأحتلم بعد العشاء وهو نائم •

ويؤيد الامام الشعرانى رأيه فيما يتعلق بالاحتلام فيقول : « وكذلك لم يبلغنا أن أحد الانبياء أحتلم • وكذلك ممن حفظه الله من الاولياء ، وذلك لعصمة الانبياء وحفظ الاولياء من أن يلعب بهم الشيطان فى يقظة أو منام ،

---

(١) الامـــام الشعرانى — الاخلاق المتبولية ص ١٧٧ تحقيق د • منيـــع عبد الحليم محمـــود •

الا أن الشيطان يلعب بالسالك المبتدىء فى النوم ، وهذا أخف من لعبه بهم فى اليقظة ، فينبغى لهم شكر الله على ذلك •

ويوضح أسباب ذلك فيقول : « واذا قدر أنه وقع لأحد الاولياء أحتلام فانما يكون ذلك فى حليلاته ، وليس فيمن لا يحل له ويرجع ذلك الى ما يتجلى فى قلوب الاولياء من عظمة الله ، وانشغالهم به تعالى ، فيزهدون عن تدبير أبدانهم ، وقد وقع أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أحتلم مرة فى حليلة له ، فاغتسل وقال : « لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم » ، ومعنى ذلك أنه لانشغاله بأمور الرعية عن جماع أهله ، حدث الاحتلام •

وذكر على الخواص — رضى الله عنه (١) — أن الشيخ ابراهيم المتبولى لم يحتلم قط الى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : « من زعم أنه تاب عن الزنا ثم أحتلم بعد ذلك فيما لا يحل له ، فهو لم يتب توبة نصوح ، اذ من شروط التوبة النصوح أن لا يصير للانسان حلاوة تلك المعصية التى تاب عنها » ، فالاحتلام دليل على بقاء تلك المعصية فى قلبه ، فلولا وجود تلك الحلاوة فى قلبه لما تفكر فى هذا الأمر ولا أحتلم •

تعبير الرؤيا :

يرى الامام ابن سيرين (١) • أنه لابد للمعبر للرؤيا أن يكون حاصلا على ثلاثة أنواع من العلوم هى :

---

(١) الامام الشعرانى — الاخلاق المتبولية ص ١٧٧ تحقيق د • منيع عبد الحليم محمود •

(١) الامام ابن سيرين — منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ص ١٨ (هامش كتاب تعطير الانام) •

١ — حفظ الاصــــول :

على المعبر أن يكون حافظا للاصول الشرعية ، عارفا بالقرآن الكريم والسنة المحمدية وتفسيرها ووجوهها وأختلافها وقوتها وضعفها فى الخير والشر حتى يمكن أن يتمكن من الاخذ بالارجح والافضل عند تأويل السائل

٢ — تاليف الاصــــول :

كما أنه يتواجب على المعبر أن يكون قادرا على تأليف الاصول فى آخر الامر بعضها مع البعض حتى يمكن أن يستخرج معنى صحيحا واضحا ، وبذلك يتمكن من أخراج الاضغاث والامانى النفسية وتخـاويف الشيطان وأحزانه من الرؤيا .. فاذا كانت الرؤيا من هذا القبيل . فعلى المعبر أن يتركها .. اذ هى ليست برؤية فلا يجوز أن يقبلها ولا يفسرها .

٣ — التفحص والدراســة :

يجدر أن يقوم المعبر بالتفحص والتمعن والتثبت من الرؤيا قبل تأويل الرؤيا أو تفسيرها ، اذ عليه أن يعرف الرؤيا حق المعرفة ، ويستدل عليها من الاصول ، ومن كلام صاحبها .. كما أن عليه أن يقتدى فى تفسيره بالانبياء والرسل والحكماء ، لان هذا أقرب الى الحق والصواب . ومثال ذلك رؤيا فرعون . سبع بقرات عجاف يأكلهن سبع سمان ، وتأويل يوسف — عليه السلام — السمان بالسنوات الخضر والعجاف بالسنوات الجدب .

ويرى الامام بن سيرين (١) . أنه يتوجب على المعبر أن يتثبت مما

---

(١) الأمام ابن سيرين — منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ص ١٩ (هامش كتــاب تعطير الانــــام) .

يروى له والا يتعسف برأيه وأن لا يأنف من الاعتذار عن تأويلها لعدم معرفته أو لاستشكالها عليه •

ولتعبير الرؤيا أصول متبعة عند المعبرين ، فاذا كانت الرؤيا مستقيمة فانه يمكن تأويلها • أما اذا كانت تحتمل معنيين فعلى المعبر أن ينظر الى المعنى الاقرب •• للفظ والمعنى •• ثم أنه على أساسه يعبر الرؤيا •

أما اذا وجد المعبر أصول الرؤيا صحيحة الا أن بها حشو ولغو ، فان على المعبر أن يترك الحشو واللغو ويقصد الى الصحيح ، أما اذا رأى المعبر أن الرؤيا كلهامختلطة بعضها البعض ولا تلتئم مع الاصول ، علم أنها من الاضغاث التى لا تأويل لها•

كما يجب فى حالة استشكال الرؤيا على المعبر أن يتركها ويعرض عن تفسيرها واذا اختلط عليه الامر طلب من الله كشفه • كما أن عليك أنيسأل الرائى عن ضميره فى رؤيا السفر اذا كان يريد سفرا • وعن عمله اذا كانت رؤياه عن العمل • أو غير ذلك •

وعلى المعبر أن يعبر الرؤيا حسب ضمير الرائى • فاذا لم تكن الرؤيا فى ضميره ، أخذ المعبر الاشياء على ما رآها الرائى مع ملاحظة الطبائع والبينات والعادات ، واذا كانت الرؤيا تقود الى فاحشة ، ستر المعبر تفسيرها ولا يفصح عن معناها للرائى •

يقول الرسول ﷺ (١) •

« اذا رأى أحدكم رؤيا يحبها ، فانما هى من الله فليحمد الله عليها

---

(١) رواه البخارى عن أبى سعيد •

وليحدث بها ، واذا رأى غير ذلك مما يكرهه انما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره » •

أمثلة لتعبير الرؤيا بالقرآن الكريم والسنة :

تعبر الرؤيا أحيانا من اللفظ •• كتأويل « حسن » « أحسانا » واسم فضل • أفضالا ، وسالم • • سالما ، « لفظ الاسم » • •

كما تأول بالمعنى كرجل رأى سقوط أسنانه ، فيعبر على أنه رجل قد قطع قرابته أو لم يصل رحمه وتأول مرة من القرآن ، ومرة من الحديث ومرة من المثل السائد أو الاثر كتأويل رؤيا الصائغ أنه الرجل الكذوب [٢] • من المثل السائد أنهرجل يصوغ الاحاديث •

كما أن هناك تأويل بالضد •• كتعبير البكاء بالفرح •• والضحك بالحزن ، والمرض بالنفاق •• وذلك تمشيا لما يجرى على ألسنة الناس من أن الانسان الذى لا يصح له وعدا يعد مريضا •• تصديقا لقوله تعالى :

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »

(البقرة : ١٠)

كما يعبر بعض الائمة من رأى أنه قد قطعت أعضاءه بأنه سيسافر أو يفارق أهله ، تمشيا مع المثل السائد « تقطعوا فى البلاد » •

وأول ما يرجع اليهفى تفسير الرؤيا فى القرآن الكريم والسنة المباركة ، فاذا وجد المعبر فيهما شاهدا للرؤيا كان ذلك توفيقا من الله ، ومثال ذلك [١] •

---

(١) الشيخ النابلسى — تعطير الانام ص ٧—٨ •

رؤيا السفينة : كأن يرى النائم نفسه راكبا سفينة ، فالسفينة هنا نجاة من الخوف والفزع لقوله تعالى :

« فأنجيناه وأصحاب السفينة »

(العنكبوت : ١٥)

الوقوع فى البئر : كأن يرى النائم وقوعه فى بئر فانه يمكر به لقولـــه ﷺ : « البئر جبار » .

الفصل الثانى عشر

١٢ ــ البصيرة لا الحــــدس

البصيرة لا الحدس

الحدس فى اللغة بمعنى الظن والتخمين ويقال أن هذا الرجل يحدس أى يتقول شيئا برأيه .

ونلاحظ أن المفكرين المحدثين كثيرا ما يطلقون على المعنى الواحد الفاظا متعددة ومثال ذلك كلمة حدس فهى تستخدم بمعنى البداهة أو الاستبصار وبعضهم يترجم اللفظ الانجليزية intuition بكلمة حدس وبعضهم يترجمها بالشعور والبعض يترجمها بالوعى وكأن هناك تداخلا وأختلاطا وأضطرابا وفوضى اذ ليس هناك ما يصطلح عليه أصحاب الترجمة اذ أنهم عجزوا عن تفهم ما ترجموه ، ولا يمكن أن يقال أنه يجب أن يتطور هذا المصطلح العلمى أو غيره تطورا عفويا حتى يصل الى الوحدة لان التطور العفوى قد يؤدى الى الاحتفاظ بألفاظ كثيرة للدلالة على معنى واحد وربما اذا أخترنا لفظا واحدا مترجما باعتباره — فى ظننا — أفضل ما يمكن أستخدامه ربما يكون هذا اللفظ الفائز ليس أحسن ا لالفاظ على الحقيقة والدليل على صدق ما نقول أن لفظ حدس عند الفلاسفة المحدثين يختلف كما سنرى عن الفلاسفة القدماء .

فابن سينا فى الاشارات يرى أن الحدس هو أن يتمثل الحد الاوسط فى الذهن دفعا ، أى بمعنى سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول [1] ويتفق معه الجرجانى على أن الحدس هو سرعة أنتقال الذهن من المبادىء الى المطالب ويرى التهانوى : أن الحدس هو تمثل المبادىء فى النفس مرتبة

---

(١) كتاب النجاة ص ١٣٧ .

دفعة من غير قصد وأختيار ، وربما يقصد تمثل المعنى فى النفس أن الحدس وميض برق كأنه وحى مفاجىء •

وأما معنى حدس عند الفلاسفة المحدثين فله معانى خاصة فهناك حدس عقلى وحدس حسى وحدس نفسى وحدس فلسفى ••• وربما كان هناك حدس باختلاف كل فيلسوف فضلا عن أختلاف كلمة الحدس فى الفلسفة الحديثة عن معناها فى الفلسفة الاسلامية •

ويحدد ديكارت الحدس فيقول : [١]

أنا لا أقصد بالحدس شهادة الحواس المتغيرة ولا الحكم الخداع لخيال فاسد ، أنما أقصد بالحدس التصور الذى يقوم فى ذهن خالص منتبه وهذا التصور يكون من السهولة والتميز بمكان لا يبقى معه مكان للريبة •

أى أن ديكارت يرى أن الحدس هو التصور الذهنى الذى يصدر عن نفس العقل وحده •

وكأن ديكارت يرى أن الحدس عمل عقلى تماما وبه يتم التعرف على حقيقة من الحقائق يدركها الانسان فى زمن واحد •

ويدرك العقل حدسا فى تصور ديكارت ويقسمه أنواع ثلاث ،[١]

١ — وحى الطبائع البسيطة كالامتداد والحركة •

٢ — والحقائق الاولية التى لا تقبل الشك مثل أنى موجود لانى أفكر •

٣ — المبادىء العقلية التى تربط بين الحقائق مثل أن الشيئين المساويين لثالث متساويان •

---

(١) قواعد لهداية العقل — (القاعدة الثالثة) •

(٢) المرجع السابق •

ولذلك سمي ديكارت الحدس النور الطبيعي .

أما كانط فيرى مثل ديكارت أن هناك نوعين من الحقائق :

١ — حقائق العقل .

٢ — وحقائق الواقع .

ويبين كانط فى كتابه نقد العقل الخالص ، أن الحقيقة الجزئية أما أن تكون مثالية فى الحدث العقلى الذى يجمع بين تصور الشىء ووجوده ، وأما مستفادة من الحساسية بصورة قبلية كإدراك الزمان والمكان وأما بعديه كما فى الحدس التجريبى .

وأما شوبنهور [١] يرى أن الحدس هو المعرفة الحاصلة فى الذهن من غير نظر أو أستدلال عقلى .

وهو يختلف فى ذلك أختلافا واضحا فى تعريفه للحدس عن ديكارت اذ هو أقرب أن يكون الهاما أو بداهة من أن يكون الحدس مما يقوم فى ذهن خالص .

ويؤكد شوبنهور على الحدس الجمالى باعتباره أكمل صور الحدس اذ ينسى الانسان فيه نفسه فى لحظة معينة من الزمان فلا يدرك الا حقيقة الشىء الذى يتأمله .

ويهتم برجسون بالحدس الباطنى فهو يرى أن الحـــدس نوع من العرفان الخالص ، أو عرفان غريزى ينقلنا الى باطن الشىء ويطلعنا على ما فيه ولا يمكن التعبير عنه بالالفاظ .

---

(١) للمزيد راجع : المعجم الفلسفى (الحدس) .

وواضح من كلام هنرى برجسون [١] أن الحدس بهذا المعنى لا يقوم على المعرفة الاستدلالية أو التحليلية التى تعلمنا بظاهر الشىء ، أنما هو نوع من التعاطف العقلى الذى ينقلنا الى باطن الشىء •

ويرى هنرى بونكاريه [٢] أن الحدس هو الذى يكشف لنا عن العلاقات الخفية اذ هو نوع من التنبؤ الغريزى أو حكم سريع على الوقائع والعلاقات المجردة •

ولقد وضح لنا من أراء الفلاسفة غموض معنى الحدس اذ أن بعضهم يرى أن المعرفة أنما تستند الى الحدس العقلى ، والبعض الاخر يقرر أننا يمكننا أن ندرك الحقائق المادية أدراكا حدسيا وليس ادراكا عقليا •

وعلى كل حال يمكن القول أن الحدس يطلق على أعلام النفس بما نتمثله من الحس الظاهرى أو الباطنى فى صـــورة حسية أو نفسية بدون أستخدام القياس أنما يكشف عن هذه المعرفة الحدسية الذهن بوحى مفاجىء دون أن يستخدم الاقيسة والاستدلالات والاستقراء •

وهناك ما يسمى بالحدس التجريبى ، والعقلى ، والكشفى ، والفلسفى •••• الـــــخ •

وتبدو هناك علاقة ما بين الحدس والفراسة من حيث تصور أشتراكها فى استمداد معرفى غير طريق المدركات الحسية ، الا أن هناك تباينا واضحا بينهما فى الوقت نفسه •

فالحدس معنى مختلف فى أمره بين المفكرين القدامى والمحدثين ذلك

---

(١) للمزيد راجع المعجم الفلسفى (الحدس) •
(٢) نفس المرجـــــع •

لانه يوصف أحيانا على أنه ظن •• ويعرفه آخرون بأنه أحساس غامض غير معروف المصدر •

وأما ديكارت فانه يرى الحدس هو نور العقل •

لكن الفراسة فى نظرة علماء المسلمين علم نورانى أودعه الله فى قلب عبده المؤمن ، القريب اليه المشغول به ، وكأن الفراسة غير الحدس ، فبينما الحدس يمكن أن يكون ظنا يخطىء فيه الانسان ويصيب ، بحسب طهارة قلبه وظلمة نفسه ، وهو أميل الى الخطأ منه الى الصواب •

« ان يتبعون الا الظن وأن الظن لا يغنى عن الحق شيئا »

لهذا أمرنا تعالى باجتناب الكثير من الظن باعتبار بعضه أثم وبهتان وما دام الحدس فى رأى بعض المفكرين هو نوع من الظن فانه على ذلك يكون بعض الحدس أيضا أثم •

وجدير بالذكر أن العلماء المسلمين قد ربطوا بين التوسم والفراسة فأوضحوا أن التوسم نوع من التفرس ويقصد به المعرفة النافذة أو البصيرة •• والمتسمون هم المتفرسون فى الدين والمتعرفون على حقائقه وقد ذكرهم تعالى فى قوله :

« أن فى ذلك لآيات للمتوسمين » •

وقد أكد وجود المتفرسين قول الرسول ﷺ :

« اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل » (١) •

يرتبط التوسم بالفراسة ، كما ترتبط الفراسة بالبصيرة فى المعنى القرآنى ، اذ تعنى التثبت واليقين والصدق المعرفى :

---

(١) عن ابن عمر وذكره السيوطى فى الجامع الصغير •

« قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن أتبعنى »

(يوسف : ١٠٨)

وواضح أن البصيرة غير الحدس ذلك المعنى المبهم الغامض ، اذ هى يقين وصدق وثبات فى القول والعمل وتثبت من الحقيقة ، حيث أن الاستمداد من الله تعالى بلا واسطة ، فلا ظن فى هذه المعرفة ولا شك فيها ولا وهم .

والتوسم نوع من الفراسة ، وأصحاب الفراسة كالمتوسمين ، والمتوسمون هم الذين يسيرون الامور كلها ، ويتعرفون على الحقائق ، ويدركون النتائج من سمات الاشياء فهم أهل بصيرة وفراسة ... سواء كانوا من العالمين أو المؤمنين أو الصالحين [1] .

وواضح أنهم لا يستمدون علمهم هذا بطريق المدركات الحسية ، ولا باستخدام البصر ولا السمع ولا التجربة الواقعية أو المعملية ولا النظر العقلى .. أنما يستمدون علومهم ومعارفهم بهدى من الله وفضل منه تعالى .

ان الله تعالى يلهم عبده الصادق ببعض أسراره ، ويفتح عليه ببعض علمه ، ويثبت قلبه وقدمه بالقول الثابت والرأى السديد ، وكلمة الحق فى الحياة الدنيا والاخرة .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والاخرة »

(ابراهيم : ٢٧)

والبصيرة موهبة والتوسم موهبة كما أن المتفرسين أصحاب مواهب فريدة : وقد من الله عليهم جميعا ببعض علمه اللدنى الذى لاشك فيه ولاريب فى صدقه .

---

(١) للمزيد كتاب الفاظ الصوفية ومعانيها — للمؤلف .

واذا رجعنا مرة أخرى الى مصطلح الحدس فى المفهوم العربى الحديث وأردنا أن نضع ذلك المصطلح على الميزان الاسلامى لوجدنا أنه معنى مختلف عن معنى البصيرة فضلا عن اختلافه عن معنى الفراسة والتوسم ، اذ يفهم منه حينا معنى الظن ، وحينا يفهم منه معنى التخمين وحينا آخر يفهم منه معنى التوهم فى معانى الكلام ، وحينا رابعا يطلق على الذهاب فى الارض بغير هداية ولا يعقل بعد ذلك أن يكون الحدس كما يزعم ديكارت هـــو :

« ذلك الوميض المعبر عن نور العقل » (١) .

ونرى أن الحدس فى تعريفاته التى أستعرضناها عند المفكرين الغربيين معنى غامض مبهم يقودنا الى المعنى على غير استقامـة أو بغير هـدف وغايـــة .

ولا شك أن الباحث يطالب أن يكون المصطلح الذى يستخدمه يؤدى الى المعنى المقصود به خاصة وأن المفكرين الغربيين يستخدمون مصطلحات معينة لهدف معين أو غاية محددة .

والحقيقة أن تحديد معانى الالفاظ وتحديد المصطلح المستخدم يسهل على علماء الامة لغة التفاهم بينهم فيصطلحون على ما يتكلمون به ولايتكلمون الا بما يعلمون .

وفى تصورنا أن معظم الاختلافات فى الاراء السياسية والاجتماعية انما هى ثمرة فجة لاستخدام مصطلحات مختلفة . أو بمعنى آخر يرجع

---

(١) المعجم الفلسفى . الحدس .

الى عدم تحديد معانى الالفاظ التى يستخدمها العلماء والتى يجادلون فيها مثل لفظ الحرية والعدالة والمساواة والاخاء والاشتراكية والديمقراطيــة والحق والواجب •• وغير ذلك كثير فلو أستخدم علماء الامة الاسلامية فيما بينهم مصطلحات محددة خاصة فى هذه الفترة الحرجة التى أستحكم فيها الغزو الفكرى والثقافى •

لو أتفق علماء الامة على مصطلحات مصدرها الكتاب والسنة لكــان فى ذلك الخير الكثير •

ولقد أتضح لنا من عرض مصطلح الحدس أنه مصطلح غامض وله معانى متعددة بحيث يمكن القوم أن أستخدام هذا اللفظ على الاطلاق يؤدى الى نتائج لا يمكــن أن يستهدفها الباحث المسلم لذلك نفضــل أستخدام مصطلح البصيرة اذا أريد بها أستقاء معرفة بغير طريق الحواس ، كما أن أصطلاح فراسة المؤمن تعنى استكشاف الاشياء الخفية عن المدركات الحسية وأستجلاء ما ستر عن النظر العقلى •

ويكاد أصطلاح التوسم أن يشاكل مصطلح البصيرة والفراسة فى الغاية اذ هو معرفة ثابتة نافذة حقة يقينية ليس مبعثها النظر أو الحس وأنما هو تثبيت الهى ونفث رحمانى • كثمرة للهدى والقنوت لله • وبذلك يفتح الله على العلماء المؤمنين ببعض علومه وأسراره ومننه وعطاياه وفضله ونعمه ورحمته • كثمرة طيبة لاتباعهم طريقه تعالى •

---

(١) للمزيد راجع الفاظ الصوفية ومعانيها .

الفصل الثالث عشر

العلـــم لا الفـــن

١٣ — العلم لا الفن

حاول كثير من العلميين تتبع الفن الاسلامى وربطـه بعجلة الفنون السابقة عليه فى الزمان فأرجع بعض مؤرخى الفنون أصـوله الى الفن البيزنطى وأرجعه البعض الاخر الى الفن القبطى أو غيره من الفنون (١) .

ولقد أفقدت هذه الرؤية القاصرة الفن الاسلامى أصالته ونقاؤه وجماله وجلاله وتغافلت عن السمات الفريدة التى يمتاز بها الفنانون الاسلاميون عن غيرهم اذا تطبعت أعمالهم بخاتم أصيل يربط بين الفن والايمان فى لقاء يتجاوز حدود الزمان والمكان .

فمن الخطأ القول أن ينتسب الفن الاسـلامى العظيم الى أصـول ومصادر أجنبية يزعم أنه نشأ عنها أو باعتباره امتدادا طبيعيا لها . اذ أن ذلك يعد تحيزا بغيض ما . ونظرة سطحية بعيدة عن الحق مشوبة بالتدليل والخلط .

والملاحظ أن أغلب المؤرخين الفنيين المعاصرين يهتمون اهتماما بالغا فى تقييم الاثر الفنى عن طريق ربطه بالدوافع الفردية النفسية ويأولون من عند أنفسهم المعانى الجمالية فيدعون أن الذى دفع الفنان الى رسم لوحة (الموناليزا) مثلا دافع جنسى أو مرض عصابى عانى منه الفنان طويلا أو صراع نفسى داخلى كان يمزق كيانه الى غير ذلك من أسباب ومسببات ذاتية مختلفة .

---

(١) الاستاذ تيتوس بيركارد . دور الفنون الجميلة فى التربية الاسلامية : بحث مقدم الى المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى . مكة المكرمة ترجمـة عثمان محمـد عبد الوهـاب .

ان الفنان الاسلامى له ذوق خاص ينفرد به دون غيره من أصحاب الفنون الغربية اذ ينطلق الفنان المؤمن فى عمله بثقة لا نهائية فى العـون الالهى .. الامر الذى يتجاوز به مرحلة التقليد ودور المحاكاة . ويندفع بقوة نحو تحقيق غاية نبيلة هى القربة من الله . فيحظى بالتفضل الالهى منه من الله ودفعا ويتجلى ذلك الاهداء والاستحواذ الرحمانى . فيهم ببعض الاسرار الربانية ويفتح له باب الرحمة الالهية ويغلق عنه باب المزلة (٢) .

وكلما تجدد الفنان من الفلاسفة الحسية . واسترسال مع اشراقات النور العمرانى وتمسك بالعروة الوثقى . كلما تكامل عمله . وازدادت أمامه الرؤيا وضوحا وشفافية واهتدى الى كشف علاقات جمالية متخفية عـن الادراك الحسى مما تعد طفرة لم يكن ليحظى بها عن طريق آخر .

ما دام الفنان أمينا صادقا لايدعى لنفسه أنه يخلق معدوما أو يبتكر جديدا وأن ما أستكشفه من العلاقات الجمالية وما أنتجه من الموضـوعات الفنية انما راجع فى المقام الاول الى المنة الالهية فلن ينقطع عنه الالهام الى ما شاء الله .

ان الزمن الفنى بهذا المعنى ميلاد جديد للجمـال وتعبير صـادق عن بزوغ فجر الايمان فى قلب الفنان وانطلاق رائع يحيل الظلمة نورا ويفض أستار الحجب فيكشف مقاليد الاسرار ويرسم آفاق جديدة طوتها الغفـلة والانشغال بمطالب العقل وشهوات الحس وطول الامل فى الدنيا والثقة فيهـا .

من هذه الانطلاقة السرمدية يتجاوز الفن الاسلامى غيره من الفنون

---

(٢) د . حسن الشرقاوى : نحو منهج علمى اسلامى .

الحسية والمحدودة ليعبر تلالا ووديانا ويمخر بحارا وأنهارا . ويغزو سماء وفضاء ويهتك حجبا وأستارا ويكشف أسرارا أبكارا ، تزيد من ايمان المؤمن ايمانا والموقن يقينا(١) .

ان الفن الاوربى الحديث يجعل من الصور الحسية والمجسمة بعامة وجسم الانسان بما له من طول وعرض وعمق بخاصة . المكان الاول فى فلسفة الجمال المرئية . وهذا معناه الهبوط بالفن الى التقليد الاعمى والمحاكاة اللاواعية . مما أدى الى الفقر الفنى والثقافى . فتركز الفن على التحديد الشكلى واستهدف الصور الادمية المشخصة وهبط فى التعبير الى المحسوس والملحوس ، كما نشاهد ذلك فى الفن التشكيلى وفنون الصور المرئية .

ان مفهوم الفن الاسلامى جد مختلف عن مفهوم الفنون الحديثة التى تهتم بالصور المجسمة فحسب ، والصورة لا تغذى وجدان المتذوق بمزيد من العلم والمعرفة . بل على العكس من ذلك تماما تضير مزيدا من القلق

والتوجس والريبة بما تبرزه من نماذج ذاتية غريبة وما توقظه فى رسمها من غرائز عدوانية ووحشية وما تثيره من تعقيدات تستهدف فى النهاية اعلاء مركز القوى المادية وتبرير استخدامها باعتبارها الافضل والاصلح والانفع .

ان هذا الاتجاه الفنى حول المشاهدين والناظرين من الرحابة الفكرية الى المحدودية المقننة ويفرض عليها أسوارا لا تمتد ببصائرهم وأسماعهم خارجها ويحد من تطلع أذواقهم الى المعانى الخالدة ويحرم عليهم تجاوز

---

(١) الاستاذ محمد قطب منهج الفن الاسلامى : دار الشروق ص ٢٢—٢٧ .

الوقائع المحددة الى تصور أبعاد جديدة للقيم الجمالية فى الكون الرحيب .

أما الفن الاسلامى فان نظرته على العكس من ذلك تماما اذا يسمو عاليا رافضا التقليد الاعمى فى وصف الطبيعة المحدودة ليحوى كل شىء فى هذا الكون الرحيب معبرا فى ايمان عن بدائع خلق الله .

والفنان هنا لا يتحدى ولا يتمرد لانه يعلم أنه لن يرقى الى مرتبـــة الخالق المبدع . انما حسبه أن يستخدم معاده الفنية من الطبيعـــة بذوق فائق وقدرة على التشكيل ليخرج لنا منها آخر الامر أشياء نافعة وجميـــلة تشهد بالاتقان والمثابرة والاخلاص فى تصوير وتناسق روعة الخالق الالهى

ولا شك أن كمال أى عمل فنى انما هو بكمال مادته التى صنع منهـــا أو هندسته المستوحاه من النظام البـــديع فى الكون ومن انســـجام ألوانه وتناسقها ووحدتها .

واذا كان الفن الاسلامى لا يبالغ ولا يضيف أشياء جديدة على الطبيعة الضرورية للاشياء . الا أنه يشهد بصفائها الكامنة ويكشف علاقاتها الخفية على الناظرين وهذا مما لا شك فيه يعد عملا جديدا وان أسقطته الفنـــون الاوربية الحديثة من حسابها الا أنه يمثل الجانب الموضوعى التى تنتحر اليه الفلسفة الجمالية . اذ المشاهد فى الفنون الحديثة اغفال الصفات الباطنة فى الصيغ الجمالية[١] .

ونحن نؤمن أن الفن فى جوهره علما بما ينتج من آفاق تأملية مفيـــدة هدفها النهائى اكتشاف الحقائق الجمالية فى نظام الناموس الكونى فالفنان

---

(١) د . حسن الشرقاوى : نحو منهج علمى اسلامى .

الاسلامى لا يعتبر نفسه مركز الكون وبذلك لا يندفع مع الهـوى ليضـع قوانين فنية من عنده ويمكنه صياغات جديدة يزعم أنها خلق جديد • فالفنان الاسلامى له منبـع علمى واضـح وهـو اذ يعبر عن كل الفنـون ويرجع أصولها جميعها الى بدائع خلق الله متمثلا فى ذلك بالجمـال فى الكون العظيم وتحقيقا لهذه النظرة العلمية العميقة ــ تعالج الفنون الاسلامية موضوعات الكتابة والخط والنقش والعمارة من خلال منظار اسلامى جمالى يستوحى أصوله من حجج الله البالغة وآياته البينات ومن هذا النبع الفياض وصلت هذه الفنون الى درجة رفيعة من التكامل فى أشكالها وأساليبها وصـورها المختلفة يشهد بذلك ما نراه فى عمارة الابنية والمساجد وصناعـة الاوانى الاوانى والبساط وتدرج فنون الكتابة والخط وانتقالها من الخط الكوفى الى المربع الثابت الى الاشكال النازكية المسلسلة الجميلة •

ان السبب الخفى للتكامل الفنى فى الابنية والقباب الاسلامية انمـا راجع أولا وأخيرا الى الاسلام بصفة عامة والتوحيد بصفة خاصة • فالجمال اسم للواحد الصمد • ومن صفاته التوحيد والعدل والسخاء وفن التوحيد مشهود للتفرد والكمال والرفعة والوحدة وفى السخاء الالهى تظهـر معالم الفن الاسلامى ممثلا فى كثرة الوحدات ومعبرا عن الكرم والجود بينما يمثل العدل الالهى التوازن والنظام والوسط العدل الذى هو الخير الفاصل •

ان ما نرمى اليه هنا شهود الجمال الباطنى عندما يتكامل العمل الفنى وتتجلى للمتذوق حقيقته الوجدانية وكأن الفنان يهـدف الى استجـلاء الغامض من الاشياء ويرقى بالوجدان الي الحقائق الايمانية الكبري •

فالفن الاسلامى بهذا المعنى توحيد كما يستنشق أصوله من الاسلام ذاته ويستقى مادته من الكون الرحيب • فلا يعترف بالاهواء ولا بالمسميات المستحدثة النامضة •

ان حقيقة الفن الاسلامى تفسير للمعانى القرآنية وتأكيد لحكمة الله البالغة فى الكون وذكر دائم لبديع خلقه وعبادة قائمة تزكى النفس وتمــلأ القلب أمنا وسلاما وسكينة •

انه التعبير الصادق من النبضات الحية الدافقة للوجدان الانسانى فى استكشاف الحقائق السرمدية فهو النبض الربانى الحى الذى به تحقــق كل غاية جميلة ونبيلة [١] •

ولابد لحماية الفنون الاسلامية وعلى رأسها الاعمال الفنية اليدوية واجب مقدس اذ أنها تزكى الفضل بما تقدمه من نفع وخير للناس[٢] •

---

(١) د • حسن الشرقاوى : نحو منهج علمى اسلامى •
(٢) دور الفنون الجميلة فى التربية الاسلامية •• محاضرة ••

الفصل الرابع عشر

١٤ ـــ الاجتهـــاد لا التقلـــيد

١٤ ـ الاجتهـــاد لا التقلـــيد

يعد الاجتهاد أصلا من أصول المنهج الاسلامى ، اذ تدعو آيات الله البينات الى التفكر فى حجج الله البالغة ، والتأمل فى النامــوس الالهى ، ودراسة السنن الكونية لكشف ما غمض على الناس من أسرار واستيضاح لما خفى من الاشياء الخفية ، والحث على طلب العلم لمعرفة الله حق معرفته، وذلك لينتفع الناس بذلك جميعا ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك للانسان الابالجهاد والاجتهاد ، تصديقا لقوله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »

(العنكبوت)

وحتى لا يتعرض المتأمل الى التقليد الاعمى الذى يقود الى التبطل والتعطل والسلبية والوقوع فى الجهل والضلال والجمود ، يدعو سبحانه وتعالى الى جهادا لنفس والاجتهاد فى العلم والرزق ويفضل الله المجاهدين على القاعدين « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »

(النساء)

ويشجب الاسلام كل صور التقليد الاعمى والمحاكاة الظاهرية التى تعتمد على الظن والتوهم دون أعمال العقل ، لما يستهــدف اليه الدين من

ولو شاء الله تعالى أن يحاط الناس علما بكل شىء ، وأن تكتمل معرفتهم بالحياة الدنيا ما كان هناك من راض لمشيئته ، ولو شاء تعالى لسلب الناس جميعا عقولهم فأصبحوا كالانعام بل أضل سبيلا ، لكن شاءت حكمته أن يغمر فضله الناس جميعا ، وأن يعم الخلق منه وعطاياه ورحمته ونعمه ، ومن

هذه النعم العظيمة تسخير ما فى السموات وما فى الارض جميعا لنفعهم ، وتذليل الصعاب بما وهبه لهم من عقل وارادة ، وما يسره لهم من أمكانيات البحث والاستكشاف والكشف لتيسير الحياة واستجلاء الغامض والخفى عليهم ليجلونه ويعظمونه ويكبرونه على ما هداهم من علم ومعرفة .

ولقد أوضح سبحانه وتعالى الطريق المستقيم الواجب الاتباع .. ثم ترك الانسان لسعيه وعمله واختياره ، فمن شاء ان يكفر ومن شاء أن يؤمن فاذا أتخذ سبيل ربه زاده نعمة وبسطه فى العلم ، وهداه برحمته الى الحكمة وأنار له الطريق المستقيم ، ثم أثابه فى الاخرة وأدخله جناته ، وغمره بنعمه وأشهده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أما اذا ضل عن سبيل الله وغوى وطغى ، وظلم نفسه ، وعبد هواه ، واتبع الشيطان تركه فى غيه الى أجل قريب ، وأمهله الى يوم معلوم حيث العذاب المقيم ، والهلاك المبين ..

يأمر الله تعالى اذن بالجهاد والاجتهاد ، ويتفضل على المجتهدين والمجاهدين بالدرجات العليا ، ويخصهم بالرسوخ فى العلم وأهلية شهود الحق منة منه وفضلا ، ويرفعهم الى مراتب الحكمة والخير الوفير والنعمة الكبرى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به »

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

أما المقلدون بغير وعى ، والمحاكون بغير تأمل وفهم والذين قالوا :

« انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »

« قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »

فالاسلام ينظر اليهم نظرته للصبى غير المميز الذى يحتاج الى وصى يتولى شئونه ويتحكم فى ماله ونفسه جميعا ، لانه عديم الاهلية فى التصرف لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل ؛ ومثل هؤلاء المقلدين كمثل الذين ذكرهم تعالى بقوله :

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير »

لذلك نبذ أئمة الاسلام التقليد الاعمى بكل صوره ، وكـان الصحابة والتابعون يجتهدون فى كثير من المسائل والقضايا ويعطون أجابات شافيـة عنها ،معتمد ين فى ذلك على فهمهم للنصوص القرآنية والاحاديث النبوية ، فقد كانوا يتأملونها ويطبقون ما ورد عن الله فى الموضوعات والمسائل التى تعرض أو التى يمكن أن يتساءل فيها المتساءلون ، وقد وضعوا أمامهم منهجا أساسيا لا ينحرفون عنه وهو أن آراءهم راجعة اليهم وحدهم ، فان أصابوا فهو توفيق من الله وان أخطاؤا فان حديث رسول الله — ﷺ — شفيع لهم يوم القيامـة :

« ان أخطأ أحدكم فله أجر وأن أصاب فله أجران »

أما اذا قعد من تفقه فى أمور العلم والدين مع القاعدين وتبطـل مع المتبطلين وأخذ يردد بلا وعى كلام الاولين ، ويتوهم بلا سند ولا دليل أنه لن يفتح عليه بالقول السديد ، كما فتح على الصحابة والتابعين ، وظن أنه مهما أعمل عقله وأجهد فكره فلن يصل الى ما وصل اليه السابقون ، ورتب على ذاك كل ظن فاسد ورأى قاصر ، ودعا الى الجمود وأنغلاق أبواب المعارف

وسد متعمدا رحمـــة الله الواسعة ، فكأنه منافق يدعـــو الى ما دعى اليه المشركـــون :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

ان أتهام الطاعنين للاسلام بأنه يدعو الى الجمـــود والسلبية قول مردود ، وزعم باطل لا يطابق الحقيقة ، ناتج من القصور فى الاجتهاد ، وتوقف المجاهدة فى العلم والعمل التى يأمر بهما الدين ، بل أنه ثمرة فجـــة لادعاء بعض المتفقهين العاجزين أنه ليس فى الأمكان أبدع مما كان .

ومن هذا التصور الضيق لحقيقة الدين ، الذى وافق هوى فى نفوس بعض المتفقهين والعلميين السطحيين الذين وجدوا فى عجزهم مسوغا لترديد هذه المزاعم .. فعملوا على تقليد الفقهاء السابقين دون تمييز لما يوافق عصرنا ولا يوافقه من آراء ، ثم أنهم تركوا البحث والتقصى والتأمل فى آيات الله وسنة رسوه ، حتى أصبحت القضايا المعروضة اليوم ، والتى تحتاج الى رأى قاطع يتخوف من الاقدام على بحثها والاجتهاد فيها بالرأى كثير من العلماء خوفا من تسفيه أرائهم أو تحقيرهم وسبهم وتكفيرهم ، واتهامهم بترويج البدع وتحريف كلام الله الى آخر ذلك من الادعاءات التى ترجع أغلبها الى الحقد ومرض القلوب ..

لهذه الاسباب مجتمعـــة توقف باب الاجتهاد ، واضطـــرت كثير من البلدان الاسلامية لاستعارة دساتيرهـــا ونظمهـــا وقوانينها من تشريعات وضعية أقل حكمة ورحمة ورقيا وواقعية وعمقا ..

أن الدرس للشريعة الاسلامية متى صدق فى طلبه لن يستعصى عليه أمر من الأمور فى هذا الوجود ، وسيجد ما يغنيه فى الايات المحكمات ، والسنة المحمدية الشريفة وسيجد حلا شافيا لكل ما يتعرض له المجتمع العالمى اليوم من قضايا ومشكلات ، فالقرآن الكريم أنزل للناس كافة وأنه صالح للتطبيق والاستخدام فى كل زمان ومكان ، اذ أنه لم يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها فى كتاب مبين :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

فالمتفقة الخائف من الاجتهاد ، اما أنه رجل من ثلاثة :

متبطل ... أومنافق ... أو فاقد التمييز ، اذ كيف يدعو الى الجمود وقد رخص الله للمتفكرين والمتطلعين الحق فى البحث والدرس والتأمل والتفحص والتذكر والتدبر فى كل ما يتعلق بالكون والخلق ..

فهل من الحكمة أن تتحجر عقولنا ونبقى جامدين على أراء المفسرين الاولين وقد أستحدثت وسائل جديدة ومواقف مختلفة ومشاكل تستدعى الحل السريع ؟

لقد تغير شكل الحياة الحديثة وتعقدت أمور المسلمين وأصبح لزاما عليهم أن يعالجوا كل قضاياهم ومشاكلهم بحلول اسلامية ، واضعين نصب أعينهم أحكام الله وحدوده التى أستنها لهم ليتزودوا بجواهرها الفريدة ، ويرتووا من مائها العذب ، حتى يشفى غليلهم فى التعلم ، وتتغذى عقولهم بالهدى والرشد ، وتأمن قلوبهم بالسكينة والامن .

لا خوف ولا وجل حتى لا تندفع الى السلبية واليأس والقنوط ، علينا

أن نتدارس الاحكام والحدود والمعاملات المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ونطبق ما تيسر لنا تفهمه بلا تزمت ولا توجس ولا خيفة ولا تعقيد حتى حتى لا ننفر الناس من الدين القيم ••

واذا أستجدت مسألة من المسائل لم نجد لها حكما ، جمعنا جلة علمائنا من أهل الحل والعقد فى صورة هيئة عليا ، ليجتهدوا لنا فيها ، ويبينوا لنا أصولها ، ويهتدوا الى الحل المناسب الذى يجب أن تلتزم به الجماعة ، على أن تعمل الحكومات الاسلامية على أقراره وتنفيذه عمليا ، وبذلك تتوحد الأنظمة المطبقة فى الدول العربية والاسلامية وتتآلف قلوب شعوبها برباط الدين القيم : فتنهض الامة الاسلامية من كبوتها وتستعيد مجدها القديم الذى غمر الدنيا نورا وحكمة وعرفانا •

ان الدين هو اليسر والرحمة والشفقة والهدى والنعمة والشفاء للقوب فكيف يتقول الطاعنون جهلا وأفتراء ويزعمون أن أحكام القرآن جامدة تهين كرامة الانسان وتسلبه حريته ، وكيف يفترى عليه ويزعم أن حدوده قاسية بدرجة أنه يستحيل تطبيقها فى عصرنا هذا ؟

ليس هذا بحق أيها الظالمون ، فالاسلام دين التسامح والمودة والمحبة لا يظلم أحدا :

« وما ربك بظلام للعبيد »

ان الدين أنما ينشد الصلاح والاصلاح للجسم والنفس والعقل والمنهج الاسلامى يحقق العدل والامن والسلام وينبذ كل صور الفساد والفوضى فى النفس والكون والخلق ••

الباب السادس

الوسط العدل فى الفكر والسلوك والتطبيق

المقدمـــة :

نود هنا أن نبين موقف الفكر الاســلامى من المذاهب الاجتماعيــة والاخلاقية التى سادت العالم وما زالت هذه المذاهب تتصدر الفكر الغربى الحديث وتتربع على عرشه النظم الاجتماعية والاخلاقية وتنقدها نقــدا موضوعيا هادفا لتظهر على الملأ تهافتها وعظمتها وبعدها عن الحق والعدل والحكمة ••

أن المشكلة الاساسية فى تلك المذاهب القديمة منها والحديث أنها تدفع من عقلية الانسان والانسان بحسب تكوينه عاجزا عن أن يشرع للناس دينا جديدا أو نظاما أجتماعيا أو أخلاقيا لان التشريع فى العلوم الجنائية من أختصاص الله وحده فاذا تحدى الانسان وأعتز وتجبر وتكبر وظن كذبا أنه يستطيع أن يقنن للناس أو يشرع تشريعا من عنده فانه سيقع لا محالة فى الضلال والضياع •

ان المفكرين المغرورين بعقولهم يعتمدون فى مذاهبهم ونظرياتهم على تصورات ظنية فينظرون للحقائق من زوايا معينة سواء كانت مادية أو روحية أو عقلية ثم أنهم يقيسون الاشياء بمقاييس عقلية قاصرة ويعتمدون على تجارب معملية وحسية متغيرة ثم يصوغون بعد ذلك أفكــارهم ومذاهبهم ويتوهمون أنها الحق وأنهم قد كشفوا عن الحقائق التى لم تكشف من قبل وأنهم عرفوا سر الحياة والخلق والكون والامر ثم يغرون ويفترون فيظنون أنهم بينوا للناس طريق الســعادة الحقة وأن مذاهبهم هى جنــة الله فى الارض ••

ويجب علينا أن نميز بين العلماء الذاتيين والوضعيين والتجريبيين الذين يخترعون من عند أنفسهم فلسفات ومذاهب ونظريات يقصدون منها تنظيم حياة البشر ويفرضون على الناس عيالاتهم وأحلامهم وظنونهم • يجب أن نميز بين هؤلاء العلماء والعلماء الذين يؤمنون بخالق السموات والارض وما بينهما فيستقون علومهم من آياته البينات وينفعون الناس بما يفتح على قلوبهم من حقائق وأسرار هؤلاء المتأملون فى بديع خلقه والمتدبرون لحكمته البالغة •

ولقد قامت قديما فلسفات ونظريات كما تقوم حديثا مذاهب وقوانين يزعم أصحابها أنهم المشرعون وحدهم للانسان وحتى أنه يمكن أن يقال أن ما هو قديم من هذه الافكار يمكن أن يكون حديثا وما هو حديثا منها يمكن أن يكون قديما •

تعريف العدل :

الاحدية أهم وصف للذات الالهية والعدل أهم صفة للفعل الالهى • يتعلق التوحيد بالبحث فى الحقيقة الالهية من حيث هى ذات مطلقة ويتعلق العدل بالفعل الالهى من حيث صلته بالانسان تلك الصلة التى يجب أن يسودها العدل من جانب الله فجميع ما يفعله الله بغيره عدل • والعدل هو رأس الفضائل التى فى الاصل تتحكم فى الافعال المتعدية الى الغير لاسيما فى علاقة رب بمربوبيه أو حاكم بمحكوميه فمن ثم ففى علاقة الله بالانسان يكون العدل هو أسمى الفضائل بل أهم صفات الفعل الالهى •

ويعرف العدل بأنه ما يقتضيه العقل من حكمة أو صدور الفعل عن وجه الصواب والمصلحة وهذا يعنى أن تكون جميع الافعال الصادرة عن الله

والمتعلقة بالانسان المكلف بمقتضى الحكمة وعلى وجه المصلحة ولكن العدل بهذا المفهوم لا يكفى التعرف لبيان أنه يتضمن معظم مذهبهم الكـــلامى وينطوى على عدة نظريات .

والمقصود باللطف الالهى كل ما يوصل الانسان الى الطاعة ويبعده عن المعصية ولمـــا كان الله عادلا فى حكمه رؤوفا بخلقه فاطرا بعباده ، لا يرضى لعباده الكفر ولا يريد لعباده الكفر ولا يريد ظلما للعالمين فهو لم يدخر عنهم شيئا مما يعلم أنه اذا فعله بهم أتوا الطاعة والصلاح ولكن قد يعترض على ذلك بأن الله قد خلق فى الانسان الشهوة زال التكليف اذا لم يحصل ما يقوم مقامها والشهوة هى الباعثة على كل شرور المعاصى فكيف يتفق ذلك مع عدله فان ذلك اذا زالت الشهوة زال التكليف اذا لم يحصل ما يقوم مقامها كان الاعتراض يصح لو كانت الشهوة ملجئة الانســـان الى الرذيـــلة أما وأن وجودها لازم قويت الشهوة ، وقوى معها الامتناع فنحن نجعل عفة الشباب عن الشيخ ذلك أن قوة الامتناع مع سنه الاعزاء ارتفاع الدرجات وعـــلو الهمة .

والمقصود باللطف الالهى كل ما يوصل الانسان الى الطاعة ويبعده عن المعصية ولما كان الله . عادلا فى حكمه رؤوفا بخلقه ناظرا لعباده لا يرضى لعباده الكفر ولا يريد ظلما للعالمين فهو لم يدخر عنهم شيئا مما يعلم أنه اذا فعله بهم اتوا الطاعة والصلاح ولكن قد يعترض على ذلك بأن الله قد خلق فى الانسان الشهوة زال التكليف اذا لم يحصل ما تقوم مقامها والشهوة هى الباعثة على كل شرور المعاصى فكيف يتفق ذلك مع عدله فان ذلك اذا زالت الشهوة زال التكليف اذا لم يحصل ما يقوم مقامها وقد كان الاعتراض يصح

لو كانت الشهوة ملجئة الانسان الى الرذيلة أما وأن وجودها لازم قويت الشهوة وقوى معها الامتناع فنحن نجعل عفة الشباب عن الشيخ ذلك أن قوة الامتناع مع شهوة الاغراء أرتفاع الدرجات وغلو الهمة .

فالعقل أول مقتضيات التكليف وأهم مظاهر اللطف الالهى أنه اذا فقد الانسان العقل فقد زال عنه التكليف كما هو حال المجنون . اذا أودع الله فى الانسان الشهوة منذ أكمله بالعقل ولذا فانه يجب علي الانسان النظر العقلى المؤدى الي معرفة تجنبه الشرور والمعاصي .

والمعرفة هى الشرط الاول لاتيان العمل الصالح لان الانسان اذا علم بعقله أن له فى العقل منفعة كان ذلك داعيا له الى فعله كما أن اذا علم أنه فى الفعل ضررا كان ذلك صارفا له عن فعله .

أن مثل هذا الاعتقاد لايكون الا ظنا ولا يكون الظن فى الاغلب الا جهلا ولا يعترض لارتباطها بالتكليف ومن ثم استحقان الثواب . لذا يعظم الاجر اذا على ذلك باختلاف أحكام الناس وفقا لتفاوت عقولهم والله اراده منه لهداية الانسان لم يكمله بالعقل الذي بالعقل الذى يميز بين خير الافعال وشرها فحسب وانما أنزل له الشرائع كي يختار الايمان وصالح الاعمال ولم تترك الشرائع لمجرد قيه المثوبة بطاعة من الله وأنما لانها تؤدي الى الفعل الحسن لذا فقد وجب أن يبين الله الحكمة من الشرائع .

كما يبين أن الصلاة واجبة لانها تنهى عن الفحشاء والمنكر على أن ذلك لا يعنى أن الصلاةو اجبة لمجرد أنها تنهى عن قبيح دون أداء الصلاة لانها فى تركها مفسدة من حيث هو ترك لمصلحة .

كذلك لا يقال على أن المكلف قد يؤدي الفريضة ولا يمتنع عن الفساد ولان الداعى هو الداعــى الى اللطف ولا يحصــل اللطف الا بارتفــاع الفساد ومن لم تنه صلاته عن الفحشاء لم يزود من الله من الا بعد •

أن فى كل أمة من الامم القديمة والحديثة على السواء غلاة ومتبطلون مسرفون ومنترون مبذرون ومتحللون ولقد شاءت كلمة الله البالغة أن يكون الوسط العدل الذى هو الخير الفاضل شريعة الامة الاسلامية ومناهجها اذ يقول الله تعالى :

« وكذلك وجعلناكم أمة وسطا »

(البقرة : ١٤٣)

فالحلال والحرام والامر بالمعروف والنهى عن المنكر تتبع جميعا قانون الوسط الالهى الذى هو صالح للتطبيق فى العبادات والاحكام والمعاملات والحدود •

والوسط الاسلامى ليس وسطا حسابيا أو تقريبيا أنما وسطا عدلا وميزانا قسطا ثم به خالق السموات والارض فكل شىء فى هذا الكون يسير بميزان قسط فلا ينحرف قيد أنمله عن مساره والا اختــل التوازن وعمت الفوضى واستشرى الفساد •

أن الله تعالى فضل الانسان عن غيره من الكائنات اذ وهبه عقلا واراده والهم نفســه فجورها وتقواها حمله الامانة واخذ عليه العهــود والمواثيق وأنزل اليه الرسل مبشرين ومنذرين •••• وبين لل الســبيل الواجب اتباعه واجتنابه ثم تركه بلا أكراه ليختار طريق الحق وطريق الباطل والضلال وأمهله الى يوم موعود للثواب والعقاب •

وكما رفع الله تعالى كل شيء بميزان عدل أوصى الانسان أن يتبع هذا الميزان العدل فى شيءفى نفسه ومع غيره وفى علاقته بربه .

والسماء رفعها ووضع الميزان الا تطغوا فى الميـزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والميزان هنا هو الاداة التى تقدر بها الاشياء فى الدنيا كما أنه الاداة التى تقدر بها الاعمال فى الاخرة ولا يقوم العدل بدون الميزان الذى يتناصف به الناس بالحق .

والوسط العدل بهذا المعنى سلوك وغاية علم وعمل وانتهاجه هو السبيل الاقوم الذى يصلح للانسان فى حياته الدنيوية اذ هو باب الاستقامة ومفتاح السلامة والخير الفاضل فى الدنيا والاخرة .

وأن أى خروج عن الوسط العدل الاسلامى سواء باسراف أو البخل بالغلواء التقتير بالحمق أو الجبن بالزيادة أو النقصان ابتعاد عن الشريعة وانحراف عن الدين وبدعة وضلال مبين .

بيد أن هناك فئة من الناس هم أهل الرياء والنفاق وهم أخطر الناس حمقا يظهرون غير ما يخفون ويتستزون على ما يبطنون كلامهم أشهى من العسل واعمالهم كعمل الحية الرقطاء يلبسون للناس جلود الضأن ويخفون أنياب الذئاب وهؤلاء جميعا يحتاجون الى العلاج فكما أن مريض الجسم يعالج من أسقامة فيكتسب الصحة وذلك بالرجوع الى توازن الجسم فاذا كان به حرارة يعالج بالبرودة ليصل الى الوسط العدل فكذلك الامر للجسم الذى به برودة يعالج بالحرارة ليصل الى الوسط العدل .

وكذلك الامر بالنسبة لمريض النفس فاذا أسرفت النفس وأرطت وغالت

فى أمورها وسلكت طريق التبذير والسفه والجنوح وجب تقويمها وعلاجها لترجع الى التوازن والاعتدال .

واذا نزعت النفس الى التقتير والشح والنفاق والريـاء والكذب والضلال وجب تقويمها للرجوع الى الاعتدال .

والوسط العدل اذن هو مفتاح السعادة للجسم والنفس فهو ينظم حياة الانسان دينا ودنيا وروحا ومادة وعقلا وقلبا علما وعملا فلا يجعل لغريزة أن تتسلط على لطيفة ولا يجعل للطيفة أن تحرمه من غريزة فهو بذلك ميزان عدل متكامل مغرى الانسان النفسية والعقلية والحسـية والسلوكية جميعا للوصول الى كمالاتها الاخلاقية فى الدنيا والاخرة .

الفصل الأول

الوسط الافلاطـــونى

الوســـط الافـلاطونـي

يشبه أفلاطون النفس بعربة يجرها جوادان أحدهما أبيض والاخر أسود ليرمز بهما للقوتين الغضبية والشهوية فى الانسان ، ويقـود العربة سائق يرمز به أفلاطون للقوة العاقلة • ويرى أفلاطون ان العربة أو النفس الانسانية تسير فى طريق الخير اذ ما حافظ سائق العربة أو القوة العاقلة على التوازن والاعتدال بحيث لا تجنح عربة النفس بالانسان عن الطريق السوى بالافراط أو التفريط أو الاسراف أو التقتير ••

وعندما يتحدث افلاطون فى محاورة الجمهورية عن العدالة ، يقول بأن ماهية العدالة هى الحل الوسط أو التوفيق بين خير الامـور وأن العدالة « وسط بين أمرين » (١) • كذلك الامر فى مجال السياسة فالحكم المثالى ، يعرفه بأنه المعتدل (٢) • أو المتوازن بين القوتين لذلك فهو يطلب المعرفة والحقيقة • والحقيقة أقرب شىء الى الاعتدال •

هذا هو مفهوم الوسط العدل عند افلاطون ، أنه نوع من التوازن أو الاعتدال أو الاختيار السليم بين عير الامور ، فالوسط فى الصورة يعبر عن التوازن فى متطلبات الانسان الشهوية والغضبية ، ووسيلة ذلك أنما فى تسليم القيادة الى القوة العاقلة فيه والتى تعينه على الاعتـدال أكثر من الجنوح والشطط • ولكن هل كان الوسط الافلاطونى وسطا عدلا حقا ، ام أنه كان مجرد فكرة نظرية يقيم افلاطون عليها فلسفته السياسية فى المدينة الفاضلة •

---

(١) افلاطون : محاورة الجمهورية ، ترجمة فؤاد زكريا ص ٢٢٢ •
(٢) الجمهورية ص ٢٩٥ •

أن أول ما يصدم المرء حقا فيما يتعلق بالتصور الأفلاطوني للمدينة المثالية هو قضائه المبرم على (الأسرة) بالمعنى الطبيعي الفطري وقوله بشيوعية النساء ، وكان غرض أفلاطون من ذلك هو أن يقتلع من نفوس أفراد المدينة الفاضلة الشعور بالأنانية والذي يولد في نظره الكراهية والشحناء . ولذلك فهو يرى في محاورة (القوانين) ان المدينة التي ينبغي أن تحتل المكانة الاولى ، تكون فيها النساء مشاعا بين الناس ، والأطفال أيضا مشاعا ، وكل الاشياء المفيدة للانسان مشاعا !!!

يبدو لنا أن أفلاطون قد خرج عن الوسط العدل الذي بدأ به فلسفته فهو كثير الشطط ، اذ يبتعد عن الوسط العدل الذي نادى به في فلسفته الإخلاقية ، والواقع أن أفلاطون جنح نحو الناحية المثالية في التفكير ولم يكن متوازنا ولا معتدلا واذا عمدنا الى القياس بين تصوره للوسط والتصور في الفكر الاسلامي لوجدنا انه أهمل الناحية الطبيعية في الانسان تماما وابتعد عن واقع الانسان وخرج كذلك عن معنى الوسط العدل .

أن أهم ما يربطنا بالوسط العدل التوفيق بين حاجة الجسم وحاجة النفس ، أو بمعنى آخر التوازن بين الواقعية والمثالية على السواء ، اذا أردنا أن نفكر تفكيرا سليما ، لكن أفلاطون قد تصور العالم من خلال نظريته في عالم المثل لذلك لم يقم وزنا للاعتبارات الواقعية ، لذلك يقول (سارتون) أن الجمهورية من وضع رجل متعصب حانق متذمر [1] .

ومن ناحية أخرى نجد أن أقرب أشكال الحكم السياسي في نظرة افلاطون الى فكرة الوسط والاعتدال هي الديمقراطية ، ومن حيث أنها

(١) سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ص ٣٩ .

استعراض لوجهات النظر المختلفة لنأخذ أخيرا بالاصلح ، لكن أفلاطون يهاجم مع ذلك النظام الديمقراطى هجومـــا شديدا ، بل ويرى ان الحاكم الديمقراطى المثالى والذى أرتآه أول الامر معتدلا لا يميل الى الديكتاتور أكثر منه الديمقراطية ، بل أنه يكاد يكون ديكتاتورا مطلق من حيث كونه حاكم وفيلسوف ولذلك ذهب (بوبر) الى أن فكرة أفلاطــون عن الحاكم أوجدت فى الفلسفة السياسية بلبلة وحيرة دائمة • ومرد ذلك أن أفلاطــون كان قد أسرف مرة أخرى عندما جنح الى المثال أو الى الناحية النظرية بحيث لم يفسح مجالا للعمل أو التطبيق الواقعى • الامر الذى جعله يغلو ويشطط ويخرج عن الوسط العدل •

الفصل الثانى

مفهوم الوسط العدل فى الاســـلام

مفهـوم الوسـط العـدل فى الاسـلام

الوسط العدل معناه الاستقامة وأقامة للحق والصدق وهو موازنة وأعتدال ، وبهذا المعنى وردت الايات الكريمة التى تحث الانسان على أتباع طريق الله • وهو أيضا الطريق الى الصحة النفسية فقوله تعالى :

« فاستقم كما أمرت »

(هود : ١١٢) —

تكليف من الله للانسان الذى وهبه العقل ، وميزه عن سائر الحيوان ليختار طريق العدل فى نفسه كما أمره تعالى باختيار العدل مع غيره •

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »

(الانعام : ١٥٢)

والعدل من الاء تدال ، والاعتدال وسـط ، معناه الموازنة والقسـط والتناسب والاقتصاد والقسمة العادلة ••

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون »

(الاعراف : ١٨١)

فالوسط العدل خير فاضل ، وهو ضد الجنوح والظلم والجور والطيش والسفه ، وهو طريق الصحة النفسية لانه أعتدال ، أى عـدم الميل الى الانحراف ، وهو تقويم أى صلاح وأصلاح وأقامة ضد السقوط ليكـون الشىء معتدلا وقائما ومقصودا الى هدفه ، متضمنا الامن والصحة والسلامة ، وقد وردت فى هذا المعنى آيات كرية متعددة منها :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »

(الفرقان : ٦)

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »

(الاسراء : ٢٩)

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين »

(المائدة : ٤٢)

« وكلوا واشربوا انه لا يحب المسرفين »

(الاعراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »

(البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » — أى أفضلهم رأيا وأتمهم حكمة .

(القلم : ٢٨)

« وأن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

(الانفال : ٦١)

والوسط العدل صالح للتطبيق فى الزمان والمكان ، لان شريعة الله للناس وليس هذا الوسط وسطا ظاهريا — كمن يأمر بالمعروف ويرتكب الفواحش نفاقا ورياء ؛ أو كالذى يقترف المحرمات ، ويدعى الورع والتقوى ، أنما الوسط العدل ظاهر وباطن ، عمل صالح فى الظاهر ، ونية طيبة فى الباطن ..

« هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »

(النحل : ٧٦)

فليس الوسط العدل كلاما من عيوب النفس حتى نجعل من الحديث عن هذه العيوب غاية ومقصدا ، وأنما هى تربية وأخلاق وآداب ، تبدأ من

النفس ، وتنتهى اليها ، قاصدة الوصول الى الكمالات الاخلاقية ••• علما وعملا ، ظاهرا وباطنا •• وسيلة وغاية •

« أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله »

(المائــدة : ٨)

واذا كان الجسم لا يعالج الا باضداد الاشياء ، كأن يكون به برودة فيعالج بالحرارة ، أو يكون به حرارة فيعالج بالبرودة ، فكذلك حال النفس ، أنسا لا تعالج الا باضدادها ، أى بمختالفة أهوائها وحظوظها فاذا نزعت الى الغرور وكان علاجها التواضع ، واذا مالت الى الهوى حالها كان علاجها الاستقامة ، واذا طلبت التسلط والسيطرة والتجبر ، كان علاجها فى الزهد ، واذا أنحرفت الى طريق الانانية ، كان دواؤها الايثار ••• وهكذا الطريق لمعالجة آفات النفس حتى ينصلح حالها ، وترجع عن نقائضها وعيوبها الى الصراط المستقيم •

واذا كان من الضرورى لمريض الجســم معاناة مرارة الدواء وتحمل مبضع الجراح والصبر على المشتهيات ليستقيم حال بدنه ، ويشفى من علله فكذلك الحال بالنسبة لمريض النفس ، فان عليه مغالبة النفس ومنازعــة الشيطان ، وذلك بكثرة الرياضــات والصبر على الاذى •• والاعتداء •• والمكابدة للتخلص من الافات والحظوظ النفسية حتى ينصلح حاله ، ويشفى من أسقامه ، وينظر علم النفس الاسلامى الى أمراض النفس على أنها ثمرة فجة ونتائج طبيعية لنقص التربية •

ويختلف مريض الجسم عن مريض النفس أختلافــا بينا • ذلك لان مريض الجسم اذا تراكمت عليه العلل والاوجــاع أنتهى به المرض آخر الامر الى الموت •

أما مريض النفس فانه أن لم ينصلح حاله ، فانه لا يتخلص من آفاته وأمراضه ، اذ أن هذا المرض يدوم فى الدنيا والاخرة ••

الوسط العدل اذن صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان لانه خير فاضل وأقرب الى الاعتدال والقصد وأبعد عن الغلو •• سواء فى المصلحة •• أو الضرر ، ويستخدم فى الفضائل ، كما يستخدم فى الرذائله ••

فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وليس هذا الوسط وسطا حسابيا وأنما هو وسط مرن ، وذلك كما ورد فى قوله تعالى :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

(البقرة : ٢٣٨)

وكما هو معروف أن الصلاة فرائض خمس ، والوسط العدل هنا أمــا صلاة العصر أو صلاة الفجر ، فالصلاة الوسطى أذن ميزان وتسط واعتدال وأستقامة وأقامة ، يستهدف بها تعالى الصراط المستقيم •

واذا طبق الانسان الوسط العدل على نفسه ، وبالنسبة لغيره ، فانه يصل الى أعلى دراجات العلم والعمل • وذلك وارد فى قوله تعالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو وأولوا العلم قائما باقسط »

(آل عمران : ١٨٠)

وهنا يكون الانسان حكيما ، صائب الرأى ، سليم القلب • مطمئــن النفس :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

(البقرة : ٢٦٩)

وكما سبق القول فان الوسط العدل هو قصد وقسط واستقامة ، لذلك فاننا سنحاول أن نبين معانيها كما وردت فى القرآن الكريم ، اذ بها تسير النفس فى طريق الصحة النفسية •

يقال قصد فى أمره أى أعتدل أمره وسلك مسلكا وسطا لا مغالاة فيه ولا تـ قصير وقصد السبيل هو الطريق المستقيم الذى لا أنحـراف فيه ولا جنوح ، وأقصد فى أمره ، أى أعتدل بلا أفراط أو تفريط •

وقد وردت آياتعديدة فى وصف السلوك السليم الذى مبعثه القصـد والاعتدال وهو الطريق المستقيم الذى يقود الى الصحة النفسية •

« وأقصد فى مشيك »

(لقمان : ١٩)

أى توسط فى مشيك ، فلا تسرع الخطا ، ولا تبطىء ، وهذا هو خير الأمور ••

« منهم أمة مقتصدة »

(المائدة : ٦٦)

« فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد »

(لقمان : ٣٢)

والمقصود هو المعتدل الذى لا ينحرف أى الملتزم الحـد الوسـط

بلا افراط أو تفريط ، وهذا هو الطريق المستقيم المؤدى الى الهداية ، ولقوله تعالى :

« وعلى الله قصد السبيل »

(النحل ٩)

والله خلق للانسان عقلا يدرك به ، وارادة توجهه ثم تركه لاختياره فهو تعالى يبين الطريق القصد — أى المستقيم — فاذا أتبعه الانسان فانه يوصله الى الخير ، لان من الطريق ما هو منحرف مائل لا يوصل الى الحق ويقود الى الضلال والانحراف (١) .

القســـط :

القسط يدل أيضا على الوسط العدل ، وهو مفتاح للصحة النفسية فى الدنيا والاخرة ، لان القسط عدل فى النفس ، فيعرف الانسان بالقسط حقوته وواجباته فلا يجوز ولا يستذل ، كما أن الحكم المقسط هو العادل الذى يحبه الله تعالى :

«وأن حكمت فاحكم بينهم بالقسط أن الله يحب المقسطين »

(المائدة : ٣٢)

والمقسط ميزانه لا يعتريه عوج ولا خلل ، لانه لا ينحرف عن الحق ، وهذه هى التربية النفسية السليمة التى توصل الى القسطاس المستقيم ، أى العدل التام ، الذى هو من صفات الله تعالى والتى تشهد به الملائكة الاطهار كما يشهد به أهل العلم يقينا وصدقا ، وهنا يسلم المؤمن من الغرور والرياء والنفاق ،ويتصف بالاخلاص والطاعة والصدق لله جميعا .

---

(١) المنتخب فى تفسير القرآن — المجلس الاعلى للشئـــون الاسلامية ص : ٣٨٤ — ٣٨٦ .

فلا أعتراض ولا تدبير مع الله ، وأنما سكينة وأمن ورضا وطمأنينة :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

(آل عمران : ١٨)

الاستقامـــة :

تدل الاستقامة على النهوض أو أنتصاب القامة أو الاعتدال بالمعنـــى المادى والمعنوى ، والاستقامة من القيام بالشيء دون عوج أو التواء كان يقوم للصلاة وأن يقوم بالعدل ، وأن يقوم نحو أهله ، أى يرعاهم ويتولاهم بعناية والاستقامة هى سلوك طريق الحق والخير :

« فاستقم كما أمرت »

(هود : ١١٢)

« فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم »

(التوبة : ٧)

« أن هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم »

(التكوير : ٢٧ ، ٢٨)

وترتبط الاستقامة بالقسط والعدل والاعتدال ، كما ترتبط بالقيام الذى فيه صلاح الامور الدنيوية والدينية لانه مأمن للناس جميعا من الانحراف والضياع لقوله تعالى :

« أهدنا الصراط المستقيم »

ان الاستقامة توفيق الى طريق الخير والحق والسـعادة والتى بها يستقيم حال النفس وتتصف بالامن والسكينة .

الفصل الثالث

(أ) الوسطية فى الاخـــلاق الاســـــلامية

(ب) بين الاعتــــدال والاسراف

(أ) الوسلية فى الاخـــلاق الاســـلامية

تنبع الاخلاق الاســـلامية من خلق القرآن ، ويقتدى المسلم بخلق الرسول ﷺ لقوله عز من قائل :

« وأنك لعلى خلق عظيم »

(القلم : ٤)

لان خلقه ﷺ كان القرآن ، ولذلك تختلف الاخـــلاق الاســـلامية عن أخلاقيات الامم الاخرى وان اشتركت فى بعضها ، لقول عز من قائل عن الامم السالفة :

« أن هذا الا خلق الاولين »

(الشعراء : ١٣٧)

واذا أردنا استعراض الاخلاق الحسنة التى تناولتها بعض الاحاديث النبوية الشريفة ، نجدها فى التسامح ، عدم الاعتداء باللسان أو باليد ، هجر ما نهى الله عنه ، جهاد النفس فى سبيل الله ، السخاء والجود ، الصمت ، البر ، الشجاعـــة ، التدبير ، الكف عن الاذى ، وصدق اللســـان وأعطاء السائل ، وحفظ الامانة ، وصلة الرحم ، والتذمم للجار وأكرام الضيف •

واذا حاولنا تطبيق هذه الاخلاقيات من الناحية العملية لم نستطع ذلك بسهولة وأصبح الامر صعبا الا اذا أرتبط الامر بالمعامل الايمانى ، واذا عمدنا الى تطبيق مكارم الاخلاق كما أوصى بها الرسول ﷺ • أما اذا أعتمدنا على الناحية العقلية فحسب فلن نتمكن من ذلك ولم نستطع تنفيذها وأصبح الامر شاقا وعسيرا •

فاذا طبقنا خلق التسامح مثلا من الناحية العقلية لمن أعتدى علينا فان الامر عن طريق حكم العقل يصبح جد عسير ، وكذلك الامر بالنسبة للنفس فانه شاق عسير فيما يتعلق بجهاد النفس والصمت والبر والتسامح وغير ذلك ..

ان تطبيق الاخلاق النبوية يقتضى منا علما وعملا وأخلاصا ، ولكى يسلك المسلم السلوك الذى أمر به الرسول ﷺ ، عليه أن يعتدل أمره ظاهرا وباطنا ، نفسا وفكرا ، قلبا وعقلا ، فكيف يستطيع أن يعمل بما أرشده ﷺ وظاهره غير باطنه ، وفكره غير وجدانه ، وقلبه غير عقله ...

وتجربة كظم الغيظ عند الغضب يمكن ان تكون فى صعـوبة التطبيق للاخلاق الاسلامية الا اذا تعاونت النفس والعقل والقلب جميعا فى هذا الامر ، والا لم يتمكن الانسان من كظم غيظه ابدا ..

ان كظم الغيظ يحتاج الى الايمان ، فمن لم يؤمن بالله كيف يستطيع أن يكظم غيظه ، اذ أن الكاظم يمتثل بأمر الله ، وأما الكابت فدوافعه العدوانية شىء آخر ، اذ أنه يضطر لكبت دوافعه نتيجة خوفه أو جبنه فلا يظهر غضبه ، ماذا ما تحين الفرصة انقض على غريمه بلا رحمة أو هوادة ..

أما كظم الغيظ كخلق قرآنى أنما ينبع من موقف علم وعمل وأخلاص لله تعالى ، وليس من أجـل شىء آخر ، فيقتضى الامر بأن يسلم الكاظم لغيظه أمره الى الله تعالى وحده ..

واذا كانت النفس أمارة كان من الصعب عليها أن تدرك معنى الكظم ،

كما أن القلب تحجبه غشاوة فيصبح كله ظلمة وظلاما ، وأما العقل فيكون قد غلا في حكمه وجنح الى الاسراف ... فكيف يمكن لانسان كهذا أن يتخذ من الاخلاق الاسلامية قدوة له.

أن الغلو أو النقصان في تطبيقات الاخلاق الاسلامية أنما تنبع من افتقار المسلم الى الايمان بالاضافة الى جهله بشريعة الله ومن ثم يقع في الافراط أو التفريط أو المسراف أو الشح أو التقتير ، وهذا الجنوح عن الوسط العدل والخير الفاضل ، يؤدى به بلا شك الى الوقوع في المثالب والنقائض والعيوب التى هى من علامات سوء الخلق ..

وأحيانا يريد الانسان أن يكون عفوه كعفو الله لكنه لا يقدر ، أو كريمـا جوادا سخيا لكن يديه تمسك عن ذلك ، ومعنى ذلك أن الارادة الانسانية غير كافية ليحقق الانسان السلوك الأخلاقى الذى أمر به الدين ...

أن التحلى بحسن الخلق ، مثل تعلم الجاهل للكتابة الخط الجميل ، اذ يحتاج المرء الى مكابدة ومعاناة ومجاهدة فى أول الامر حتى تتطبع نفسه بالاخلاق الحسنة كما تتطبع يد الجاهل بالخط الحسن ، ولكى يتم للجاهل تعلم الخط ، يحتاج الى التكلف وكذلك الامر فيما يتعلق بالاخلاق ...

بيد أن الخلق لا يكفى معه التطبع وحده وان كان التطبع كافيا بالنسبة لاكتساب الخط الجميل ، ذلك فان الاخلاق تحتاج الى معنيين أحدهماظاهرى والاخر باطنى ، لذلك فان الجواد أو السخى ربما يسرف مرات ومرات فى العطاء ، ومع ذلك يمكنأنيكون بخيلا شحيحا كأن يكون عطاؤه تظاهرا أو مؤقتا أو من أجل منفعة متوقعة أو مصلحة مستهدفة ، وليس أنفاقه من أجل رضـــاء الله ...

واذا أفترضنا ان العقل الانسانى كاف وحده ليوصلنا الى الوسـط العدل الذى نستهدفه والذى ينبع من الأخلاق الاسلامية ، فاننا اذا طبقنا ذلك فى أى معنى أخلاقى ، كأن يكون مثلا ككظم الغيظ كسمة من سمات حسن الخلق ، فاننا مما لا شك فيه سنصطدم عند التطبيق بمعوقات تحيل بيننـا وبين تطبيق الوسط العلال الاسلامى ، الأمر الذى سيترتب عليه الانحراف ، بل والغلو أو التقصير أو الافراط أو التفريط ، أو الزيادة أو النقصان .

آن العقل كميزان أو محك أو معيار غير قادر وحده لتطبيق القاعـدة الاسلامية المتعلقة بالوسط العدل فى المجال الاخلاقى ، والدليل على ذلك أن الفلاسفة والحكماء فى الفكر الانسانى القديم والحديث على السواء ، حاولوا تطبيق هذه القاعدة بأسلوب عقلى أساسه العدل الا أن النتائج التى توصلوا اليها فى فلسفاتهم تعكس الفشل الذريع الذى منوا به فى محاولاتهم الدائبة لتطبيق فكرة السوطية بمنهج عقلانى .

ولا يمكننا أن ننكر أن أرفدة الخير وطلب الحقيقة المجردة هى هدفهم الاساسى وغايتم المنشودة ، ومع ذلك وجود الارادة الخيرة ، قد أخطـؤا خطأ ذريعا ومنوا بخيبة أمل ، فأسرفوا كل الاسراف فى ناحية وشـحوا وبخلوا من ناحية أخرى ، الامر الذى جعل موازينهم غير دقيقة فى الفكر ، وغير عملية فى السلوك و التطبيق .

لقد أراد أفلاطون أن يطبق الوسطية فى فلسفته فى المدينة المثالية الا أنه وقع فى أخطاء شنيعة ، وتناقضات واضحة ، فأفرط كل الافراط بالنسبة لطبقة وبخل كل البخل بالنسبة لطبقة أخرى ، لقد ظلم العامة من الناس عندما وضعهم فى أسفل سافلين ، وقسى على المشوهين والعجزة والضعفاء

بل غلا فى قسوته الى حد التعقيم والقتل لذوى العاهات والامراض المستعصية ، فكان عدله ظلما ، تعقله جنوحا وانحرافا وأفا .

لقد غفل أفلاطون كما غفل غيره من الفلاسفة عن معانى الرحمة الانسانية ، فجاءت نظريته المثالية أكثر ظلما من النظريات المادية والحسية ، وذلك لانه لم يستطع أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية بقواها الظاهرية والباطنية ، فاهتم بجانب العقل وأنكر الجوانب الاخرى فى الانسان .

ان للقلب دور ، كما للعقل دور فى تطبيق الوسط العدل فى المجال الاخلاقى وفى غيره من المجالات الانسانية الاخرى . ولا يمكن تبيان ذلك الا اذا التزمنا بمعامل الايمان ودوره الطليعى عند تطبيق فكرة الوسطية .

ان الايمان بالله يقترن بالرحمة ، فالله هو الرحيم والمؤمن رحيم لاقتدائه برحمة الله ، ومن ثم فان الرحمة أساسية ومحلها القلب الانسانى، فاذا كان الانسان خلوا منها لم يستطع أن يصفح أو يتسامح أو يؤثر غيره على نفسه ، ومنثم لا يستطيع أن يكون سخيا أو جوادا أو كريما الى غير ذلك من مكارم الاخلاق ، ، ومعنى ذلك أنه لا يمكن تطبيق فكرة الوسط العدل الاسلامى الا مع وجود القلب السليم الذى لا يحمل غلا ولا حقدا ولا حسدا ، فاذا طبقنا أى معنى أخلاقى ككظم الغيظ مثلا ، فاننا نحصل على نتيجة تؤيد صدق ما نقول ، ما دام العقل راشدا والنفس مستقيمة .

أما اذا طبقنا هذه القاعدة عن طريق العقل كميزان ومحك للوصول الى العدل ، وأغفلنا العامل الايمانى كأساس فى هذا التطبيق فكأننا نطبق هذه القاعدة على جمادات أو مخلوقات مسخرة لنا فحسب . اذ أنه عن طريق

العدل يمكن أن نساوق بين حملين أو نشاكل بين شيئين أو نوازن بين أمرين ونضع ذلك فى كفة والآخر فى كفة حتى يتماثلا .

الا أن هذا الامر يختلف بالنسبة للانسان ، فهو ليس كالجمادات كما أنه ليس مسخر لنا نفعل به ما نشاء ، كما انه يتغير دائما ، يمكن أن يؤمن ويكفر ، ويفرح ويألم ، ويرضى ويسخط ، ويتوب ويعصى .

لذلك فان الموازين العقلية غير كافية — ولو أنها تحقق فكرة العدل — لتحقق الوسط العدل أو الخير الفاضل للانسان .

ولابد أن يقرن العدل بالرحمة أو بمعنى أكثر تحديدا أن يشترك العقل والقلب جميعا فى السلوك الاخلاقى الذى يجب أن يتصف بالخير الفاضل .

ان الوصول الى مكارم الاخلاق بالمعنى الاسلامى لا يمكن أن يتحقق بالعقل وحده أو بالقلب وحده ، أو بمعنى آخر ، بالعدل وحده أو بالرحمة وحدها ، اذ يقول عز من قائل :

« وكذلك جلعناكم أمة وسطا »

(البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم »

(القلم : ٢٨)

وهذا معناه أن الوسطية الاسلامية أساسها النفس المستقيمة والعقل الرشيد والقلب السليم ، فهى توازن بين الجسم والنفس والقلب والعقل جميعا ، فلا غلو فى طلب الملذات ولا جنوح للعقل ولا أفراط فى التنسك والرهبانية ، وانما الوسط العدل المقصود توازن واعتدال وقوامة وأستقامة

وقسط ، وقصد بين قوى النفس الانسانية جميعا ، وبذلك تتحقق الحكمة من الوسط العدل فى الاخلاق الاسلامية •

واذا رجعنا الى كظم الغيظ كسمة من سمات الاخلاق الحسنة فى الاسلام ، وقد ربطنا بين المعامل الايمانى والمعامل العقلى فى الانسان ، بمعنى أن التجربة التى نحن بصددها تتعلق بانسان أستمد من كلمات الله البينات ومن القدوة الحسنة الممثلة فى شخصية الرسول ﷺ ، أخلاقه وسلوكه العملى ، فانه يصبح من اليسير عليه أن يكظم غيظه فى حال الغضب نظرا لأن هذا الخلق الحسن قد أصبح طبعا راسخا فيه نظرا لانه يتمثل بشخصية الرسول ﷺ الذى كان خلقه القرآن •

لذلك فان هذا الشخص لن يفكر مطلقا فى الاقتداء بأفكار أو نظريات أو تجارب سابقة فيما يتعلى بتجربته التى يمر بها ، أنما سيقتدى حتما بشخصية الرسول دون أدنى تردد أو ريبة أو شك ، وبذلك يكظم غيظه توازن القوى الاخرى لتؤكد هذا السلوك •

لقد طبق العقل الرشيد والوسط العدل بايعاز من القلب السليم فأسكن غضبه فاعتدل أمره وجابه الموقف بايجابية دون تردد أو ريبة أو شك ، ولم يجنح العقل ولم يشطط ، وبذلك كان حكمه خيرا فاضلا بحيث يوصف بالحكمة والتعقل •

وهكذا يكون الامر فيما يتعلق بمكارم الاخلاق كلها فاذا أمتحن الانسان بموقف من المواقف ، وظهر أعتداله واتزانه وقسطه واستقامته ، فيما أمتحن فقد أتصف هذا الانسان بالحكمة :

« يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »
(البقرة : ٢٦٩)

(ب) بين الاعتدال والاسراف

ليس للانسان أفضل من عقيدة الاسلام يتمسك بها ويدافع عنها ، مهما لاقى فى سبيل ذلك من عنت وجور وظلم عظيم •

أن الافكار الخاطئة التى تلوك بها ألسنة مرضى القلوب ، أنما يقصدون بها التخليط والتخييل والقاء سحابات من الشك والريبة فى القلوب ، ويستخدم هؤلاء تعبيرات مبهمة ، وألفاظ غامضة تثير النعسرات وتضلل القارىء والسامع عن قصد السبيل يقول الرسول ﷺ :

أن أخوف ما أخافه على أمتى الرياء (١) (الشرك الخفى

هناك الشرك الاكبر وهناك الشرك الاصغر الخفى وهو الرياء وصاحبه يستظهر الايمان ويخفى الكفر ،ويعلن الاسلام ويلبس مسوح التقوى لكنه فى حقيقته خادع مخدوع ، فما يلبث أن يظهر الله كذبه ويكشف عن سريرة نفسه ، ويرجع خاسئا محصورا •

ومهما أذعن المرائى أنه يستهدف الحق ، ويدعو الى الله فانه مهما طال له الامد سيفضحه الله ويخذله وينكس رايته •

أما المؤمن فلا يرائى ولا يخادع الناس ، اذ هو رشيد العقل ، سليم القلب ، لا ينحرف عن الصراط المستقيم ، لا يسرف ولا يغلو ولا يضعف ، وأن

---

(١) روى ابن عدى فى الكامل عن عمر رضى الله عنه (اخوف ما اخافه على أمتى كل منافق عليم اللسان) •

أخطأ فبغير تعمد الا تكون هفوة غير مقصودة أو أضرارا لا حول له فيه ولا قــوة :

« ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم »

ان الاعتدال والاستقامة والقوامة والقسط والعــدل أساس للدين ، والاسراف والغلو والافراط من ناحية ، والتقتير والنقص والتفريط من ناحية أخرى ، ليس من طبع العلماء ، ولا فى خلق الفضلاء ، ولا فى سلوك المؤمنين ولا فى فكر المفكرين ، انما الذين يتمسكون بشريعة الله ، ويحتذون بالرسول ﷺ ، تمســكوا بآيات الله البينات التى حــددت لهم معالم طريق العلم والســلوك :

« وجعلناكم أمة وسطا »

« قال أوسطهم » (أفضلهم رأيا وأتمهم حكمة)

فالطريق الى الله واضح سليم ، لا عوج فيه ولا غمــوض والانسان الحكيم هو الذى يستقيم فى أمره ، ويطيــع ربه ، ويقتصــد فى سيره ، فلا ينحرف عن الغاية التى رسمها الله تعالى له ، ولا يدعى لنفسه رأيا من دون الله ،ولايزعم لنفسه حولا ولا قوة ،ولا يستخدم وسائل الترهيب ليكيد لعباد الله ، ولايركب موجة العنف والعدوان ، ولا يجبن أو يقصر أو يفرط فى أمر دينه مداهنة ورياء ونفاقا ، ليصل الى مركز الصدارة غشا وخــداعا وافتراء ...

أن مقتضى الحكمة أن يكون المفكر والعالم والاديب عدلا صادقا ، لا يداهن من أجل منفعة شخصية أو مصلحة ذاتية ، أنما الحكيم من يقول بلسانه ما يؤمن به قلبه وليس من هؤلاء الذين :

« يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

يطلق سحابات الشك والرياء فى نفوس السامعين والقارئين والمشاهدين حتى ينفع الناس ، ولا يبلل بالغث والساقط من القول اللا معقول فيضيع به القول المعقول •

أن مقتضى الحكمة أن يكون الانسان خيرا ونافعا للاخرين •

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

فالحكمة وسط عدل وخير فاضل ، وصاحب الحكمة عالم صادق وكما يقول الرسول ﷺ :

« عالم ينتفع بعلمه خير من الدنيا وما عليها من ذهب وفضة »

والعالم النافع بعلمه لا يدعى لنفسه ما ليس لها فيزعم كما زعم قارون أن ما تحصل عليه (قارون) من مال لعلم عنده ، أنما العالم على الحقيقة المتواضع لله والذى يوقن أن علمه أنما بتوفيق من الله تعالى وهدايته ورحمته :

ولقد بين الله تعالى لنا ، أن العالم الحق والحكيم العدل يشهد قولا ظاهرا وباطنا ، بضعفه وقلة جيلته ويؤمن أيمانا راسخا بحقيقة لا اله الا الله وانه عبد عاجزوان الله القوى القادر :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

ولكى يكون الانسان عدلا حكيما عالما ، فان عليه أن يتمسك بكتاب الله ويقتدى بالرسول ﷺ فى فكره وخلقه وحياته ومن تمسك بسنة الله فلن يضل أبـــدا •••

ومن يزعم أنه صاحب رأى فى أصل من أصول الدين ، فقد تحلل عن العروة الوثقى ، واتبع هواه ، وقاده جنوح عقله الى اختراع ناموس من عنده لم يأت به الله

فالمشرك والملحد والكافر لا يقول ليس هناك اله يعبده لكنه أما أن يشرك بالله الهة اخرى ، أو أنه يعبد الله بطريقته الخاصة ، وقد قاده عقله القاصر الى آراء ومفتريات وأكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان ...

ان الادعاء بأن المفكر أو الاديب يمكن أن يكون له رأيا يخالف النص الصريح والسنة الشريفة واجماع الامة ، قول مرفوض وزعم باطل اذ هى أمانى المتهوسين ، وأباطيل المغرورين وأضغاث المخمورين .

وكما انه يجب محاسبة الغلاة والمسرفين لجنوحهم عن الحق والرشاد فى أمر الدين ، فكذلك يجب محاسبة المبطلين الذين يشككون فى شخصية الرسول ﷺ باعتباره القدوة الصالحة فى كل زمان ومكـــان ، وليس المسرف بأعظم جرما من المبطل فانهما فى الباطل سواء ...

أن التشريع الاسلامى صالح للتطبيق فى كل عصر وحين ، وانه قادر أن يمتد باحكامه ونظامه ومعاملاته ليشتمل الناس جميعا ومن أدعى غير ذلك فقد خرج عن حقيقة الدين .

أن النظام الاسلامى له أصول يجب الاقرار بها والعمل بموجبها فى الفكر والسلوك والتطبيق ، ومن يدعى غير ذلك فقد أتبع هواه ، وجنح الى الاباطيل والاساطير وأضغاث الاحلام .

أنه ليس من الحرية الشخصيـــة أن يعانـــد المسلم النص الصريح ولا السنة المباركة ولا أجماع الامة ، وأن أى معاند ينادى بهذا الخـــروج السافر عن شريعة الله وهدى رسوله الامين ، يجب أن تفرغ له الامة ، وان تظهر سخفه وبعده فى الحق والرشاد .

الفصل الرابع

الاسلام والتربية

(أ) حول مفاهيم التربية الحديثة والمعاصرة

من الملاحظ أن من يكتب فى الفكر التربوى الاسلامى ، لا يهتم كثيرا بالمصطلحات التى يستخدمها فى مناقشاته وآرائه التربوية ، على أساس مثل سائد ، فحواه أنه لامشاحة فى الاصطلاح ، ومعنى ذلك أن أى مصطلح يمكن أن يؤدى المعنى يستخدم حتى لو كان له أبعادا ، أو مضامين ، لا تدخل ضمن الفكر التربوى الاســلامى ، ومثال ذلك مصطلح (الصراع أو الغريزة أو الموضوعية أو العلمانية ، وغير ذلك من المصطلحات التى يمكن أن يقصد بها معانى محددة أو أتجاها فكريا معينا •

ومن ناحية أخرى ، هناك أختلاف بين علماء التربية فى مفهوم التربية الاسلامية ، فنجد لفيفا من العلماء يركز على أن مفهوم التربية ، أنما يقتصر على التعليم فحسب ، أو بمعنى أكثر تحديدا على المنهج الدراسى بينما ينظر علماء آخرون الى مفهوم التربية الاســلامية على أنه من الموضوعات العامة التى تهم جموع المسلمين ، ومن ثم فهى تعالج موضوع التربية على أساس أنه معالجة للفكر التربوى فى الاسلام ، وعلى هذا ، فالتربية الاسلامية تهتم بالكون والانسان والحياة جميعا •

ولا شك أن النظرة الاخيرة تواكب الفطرة السليمــة ، وتتمشى مع مفاهيم المسلم وقيمه الدينية ، لان تحديد العملية التربوية فى المنهج الدراسى معناه ، أننا نجعل مجال التربية ، المواد الدينية من فقه وتفســير وعقيدة فحسب ؛ دون أشتراكها مع العلوم الاخرى المكملة لها •

ولا ريب فى أن ذلك معناه أن التربية انما هى تخصص ضيق ، مثل أى

علم من العلوم،ونحن نتصور أن العلماء الذين ينحون هذا المنحى ، وقد تأثروا كثيرا بالفكر الغربى الذى يهتم بالتخصصات الضيقة .

واذا كان ذلك مقبولا فى العلوم الطبيعية والتطبيقية والعلمية ، فان ذلك يعد مرفوضا من وجهة النظر الاسلامية .

ذلك أن هذه النظرة للتربية الاسلامية بعيدة كل البعد عن الفكر التربوى الاسلامى .

لذلك فاننا نتفق مع آراء علماء التربية الاسلاميين من المحدثيين ، والذين يقررون بأن التربية الاسلامية ، أنما هى تلك المفاهيم التى يرتبط بعضها ببعض فى أطار فكرى واحد ، مستندا الى المبادىء والقيم التى أتى بها الاسلام ، والتى ترسم عددا من الاجراءات والطرائق العلمية التى يؤدى تنفيذها الى أن يسلك سالكها بما يتفق وعقيدة الاسلام .

ونحن نذهب مع بعض الباحثين فى مجالات التربية الاسلامية ، الذين يقررون أن مصطلح التربية يشتمل على مفهومين متداخلين :

الاول : مفهوم عام يتعلق بالتربية .

الثانى : مفهوم خاص يتعلق بالتعليم .

والمفهوم الاول أنما يتعلق بالعملية التربوية ككل ، أى أنه يغطى المجتمع المسلم باعتباره ظاهرة مرتبطة بالحياة ، لا تتوقف فى زمان أو مكان معين ، اذ أن العملية التربوية تدخل فى المؤسسة التعليمية ، كما تدخل فى البيت . كما تدخل أيضا فى المجتمع المسلم على مختلف مستوياته .

أما المفهوم الخاص للعملية التربوية ، وهو الذى يقتصر على عملية التعليم ، أو على التعليم الاسلامى كفرع من فروع الفكر الاسلامى ، الذى

على أساسه توضع البرامج التعليمية ، وتختار المواد الدراسية ، وتصاغ الاهداف التربوية فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، بالاضافة الى علاقة الادارة المدرسية بالطالب ، والمنهج والبيئة ، وغير ذلك ، ولا شك أن المفهومين يتدخلان بعضهما مع بعض ، ولا يمكن التمييز بينهما بسهولة ، الا أننا نهدف من وراء تحديدهما الى تعريف مصطلحى التربية والتعليم •

ولهذا فنحن يتوجب علينا أن نرسم الاهداف والغايات للتربية الاسلامية ، باعتبارها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، ونبين القواعد الاساسية فى بناء الانسان الصالح فى الاسلام ، ونبين الى أى حد تختلف نظرة الاسلام التربوية عن الفلسفات ونظريات التربية فى الامم المختلفة ، ونصف سلوك هذا الانسان وطريقة تفكيره وخصائصه المميزة ، والتى ينفرد بها دون غيره ، باعتبار أن التربية الاسلامية ، لها هدف أساسى وهو ربط الانسان بربه،فمنهج التربية الاسلامية منهج ربانى وفطرى ومتوازن وشامل وواقعى وايجابى •

ومما لا ريب فيه أن هدف التربية الاسلامية الاساسى هو التربية الخلقية ، التى ينبثق عنها سلوك المؤمن ومنهجه وطريقة تفكيره ، فارتباط المسلم بدينه أنما يحدد مساره فى دنياه ، وما دامت تربيته الخلقية على هذا الاساس التقى النقى الورع ، فان ذلك سيكون نبراسا يضىء حياته المستقبلية اذا ما عمل فى أى فرع من فروع العلم والمعارف والصناعات •

ولا يمكن أن يقتصر الانسان على تعلم حرفة من الحرف ، دون أن يتعرف على أخلاقيات هذه الحرفة ، ومن ثم يتوجب عليه أن يتربى خلقيا ، مع تعليمه الحرفة التى سيرتزق منها •

واذا ما تأملنا فلسفات التربية الغربية الحديثة والمعاصرة لوجدنا أن التربية الاسلامية قد سبقتها بقرون عديدة ، فى المناداة بالاساليب التربوية التى تنادي بها الان •

ان أهم ما تنادى به التربية الاسلامية ، هو أقتران الدين بالدنيا فى الفكر والسلوك والاخلاق ، ذلك لان أهمال الجانب الدينى فى العملية التربوية ، أنما يعكس ظلمة القلب ، ومن ثم أتباع الهوى وغلبة الشهوات والانانية ، وهو الامر الذى يقود الانسان الى الضلال المبين ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك الا بالفهم الرشيد والاقتناع والايمان ، والبعد عن طرق التلقين المتبعة فى الجامعات والمدارس ، والبعد عن الجوانب الايجابية التى تشتت تفكير الطالب ، ثم التركيز على الجوانب الايجابية فى العقيدة الاسلامية ، والتى يمكن أن تؤثر فى السلوك ، وكعوامل مساعدة يجب أستخدام وسائل أقناعية ليتعرف الطالب على الحقائق اليقينية ، ليزداد أيمانا ويقينا بالمنهج الاسلامى ، كما أنه يجب تكوين عاطفة قوية نحو دينه القيم وشريعته السمحاء ، كى تحبب اليه موضوعات التربية الاسلامية •

فالتربية الاسلامية اذن ، هى تلك المفاهيم الاسلامية العظيمة التى تؤدى بالانسان الى عملية التخلية والتحلية — التخلية من الاوصاف المذمومة والتحلية بالاوصاف المحمودة ، فهى تثقيف للعقل ، وتقوية للجسم ، وتزكية للنفس ، وتطهير للقلب ، دون أن يكون ذلك تضحية بأى من القوى على حساب قوى أخرى ، فهى عملية توازن وتناسب وانسجام بين قوى النفس ، وبين قوى النفس وعلاقاتها بالله والكون والحياة والناس جميعا •

فالتربية بمعناها العام ، أنما تدعو الانسان الى أن يرتبط بخالقه ،

وتسلك سلوكا يتفق مع عقيدة الاسلام ، وهذا معناه أشتمال التربية على العملية التربوية والتعليمية معا ، سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى المجتمع .

وهذا جد مختلف عن نظام التربية مثلا فى المجتمع الشيوعى أو فى المجتمعات الاشتراكية ، اذ توجه وسائل التربية الى فلسفة عن الكون والحياة والانسان ، تجعله يفصل بين العقيدة والتعليم ، وكأن التربية أنما تتعلق بالنجاح الدنيوى فحسب ، ولا يختلف كثيرا الفكر الليبرالى عن الفكر الاشتراكى فى العملية التربوية ، فكلاهما ينحى هذا المنحى ، وهو فصل العملية التربوية بمعناها الواسع أو الضيق (التعليم) ، عن الله والدين ، وأقتصار نشاطها وسائل التثقيف الاجتماعى ، وعلى نظم وضعية وفلسفات مادية ، تبتعد كثيرا عن هدف التربية الاسلامية .

أن هدف التربية الاسلامية اذن ، أنما هو جعل الفكر التربوى فى خدمة الدين ، على أساس تحقيق ذلك على مستوى الفرد والعائلة والمجتمع والامة جميعا .

لذلك فنحن نطالب باعادة صياغة المناهج التعليمية ، صياغة أسلامية ، تسمح للطالب أن يطبق مفاهيمه وقيمه وفكره التربوى فى عمله وحياته ، فيصبح بذلك داعية لله ، غايته أى كان عمله ، رافع راية الاسلام ، والخوض عن دينه الحنيف ..

أن كل معرفة للطالب فى مدرسته أو فى أى مؤسسة ثقافية جامعية أو شعبية ، أن كل معرفة له بالانسان والكون والعالم والله ، واستثمارها لخير

الانسان وأمنه ، وسعادته فى الدنيا والاخرة ، هى أعظم رسالة يمكن أن يؤديها فى حياته الدنيوية •

وإذا تعرف الانسان على خالقه وفاطره ، وعمل بأوامره ونهى عما نهى عنه ، فان ذلك الانسان هو الجديد بأن يكون خليفة الله فى أرضه والذى هو أفضل الناس •

(ب) التربية النفســـية الاســـلامية

لا شك أن التربية تشتمل على التعليم •• وتكوين الملكـات الخلقية والعقلية •• والتربية الخلقية رغم أهميتها البالغة فى تكوين أخلاق الافـراد والشعوب الا أنه للاسف الشديد •• ليس لها نصيب وافر فى التعليم فى المراحل المختلفة فى عصرنا الحديث •

وأما التربية العقلية •• فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة •• بمعنى أن تربية العقل تنحصر فى الاهتمام بالحفظ •• فالامتحانات التى تعقد لطلبة الادارس الثانوية •• بل وفى الجامعة •• هى أمتحانات لاختبار ما شحن بذاكرة الطالب •• وليست دليلا على ذكائه •

ونحن نرى أن كثيرا من الشباب الذين يتخرجون فى المدارس الثانوية والجامعة يسخطون كثيرا على كم المعلومات التى يتلقونها •• بل ويشعرون أنها لم تفيدهم فى قليل أو كثير •

والواقع •• أن التربية اللفظية التى تلقن بطريق المحاكاة والاستظهار والتعالى ، لا تصلح فى الحياة الواقعية •• اذ أن العلم الذى يمس كل شىء دون أن يتعمق فى شىء •• هو علم من الواجب تجنبه • ذلك لانه فى تصورنا ليس من الم ه م شحن ذاكرة الطالب بالالفاظ والجمل العلمية والادبية فحسب •• بل أيضا ضرورة ارتباط ذلك بالتطبيق العملى والممارسة الفعلية فى الحياة والمجتمع •

كما أنه من الصعب ان نطالب المربين الذين خضعوا اثناء دراستهم فى الصغر الى نفس نظم التربية التى يعلمونها لتلاميذهم •• أن يغيروا تلك

المناهج بمناهــج جديدة •• لان معنى ذلك •• أننا نطلب منهم أن يغيروا مزاجهم العقلى •

فمثلا هم قد تعلموا طرقا تربوية تقوم أساسا على الوصول من المركب الى البسيط ، مع أن المفروض كوسيلة سليمة انتهاج طريقة عملية للوصول من البسيط الى المركب •• أو بمعنى آخر البدء من الأيسر والأسهل الــى الاشد والاعسر •

والرؤية الطيبة التى أختبرها الامام الغزالى •• ووجدها نافعة لتربية نفسه •• وتقييم معارفه •• وتثبيت طريقه فى الحياة والمجتمع •• تبدأ من المحسوســات •• وهى الايسروالاســهل لمــا لها من أرتباط بالجزئيات والمشخصــات •

ثم أنه شك فى هذه المحسوسات • وبين أنها لا تؤدى الى المعرفــة السليمة ويقول : (من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وبه ينظر الانسان الى الظل فيراه واقفا غير متحــرك ••فاذا بل يحكم بنفس الحركة •• ثم اذا به بالتجربة والمشاهدة •• بعد ساعة يكتشف أن الظل يتحرك •• وأنه لم يتحرك طفرة •• وأنما بالتدريج •• ذرة •• ذرة • أو دفعة •• دفعة، ومعنى ذلك أنه لم يتوقف قط •

وكذلك ينظر الانسان الى الكوكب فيراه صغيرا فى مقدار الدينار •• ثم أن الاثباتات العلمية والهندسية تدل على أنه أكبر من الارض فى المقدار •• وهكذا •• فان حاكم العقل يكذب حاكم الحس •• ثم يتشكك أيضاً فى حاكم العقل ، لان حاكم الحس يقول له : أن ثقتك بى كانت كاملة حتى جاء

العقل كفذبنى •• وربما هناك حاكم وراء العقل كذبه أيضا •• فلماذا تصدق العقل وتكذبنى ؟

ثم ينتهى آخر الامر الى التشكك فى حاكمى العقل والحس جميعا •• الى ان يصل الى الامن واليقين •• وليس ذلك بأدلة حسية وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال •• ولكن عن طريق الايمان ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ، وعلامته أن الدنيا هى دار الغرور •• وأن الاخرة هى دار الخلود •

وقد بدأ الامام الغزالى بتربية نفسه بالايسر •• ثم بالاشق والاعسر •• أى من البسيط الى المركب •• ومن الاسهل الى الاصعب •• وهذا هــو منهج التربية الاقوم •

وأننا لنؤمن أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى يملكهــا الانسان لتحقيق التطور الاجتماعى • وتثبيت المثل والقيم الاخلاقية ولكى يتحقق ذلك •• فلابد من تحويل ما هو ظاهر الى ما هو باطن •• أو بمعنى آخر من تحويل المظاهر الخارجية الصحيحة ، الى عقيدة أيمانية •• وذلك بتحلية النفس بالاوصاف المحمودة ، وتخليتها من الاوصاف المذمومة •• ولا شك أن ذلك يتطلب منهجا واعيا •• لغرس مبادىء الحق والعلم والفضائل فى نفسية من يتولى تربيتهم •

كما أن هذا الطريق •• يحتاج الى مثل أعلى •• أو قدوة حسنة تلتف حولها القلوب للخروج من حياة الجهل الى العلم ، ومن الغرور الى الايمان ولا شك أنه بدون التحلى بالايمان الالهى •• وما يستتبعه من قيم عليا •• يؤدى الى التخلل فى وحدة الامة فتتفكك ، وتأخذ قوتها فى الانحـــلال ، وبالتالى يؤثر فى أفراد هذه الامة •• وذلك لان المثل الاعلى الجامع لوحـــدة

الامة والذى يتجمع حوله الافراد •• ولهم فيه أمانى مشتركة قد ذهب بذهاب المثل والقيم العليا •

وفى تصورنا أن تلقين مبادىء الاخلاق •• وغرس قيم أخلاقية أنما يتطلب تجنب الشر والاقبال على الخير • ولن يمكن ذلك الا بمخالفة النفس بالرياضات •• والبعد عن الشهوات •• وذلك عن طريق التأديب والترويض •• وتحقيق الخير بالتمثيل بالقدوة الحسنة •• والممارسة الواقعية ، تدل على أن الخير أفضل من الشر •• وأن الامم أنما تتكون ثقافتها •• وحريتها •• وأرتقاءها •• اذا سادت بها الاخلاق •• وأنها ترجع الى الظلمة والجهالة عندما تترك الاخلاق [1] •

علينا أذن أن نتحرر فى مجال التربية من القوالب والصيغ •• الى الاسلوب العملى فى استخدام الارشاد والتوعية بالقيم والمبادىء ثم توفير الحرية للتفكير مع وجود رقابة •• أما التركيز على حفظ المواعظ والحكم •• ثم فرض رقابة شديدة على الشباب ، والتشكك فى قدراتهم وملكاتهم ••• ونزع الثقة منهم •• فان ذلك يؤدى حتما الى النفاق العلمى •• والخداع والرياء •• ولا شك أن ذلك مصدر من مصادر الشر والجريمة فى حياة أى أمة من الامم •

ليكن هدفنا الاساسى ، أن تصل القيم الى باطن الشباب ، وتصبح غاية عملية يطبقها فى حياته جميعا •• يتوارثها جيلا عن جيل ، فالفضائل العليا •• كحب الخير •• والايثار •• والاحسان •• والاخوة •• والمحبة••

---

(١) رسائل ابن عربى (اصطلاحات الصوفية) الامام محى الدين بن عربى

انما هى ثمار للبيئة الحسنة .. ونتاج مــكارم الاخـــلاق عند الجماعـــة والافــــراد .

ولا شك أن التربية النفسية تعمل على تكوين الرجال ، والتحلى بمكارم الاخلاق .. وليست هى أذن الحصول على أعلى الشهادات دون تطبيق العلم فى الحياة كسلوك أخلاقى يعاون علم تجنب الشر واتباع الخير .

وفى تصورنا اذن التربيـــة الخلقية السليمة ، لا تعتمد على المواعـــظ الجامدة .. والتعبيرات المطاطة .. والالفاظ المكررة .. والحكم المتواترة .. والكتب المترجمة .. وانما تعتمد أساسا على المربى الفاضـــل ، صـــاحب الخبرات الذى يوجه تلميـــذه الى الخير .. والحق بمـــا له من الحنـــكة والتجـــربة .

والتجربة التى نقصدها هنا .. تتمثل فى معرفة مصلحة الجماعـــة ومصلحة الجماعة هى القانون الثالث فى الشريعة الاسلامية . بعد القرآن والسنة .. والتى لا يمكن مخالفتها .. أو الاعتداء بجهلها والا أستتبع ذلك وقوع المخالف تحت طائلة العقاب الذى تحدده الجماعة .. فضلا عن الجزاء الاخروى .

ان وسائل التربية فى الوقت الحاضر .. تعتمد على عملية تلقين فحسب اذ ان الاستاذ يعلم التلاميذ علم الاخلاق مثلا بقوله : أن علم الاخلاق أنما يبحث فى حب الاسرة والمجتمع .. والجهاد فى سبيل الله شرف للانسان .. ثم ان الاستاذ نفسه . ربما يكون متشككا فى قيم الاخلاق التى يدرسها .. ولذلك فان دروس الاخلاق تبدو عديمة القيمـــة .. لانها غير مؤثرة تأثيرا ايجابيا .

علينا اذن لكى ندرس الاخلاق دراسة سليما •• صالحة للحياة العلمية ان نربطها بعلاقة الانسان بربه ، فليست الاخلاق مجرد برنامج دراسى على الطالب أن يحصله ويمتحن فيه فحسب معتمدا فيه التذكر وحفظ الموضوعات المقررة دون أن يكون لها أى نفع فى الحياة العملية والعامة •• وأنما التربية أساسا تقوم على الارتباط الوثيق بالواقع • فهى تهتم بالحقائق ، وليست بالالفاظ والتعبيرات والحكم •

علينا أن نغرس حب التأمل فى طالبى المعرفة ليستخلصـوا الحقائق المجردة ويمتحنونها فى حياتهم وواقعهم • بل وعقيدتهم الدينية • ولن يتم ذلك بتغيير البرامج والنظم المتشابهة •• التى نزعم أن بها نطور ثقافتنا •• أو باستخدامنا الادلة العقليـة التى ندعى أن بها نؤثر فى الاخـلاق بما نستحدثه من نظم وبرامج •

أنما الذى يؤثر فى الاخلاق حقا •• ليس الحفظ وشحن المعلومات •• وليس المنطق •• وأنما المؤثر الحقيقى هو المثل العليا والبيئة الصالحة التى يعايشها أولادنا أوخواننا •

فالاساس فى أيجاد تربية سليمة • ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدها •• أو تسهيلها •• وانما باختيار المنهج السليم الذى يجب ان يكون نقطة ينطلـق منها البناء التربوى محققا غاية يستهدفهـا • ويسعى لتحقيقها •• فى عملية تربية الافراد والجماعة •• أما تغيير البرامج والانظمة المعمول بها الى أنظمة أخرى ، فليس الا تغييرا لحذاء بدل حذاء قديم •• وأما الشخص واحد •

أو بمعنى آخر •• ليس الا أحياء لشىء عفن •• ليس هناك من سبيـــل لاحيائه••لانه لا سبيل لاحياء الموتى ••

والمنهج المقترح يستقى صادرة من القرآن الكريم •• وهو السراج الاعظم •• متوخين فى تطبيقه ما أنتهجه الرسول الكريم — ﷺ — سائرين على هدى الائمة الذين أتبعوا تعاليمه • وهم القدوة الحسنة التى تعاوننا على تربية امتنا تربية صالحة فى كل زمان ومكان •

وتعتبر تربية الانسان فى الاسلام ، غاية من الغايات العظمى تستهدف العلوم ومكارم الاخلاق •• فالرسول — ﷺ — يقول :

« أدبنى ربـــى فأحسن تأديبى » •

وقوله — ﷺ — :

« انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » •

وخروج الانسان متكاملا ، واعيا •• عارفا بربه •• سليما فى معاملته ، ينطلق من محركين أساسيين •• محرك ترغيب •• ومحـــرك ترغيب •• فالنفس تنزع بفطرتها الى الهوى •• وتميل الى الشهوة ، وتركن الى تحقيق ذلك ركونا عظيما •• بما جلبت عليه من صفات مذمومة •• يمكن أن تحدث لها العطب والفساد والانحراف •

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب •• للقضاء على هذه الافات أولا بأول حتى لا تعتاد عليها النفس •

كما تقوم التربية الاسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالافعال المحمودة •• والعلوم النافعة •• والقدوة الحسنة •• حتى يتجلى بها باطن الانسان •• فتصبح هذه الافعال هدفا •• وغاية •• وسلوكا •

ولكى يتم تطبيق ذلك عمليا •• يتوجب تحليــة النفس بالاوصــاف المحمودة •• وتخليتها عن الاوصاف المذمومة •• والمنطلق الذى تنطلق منه مناهج التربية •• يقوم على ركيزة مستقاة من القرآن الكريم •• وهى أن الإنسان فطر على نسيان الحق •• فاذا لم يذكر به بصفة مستمرة أنحــرف عن جادة الصواب •• وركن الى الخمول والبلادة ، فيتلقفه الشيطان ••• ويوسوس لله •• ويحسن له باطل عمليه •• وبذلك تميل النفس الى طبيعتها فتنجرف الى الاهواء والامانى الكاذبة ••• وتندفع الى الغفلة والضياع •

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة •• والعزيمــة باب الصحة النفسية ، لانها طريق الى الاستقامة والعدل التى بهما يتحقق الخير والعلم •• اذأن أبا البشر آدم — عليه السلام — نسى ولم يستطع الصمود أمام غواية الشيطان •• تصديقا لقوله تعالى :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى •• ولم نجد له عزما ••»

(طه : ١١٥)

فالنسيان اذن آفــة مفطور عليها الانسان •• وعليه مغالبته بالعلم والعلم بهذا المعنى رياضة نفسية •• وممارسة عملية •• وأرشاد وتوجيه مستمر لتقوية العزم •• والعزم نقيض النسيان •

ومن الناحية العملية •• يجب أن تبدأ التربية النفســية بالاقتــداء بالقدوة الحسنة ممثلة فى الانبياء والرسل والصالحين لقوله تعالى :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل »

(الاحقاف : ٣٥)

.. فالعزم يحتاج الى صبر .. وكظم للغيظ .. وتحمل للابتلاءات ...
كما أنه لتحقيق التربية السليمة .. يجب استخدام وسائل الترغيب ... والترهيب .. كما يجب التذكير حتى لا ينسط العبد .. لان النسيان غفلة . وبعد عن العلم والحق والصدق .. وذلك وارد فى قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى »

(الأعلى : ٦)

كما أن النسيان فطرة فى الانسان (١) .. فهو ينسى ما يذكر به .. فكيف لا ينسى ما لا يذكر به لقوله تعالى :

« قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها .. وكذلك اليوم تنسى »

(طه : ١٢٦)

تذكر الحق اذن يستهدف به عدم الغفلة .. والعلم بما هو مطلوب عمله مع بيان اطريق الصحيح الواضح .. الصالح — للتطبيق العملى .

وقد نبه الاسلام الى القدوة الحسنة فى شخصية الرسول — ﷺ — ومن أستن بسنته من الصحابة والتابعين .. وتابع التابعين ، فاذا تغامى الانسان .. وتغافل .. ونسى بعد ما أرشد الى الحق .. ما وجه الليه من الهدى .. ولم يؤمن به .. فان ذلك علامة الجهل الذى يؤدى الى العذاب والهوان .. بالاضافة الى العقاب على تغافله ونسيانه الحق .

ولقد أراد سيدنا موسى — عليه السلام — من الخضر .. وهو عبد من عباد الله الصالحين آتاه الله علمه خصه به .. أراد سيدنا : موسى — عليه

---

(١) تنبيه الغافلين — الامام السمرقندى ص ١٠٥ وما بعدها .

السلام — أن يتعلم هذا العلم ، ويربى نفسه على الصبر •• وكظم الغيظ •• واحتمال المكابدة والمعاناة للوصول الى العلم اللدنى •• لكنه لم يستطع من الخضر صبرا •• مصداقا لقوله تعالى ••

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » •

(الكهف : ٧٣)

ويمكن استخلاص من قصة موسى والخضر عليهما السلام ، هذا المنهج القرآنى فى التربية النفسية •• فالعلاقة بين أستاذ وتلميذ •• والاستاذ خصه الله بعلم •• والتلميذ نبى حظى بما لم يحظ به أحد فى عصره •• ومع ذلك فهو يتواضع لاستاذه العبد الصالح ، والعبد الصالح يبين صعوبة الدرس •• فيقول له : أنك لن تستطيع الصبر على ما أريد أن أعلمك عنه •• اذ أن ذلك يحتاج الى كظم للغيظ •• والتعود بعادات تحتاج الى رياضة •• وسياسة نفسية •• غير ما سبق أن علمته وخبرته •• وما أوحى اليك •

التربية الاسلامية تربية سليمة •• قوامها كسر حدة مألوف العادات • وتجاوز للرخص الشرعية •• ويرد عليه النبى الكريم لتلميذ متواضع أخطأ فى الدرس •• فيقول له :

« لا تؤاخذنى على نسيان مواعظك وأرشادتك ووصاياك •• ولا تكلفنى مشقة فى تحصيل هذا العلم •• والاخذ بما كنت أجهله بحقائق وجودية •• فلا تجعل الامر بالنسبة لى شاقا عسيرا »

اذن فالتربية تحتاج الى علم •• والعلم يحتاج الى تذكر دائم •• كما يحتاج اليه كابدة •• ومعاناة •• ومجاهدة •• حتى يصير سلوكا •• وأخلاقا وأدبا • كما فى قول عز من قائل :

« لتبتغوا فضلا من ربكم .. ولتعلموا عدد السنين والحساب » .

والعلم المقصود هنا ليس علما نظريا فحسب [٢] . ولا علما عمليا فقط أنما علم جامع للنظر والعمل . صالح للتطبيق فى الحاضر والمستقبل . الا أن أئمة الاسلام ينظرون الى الجزء الخاص بالعلم النظرى على أنه سابق للعمل بمعنى أن التربية الصحيحة تقتضى البدء بالعلم النظرى .. ثم تطبيق هذا العلم فى مختلف مجالات الحياة وليس العكس .

(الاسراء : ١٢)

وقد سمى أئمة الاسلام هذا العلم .. بعلم المعاملة .. وقسموه الى أقسام ثلاثة :

١ — اعتقاد .. أو تفكر أو نظر .

٢ — تطبيق .. أوسلوك عملى أو معاملات — أى تنفيذ وتطبيق .

٣ — ترك .. أستبعاد وهجر .

أ — الاعتقـــاد :

هو التعليم المنظم المرتب .. المبنى على الاقناع لحقيقة الدين حتى لا يخامر نفس المسلم الريبة أو الشـك فيما يلقى اليه من العلم .. فاذا ما قوى الاعتقاد .. يبدأ بالتنفيذ والتطبيق .

٢ — التطبيـق :

والتطبيق .. ما تلقنه وأرشد اليه من علم .. مثل القيام بالفرائض كالصلاة .. والطهارة .. والصوم .. والزكـاة .. والحج . ويتم ذلك

---

(٢) أحياء علوم الدين — ابو حامد الغزالى ج ١ ص ٧٨ .

بالتدرج شيئا فشيئا حتى لا تسأم النفس وتتمـرد بالعصيان وتثور على الإعتقاد إلى أن يسلس قيادة النفس •

٣ ـ الترك :

ثم يبدأ المربى بالاصعب من الأمور •• وهو ترك • أو أستبعاد ما لا يصلح تعليمه أو تلقينه •• كأن لا يعلم الاعمى ما يحرم من النظر •• كما أنه لا يعلم الابكم ما يحرم من الكلام •• كما لا يعلم البدوى •• ما يحرم من الجلوس فى الاماكن العامة •• اذ أن هذه العلوم لن يستفيد بها صحبها فى الآن أو فى المستقبل ، فضلا عن أنها ليست صالحة للتطبيق العملى بالنسبة للاعمى ••والابكم •• والبـدوى •• وأنما الذى يجب أن يلقن تجنبه والابتعاد عنه من الاعمال والافعال ما هو جائز أن يقـع فيه الطالب فى الحاضر والمستقبل حتى لا يكون سببا فى أنحرافه وضلاله •

وللتربية الاسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب •• وهى رياضة نفسية عملية •• تهتم بالنيات والخواطر •• فتدفـع بعيدا الخواطـر والوسواس •• والنيات كالرياء •• والغرور •• والحسد •• والكبروالتعجب وغير ذلك من الإفات ••

ولا تترك النفس فى فراغ •• بل تدفع اليها مكارم الاخلاق •• ممثلة فى الايثار •• والصدق ••والعدل •• والاحسان •• والتواضع •• وتنقية النفس •• بالخواطر المحمودة •• وفى ذلك يقول الرسول ـ ﷺ ـ •

« ثلاث مهلكات •• شح مطاع •• وهوى متبع •• وأعجاب المـرء بنفســـــه » •

وعلى المربي أذن •• إن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائص

بل يجاوزها فى معالجة آفاته الباطنة •• وذلك بتطبيق منهج واع •• وقواعد عملية •• تنطلق من مفهوم اسلامى مؤداه :

« من لا يعرف الشر •• يقع فيه »

وعلاج هذا الامر بمقابلة السبب بضده •• اذ أنه من الاهمية بمكان أتمام عملية التربية بمعرفة السبب والمسبب •

ولذلك يتوجب تعلم ما يتوقع الانسان وقوعه فى القريب العاجل بل وأن ذلك فرض على كل مسلم •• ومثال ذلك تعلم الطب لعلاج الاجسام •• أو تعلم الحساب من أجل المعاملات •• وبالمثل فى الصناعات والحرف •• لأنه اذا خلا المجتمع من تعلمها وقع فى الاغاليط •• وأنتكس •

ومن ناحية أخرى •• هناك من العلوم ما يجب تجنبه •• مثل تعلم السحر •• والشعوذة •• التى ليس من ورائها فائدة على الاطلا •

وليتم ذلك يقينا •• لابد من مربى ومريد •• أو معلم وتلميذ ثم أنه لابد من رابطـة قوية •• أساسـها الثقـة والادب حتى تتحقق التربية السليمة •

آداب التربيـة :

الرابطة بين المربى وطالب العلم لها آداب وشروط •• منها :

١ ـ النصيحة الخالصة التى لا ترتبط بمنفعة أو مصلحة •• فان تدخلت المنافع ، فترت التربية •• ومن ثم شابها العيب •

٢ ـ أن يتحقق فى المربى الحلم والشفقة والرحمة بمن يتولى تربيتهم •

٣ ـ أن يترفق بهم •• وأن يلاينهم عند عجزهم وضعفهم فى أحتمال

المجاهدة .. ويقوى عزائمهم على المجاهدة والسعى والعمل على مخالفة العادات السيئة والطبائع المرذولة .

٤ — أن يعتبر المربى من يربيه بمثابة ابنه .. فيعامله معاملة الوالد الحكيم .. الشفوق .. اللبيب .

٥ — أن يأخذ المربى من يربيهم بالاسهل .. ولا يحملهم ما لا طاقة لهم بـه .

٦ — اذا ما وجد المربى المريد قوى العزيمة .. يأمره بالاشد .. فالاشد . وذلك بترك محاكاة الطبع .. وأتباع الحق .. حتى يخرج من مألوف العادات .. وقيودات الطبع وأحكامه .

٧ — أن يعوده على العزم .. فلا يتعلق بالرخص فى المباحات وأنما يستبدل بها العزيمة .. حتى يتعود على المجاهدات .. وتجنب الخمول والكسل .

٨ — اذا وجده صادقا .. مجاهدا .. صاحب عزيمة .. فانه لايسامحه فى شىء .. بل يأخذه بالاصعب من الرياضيات التى لا تضعف عزيمته .. ولا تفسد أرادته .

٩ — الا يهون عليه أمره عندما يقع فى المخالفات .. ولا يترفق بحاله عندما يشتد صلبه .. حتى لا يقع فى الرعونات .

١٠ — أن يحسن تربيته وتأديبه .. ولا ينتظر من ذلك عضا .. وعليه الا يختار من يربيهم عن طريق التوصية أو الوساطة .. وأنما يربى المريد الذى جاء من نفسه طالبا تربية نفسه .. فهذا يصلح ويوفق فى التربية .. ونجاحه أسرع وفلاحه أتم وأثمر .

١١ — اذا وجد فيه خللا •• فعليه أن يحفظ سره •• فلا يطلع عليه أحد غيره •• لأنه أمانة عنده •

١٢ — أن يكون ملجأ المريد عند الحاجة •• ومرشده •• وموجهه عند الطلب •• وعليه أن يأخذه فى السر •

١٣ — أن يصغر له أحواله •• وأعماله •• لان التعجب يفسد المجاهدة واذا رأى من بعض المريدين انحراف •• فانه يجمعهم ويقول لهم بلغنى أن فيكم من يدعى كذا •• وكذا ويذكر المفاسد •• ويحذرهم منها ولا يفضح أحدا منهم »[1] •

وقد ركزت التربية الاسلامية على الوفاء للمربى •• فالابن يجب أن يبر بوالديه برا تاما •• وعندما يهرم الوالدان فى آخر العمر • فعلى الابن أن يتحملهما ولا ينهرهما من طلباتهما •• ولا يزجر ببخس القول •• وبجفاف المعاملة •• أنما عليه أن يقول لهما قولا كريمـا •• لينا •• فيه وفاء •• واحسان •• وتكريم لهما لانهما قد ربياه صغيرا •• وأن يتواضع لهمـا بلين الجانب والايثار •• وأن يكون شغوفا •• رحيما بهما •• لان ذلك من حقهما وفضلهما عليه •

والاحسان •• وخفض الجناح •• والتواضع •• والايثار •• والقول الحسن •• ثمرات للتربية الحسنة •• والاخلاق القويمة •

ولكن يجدر بنا أن نتساءل هنا •• أيجوز أتباع المربى المنحرف ؟ وتأتى الاجابة على هذا التساؤل فى الاية الكريمة عن لسان فرعون :

---

(١) الغنية — الامام عبد القادر الجيلانى — ج ٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ •

« قال الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين »
(الشعراء : ١٨)

ويأتى رد موسى — عليه السلام — •

« وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى أسرائيل »
(الشعراء : ٢٢)

وكان فرعون يشرك بالله •• ويؤله نفسه ، ويقتل الذكور من المواليد •• لذلك أبى موسى — عليه السلام — أن تسمى تربية فرعون له نعمة عليه •• لان سبب التربية الاضطرار •• اذأن لجوء موسى — عليه السلام — الى بيت فرعون ، راجع الى قتله الاطفال الذكور فألقته أمه فى اليم لينجو من القتل • فآل الى بيت فرعون • ولولا ذلك لتربى بين والديه •

والتربية الصحيحة •• تعلم الجاد •• والمثابرة •• والصبر •• وحفظ اللسان •• والايثار •• والاحسان •• والرحمة •• وقد قال حكيم من الحكماء أن الخصال التى يعرف بها الجاهل هى :

أولا : الغضب بدون سبب •• أى يغضب الانسان على الانسان والحيوان بل على كل شىء يرى نفسه مكره عليه •• مضطر فيه لمخالفة هواه •

ثانيا : الكلام بغير نفع •• لان العاقل لا يتكلم كلاما لا منفعة فيه •

ثالثا : أفضاء السر فى كل مكان • وأفشاء ما يجب ستره •

رابعا : الثقة بكل أنسان •• لان العاقل يقظ •• فطن •

خامسا : ان لا يعرف صديقه من عدوه •• فالعاقل يعرف صديقه ويطيعه ويعرف عدوه فيحذره •

وقد مدح رجلا أحد التابعين •• فضافه ذلك وقال له : لم تمدحنى ؟• أخبرتنى عند الغضب فوجدتنى حليما ؟ ••

قال : لا !

قال : أخبرتنى فى السفر فوجدتنى حسن الخلق ؟

قال : لا !

قال : أخبرتنى عند الامانة فوجدتنى أمينا ؟

قال : لا !

قال : لا يحل لاحد أن يمدح أحد ما لم يجربه فى هذه الاشياء الثلاثة •

والاسلام ينظر اذن الى التربية نظرة واقعية •• عميقة •• ونافذة •• ليبصر بنظام صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان •• يتعدى حدود الواقع •• بل يتجاوز حدود الدنيا •• ليوصلها بالحياة الباقية •

فالتربية الاسلامية شاملة •• جامعة •• تعالج الانسان ككل •• كوحدة مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسمية والمميزات العقلية والخلقية فى العلم والعمل جميعا •• كما تنظر الى أصحاب التشوهات والعاهات الخليقة نظرة كلها رحمة وشفقة •• يقول الله تعالى :

« ليس على الاعمى حرج •• ولا على الاعرج حرج •• ولا على المريض حرج •• ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم •• أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو

بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة »

(النور : ٦١)

تبين هذه الآية الكريمة •• العلاقات الانسانيه التى يجب أن تربط بين الانسان والانسان وهى أصل من أصول التربية النفسية فى العلاقات الفردية الاسرية •• فليس هناك حرج على الاعمى أو الاعرج أو المريض •• كما ليس على الصحيح حرج أن يأكل فى أسرته أو عند أقربائه من جهة الام أو من جهة الاب •• أو العم والعمة والخال والخالة •• وكذلك فى بيوت الاصدقاء المخلصين •• اذا لم يكن فيها حرمات •• وذلك بعد استئذان رب البيت •

والناحية الثانية فى التربية الاخلاقية •• الاستئذان عند الدخول على البيوت •• وتحية أهلها بالسلام •• لان بين الناس علاقة وثيقة ورابطة لا تنقصم تتمثل فى القرابة والدين •• وهذه التحية مباركة بها تتطيب النفوس •• وتزداد المحبة والوئام •

فان الله تعالى يرى أن الانسان الذى يربى تربية كريمة •• يخرج نسلا كريما •• لقوله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباتا بأذن ربه •• والذى خبث لا يخرج الا نكدا »

(الاعراف : ٥٨)

يتبين للمتأمل فى آيات الله البينات ، أنفراد المنهج الربانى بمفاهيم تربوية لا نجد لها مثيلا فى المناهج النظم والفلسفيات التربوية البشرية ، وهذه المفاهيم الربانية تستهدف خير الانسان لا فى الدنيا فحسب أنما الدنيا والاخرة جميعا •• ويؤسس المنهج الربانى على قيم كبرى تتضافر للوصول بالانسان الى اصلاح والاصلاح وشجب كل صور الفساد والافساد فى النفس والسلوك والمجتمع ••

ويبدأ المنهج الربانى فى تبيان أهدافه وغايته حتى يتبعه المسلم وهو مؤمن بمقاصده العظيمة عارف بفوائده الجليلة مصدقا لما أنزله الله تعالى الى رسوله محمد ﷺ •

ويركز منهج التربية الاسلامى على قيم العدل ، والاحسان والاخاء والمساواة ، والعفو والرحمة والمعروف والاستقامة والصبر وكظم الغيظ الى غير ذلك من أفعال الخير وصالحات الاعمال ••

وتبدأ مسئولية الام فى واجباتها التربوية من مرحلة الرضاعة بل قبل ذلك مع بداية شهور الحمل للجنين ، وفى هذه المرحلة تضحى الام براحتها ، وتتحمل فى جلد وصبر هذا الحمل الذي يزيد وزنه يوما بعد يوم ويتحرك فى أحشائها مسببا لها الوهن والضعف والالم لذلك يذكر تعالى الانسان برسالة الام ويوصيه خيرا بها فى آيات بليغة معجزة :

« حملته كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا »

(الاحقاف : ١٥)

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن »

(لقمان : ١٤)

وعندما تضع الام وليدها تبدأ مسئولية الابوين فى الرعاية والانفاق والتربية حتى يبلغ رشده وفى هذه الرحلة الطويلة يكتسب الطفل عاداته وأخلاقياته وقيمه ومفاهيمه وعقيدته وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

(كل مولود يولد على الفطرة ... فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ....)

ومن هنا كانت مهمة الابوين فى التربية جد خطيرة ، فالطفل يحاكى أبويه فى سلوكهما ومعتقداتهما وأخلاقهما لحسن الظن بهما ولعلمه أن ما يفعلانه أو يقولانه هو ما فيه الخير له .. فيقلدهما ويسعى للتوحد بهما وتقمص شخصياتهما ..

واذا كان الابوان متفاهمين مؤمنين ربطت اودة والرحمة بينهما وقويت عرى الزوجية ونشأ الطفل فى جو أمن مستقر وتربى على الايثار والمحبة والاخلاص .. أما اذا كاناه ختلفان متشاحنان ابدا .. نشأ الطفل متذبذب الفكر فاقد الطريق مهلهل الشخصية عنيفا أو عدوانيا سقيما أو تعيسا الا ما رحم ربى وتولاه من يحسن تربيته غيرهما ويقيم عوده على منهج التربية الاسلامية .. ولقد تولى تعالى موسى عليه السلام برحمته بعد أن تربى فى بيت فرعون الكافر واوحى اليه باجتنباه وعلمه بما لم يحظ به فى طفولته وما لم يرشد اليه فى صباه :

« قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين »

(الشعراء : ١٨)

أبى موسى عليه السلام أن تكون تربيته فى بيت فرعون نعمة ، ذلك أن فرعون كان جبارا ظالما يفرض على بنى اسرائيل أن يعبدوه من دون الله

وأنه كان سفاحا يقتل أبنائهم حتى أن أم موسى ألقته فى اليم لينجو من القتل فآل الى بيته ولولا ذلك لرباه والداه ••

« وتلك نعمة تمنها على أن عدت بنى اسرائيل »

(الشعراء : ٢٢)

ان التربية الحقة أنما تكون فى تلقين الطفل أعمال الخير وأرشاده الى الصراط المستقيم ، وتعلمه الاخلاق الطيبة وذلك كله لا يمكن أن يتحقق الا بالايمان بالله وعدم الشرك به تعالى وهذا وارد فى وصية لقمان لابنه فى قوله تعالى :

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم » • (لقمان : ١٣)

ثم يتابع لقمان عظته لابنه فيقول له:

« يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا الله لا يحب كل مختال فخور ، وأقصد فى مشيك وأغضض من صوتك أن أنكر الاصوات لصوت الحمير •• »

(لقمان : ١٧ ، ١٨ ، ١٩)

يتبين للمتأمل فى الايات القرآنية أن أساس التربية يمكن فى عدم الشرك بالله وقد ظهر لنا فى الامثلة التى سقناها عن موسى عليه السلام وعن لقمان فى وعظه لابنه • ويمكن أن يندرج تحت عدم الشرك بالله القيم والمفاهيم التربوية الاخرى وذلك من واقع الايات القرآنية ونمثل لها ببعض

الفضائل الاخلاقية وا لسلوكية كما وردت فى كلام الله كأسلوب تربوى صالح فى الحياة الدنيا والاخرة :

١ — أقامة الصلاة

٢ — الامر بالمعروف

٣ — النهى عن المنكر

٤ — الصبر فى الشدائد

٥ — التواضع وعدم التكبر والعجب والاغترار .

٦ — الأعتدال والتوسط فى المشى والكلام والطعام والنفقة .

هذا من الناحية الاجمالية . والان نتحدث عن كل أمر بشىء من التفصيل ...